

أطروحة لنيل الدكتوراه

تخصص لسانيات

شعبة اللغة العربية وآدابها

التحليل النقدي للخطاب بين النقد اللساني وبلاغة الجدل نحو مقارنة لسانية حجاجية

لجنة المناقشة

الأستاذ الدكتور رئيسا
الأستاذ الدكتور مشرفا ومقررا
الأستاذ الدكتور عضوا
الأستاذ الدكتور عضوا
الأستاذ الدكتور عضوا

الأستاذ المشرف

الدكتور مولاي إدريس ميموني

الطالب الباحث

محمد يطاوي

01/17LAS

1443/1442هـ

2022/2021م

إهداء

أهدي هذا العمل إلى أستاذي العزيز والفاضل الدكتور
مولاي إدريس ميموني؛ وإلى المغفور له بإذن الله، الروح
النقية، أبي يطاوي بوزكري رحمه الله تعالى؛ وإلى أمي الغالية
ملاك مليكة حفظها الله؛ وإلى زوجتي العزيزة إلهام فارس
وولديّ الحبيبين زكرياء وهيام حاهم الله تعالى؛ وإلى عمي
الفاضل المصطفى يطاوي شكر الله له دعمه ومساندته لي.

كلمة شكر

بأصدق عبارات التقدير والاحترام والامتنان أوجه كلمة شكر للرجل الذي زرع فيّ محبة المعرفة، وعلمني أصول البحث العلمي، وأسس بنياني على العطاء والاجتهاد، إلى أستاذي الفاضل والعزيز الدكتور مولاي إدريس ميموني. أشكره على ما بذله من جهد في تدريبي وتأطيري العلمي والبيداغوجي والأخلاقي في سلك الإجازة وسلك الماستر، والآن في سلك الدكتوراه. كما أشكره على توجيهاته السديدة وتقويماته الصائبة لهذه الأطروحة، ووقته الذي ما بخل علي به، وصبره على عيوي وأخطائي، وأحكامه الموضوعية. كما لا أنسى أن أحبيه على تقبله للرأي الآخر، وعدم إكراهه لي على أي شيء أو توجه؛ فكان مقوما لي إذا أخطأت، وداعما لي إذا أصبت، ومحفزا لي إذا تراخيت، حتى أوصلني وهذا البحث، بعد فضل الله، إلى هذه اللحظة. وأحيي أيضا أستاذتي بمختبر اللغة العربية وتحليل الخطاب على ما بذلوه من تأطير علمي وتوجيه منهجي منذ ولوجي لتكوين دكتوراه اللغة العربية وعلومها. وأخص أستاذي الدكتور محمد حفيظ بصادق الامتنان والشكر على القاعدة العلمية والمنهجية الأولى التي أسس لي بإشرافه على بحثي للإجازة. كما لا أنسى أن أعبر عن شكري لكل الأساتذة الذين درسوني في شعبة اللغة العربية وماستر الدرس اللغوي والخطاب الشرعي، وأعترف لهم -بعد الله- بالفضل الكبير، والعمل الصادق والضمير الحي والقلوب الطيبة. كما أعبر عن امتناني لكل مكونات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، إدارة، وأساتذة، وموظفين، وتقنيين، وأعاوننا، لقاء سهرهم على ضمان الظروف الملائمة للتحصيل الدراسي والبحث العلمي.

مقدمة:

تتتمي هذه الأطروحة إلى مجال عام هو علم اللسانيات، وتتدرج تحديدا ضمن فرع خاص هو لسانيات الخطاب. كما تعتمد إطارا نظريا هو الأحدث في هذا الفرع، وهو مقارنة التحليل النقدي للخطاب بوصفها نموذجا جديدا ظهر منذ سنة 1989 في التحليل اللساني للنصوص والخطابات. فإذا كانت مقاربات تحليل الخطاب الأخرى تُعنى بدراسة اللغة في الاستعمال (كالتداولية والتلفظ والمدرسة الفرنسية مثلا)، فإن التحليل النقدي للخطاب ينحو هذا المنحى أيضا، إلا أنه يتجاوز التركيز على كشف الوظائف السلطوية والأيدولوجية للاستخدامات اللغوية في السياقات الاجتماعية.

إن الهدف العام لمقاربة التحليل النقدي للخطاب هو الكشف عن تمثيل الخيارات اللغوية، الصوتية، والصرفية، والمعجمية، والنحوية، والدلالية، والتداولية، لمظاهر السلطة وتشفير الأيدولوجيا في ثنايا الخطاب. ولعل هذا الهدف هو المقصود بمصطلح "النقدي"؛ فالنقد المعتمد في هذه المقاربة لا صلة له بالنقد الأدبي أو الثقافي أو الجمالي، وإنما هو نقد لساني للغة الخطاب بتسليط الضوء على وظائفها السلطوية والأيدولوجية التي تُمارس بالاستخدامات المنتقاة والمصممة على نحو غير بريء ومشبوه.

ليس المقصود بالسلطة في هذه المقاربة معناها السياسي أو المؤسساتي أو الإداري أو العسكري، وإنما هي سلطة اللغة تحديدا؛ أي ما يمكن أن يُمارس على المتلقي الفرد أو الجمهور من مظاهر التحكم، والهيمنة، والإقصاء، من خلال ما تتيحه المستويات اللسانية من مساحات شاسعة لنظم الكلام. والحق أن اللغة وفق تصور التحليل النقدي للخطاب وسيط لتكريس هذه المظاهر السلطوية.

بالنظر إلى مناهج التحليل النقدي للخطاب الستة، يظهر أنها كلها تدرس علاقة الهياكل اللغوية للخطابات بالممارسات الاجتماعية التي تستهدفها، ساعية إلى فضح المقاصد الفعلية والنيات المبيتة لصناع الخطابات، وخصوصا ما اتصل بمظاهر التحكم، والهيمنة، والتلاعب، والعنصرية، والانحياز، والتضليل، وما شابه ذلك. إلا أن الملاحظ أن هناك جوانب لم تلقَ عناية كافية في التحليل النقدي، ومنها على وجه الخصوص: حاجية اللغة، والأساليب البلاغية، والأداء التفاعلي، والإشارات غير اللفظية وخصوصا الجسدية. كما يُلاحظ أن هذه

المناهج تميز بين النقد اللساني، ونقد ما تسميه باستراتيجيات الخطاب التي يُقصد بها الخطط التنظيمية لصناعة المعاني الأيديولوجية والسلطوية.

تجد الأطروحة في قصور العناية بهذه الجوانب المذكورة، والفصل بين النقد اللساني و"استراتيجيات الخطاب"، ضالتها البحثية؛ بحيث ترى أن الوظائف السلطوية للخطاب لا تنشأ فقط من خلال "الاستراتيجيات"، بل هي نتائج للتعاقد والتساند بين اللغوي، والبلاغي، والحجاجي، والتفاعلي. أما الخطط التنظيمية للخطاب (الاستراتيجيات)، فإنها تُبنى أيضا باللغة والحجاج والأداء التفاعلي، وليست عنصرا منفصلا أو مستقلا عنها.

لذا، فإن الأطروحة تقترح مقارنة لسانية حجاجية لتحليل الخطاب بالتوفيق بين التصور العام للتحليل النقدي للخطاب في نقده للغة، والنظرية الحجاجية العربية القديمة. ولعل السبب الموضوعي في هذا الجمع بين هذين الإطارين النظريين هو طموح تجاوز القصور المشار إليه، وضمان شمولية التحليل ليحيط بنقد المستويات اللغوية، والبلاغية، والحجاجية، والتفاعلية، وغير اللفظية؛ بحيث إن في الرؤى النظرية لعلماء البلاغة، وأصول النحو، والعلوم الشرعية، في الحجاج الجدلي ما يلائم نقد الخيارات الحجاجية والبلاغية والتفاعلية. وعلى هذا الأساس صيغ عنوان الأطروحة على هذه الشاكلة: (التحليل النقدي للخطاب بين النقد اللساني وبلاغة الجدل: نحو مقارنة لسانية حجاجية). ومعنى هذا أن هذه المقارنة المقترحة ستوفق بين نقد المستويات اللسانية والحجاجية والبلاغية، والأداء التفاعلي والعلامات غير اللفظية.

علاوة على هذا السبب الموضوعي، ثمة أسباب ذاتية أيضا؛ وأولها هو طموح متواضع من الباحث إلى تقديم إسهام جديد في مجال التحليل النقدي للخطاب خاصة، وتحليل الخطاب عامة؛ وثانيها هو محاولة متواضعة كذلك لتجديد النظر في الآراء الحجاجية العربية وتكييفها مع تطورات البحث اللساني المعاصر في تحليل الخطاب، وثالثها هو فتح أفق بحثي خاص في المساقات اللسانية التطبيقية والدراسات البيئية.

تنتقل الأطروحة في دراسة هذا الموضوع من إشكال مركزي هو: كيف تُمثل الخيارات اللسانية، والحجاجية، والتفاعلية، مظاهر السلطة على صعيد الخطاب؟ وكيف يمكن نقدها؟ إلا أنه يفرض أسئلة بحثية فرعية هي:

■ ما المقصود بالنقد في التحليل النقدي للخطاب؟

- ما الأصول اللسانية والاجتماعية للتحليل النقدي للخطاب؟
- كيف يمكن نقد المستوى النصي، والخطابي، والممارسة الاجتماعية؟
- ما مظاهر سلطة الخطاب؟
- ما طبيعة العلاقة بين الشكل الخطابي والممارسة الاجتماعية؟
- ما علاقة اللغة بالأيدولوجيا؟
- ما الأسس اللسانية والاجتماعية الملائمة للمقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة في التحليل النقدي للخطاب؟
- ما الإجراءات المنهجية المعتمدة في هذه المقاربة المقترحة؟
- أي موقع لبلاغة الجدل في المقاربة المقترحة؟
- هل في آراء العلماء العرب القدامى ما يلائم نقد الحجاج والأداء التفاعلي؟ وكيف يمكن نقلها وتقديمها وتطبيقها وفق منظور التحليل النقدي للخطاب؟

لمعالجة الإشكال المركزي والإجابة عن الأسئلة البحثية المتفرعة منه، تتوقع الأطروحة الكشف عن الدور الحاسم للدلالة الاجتماعية في انتقاء الاستخدامات اللسانية والحجاجية والتفاعلية المكرسة للسلطة. كما تفترض أن العلاقة بين الشكل الخطابي والممارسة الاجتماعية علاقة تأثير مباشرة دون وساطة من أي نوع، من الخطاب إلى المجتمع. ذلك لأن طبيعة العلاقة بينهما تختلف في منظورات مناهج التحليل النقدي للخطاب.

ونظرا لجدة مقارنة التحليل النقدي للخطاب، والتي ظهرت فقط منذ سنة 1989، بحيث لا يتجاوز عمرها ثلاثا وثلاثين سنة، فإن اعتمادها إطارا نظريا يشترط أولا التعريف بها وبأصولها. لذلك، فإن الشق النظري من هذه الأطروحة ليس مجرد تجميع أو تلخيص، وإنما هو ضرورة تفرضها جدة التخصص وندرة أبحاثه على الصعيد العربي والمغربي خاصة، وضرورة رسم حدود الموضوع، وتوطينه في مساره التاريخي وموقعه الإبيستولوجي داخل إطار علم اللسانيات.

يسعى هذا البحث إلى تحقيق مجموعة أهداف هي: بيان الدور الحاسم للغة في الممارسات السلطوية والأيدولوجية من خلال الخطاب، وإيضاح قدرة الدرس اللساني على كشف مثيلات هذه الممارسات، ثم الوقوف عند أهمية التوفيق بين النقد اللساني ونقد الحجاج والتفاعل، فبناء مقارنة لسانية حجاجية متواضعة. وتكمن أهمية هذا البحث في تحقيق هذه

الأهداف، والمقترح المقدم، وجدة الموضوع والتخصص؛ علاوة على أنه يجمع بين مرجعيتين منفصلتين زمانا ومكانا، ولكنهما متقاطعتان موضوعا وتصورا.

اقتضت طبيعة المتون التي يستهدفها التحليل النقدي للخطاب، وهي الخطابات ذات الأطماع السلطوية والصناعة اللغوية للأيديولوجيا على وجه الخصوص، الحرص الشديد في اختيار المتن المدروس في هذه الأطروحة، مراعاةً لتلائمها مع الإشكال المركزي وأهداف البحث. وعليه، فإن جل النماذج المدروسة تعرف بروزا قويا للممارسة السلطوية باللغة والحجاج والأداء التفاعلي، وتكثيفا لغويا للأيديولوجيات. كما تتصف بتنوع مجالاتها وموضوعاتها لتحقيق هدفين اثنين: ملاءمة المتن للمباحث والقضايا المزمع دراستها وليس خضوعها له، ثم بيان أن المقاربة المقترحة يمكن أن تطبق في أكثر من مجال وموضوع. ومنه، فإن النماذج المدروسة تنتمي إلى المجالات الآتية:

- خطاب المنظمات الاقتصادية الدولية
- الخطاب الإعلامي
- خطاب الإعلانات التجارية
- خطاب المنظمات الحقوقية
- خطاب الإعلام الرياضي
- الخطاب السياسي
- خطابات الاحتجاجات الشعبية

تعتمد الأطروحة منهجا ملائما للمسار التحليلي في التحليل النقدي للخطاب، وهو المنهج الوصفي التحليلي الساعي إلى النقد، تماشيا مع منطلق اشتغال هذه المقاربة المعاصرة؛ أي الانطلاق من تفكيك الخيارات اللغوية، والنظر في علاقاتها الخطابية والتفاعلية والاجتماعية. ذلك لأن النقد اللساني في هذا المجال يميز بين وصف الممارسة النصية، وتحليل الممارسة الخطابية، ونقد الممارسة الاجتماعية؛ وإن كانت المقاربة المقترحة ستقدم رؤية مغايرة لهذا الترتيب في الباب الثالث. بيد أن هذا المنهج يستعين في جانبه الوصفي بالإحصاء واستخراج نسب الورد بمساعدة برنامج (Excel) بغية الاستناد إليها في التحليل والنقد.

أما عن منهجية العرض، فإنها في الشق النظري استقرائية؛ بحيث إن جدة التخصص فرضت الرجوع إلى جهازه المفهومي، وتصوره المنهجي العام، ومناهجه الستة، ومرجعياته اللسانية والاجتماعية، ناهيك عن المرجعية البلاغية والحجاجية العربية للمقاربة المقترحة. وعليه، فإن التأصيل لهذين الإطارين النظريين المتكاملين ليس مجرد تجميع للمعطيات وتلخيص لها، وإنما هو بناء معرفي تخلص الأطروحة في نهايته -خصوصاً في المدخل والباب الأول- إلى استنتاج ما يصلح لتأسيس المقاربة المقترحة. أما في الشق التطبيقي -البابين الثاني والثالث- فإن منهجية العرض خاضعة للمنهج المعتمد، أي إن مسار البحث سيخضع إلى خطوات الوصف والتحليل والنقد.

وفي منهجية العرض دائماً، تتضمن الأطروحة أربعة ترتيبات مرقمة ومنفصلة على هذا النحو:

- ترتيب خاص بالأمثلة من 01 إلى 60
- ترتيب خاص بالجدول من 01 إلى 11
- ترتيب خاص بالأشكال من 01 إلى 37
- ترتيب خاص بالصور من 01 إلى 18

وقد اعترضت الباحثة في إعداد هذه الأطروحة مجموعة صعوبات، أبرزها ندرة المراجع العربية في مجال التحليل النقدي للخطاب، وتحريف بعض الترجمات لمضامين المؤلفات المرجعية الإنجليزية فيه، وسوء نقل مفاهيمه إلى العربية، ثم ارتباط مرجعيته بالنظريات الاجتماعية التي لا بد من الانفتاح عليها واستيعابها، فتعدّد مناهجه التي بلغ عددها ستة متفكّقة في البرنامج العام، ومختلفة في زوايا النظر.

ويتقاطع موضوع هذه الأطروحة وهدفه العام مع بعض الدراسات السابقة في التحليل النقدي للخطاب وتخصصات أخرى. ويمكن الإشارة إلى أكثرها قرباً من موضوع هذا البحث:

- (الخطاب والحجاج¹) لأبي بكر العزاوي، وفيه درس الحجاج في مستوى الخطاب مركزاً على قضايا الانسجام الحجاجي، والحجاجية الأيقونية، والروابط الحجاجية، والسلميات الحجاجية، والمبادئ الحجاجية، والاستراتيجيات الخطابية، في نماذج من الخطاب

1 العزاوي، أبو بكر، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2010.

القرآني والشعري والإشعاري. وعلى الرغم من أنه لم يعتمد التحليل النقدي للخطاب إطارا نظريا، فإنه درس سلطة الخطاب وقوة الكلمات أيضا، ولكن من منظور الحجاج اللغوي ونظرية البنية التصويرية لجاكندوف. وقد قدم هذا الكتاب اجتهادات خاصة في التعامل مع الخطاب وتحليله حجاجيا. وستستدعي هذه الأطروحة بعضا من آراء الأستاذ أبي بكر العزاوي لمناقشة بعض المسائل المرتبطة بالكتاب.

- مقال (التحليل النقدي للخطاب بالاعتماد على المدونات اللغوية: أخبار حرب غزة نموذجا¹) لعقيل الشمري، ومحمود المحمود؛ وفيه قدم المؤلفان تحليلا نقديا لسلطة الخطاب الإعلامي إبان حرب غزة، وكشفا عن التوظيف الموارد والمضلل للغة، ولكن باعتقاد منهج لسانيات المدونات الذي يستعين ببرنامج "غواص". مع انعدام العناية بالجوانب الحجاجية والبلاغية والتفاعلية، وعدم التوفيق بين النقد اللساني والاجتماعي.
- مقال (بيان التنحي وذاكرة الهزيمة: مدخل بلاغي لتحليل الخطاب السياسي²) لعماد عبد اللطيف؛ وقد درس فيه خطاب الرئيس المصري السادات الذي أعلن فيه استقالته من منصب رئيس الجمهورية المصرية بعد نكسة 1967، مبرزاً دور الخطاب في الممارسة السلطوية في السياق الاجتماعي. إلا أنه وفق في هذا العمل بين التحليل النقدي للخطاب وبلاغة الجمهور، ولم يُعنَ بمستويات اللغة والحجاج والأداء التفاعلي.

تلتقي في هذه الأطروحة مصادر ومراجع عربية وغربية، ومن حقول معرفية متعددة، وهي: اللسانيات البنيوية، والتحليل النقدي للخطاب، والنحو الوظيفي النسقي، واللسانيات الوظيفية، ولسانيات النص، ولسانيات المدونات، وتحليل الخطاب، واللسانيات النقدية، والبلاغة العربية، وأصول النحو، والفقهاء وأصوله، والحجاج اللغوي، والنحو العربي، والصواتة التطريزية، وعلم الاجتماع. ولعل هذا التنوع مبرر بالقضايا والمباحث التي اشتمل عليها البحث، كالتأصيل النظري والمعرفي والتاريخي للتحليل النقدي للخطاب، وعلاقته بعلم الاجتماع، واستتباط أطر تحليلية حجاجية وتفاعلية من التراث العربي القديم. وتجدر الإشارة إلى أن استدعاء مراجع من

1 عقيل الشمري، ومحمود المحمود، التحليل النقدي للخطاب بالاعتماد على المدونات اللغوية: أخبار حرب غزة نموذجا، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، 2015.

2 عماد عبد اللطيف، بيان التنحي وذاكرة الهزيمة: مدخل بلاغي لتحليل الخطاب السياسي، مجلة ألف، الجامعة الأمريكية، العدد 30، 2010.

خارج التحليل النقدي للخطاب والبلاغة العربية ستمليه مناقشة بعض المسائل النحوية أو التداولية أو المعجمية أو الصوتية التي تمثل سلطة الخطاب، وخاصة في مرحلة الوصف.

وتتوزع مواد هذه الأطروحة على النحو الآتي:

- مقدمة
- مدخل يوضح حدود البحث، ويوطن التحليل النقدي للخطاب وانتمائه إلى فرع لسانيات الخطاب، وكونه مقارنة لسانية لتحليل الخطاب أفادت من لسانيات النص، واللسانيات النقدية، والنحو الوظيفي النسقي. بالإضافة إلى التعريف بالإطار النظري الذي يقوم على قطبين: التحليل النقدي للخطاب وبلاغة الجدل عند العرب، مع حصر للجهاز المفهومي المعتمد في الأطروحة.
- باب أول يضم ثلاثة فصول تناقش على التوالي: مفهوم النقد في التحليل النقدي للخطاب وأصله الاجتماعي، والانتقال من وصف اللسان إلى نقد الكلام؛ والمداخل اللسانية المتقاطعة مع التحليل النقدي للخطاب، وهي التداولية، واللسانيات الاجتماعية، والمدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب، وتحليل المحادثة؛ بالإضافة إلى النظريات الاجتماعية المعتمدة أساساً نظرياً لمناهج التحليل النقدي للخطاب، وهي: نظرية الفعل التواصلية، ونظرية سوسولوجيا الهيمنة، ونظرية المعرفة والسلطة، ونظرية التمثيل الاجتماعي؛ ثم تأصيل للآراء البلاغية العربية في موضوع الجدل، واستتباط ما يمكن أن يكون أساساً نظرياً لنقد الاختيارات الحجاجية والتفاعلية وفق منظور التحليل النقدي للخطاب. ولعل الهدف من هذه الفصول هو الخلوص إلى أفكار نظرية لسانية وبلاغية واجتماعية يمكن اعتمادها في بناء المقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة في هذه الأطروحة.
- باب ثانٍ من ثلاثة فصول، يوضح أولها علاقة الشكل الخطابي بالممارسات الاجتماعية في مناهج التحليل النقدي للخطاب، مع إعادة قراءتها ونقدها بغية تقديم وجهة نظر مغايرة في ما يتعلق بعلاقة الشكل بالممارسة الاجتماعية. أما الفصلان الثاني والثالث، فيقدمان نماذج تطبيقية توضح التمثيل اللساني للسلطة والأيدولوجيا وتأثيره في الممارسات الاجتماعية، وتبين كيفية نقدها.

- باب ثالث يستخلص من المناقشات النظرية ونتائج النماذج التطبيقية في البابين الأول والثاني، أهم ركائز المقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة، وأسسها المعرفية (اللسانية والبلاغية والاجتماعية) ومفاهيمها ومبادئها العامة في الفصل الأول، مع تطبيقها وفق التصور المنهجي المقترح على الخطاب الثاني للرئيس الفرنسي الحالي (إيمانويل ماكرون) إبان أزمة السترات الصفراء بتاريخ 2018/12/10، في الفصلين الثاني والثالث.
- خاتمة تتضمن أبرز نتائج التأصيل النظري والتنزيل العملي للمقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة في التحليل النقدي للخطاب، مع تقويمها، وتقديم بعض المقترحات والتوصيات.
- ملحق للمتن المدروس في الباب الثالث، وقائمة للمصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

مدخل

1. تمهيد

2. حدود البحث

3. الإطار النظري

1. تمهيد:

يجمع هذا البحث بين مرجعيتين علميتين اثنتين، الأولى معاصرة تتمثل في مقارنة التحليل النقدي للخطاب، والثانية تراثية تتجلى في بلاغة الجدل كما تأصلت في البلاغة العربية والعلوم الشرعية. ولعل الهدف من هذا التوفيق بين المرجعيتين المعلنتين، هو استخلاص مقارنة لسانية حاجية نقدية لتحليل الخطاب، لا تغفل عمليات إنتاج الخطابات وتفسيرها، أو نقد استجابات المتلقي وردوده. إذ إن الاطلاع على مقارنة التحليل النقدي للخطاب من خلال أعمال المشتغلين في فلكها منذ سنة 1989، أظهر وجود فراغ متصل بالبعد البلاغي، وخصوصا الحجاجي الجدلي المتعلق بالآثار والاستجابات التي تفرزها الخطابات على صعيد الممارسة الاجتماعية، ومساقات التدافع بين صنّاع الخطاب وملتقيه. لذا، فإن هذا الجمع يتأسس على رؤية تتوق إلى تجسير هذه الهوية باجتلاب المفاهيم الحجاجية المتعلقة بالعلاقات الجدلية بين الأطراف المتخاطبين كتابة أو حوارا أو خطابة.

من هنا، يضطر البحث إلى تأطير موضوعه زمنيا ومرجعيا. إذ يروم في هذا المدخل استحضار الإجراءات والقواعد الحجاجية كما تأصلت في البحث الحجاجي الجدلي لدى العرب القدامى، ثم المفاهيم اللسانية الخطابية كما أُرسيت من لدن رواد التحليل النقدي للخطاب. والحق أن هذه المفاهيم تشكل ثوابت معرفية تاريخية، وباستطاعة أي باحث في هذا المجال أن يصل إليها في المؤلفات المرجعية لهذه المقاربة. بمعنى أنها تتدرج ضمن الإطار النظري للتحليل النقدي للخطاب، ولا بد لأي خائض فيه وأن يستحضرها ويشغل بها، بل إن كل بحث يخلو منها لا يمكن عده بحثا في التحليل النقدي للخطاب، وقد يُنقد بإقصائه لما لا يستحق الإقصاء، أو ببعد ما يقدمه عن إطاره النظري المعلن.

يقدم المدخل خطاطة ذهنية تُوطن موضوع الأطروحة ضمن المجالين المعلنين أعلاه، ويوضح حدوده المعرفية والمرجعية. وتتلخص هذه الحدود في كون التحليل النقدي للخطاب أحدث مقارنة ظهرت في مسار التحليل اللساني للخطاب. لذا، فلا بد من إبراز علاقات المقاربة مع تحليل الخطاب وتخصص لسانيات النص، ثم مرجعياتها اللسانية المحددة في النحو الوظيفي النسقي مع هاليداي، واللسانيات النقدية مع روجر فاوولر وزملائه. من جهة أخرى، يعرض المدخل كذلك نظرة شاملة حول بلاغة الجدل من خضم ثلاثة حقول معرفية عربية: البلاغة وأصول النحو والفقه وأصوله.

2. حدود البحث:

1.2. لسانيات النص:

لسانيات النص تخصص معرفي حديث ظهر في الفترة الممتدة ما بين النصف الثاني من الستينات والنصف الأول من السبعينات خلال القرن العشرين¹. وهو أحد فروع علم اللغة العام، استطاع أن يتجاوز الدراسات النحوية المقتصرة على نطاق الجملة، فركزت أبحاثه على النصوص بوصفها وحدات لغوية أعم من الجملة². وقد أفضت جهود اللغويين المتخصصين في هذا المجال إلى بناء وعي لغوي جديد بإنتاج اللغة الطبيعية ووصفها، قوامه الإدراك الجوهرى لأنساق تشكل النصوص وأبنيتها، وطرق تماسكها في إطار علاقات تركيبية، ومعجمية، وصرفية، وصوتية، ودلالية.

لم يكن هذا الفرع العلمي التخصص الوحيد الذي عُنِيَ بتحليل النص في هذه المرحلة وقبلها، بل إن علوما إنسانية عديدة اتخذت النص مادتها الأولى منذ القدم، كالبلغة، والنقد الأدبي، والفلسفة، وعلم الاجتماع، وعلوم التواصل، وعلم النفس، وعلم الأنثروبولوجيا، وغيرها. غير أن النظرية اللغوية للسانيات النص ذات طابع لغوي بنيوي صرف، فهي علم: "لا يستبيح لنفسه الرغبة في الكشف عن الفصائل والوحدات ذات العلاقة بالسياقات الاجتماعية في أبحاثه الخاصة، لأن التشخيص المناسب لهذه الوحدات الأساسية يتطلب وسائل أخرى غير تلك التي يملكها هذا الفرع اللغوي"³. كما أن مهمتها لا تتعلق بالإحاطة بالعمليات النفسية ولا العلاقات الاتصالية القائمة على العلامات غير اللغوية⁴.

إن موضوع لسانيات النص ينحصر في وصف أبنية النصوص وصياغاتها وآليات تشكلها، وهدف البحث في إطارها هو البحث في الترابط النصي وما يحقق الاتساق والانسجام⁵. تكوّن هذا التصور في البحث اللغوي -في المراحل الأولى- بعد تراكم معرفي لساني لدى عدد

1 فولفجانج هاينه منْ وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النص، ترجمة فالح بن شبيب العجمي، مطابع جامعة الملك سعود، 1999، ص: 03.

2 المرجع السابق، ص: 23.

3 المرجع السابق، ص: 10.

4 المرجع السابق، ص: 10.

5 المرجع السابق، ص: 11.

من اللغويين البارزين الذين جاءت الإرهاصات الأولى لهذا العلم على أيديهم، وأبرزهم بشكوفسكي (1927) وبوست (1949) اللذين نبها إلى أن النصوص حري بها أن توصف بالمناهج نفسها التي توصف بها الجمل، لأن الجملة والنص يشتركان -مبدئياً- في طبيعة البناء الداخلي. فأصلّ لما كان يسمى بقواعد الجمل المتعددة، أو تحول العبارات¹.

عموماً، يمكن رصد اختلاف الاتجاهات اللسانية الممثلة للجهود الحاسمة التي أصلت للسانيات النص، وتجاوزت اعتبار الجملة الوحدة الأساسية في علم اللغة كما في اللسانيات البنوية والتوزيعية والتوليدية، مثل بلومفيلد الذي صرح بأن: "الجملة شكل لغوي مستقل لا يدخل عن طريق أي تركيب نحوي في شكل لغوي أكبر منه"²؛ وأول هذه الاتجاهات هو الاتجاه التركيبي الذي قدم أصحابه أولى المبادرات الجادة والمنهجية للانتقال من وصف الجملة إلى وصف النص، جاء ذلك على يد لسانيين توليديين خلال النصف الثاني من القرن العشرين؛ وفي مقدمتهم هايدولف (1966) الذي حاول استنباط قواعد العلاقات السياقية الداخلية بين الجمل³، متجاوزاً إغفال تشومسكي للمكون الدلالي في نموذج (1957)، ثم إيزنبورج (1968) الذي طور قواعد إعادة الكتابة وشجرة تشومسكي لوصف النصوص بإضافة عجرة أعلى (ن) من مستوى العجر الجملي مشيراً بها إلى النصوص؛ فبات التوزيع التركيبي وفق المنظور التوليدي ينطلق من النص إلى الجملة ثم أنواع المركبات⁴.

الاتجاه الثاني هو المنظور الوظيفي، ويستند بالأساس إلى أعمال مدرسة براغ في النحو الوظيفي للجملة، والتي أصلت لقواعد وظيفية محددة في الوصف والتوزيع والتصنيف، وخاصة ثنائية الموضوع والمحمول؛ فإذا كان الموضوع يعني ما يتم الإخبار عنه في جملة ما، فإن المحمول هو كل ما يخبر به عن الموضوع. وقد استطاع دانيش (1976) نقل البناء النحوي الوظيفي للجمل إلى النصوص، فاستنتج أن النص بنية عامة تضم عدداً من الموضوعات المتصلة بعدد من المحمولات، واكتشف أن في كل نص يوجد موضوع/محمول مركزي تؤول إليه كل الموضوعات والمحمولات. ومن هذا خرج بفرضية تعاقب الموضوعات التي تعني أن

1 فولفجانج هاينه منْ ودبتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النص، ص: 23.

2 Bloomfield, Language, 2 Edition, George Allen and Unwin LTD, London, 1955, p170.

3 إزنبورج، 1968، ص: 01: (نقلاً عن فولفغانغ وفيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص: 25).

4 المرجع السابق، ص: 25.

النص سلسلة من الموضوعات المتصلة في ما بينها وفق علاقات أفقية وتبادلية وهرمية¹. وعلى الرغم من الوعي النصي الجديد والموسع في النموذج الوظيفي الذي أثبتته دانيش، فإن هذا المنظور يبقى تركيبيا محضا، بدليل أنه يؤسس التحليل على تصنيف الجمل داخل النص ووصف توزيعها وعلاقاتها الدلالية.

ثالث هذه الاتجاهات هو الاتجاه الدلالي، ويرى رواد هذا الاتجاه أن الوصف الجاد للنصوص هو المؤسس على بناء القاعدة الدلالية، أي إن وحدة النص تبرز من خلال العناية القصوى بالبحث عن الوحدة الدلالية، أما وسائل الربط التركيبية فتمكن فقط من القبض على أجزاء من المحتوى الدلالي²؛ ومن أبرز المواقف المزكية لهذا الطرح ما جاء عند هاليداي ورقية حسن (1976)، إذ يقولان: "أليق ما ينظر إلى النص هو النظر إليه بوصفه وحدة دلالية، وحدة ليست في المبنى وإنما في المعنى"³. وقد امتد هذا الفهم لدى لغويين آخرين أسسوا نماذج دلالية وصفية للنصوص بناء على ترجيح كفة المحتوى الدلالي على حساب وسائل الربط التركيبي، وهي ثلاثة نماذج: النص بوصفه بنية عميقة عامة (فان دايك 1972/ بيتوفي 1971/ ريزر 1973)، والنص بوصفه مركبا قضويا (فان دايك 1980/ ماير 1975)، وهرميات موضوع/محتوى النص (برينكر 1973)، والترابط المعجمي للنص (ويشكل هذا النموذج اتجاها قائم الذات في لسانيات النص).

يرتبط الاتجاه الرابع بالبحث المعجمي -وهو أحد نماذج الاتجاه الوصفي الدلالي أعلاه- الذي يصف النصوص ويفسر شبكة علاقاتها الداخلية بناء على تحليل الترابط النصي بالاشتراك في السمات المعجمية. ويبقى أبرز اللغويين المشتغلين على إثبات الترابط النصي من جهة الاشتراك اللفظي/المعجمي هو الفرنسي غريماس (1966)؛ إذ تعامل مع النص بوصفه نسقا من علاقات التوافق بين السمات المكونة لوحداته المعجمية. في هذا الصدد، اقترح غريماس مصطلح (النظائر)، ومعناه أن تكرار المحتوى الدلالي للوحدة المعجمية قد يكون بالتطابق، وقد يكون بالترادف، أو التضاد، أو الاستبدال، أو التعميم؛ وفي جميع هذه الحالات، تصنف

1 دانيش، 1976، ص: 34 (نقلا عن فولفجانج وفيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي ص: 32)، وأنظر أيضا: فولفجانج وفيهفيجر، ص.ص: 32-33.

2 فولفجانج وفيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص: 37.

3 Halliday M. K. A. and Hasan R. Cohesion in English, London, 1976, p: 01.

الوحدات المعجمية إلى نظائر وبؤرة، فالبؤرة هي مجموع السمات المعجمية الحاضرة في جميع الوحدات، والنظائر هي حالات ورودها المتنوعة¹.

المشترك الغالب بين هذه الاتجاهات ونماذجها المتنوعة، وخصوصا تلك التي ظهرت قبل نهاية النصف الأول من العقد الثامن من القرن العشرين، هو أنها بنيوية وصفية تركز على البنى الداخلية للنصوص بالمنطق نفسه الذي وصفت به الجمل في الأنحاء البنيوية والتوليدية؛ بمعنى أن وصف النص اعتمد بالأساس على إجراءات التصنيف والتوزيع، والتحليل إلى المكونات الأساسية. غير أن منحى الوصف النصي الذي اتخذته لسانيات النص بدءا من النصف الثاني من العقد نفسه، طفق يفتح على السياقات الخارجية للنصوص، فأغلب النماذج أخذت: "تركز على التعريف بتوظيف النصوص في سياقات الحياة العملية. أيضا في بعض ما نوقش من نماذج النص توجد صياغات تعود إلى عوامل غير لغوية"². فما هي أبرز الاتجاهات التي تجاوزت الدراسة الوصفية الداخلية للنصوص؟

أول اتجاه لساني يتجاوز وصف البنية النصية بالأدوات الإجرائية التي كانت متاحة في لسانيات الجملة، هو الاتجاه التواصلي التداولي. ويمثله فرعان: النماذج السياقية، والنماذج التواصلية بالمعنى الضيق³. تتعامل النماذج السياقية مع الشروط المقامية التداولية بوصفها إحدى أدوات الوصف النصي إلى جانب الإجراءات اللغوية المعجمية والتركيبية والدلالية؛ إذ تربط بين عناصر البنية النصية وعناصر السياق التواصلي للوصول إلى تحليل متكامل يعلل تغيير بنية النص، بالتغيرات الطارئة على مستوى سياق التواصل. ويتلخص المبدأ الذي يقوم عليه الاشتغال في إطار النماذج السياقية في استحالة: "استنباط (المعنى الاتصالي) للنصوص من أبنية النصوص بمفردها"⁴. وترتكز -إلى جانب مداخل تحصيل المعنى النصي- على جوانب أخرى من قبيل: الاقتضاء بوصفه شرطا تواصليا لإنتاج النصوص، وسلاسل النص المتصلة في ما بينها وفق علاقة البؤرة والفروع، ثم عنصر الزمان والمكان المؤثرين في معنى النص وتباينه من موقف إلى آخر، فالظواهر غير اللغوية المرافقة للنص كالأداء الحركي والصوتي والشكل الطباعي.

1 Greimas A. J. *Sémantique Structurale; Recherche de Méthode*, Larousse, Paris, 1966.

2 فولفجانج وفيهيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص: 55.

3 المرجع السابق، ص: 55.

4 المرجع السابق، ص: 57.

أما النماذج النصية التواصلية -بالمعنى الضيق- فتتعامل مع النص باعتباره أداة وظيفية لتحليل سياقات اجتماعية موسعة وشاملة، وتتجاوز تحليل السياق لمجرد غاية الوصف النصي؛ بل تعتبر النص الآلية الأليق لتحقيق الأهداف التواصلية في المقامات الاجتماعية. وانطلاقاً من هذه الرؤية المستحدثة في علم اللغة النصي: "لم تعد اللغة بوصفها نسفاً مستقلاً (مع كل أنساقها الجزئية وسياقات استخدامها) تشكل بعد الآن .. الأساس في تحليلات النص، بل أصبح الأساسُ توظيفَ اللغة في قضايا الاتصال في مجتمع معين. فالنصوص لم تعد تُعرف على أنها مركبات رموز لغوية معزولة، بل على أنها نصوص في وظيفة"¹. لقد انتقلت لسانيات النص مع نماذج التواصل بالمعنى الضيق من التركيز على التحليل التركيبي والدلالي والمعجمي للنصوص، إلى التركيز على سياقاتها الاجتماعية الفعلية؛ فباتت الدراسات اللسانية تنظر إلى النص بوصفه حدثاً واقعياً، وممارسة اجتماعية.

من بين هذه النماذج، يمكن استحضار نموذجين اثنين: توظيف نظرية أفعال الكلام في وصف النصوص، ثم وصف النص بعدّه ممارسة. بالنسبة إلى النموذج الأول، فقد أُصل على يد موتش وفيهيجر (1981)²، إذ تعاملنا مع النص بوصفه أفعالاً وإنجازات لغوية متعاقبة وملتصقة، يشكل كل منها هدفاً جزئياً منخرطاً في تحقيق الفعل (الإنجاز) اللغوي الكلي. كما اعتبرا الفعل العام (الكلي) مسيطراً، والأفعال الجزئية مساعدة على إتمام العملية التواصلية عبر النص في مقام اجتماعي معين. إن الفعل اللغوي المسيطر على النص يفيد المقصود المحدد من تتابع سلسلة الأفعال اللغوية المساعدة، ويسميه موتش وفيهيجر بالإنجاز النظري (الغرض) المسيطر الذي تتأزر الإنجازات الجزئية (المساعدة) على بنائه داخل وحدة النص³؛ فالإنجاز النظري القاصد إلى الترهيب مثلاً، يصدر عن تضايف وظائف المساعدة التي تؤديها الأفعال اللغوية الفرعية، كالإخبار والوصف والتهويل والوعيد.

بالنسبة إلى النموذج الثاني (النص بوصفه ممارسة)، فقد أفاد من علم النفس اللغوي لدى الروس، إذ إن تصور العملية التواصلية على أنها ممارسة كسائر الممارسات البشرية ينبع من

1 جوليش/رايبيله 1977: (نقلا عن فولفجانج فيهيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص.ص: 60-61).

2 موتش وفيهيجر، 1981، ص: 137 (نقلا عن فولفجانج وفيهيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص: 65).

3 فولفجانج وفيهيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص: 65.

فرضية الممارسة والهدف مع ليونتيف(1975)¹. ويبقى أبرز اللغويين النصيين الذين انشغلوا بتطبيق مفهوم الممارسة القادم من علم النفس اللغوي هو الألماني هارتونغ الذي يرى أن كل ما ينبجُ عنه حدث تواصل، يمكن أن يُطلق عليه مسمى "ممارسة" في الموقف أو في الحال². ويذهب إلى أن العوامل المقامية هي التي تحدد محتوى العملية التواصلية عبر النصوص، وأهداف المشاركين، وأنماط التواصل اللغوي³. غير أنه قسم الحال إلى ثلاثة أنواع: حال الممارسة(السياق الفعلي للعملية)، والحال الاجتماعية(السمات الاجتماعية للحدث والأطراف)، وحال المحيط(كل ما يدرك بالذهن)⁴.

وعموماً، يبقى المؤدى العام لهذا النموذج في إطار الوصف اللغوي النصي، هو أنه - ولأول مرة- سُنظر إلى النص على أنه ممارسة اجتماعية عن طريق النشاط اللغوي التواصل، وليس مجرد شبكة من العلاقات النحوية الداخلية. كما أنه ربط الممارسة النصية بالسياق الاجتماعي وتأثيره في المشاركين وفي النص كذلك، مما يجعله النموذج الأكثر تقاطعاً مع نظرية التحليل النقدي للخطاب التي جاءت بعده بقرابة عقد من الزمن.

الاتجاه الثاني من اتجاهات الوصف النصي المتجاوز للبنى الداخلية للنصوص، هو الاتجاه الإدراكي الذي يتعامل مع إنتاج النص وفهمه على أساس أنهما محصلة للعمليات الذهنية. والحق أن فهما كهذا ينحدر من فرضيات علم النفس الإدراكي والذكاء الاصطناعي المنشغلين بتفسير المعالجة الذهنية للمعلومات والممارسات والأحداث⁵. ويقود هذا الاتجاه اللغويان دي بوغرون ودريسلر اللذان أثبتا -من منطلق نفساني- أن النص نتاج للعمليات

1 يرى ليونتيف(1975) أن المحرك الأساس لأي نوع من الممارسات هو الهدف الذي تفرضه حوافز ومثيرات تفرض أنشطة مركبة ومعقدة تقع بالتوالي أو التزامن. فتكون الممارسة هي مجموع الأنشطة البشرية الواقعة بين حدث الإثارة ولحظة تحقيق الهدف. وقد استعار بعض علماء اللغة مثل هارتونغ هذا التصور القائم على العلاقة الجدلية بين الفاعلية والمفعولية، لتطابقه مع علاقة التأثير والتأثر بين أطراف العملية التواصلية عبر وسيط اللغة. (لمزيد من التفصيل، أنظر:

A.N. Leontiev. "ACTIVITY, CONSCIOUSNESS, PERSONALITY, Translated by Maris J. Hall, First Published by Prentice-hall, 1978, pp 82-84.

2 هارتونغ، 1976، ص242: (نقلا عن فولفجانج وفيهفيجر، ص: 75).

3 المرجع السابق، ص: 75.

4 المرجع السابق، ص: 75.

5 محمد خطابي، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1991، ص: 311.

الإدراكية العديدة والمتواشجة، وأنه قبل أن يُبنى باللغة، فإن مؤلفه يعتمد على الاختيار والتوليف بين المعارف المتراكمة وفق التنظيم الذهني لأنساق المعرفة¹.

لقد ركز دي بوغروند ودريسلر - في وصفهما لتأليف وحدات النص واستيعابه - على العمليات الإدراكية المجردة والمسؤولة على إنتاج الوحدة اللغوية وطرحها في التواصل، وميزا فيها بين خمس مراحل: (1) التخطيط للهدف (2) ابتكار أفكار النص (3) استدعاء المعرفة القبلية وترتيب المحتوى (4) انتقاء العبارات الدالة (5) نظم الأفكار والمحتوى بالقواعد على مستوى بنية النص². وقد خلُصا إلى أن عملية فهم النص واستيعابه تقطع المراحل نفسها، ولكن وفق مسار معكوس؛ أي تلقي نظم البنية النصية وتفكيك العبارات الدالة، واستدعاء المعرفة الخلفية الملائمة للمحتوى والأفكار، ثم الوصول إلى الغرض النصي. فيظهر أن الاتجاه الإدراكي يعول - في وصفه اللغوي للنصوص - على الإجراءات الإدراكية والعمليات النفسية في البنى الذهنية العميقة، حيث تتلاقى المعرفة الجديدة التي تحملها النصوص مع المعارف المخزنة، فتنتج معارف أخرى بالتراكب والتوليف.

في هذا الصدد، سبق للدكتور محمد خطابي أن ناقش وجهة نظر دي بوغروند بخصوص كيفية معرفة البشر لما يوجد في نص ما في علاقته بما يقع في محيطهم، موضحاً أن المعرفة مخزنة في الذهن بطريقة منظمة. وقد طرح سؤالاً بخصوص طريقة تنظيمها قائلاً: "الإنسان يملك معرفة موسوعية قابلة للتزايد والنمو تبعاً لتجاربه في الزمان والمكان. لكن السؤال الذي ينبغي أن يطرح هو: إذا كان الإنسان يملك هذا القدر الهائل من المعارف، وحين يواجه خطاباً ما لا يسحب من ذاكرته إلا المعلومات التي توافق الخطاب المواجه، فمعنى هذا أن هذه المعرفة مخزنة بطريقة منظمة ومضبوطة، فكيف تُنظم هذه المعرفة؟"³. ثم أجاب عن هذا السؤال استناداً إلى التخصصين المذكورين أي علم النفس الإدراكي والذكاء الاصطناعي؛ بحيث أشار إلى أن طريقة التنظيم تتم من خلال آليات ذهنية هي: الإطار، والمدونة، والسيناريو، والخطاطة الذهنية.

1 De baeugrande, R, and Wolfgang Dressler, Introduction to Text Linguistics, Longman, London, 1981, p37.

2 Ibid, p45.

3 محمد خطابي، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، ص: 311.

لقد مهدت كل هذه الاتجاهات والنماذج المنتمية إلى لسانيات النص عدة نظرية وإجراءات منهجية لوصف النصوص في التحليل النقدي للخطاب، وخصوصاً نماذج فان دايك، وموتش، وهارتونغ، ودي بوغروند ودريسلر. خصوصاً أن وصف النص الذي يعتبر في لسانيات النص الهدف الأولى، لا يعد إلا مرحلة أولى من مراحل النقد اللساني للنص في التحليل النقدي للخطاب الثلاثة.

2.2. تحليل الخطاب:

يقتضي الحديث عن تحليل الخطاب -أولاً- التمييز بينه وبين مجال دراسات الخطاب، فالأول يعني التحليل اللغوي للنص المتفاعل في سياق اجتماعي محدد، في حين يشير الثاني إلى مجمل النظريات المتراكمة في دراسة الخطاب من منطلقات لغوية غير لغوية¹. فإذا كان عمل اللغويين في هذا المجال يتوقف على الجمع بين الوصف الشكلي للغة والتفسير السياقي الاجتماعي، فإن تخصصات أخرى في علوم إنسانية متعددة تدرس هي أيضاً الخطاب، ولكن من وجهات نظر غير لسانية. يمكن الإحالة هنا إلى علوم نشطت في هذا المجال منذ الستينات، من قبيل: علم إثنولوجيا التواصل، والفلسفة التحليلية، وعلم الاجتماع، وعلم الاجتماع النفسي، والأنثروبولوجيا، والبلاغة والأسلوبية، والنقد الأدبي². والحال هذه، فإن البحث يُعنى فقط بتحليل الخطاب ذي المنزع اللساني، بوصفه مرحلة تالية للسانيات النص في مسار تطور العلوم اللغوية.

يقول يول وبراون: "إن تحليل الخطاب بالضرورة تحليل للغة في الاستعمال. ولذلك، لا يمكن أن ينحصر في الوصف المجرد للأشكال اللغوية بعيداً عن الأغراض أو الوظائف التي وضعت هذه الأشكال لتحقيقها بين الناس. وإذا كان بعض اللسانيين مهتمين بتحديد الخصائص الشكلية للغة، فإن محلل الخطاب ملزم بالبحث في ما تُستعمل تلك اللغة من أجله"³. ويعقد الكاتبان في هذا المقتطف مقارنة وجيزة -ولكنها حاسمة- بين تحليل الخطاب

1 لمزيد من التفصيل في الفرق بين دراسات الخطاب وتحليل الخطاب اللساني يُنظر: شارودو باتريك ودومينيك منغونو، معجم تحليل الخطاب، ص: 44.

2 فان دايك توين، النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2000، ص: 31.

3 براون جيليان، وجورج يول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطني ومنير التركي، النشر العلمي والمطابع-الملك سعود، الرياض، 1997، ص: 01.

وما تقدمه من النظريات اللسانية؛ إذ إن المقصود بالوصف المجرد للأشكال اللغوية واهتمام اللسانيين المعنيين بتحديد الخصائص الشكلية للغة، هو كل النظريات والنماذج التي عُنيت بالجملة، ثم لسانيات النص. إن الفرق بين هذه التخصصات وتخصص تحليل الخطاب واضح وملخص في هذا المقطع، وهو أن هذه المجالات تُعنى بالدراسة الوصفية للأنساق اللغوية للصوت والكلمة والجملة والنص، في حين أن تحليل الخطاب يُعنى بدراسة اللغة في إطارها الاستعمالي؛ أي دراسة نسق اللغة وربط تفسيره بالوظائف والأغراض التي تؤديها في السياق، مستعينا بما تقدّمه من النماذج اللسانية.

لإيضاح هذا الطرح، لابد من استدعاء آراء أخرى في هذا الشأن؛ فهذا فان دايك يعرف تحليل الخطاب بأنه: "دراسة الاستعمال الحقيقي للغة من قبل متكلمين حقيقيين في وضعيات حقيقية"¹. يركز هذا التعريف على ثلاثة عناصر أساسية: الاستعمال الحقيقي للغة، والمتكلمين الحقيقيين، ثم الوضعيات الحقيقية. ويعني ذلك أن تحليل الخطاب تخصص لساني يُعنى بدراسة اللغة وهي تشتغل في السياقات الفعلية من قبل منتج حقيقي ومسؤول عن الممارسة اللغوية. وبذلك، يلتقي مع يول وبراون في كون تحليل الخطاب لا يقتصر على الوصف الداخلي لبنية اللغة أو لأشكال النصوص، وإنما يتعداه إلى الوظائف السياقية.

قد يحيل هذان النصان -عند حديثهما عن الاستعمال والسياق- إلى خلط بين تحليل الخطاب والتداولية، أو على الأقل حصره في المقاربة التداولية. إلا أن الأمر يقتضي استحضار أن اللسانيات التداولية تُركز انشغالها على الملفوظ الجُملي (وليس النصي) المنعزل والمشكل لوحدة لا تتجاوز جملةً. أما تحليل الخطاب فدراسة للوحدة التي تُحقق هذا التجاوز في سياقها واستعمالها. ويتأكد هذا الفهم باستدعاء تعريف آخر لشارودو ومنغونو، إذ يقولان: "يُطلق تحليل الخطاب بصفة عامة، كما هو الشأن في هذا المعجم، على العلاقة التي بين النص والمقام؛ فلا داعي للحديث إذن عن تحليل الخطاب في أبحاث تتعلق بالتداولية كأبحاث أوزفالد ديكرو مثلا التي تتناول ملفوظات منقطعة عن السياق"². ولعل هذا النص يشترط أمرين: تجاوز الدراسة لما يقل عن النص، وربطها بالمقام الفعلي للممارسة اللغوية.

1 Van Dijk, T. A, Discourse and communication: New approaches to the analysis of mass media discourse and communication, de Gruyter, Berlin, 1985b, p: 261.

2 شارودو ومنغونو، معجم تحليل الخطاب، ص: 44.

ينبغي ألا يُفهم السياق هنا بمعناه الضيق، بل إن تحليل الخطاب يدرس استعمال اللغة في السياق الاجتماعي المحتضن للممارسة اللغوية؛ أي علاقة التأثير والتأثر بين اللغة والشروط الاجتماعية لمستعملها. ويُمكن تركية هذا التصور بما جاء عند مايكل ستابز عن تحليل الخطاب: " يشير المصطلح إلى محاولات دراسة تنظيم اللغة في ما يتجاوز مستوى الجملة، أي على مستوى الوحدات اللغوية الأكبر، كما في المحادثات والنصوص المكتوبة. يعني هذا من بين ما يعنيه أن تحليل الخطاب يهتم بالسياق الاجتماعي الذي تُستخدم اللغة فيه وخصوصاً ما يتصل منه بالفاعل بين من يستخدمونها"¹. بهذا المعنى، ليس المقصود بالسياق هو مفهومه الضيق المرادف لدراسة الملفوظ اللغوي في الاستعمال كما في الأبحاث التداولية، بل السياق الاجتماعي حيث تتم عملية التواصل اللغوي الكتابي أو الشفهي. وعليه، فإن تحليل الخطاب يبحث في العلاقات بين التنظيم الداخلي للغة النصوص، والنطاق الاجتماعي المحتضن للمشاركين في التفاعل.

ولعل هذا التحديد هو ما يلح عليه نورمان فيركلف في تمييزه بين النص والخطاب، فبعد أن عدَّ كل استخدام للغة نصاً، خص الخطاب بتعريف آخر يمكن اعتباره نقطة الالتقاء بين كلِّ ما سبق من تحديدات لمفهوم تحليل الخطاب أعلاه؛ إذ يقول: "أما مصطلح الخطاب فيشير إلى اللغة قيد الاستعمال في الواقع بوصفها جزءاً من الحياة الاجتماعية، يرتبط بغيره من عناصرها ومكوناتها"². يتحدد بجلاء -بناء على هذه القولة- المقصود بالسياق في أدبيات تحليل الخطاب، وهو الحياة الاجتماعية المتصلة بالاستعمال اللغوي قيد التحليل. وبالربط بين هذا التعريف للخطاب، وما تقدم من تحديدات، يتأكد أن تحليل الخطاب تخصص لساني يوسع دائرة اشتغاله اللغوي لتشمل البحث اللساني الصرف في الوحدة اللغوية الأكبر من الجملة، بشرط أن يتصل وصفها بتفسيرات لأنساقها، من خلال استعمالها في المقام الاجتماعي الذي تمت فيه العملية التواصلية بين أطراف معينين.

1 Stubbs, M, Discourse Analysis, The sociolinguistic Analysis of Natural Language, University of Chicago Press, Chicago, 1983, p: 01.

2 Norman Fairclough, Analyzing discourse: Textual analysis for social research. London: Routledge, 2003, p: 03.

في إطار الاتجاه اللساني لتحليل الخطاب، استعمل هذا المصطلح أول مرة من قبل زليغ هاريس عنواناً لمقال له في مجلة (Language) سنة 1952¹؛ وفيه حاول توسيع الطرق التقليدية لتوزيع المكونات المباشرة للجملة، مطبقاً إياها على النص بوصفه وحدة لغوية أعلى². غير أن هذا المنطق الذي دعا إليه يبقى خاصاً بتخصص لسانيات النص وليس تحليل الخطاب كما سيتضح في المحور القادم. وابتداءً من منتصف الستينات، ستتعدد الفروع اللسانية المنشغلة بهذا التخصص³. وقد أثمر هذا التعدد ثراءً في المقاربات اللسانية للخطاب.

لقد حولت ميزة التعدد والاختلاف في المقاربات اللسانية للخطاب لمحلّيه، القدرة على دراسته وفق منهجية تجريبية كما يقول فان دايك: "هي دراسات عندما يُشرع فيها نُصبح قادرين بفضلها على وضع قاعدة تجريبية للتناول اللساني للخطاب"⁴. ومرد هذه القاعدة التجريبية هو المنطلق العلمي الدقيق لتلك التخصصات، فاللسانيات الاجتماعية تنهل من نظريات علم الاجتماع ومناهج التحليلية، واللسانيات النفسية تركز بالأساس على مفاهيم علم النفس التجريبي، كما أن فلاسفة اللغة ينطلقون من النماذج الفلسفية التحليلية لمدرسة أوكسفورد، في حين أن اللسانيات الإحصائية تعتمد إلى حد كبير على علم الرياضيات وعلم الحاسوب.

وانطلاقاً من السبعينات وحتى بداية التسعينات، وصل عدد المقاربات اللسانية في تحليل الخطاب إلى سبعة:

- المقاربة التفظية⁵
- المقاربة الوظيفية التواصلية⁶

1 Zellig Harris, Analyse de discours, Traduction de François Dubois-Charlier, Language, N°13, 1969, pp: 8-45.

2 شارودو ومنغونو، معجم تحليل الخطاب، ص: 44.

3 براون جيليان، وجورج يول، تحليل الخطاب، ص: (ط).

4 Van Dijk, T. A. Discourse and communication: New approaches to the analysis of mass media discourse and communication, 1985b, p: 30.

5 E. Benveniste (1974) : Problèmes de linguistique générale, T2, Gallimard, pp: 79 – 88

6 Roman Jakobson, Essais de linguistique générale, Traduction de Nicolas Ruwet, Minuit, Paris, 1963, pp: 88-99.

- تحليل المحادثة¹
- المقاربة التداولية²
- المدرسة الفرنسية³
- الحوارية⁴
- التحليل النقدي للخطاب⁵

1 مقارنة استقرائية منحدره من الإثنومنهجية الأمريكية، ترفض الفرضيات والمقولات الأولية، وتتهج تقطيع التبادلات اللغوية ورصد الأدوار بمعزل عن المقام والزمان والمكان. وتعتبر استعمال اللغة نشاطا تفاعليا اجتماعيا، يجدر به أن يُحلل من جهة الكشف عن آليات التدارك الحاصل بين الأزواج المشاركين في المحادثات. للمزيد انظر: شارودو ومنغونو، معجم تحليل الخطاب، ص.ص: 40-42.

2 تتهج نموذج غرايس المرتكز على مبادئ التعاون وضوابط التحادث، وتدرس الاستدلال اللغوي المنبني على حيثيات السياق والمعرفة المشتركة. كما تدرس القصد وما يمثل الذاتية على المستوى الدلالي. انظر: شارودو ومنغونو، معجم تحليل الخطاب، ص.ص: 443-444.

3 تركز بالأساس على دراسة الخطاب السياسي، وتجمع بين التحليل اللساني الوصفي، وتحليل الأيديولوجيا وفق مستنتجات القراءة النقدية التي أجراها ألتوسير على أعمال كارل ماركس، والتحليل النفساني للاكان. وترفض هذه المقاربة قصر تحليل الخطاب على الوصف اللساني الخالص، وإنما تجمع بينه وبين تحليل الأيديولوجيا. انظر: شارودو ومنغونو، معجم تحليل الخطاب، ص: 195.

4 تُسبب إلى باختين، وتعني تعدد الأصوات في الخطاب الواحد. ففي نظره، لا يقتصر الحوار على زوج من المتكلمين، وإنما يكون الحوار في كل إنتاج لغوي شفهي أو كتابي، بين متكلمين أو صادر عن متكلم منفرد. فكل خطاب هو في حد ذاته جواب عن خطابات سابقة، وفي الآن نفسه هو جزء من محاوره لخطابات قادمة. انظر: شارودو ومنغونو، معجم تحليل الخطاب، ص: 37.

5 هي أحدث مقاربات تحليل الخطاب، انطلقت منذ سنة 1989 في كتاب فيركلف (اللغة والسلطة)، وتم تأسيسها الفعلي بجامعة أمستردام من خضم اجتماع بين مؤسسيها الأوائل (فيركلف، فان دايك، فوداك، فان لوفين، غانتر كريس) سنة 1992. ولا نكتفي هذه المقاربة بوصف الأنساق اللغوية للخطابات والنصوص، وإنما تتجاوزها إلى تحليل تأثير الممارسات الاجتماعية السلطوية في الخطاب وتأثرها به. انظر:

Paul Baker and Sibonile Ellece: 2011, Key Terms in Discourse Analysis, London, New York, Continuum International Publishing Group, p: 26.

وانظر أيضا:

Van Dijk, Teun, Principles of Critical Discourse Analysis, Discourse & Society Journal, Vol 4, Issue 2, 1993, pp: 249-283.

أحال فان دايك في هذا المقال إلى هذا الاجتماع الذي ضم رواد (C.D.A) بأمستردام سنة 1992. وفي فقرته الأخيرة من هذه الدراسات، امتن كثيرا لجهود كل من فيركلف وفوداك وفان لوفين على إسهاماتهم الجادة والفاعلة في تطور هذا التخصص الجديد، معترفا بسبقهم إليه.

وثمة نماذج متأخرة ومستقلة عن هذه المقاربات، قُدمت من لدن بعض اللغويين بمنظور لساني وصفي تواصلية، أو وفق منظور تكاملي بين المستويين الدلالي والتداولي. وعن المنظور الأول يمكن استدعاء النموذج التحليلي الذي قدمه يول وبراون في كتابهما (تحليل الخطاب)، فقد أصلا لمقاربة لسانية تواصلية تتناول طرق استخدام اللغة من قبل المتكلمين بوصفها أداة للتواصل، ثم سبل التفسير التي ينفجها المخاطبون؛ في ذلك يقولان: "أما نحن؛ فمقاربتنا لتحليل الخطاب في هذا الكتاب مقارنة لسانية بالدرجة الأولى، فنحن نعالج فيه كيفية استعمال الناس للغة أداةً للتواصل، وكيف يؤلف المتكلم رسائل لغوية يوجهها للمتلقى، فيقوم هذا بمعالجتها لغويا على نحو خاص لتفسيرها"¹. فيظهر أن مقاربتهم تركز على البعد التفاعلي من وجهة نظر وظيفية، تربط بين مرحلتي الإنتاج اللغوي الخطابي وتفسيره.

تقوم مقارنة يول وبراون في تحليل الخطاب على الجمع بين قطبين: الوصف اللغوي المجرد لشكل الخطاب، والتفسير السياقي الاجتماعي. وبإزاء هذين القطبين، استتبطا وظيفتين اثنتين لاستعمال اللغة: الوظيفة التعاملية ثم الوظيفة التفاعلية. فالمقصود بالتعاملية هو التعبير عن المضامين بواسطة الإخبار، في حين تعني الثانية التعبير عن العلاقات والإفصاح عن المواقف الشخصية للمشاركين². وبذلك فقد تبنيا: "موقفا توفيقيا مؤداه أن تحليل الخطاب يتضمن تحليل القوالب اللغوية ومظاهر الانتظام في توزيعها من جهة، كما يقتضي من جهة أخرى مراعاة المبادئ العامة التي تقوم عليها عملية الفهم، تلك العملية التي يضع الناس بواسطتها معنى لما يسمعون ويقرؤون"³.

لقد أحاطت هذه المقاربة بمجموعة من مناطق التواصل اللساني الخطابي، فقاربت عملية إحداث الخطاب المكتوب والمروي، وطرق تمثيله وتمثيل موضوعه، ثم علاقة السياق بأنماط التمثيل وأشكاله، فعملية تفسير الخطاب المُحدَث. ومن الممكن القول إنها مقارنة موسّعة لنظرية جاكوبسون في التواصل اللغوي، مع تجاوزها بالنظر في علاقة البنية الداخلية للخطاب بالأوضاع والعلاقات الاجتماعية القائمة والمحتضنة.

1 براون جيليان، وجورج يول، تحليل الخطاب، ص: (ي).

2 براون جيليان، وجورج يول، تحليل الخطاب، ص: (ك).

3 المرجع السابق، ص: (ك).

أما بخصوص المنظور الثاني، فيمكن استدعاء المقاربة التي قدمها فان دايك في كتابه (النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي). ففيه يصر على ضرورة ربط مقاصد تحليل الخطاب بالنظرية اللسانية بوجه عام، وبالتحليل النحوي بشكل أخص¹. كما يرى أن النص هو الصياغة النظرية المجردة المتضمنة للخطاب²، وأن تحليله ينبغي أن ينطلق من المستوى الدلالي الصوري القائم على العلاقات والقواعد النحوية، ثم إكماله بتحليل أفعال اللغة وفق منظور تداولي، ما دام الخطاب يسري في سياق تفاعلي اجتماعي. هكذا، فإن مقارنة فان دايك دلالية صورية تداولية.

حسب مقارنة فان دايك، فإن اللغة الصورية واللغة الطبيعية تقدمان تراكيب تنتظم وفق قواعد مجردة متطابقة³. مما يشجع إلى حد كبير على اعتماد التحليل القضوي ومبادئ الصدق في تأويل الخطاب⁴. كما يُدرج في مقارنته التحليلية البعد الإدراكي في ما يتعلق بالتداول، إذ يذهب -كما يُعرف في أوساط الأبحاث التداولية- إلى أن الفعل اللغوي يستتبعه لا محالة إنجاز واقعي، غير أنه يتجاوز هذه النظرة إلى إقحام التفسير المعرفي المنبني على تحليل العلاقات الذهنية المتحكمة في إنتاج الفعل اللغوي وتفسيره⁵. وبذلك يمكن عدُّ مقارنة فان دايك -علاوة على كونها تعتمد الدلالة الصورية المنطقية- نموذجاً إدراكياً لسانياً لتحليل الخطاب.

3.2. في الفصل بين لسانيات النص وتحليل الخطاب:

يُسَعَفُ تتبُعُ الاتجاهات المختلفة في إطار لسانيات النص، والمقاربات المنتمية إلى تحليل الخطاب، في الخروج بنتيجة مهمة: تهتم لسانيات النص بالوصف اللساني الداخلي لشبكة العلاقات النحوية والدلالية والمعجمية، أو حتى الإجراءات الذهنية التي تتم على مستوى العمليات الإدراكية المشكلة لبنى النصوص والمتحكمة في أنساقها الدلالية. ويُعنى تحليل الخطاب بدراسة الأشكال اللغوية النصية وأنساقها الداخلية في علاقتها بالاستعمال اللغوي ووظائفه في السياق الاجتماعي الموسع، من منظور نفسي، أو إحصائي، أو اجتماعي، أو تداولي، أو منطقي.

1 فان دايك، النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص: 17.

2 المرجع السابق، ص: 17.

3 المرجع السابق، ص: 38.

4 المرجع السابق، ص.ص: 40-43.

5 المرجع السابق، ص.ص: 241-245.

لكن، من الضروري الإشارة إلى مسألة حساسة للغاية، وهي الخلط بين لسانيات النص وتحليل الخطاب؛ فكثيرا ما يُطلق المسمى (لسانيات النص وتحليل الخطاب) للإحالة إلى تخصص واحد. والحق أن الأمر يستوجب فصلا إبستمولوجيا في هذه المسألة. ويعود أول الأسباب المشجعة على هذا الخلط إلى عنوان المقال الذي أصدره زليغ هاريس في مجلة (Language) سنة 1952: "تحليل الخطاب/Discourse Analysis"¹؛ وإن كان يدعو إلى الانتقال من محطة تحليل الجملة إلى محطة تحليل الوحدة الأكبر منها(النص)، فإنه يدعو صراحة إلى الوصف اللغوي الداخلي لبنية النص كما تقرر مع لسانيات النص في كل اتجاهاتها ونماذجها، أي تطبيق الإجراءات الوصفية والتوزيعية والتصنيفية التي تأسست مع البنيوية والتوليدية على النص بوصفه الوحدة اللغوية الأكبر، ولعل ذلك ما تجاوزه تحليل الخطاب بالانتقال إلى تفاعله الاجتماعي وخواص المشاركين.

إذا كان زليغ هاريس قد أطلق على هذا التوجه مسمى "تحليل الخطاب"، فقد تحقق ما دعا إليه صراحة في الأعمال اللسانية التي تلتها -خاصة مع المدرسة الألمانية والفرنسية والبريطانية- فكلها تتدرج ضمن تخصص لساني اسمه "لسانيات النص" وليس تحليل الخطاب، كما يصرح شارودو ومنغونو: "يطلق بعض الباحثين على غرار ز.س هاريس "تحليل الخطاب" على ما يسمى أيضا بـ"اللسانيات النصية"². لذلك ينبغي الفصل بين التخصصين -ليس من جهة التسمية فقط- وإنما من جهة طبيعة الاشتغال والأدوات الموظفة في الوصف أو التحليل، ومن جهة نطاق الاشتغال.

غير أن ما تجب الإشارة إليه في هذا الصدد، هو أن لسانيات النص تمد تحليل الخطاب بالأدوات والإجراءات التحليلية خصوصا في شقه المتعلق بوصف الأشكال والأنساق اللغوية. وهناك من الباحثين من يعتبر لسانيات النص أصلا لتحليل الخطاب، من قبيل هذا الرأي الآتي: "تستطيع أن نمثل ما حدث بين تحليل الخطاب ولسانيات النص بالتهام الفرع للأصل، فبعد أن انبثق تحليل الخطاب من لسانيات النص عاد ليحتوي لسانيات النص التقليدية

1 Zellig Harris, Analyse de discours, Traduction de François Dubois-Charlier, Language, N°13, 1969, pp: 8-45.

2 شارودو ومنغونو، معجم تحليل الخطاب، ص: 44.

ويستعملها من بين أدواته في تحليل الخطاب كأداة رئيسية¹. إن أبرز ما يفيد هذا النص هو الفصل المطلق بين التخصصين، ويزيد على ذلك أنه يعتبر لسانيات النص أصلاً لتحليل الخطاب، وأنه يستخدم منطقها وآلياتها أدوات لتحقيق الوصف اللساني للأشكال اللغوية للخطابات، من بين أدوات أخرى..

غير أن القول بأن تحليل الخطاب قد التهم لسانيات النص موقف يتطلب التعامل معه بحذر وتحفظ، فالمعنى الذي يفيد هو أن لسانيات النص باتت إحدى مقاربات تحليل الخطاب، وهذا غير صحيح. لكن ما يمكن الاتفاق معه فيه هو أنه -بالفعل- يعول بشكل كبير على ما يتعلق بالوصف والتصنيف والتوزيع للبنى النصية الداخلية. وهذا أمر منطقي بالنظر إلى أن تحليل الخطاب يشتغل على نطاقين ويجمع بين نتائجهما: وصف النص ثم تحليل التفاعل والاستعمال، وفي وصف النص يكون البحث لسانياً نصياً، أو كما يقول نورمان فيركلف: "تحليل النص جزء من تحليل الخطاب"².

4.2. النحو الوظيفي النسقي:

يُعرف هاليداي نظام اللغة بأنه "تحديد ثقافي ونطاق دلالي للمعنى المحتمل"³. وتتخلص فكرته الرئيسية هذه التي يعتمدها جل محلي الخطاب نقدياً، في أن الخيارات اللغوية والعلاقات النموذجية هي التي تُرمزُ نظام المعاني المشكل للنسق الثقافي عند استخدام اللغة. ويميز بين ثلاثة مكونات ذات معنى محتمل، ويسميتها بوظائف اللغة التي تتحقق من خلال الأجهزة المعجمية النحوية، وهي لا تنفصل عن أي استخدام للغة والفكر: الوظيفة الشخصية (إشراك الذات في العلاقات الاجتماعية مع أطراف الخطاب، وتوجيه المشاركين إلى أشياء وسلوكات معينة قولاً أو فعلاً)، والوظيفة النصية (بناء هيكل النص باستخدام اللغة المرتبطة

1 جمعان بن عبد الكريم، من تحليل الخطاب إلى تحليل الخطاب النقدي: مناهج ونظريات، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، 2016، ص: 114.

2 نورمان فيركلف، تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ترجمة طلال وهبة، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط1، القاهرة، 2009، ص: 20.

3 Halliday, M.A.K, Language in social perspective, in: Halliday, M.A.K, explorations in the function of language, Edward Arnold, London, 1978, p: 34.

بالسياق اللفظي والظرفي)، والوظيفة الفكرية(تمثيل اللغة لخبرة المتكلم بالظواهر الداخلية والخارجية بالنسبة إلى وعيه الخاص)¹.

تتحقق الوظيفة النصية حسب هاليداي في التماسك ومناسبة نمط الموضوع، وتنعكس الوظيفة التصويرية في نمط العبور بين الجمل، وأنواع الاختيارات المعجمية، في حين أن الوظيفة الشخصية تظهر في التفاعل الاجتماعي وأنماط السلوكيات والمزاج وطرق الأداء. ومؤدى ذلك أن الاختيارات المعجمية والنحوية لا تكون اعتباطية أو تعسفية، وإنما هي منتقاة وفق المقاسات المحققة لهذه الوظائف الثلاث حتى يتم التمثيل الدلالي للمعاني الثقافية والاجتماعية. وفي ذلك يقول: "تنتظم جميع اللغات حول نوعين من المعاني، المعنى التصوري أو الانعكاسي، والمعنى الشخصي أو الفعلي، والجامع بينهما مكون ثالث فوق وظيفي: المعنى النصي الذي يضمن التناسب بين المعنيين الآخرين"².

إن نموذج هاليداي النحوي ذو توجه دلالي اجتماعي باتت معه العلاقات الوظيفية عناصر أساسية للتركيب في المكونات الوظيفية الثلاث(الفكرية، والشخصية، والنصية)، وتتجسد في جميع أنماط الوسائط النحوية. إذ تقدم هذه الوظائف الفكرية والشخصية والنصية حسبه مساحة غير محدودة للتفسير اللغوي، وتشتغل بالتزامن في كل مستويات اللغة. وتتحقق بوساطة نُظُمها الفرعية (التعدية، الصيغ النحوية، البنى الموضوعاتية، البنى الإخبارية، نسق التماسك...)، وفي المقابل، تكون هذه النظم الفرعية نفسها متعددة الوسائط في التحليل اللغوي لأي خطاب³.

يلح النموذج الوظيفي النسقي على ضرورة دراسة اللغة المستخدمة في علاقتها بالسياق من منظور اجتماعي، والنظر إليها بوصفها سلوكا اجتماعيا، وليس معرفة. إن استبعاد هذا النموذج للمنظور المعرفي فصلٌ إستمولوجي بينه وبين منطلق الاشتغال على اللغة في النحو التوليدي أو في المنظورين النفسي و النفسي-الإدراكي اللذين يسعيان إلى استكشاف عمليات الإنتاج والفهم اللغويين في الدماغ البشري، ولا يبحثان في قدرة اللغة على التمثيل الترميزي

1 محمود أحمد نحلة، علم اللغة النظامي: مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، ملتقى الفكر، ط2، 2001، ص.ص: 137-140.

2 Halliday, Michael, An Introduction to Functional Grammar, Edward Arnold, London, 1994, p: 39.

3 Halliday, Michael, 1994: An Introduction to Functional Grammar, p: 39.

للممارسات الاجتماعية والخبرات الإنسانية الثقافية. وإن علم اللغة عند هاليداي لا يُعنى بالعمليات الذهنية، بل: "اللغة في تفاعلها بين أفراد جماعة بشرية"¹. بهذا المعنى، تُدرس اللغة عنده في إطار واسع يشمل الخصائص الدلالية والتداولية للعناصر النحوية والعوامل الشخصية والاجتماعية والتفاعلات الثقافية في وصف الألفاظ والتراكيب.

إن الوظائف عند هاليداي هي الاستعمالات، بل إنها المعاني نفسها. والمعنى يتحقق لغويا بالاختيارات المعجمية والسلاسل النحوية، كما يتحقق اجتماعيا عن طريق أنماط السلوك المتباينة التي هي في الأصل تجسيد لبينة التركيب الاجتماعي². وتيسير ذلك أن الوظائف الثلاث المذكورة أعلاه تلعب دور الوسيط بين الممارسة اللغوية والممارسة الاجتماعية؛ أي إن اللغة انعكاس للمجتمع والثقافة. ولعل هذا المبدأ هو النقطة الأساس التي انطلق منها رواد التحليل النقدي للخطاب الذين يتخذون النحو الوظيفي النسقي مرجعا أساسيا وإطارا نظريا لنماذجهم التحليلية.

اللغة حسب هاليداي مورد سيميولوجي اجتماعي يستخدمه المتكلم لتحقيق أغراضه من خلال التعبير عن المعاني في السياق³. والنظرية النسقية -حسبه- نظرية المعنى بوصفه خيارا؛ إذ تُفسر اللغة في التواصل اللفظي، أو أي نظام سيميائي آخر، في كل سياق، على أنها شبكات من الخيارات الدلالية⁴. ومعنى ذلك أن هناك العديد من المعاني التي قد ينقلها المتحدثون، والكثير من الطرق التي قد تستخدم للتعبير عنها، لكن المعنى المقصود لا تؤديه إلا طريقة مخصوصة قائمة على الاختيار. لذا، يُنظر إلى نظام اللغة في هذا الإطار على أنه "مصدر لصنع المعنى، ومورد قابل للتوسع إلى أجل غير مسمى"⁵.

يجادل هاليداي في هذا الصدد بأن اللغة ليست نظامًا محددًا بشكل مطلق ونهائي، وليست مجموعة من السلاسل النحوية، بل إنها تعتمد الاختيارات المتاحة في إطار سياق الإنتاج اللغوي الذي تستخدم فيه؛ مما يعني أن وصف اللغة عنده وصفٌ للاختيار، أو الاختيارات القائمة على قرائن سياقية وغرضية تتدخل فيها الخبرة الإنسانية والقصدية والثقافة.

1 انظر: محمود أحمد نحلة، علم اللغة النظامي: مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، ص 149.

2 Halliday, M.A.K, Language in social perspective, p: 64.

3 Halliday, Michael, An Introduction to Functional Grammar, p: 40.

4 Ibid, p: 40.

5 Ibid, p: 16.

وقد سبق لطومسون أن استخدم في عدة دراسات مصطلح "اختيار" في مناقشة المعاني اللغوية، بالاتفاق مع وجهة نظر هاليداي هاته؛ إذ يقصد به أن اللغة المتحققة في الخرج الصوتي نتيجةً لاختيارات محددة بين عدد من الطرق الممكنة للتعبير عن المعاني والأغراض المقصودة في التواصل¹.

ميز هاليداي بين منظورين في تفسير استخدام اللغة، المنظور البنيوي الوصفي، والمنظور الوظيفي الاجتماعي؛ غير أنه يرى أن التحدث وفهم اللغة في سياق ما يشترط الأخذ بوجهة نظر التفاعل بين الكائنات اللفظية والسميائية. وعلى الرغم من أن المنظورين المذكورين يشكلان علاقة تكاملية، فإن التفسير اللغوي عنده يستند بالأساس إلى المنظور الاجتماعي². إن دراسة اللغة بوصفها سلوكا اجتماعيا هي تقويم لاختيار اللغة الذي يُعرف أيضاً باسم المعنى المحتمل. ويعتبر هاليداي اللغة "ترميذا لإمكانات سلوكية"³ والتي يمكن تحويلها إلى معنى محتمل. وعبر عن الإمكانات السلوكية بـ(ما يمكن أن تفعل) وعن المعنى المحتمل بـ(ما يمكن أن تعني)⁴؛ فما يمكن أن تعنيه موجود تصوري واحد لما يمكن إنجازه، وهو نظام دلالي قابل لأن يُرمز باللغة الطبيعية. وما يمكن أن تفعله يشمل باقي أنواع التعبير غير اللفظية.

تتعرض الدلالة الاجتماعية حسب هاليداي في نظام اللغة المؤلف من ثلاث طبقات⁵: الطبقة الدلالية، والطبقة المعجمية النحوية، والطبقة الصوتية⁶. تضم الطبقة الدلالية الوظائف الفكرية والشخصية والنصية التي يعتبرها مكونات وظيفية للمعنى، والتي يتلخص دورها في بناء النص. وتضطلع الطبقة المعجمية النحوية بتحقيق الخرج الدلالي عبر تفاعل القواعد الصرفية والمعجمية والنحوية. وتتكفل الطبقة الصوتية بالخرج الصوتي المقطعي والتطريزي(فوق

1 Halliday, M.A.K, Deep Grammar: System as Semantic Choice, In Kress, G (ed) 1976, Edward Arnold, 1966, p: 08.

2 Halliday, M.A.K, Language in social perspective, p: 12.

3 Ibid, p: 21.

4 Ibid, p: 12

5 يؤثر هاليداي استعمال مصطلح طبقة على مصطلح المستوى، وإن كان يعني بالطبقة ما يعنيه المستوى. جاء هذا في:

Halliday, M.A.K, Language in social perspective, p: 111.

6 محمود أحمد نحلة، علم اللغة النظامي: مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، ص: 169.

المقطعي)¹. إن اللغة وفق نموذج النحو الوظيفي النسقي إذن، وبناء على فكرة تفاعل الطبقات الثلاث، تمثيل للدلالة الاجتماعية النابعة من التركيب الاجتماعي.

تكمّن علاقة النحو الوظيفي النسقي بالتحليل النقدي للخطاب في كون كل مناهجه تتخذ تصور هاليداي للغة إطاراً نظرياً لسانياً؛ بحيث إن الدراسة النقدية للغة في هذه المناهج تقوم على مبدأ أن نظام اللغة رهين بالدلالة الاجتماعية وخصائص البنية الثقافية والوظائف الثلاثة المذكورة عند هاليداي.

5.2. اللسانيات النقدية

اللسانيات النقدية منظور بحثي لساني ظهر وتطور على يد كل من روجر فاوولر، وبوب هودج، وغانتر كريس، وتوني تريو، في جامعة إيست أنجليا في السبعينات²، كان ذلك في كتاب جماعي شكل نقطة البداية كما صرح فاوولر: "ظهرت اللسانيات النقدية في كتابنا (اللغة والتحكم)³ بوصفها نظرية لسانية مفيدة للغاية"⁴. وتشمل مبادئها الأساسية التركيز على دراسة اللغة في ضوء السياق الاجتماعي والتاريخي، وتتبنى مبدأً رئيساً يتلخص في أن أي بنية لغوية يمكن أن تحمل أهمية أيديولوجية⁵.

للتحقق من الصلة بين البنية اللسانية والقيم والمعتقدات الاجتماعية، يستخدم فاوولر وزملاؤه نموذجاً للتحليل النصي يعتمد القواعد الوظيفية النسقية كما وضعها هاليداي (1978)، إذ يُتعامل مع الخطابات من وجهة نظر وظيفية تراعي الأبعاد الفكرية والشخصية والنصية؛ ومعنى ذلك أن الأجهزة المعجمية والنحوية تؤدي وظائف تتجه في مجملها نحو ترميز المعنى الاجتماعي وتبطينه.

1 Halliday, M.A.K, Language in social perspective, p: 112.

2 Fairclough, Norman, Discours and Social Change, Cambridge, Polity Press, 1992, p: 25.

3 Fowler, R., Hodge, B., Kress, G. and Trew, T, Language and Control, Routledge and Kegan Paul, London, 1979.

4 Fowler, Roger, On critical linguistics, in: Carmen Rosa Caldas –Coulthard and Malcolm Coulthard, Texts and Practices– Readings in Critical Discourse Analysis, Taylor & Francis e–Library, 2003, p: 03.

5 Fowler, Roger, Language in the News: Discourse and Ideology in the Press, Routledge, London, 1991, p: 67.

يرتكز النموذج التحليلي للسانيات النقدية على أهمية السياق في دراسة اللغة والعلاقة بين الأيديولوجيا والهياكل اللغوية. فاللغة -حسب هذا المنظور- لا تعكس الوقائع فحسب، بل تبنيها اجتماعياً، وفق نظام يرسخ رؤية وقيمة خاصيتين؛ ولعل هذا هو هدف هذه النظرية كما يلخصه فاوئر: "عرض لوعي أنماط الاعتقاد والقيمة التي تم ترميزها في اللغة"¹.

تزامن ظهور اللسانيات النقدية وتطورها خلال سبعينات القرن العشرين مع العديد من النظريات اللسانية ذات التوجه الوصفي أو التصنيفي، وخصوصاً علم اللغة الاجتماعي، واللسانيات التوليدية التحويلية مع تشومسكي، واللسانيات التداولية؛ غير أن هاتين الأخيرتين اقتصرتا على دراسة الإنجاز اللغوي الفردي، ولم تنظرا إلى الخطاب بوصفه ظاهرة اجتماعية وممارسة مركبة ومتداخلة الأبعاد، خاضعة للخبرة الإنسانية والأنساق الثقافية والمعرفية. أما علم اللغة الاجتماعي، فقد رصد الاختلافات والتغيرات الطارئة على بنية اللغة بسبب الأوضاع والخصائص والتحويلات الاجتماعية المحدودة والموسعة؛ ولم يهتم بالعلاقات بين الممارسات الاجتماعية وتأثيرها في الهياكل اللغوية وتأثرها بها.

استناداً إلى المرجعية اللسانية الوظيفية النسقية، تختلف اللسانيات النقدية عن المقاربات والنظريات اللغوية الأخرى أيضاً في الاهتمام الدقيق بالوظائف السياقية الاجتماعية للنحو والمعجم في التحليل²؛ أي إنها تدرس أنماط العبور من الجمل إلى تمثيل الظواهر والممارسات الاجتماعية، وإنتاج الأيديولوجيا وتصريفها عبر الصيغ النحوية، والتسمية، والإضمار، وأفعال الكلام، وغيرها من الاختيارات اللسانية³. لقد قام رواد النظرية في كتابهم المرجعي (اللغة والتحكم) بصياغة تحليل للخطاب: "مصمم لرصد ترميز الأيديولوجيا ضمناً خلف المقترحات المعلنة، لدراستها -بالخصوص- في سياق التكوينات الاجتماعية"⁴.

تبقى أبرز نقطة مشتركة بين اللسانيين النقديين هي عدم وجود علاقات ثابتة بين الشكل والمحتوى، وأن معنى الخطاب لا يُستمد فقط من الأشكال اللغوية، ولكن أيضاً من السياق، كما أشار إلى ذلك نورمان فيركلف في نقده لهذه النظرية⁵؛ إذ أكد أن أحد أنطق عيوب طريقة

1 Fowler, Roger, Language in the News: Discourse and Ideology in the Press, p: 67.

2 Fairclough, Norman, Discours and Social Change, p: 27.

3 Fowler, Roger, Language in the News: Discourse and Ideology in the Press, p: 68.

4 Fowler, Roger, On critical linguistics, p03.

5 Fairclough, Norman, Discours and Social Change, p: 28.

اشتغالها المبكرة هو تركيزها المفرط على تدخل السياق في إثراء الأيديولوجيات السائدة. إلا أنها نظرية تجرأت في مرحلة متقدمة على تجاوز الوصف البنيوي للنصوص كما كان مع لسانيات النص، وتحليل الخطاب على التوالي؛ واستطاعت فضح الصيغ التمثيلية للظواهر الاجتماعية والأيديولوجية على صعيد الخطاب.

وعموماً، وإن كانت اللسانيات النقدية من أسبق النظريات اللغوية المعنية بعلاقة اللغة بالمجتمع، فإنها اقتصرت على وصف التمثيل اللساني للإطارات والمرجعيات الأيديولوجية في السياقات الاجتماعية والثقافية والسياسية والإعلامية، ولم تول المساقات السلطوية للخطابات الأهمية التي لقيتها مع الدراسات النقدية للخطاب. ومع ذلك، تبقى اللسانيات النقدية الإطار المرجعي اللساني الأول للتحليل النقدي للخطاب إلى جانب النحو الوظيفي النسقي، كما أكد ذلك فيركلف¹، وفان دايك²، وبول بايكر³، وسارة ميلز⁴.

6.2. موقع التحليل النقدي للخطاب:

اتضح في الفقرة (2.1). أن التحليل النقدي للخطاب ليس إلا مقارنة من بين مقاربات تحليل الخطاب ذي التوجه اللساني؛ تتفق مع سابقتها في مبدأ عام هو: دراسة اللغة في الاستعمال، لكنها تختلف عنها من حيث التصور المنهجي، والمناولة التطبيقية، والإطار النظري، والجهاز المفهومي، والأهداف البحثية. غير أن لها صلات وطيدة بالتخصصات والنظريات المذكورة أعلاه، على اختلاف اتجاهاتها ونماذجها؛ والأكثر من ذلك أنها أفادت منها على مستويات عدة: التصورات اللغوية الاجتماعية، وصناديق الأدوات، والتعاطي مع النص والخطاب، والوصف اللساني، والخبرة الإنسانية، وعلاقات اللغة بالفكر والثقافة والمجتمع.

لقد أفادت مقارنة التحليل النقدي للخطاب مما سبقها في مجال تحليل الخطاب، في لسانيات النص، واللسانيات النقدية، والنحو الوظيفي النسقي. إذ تظهر امتدادات مقاربات تحليل الخطاب المتقدمة زمنياً، واضحةً في جل مناهج التحليل النقدي للخطاب؛ فقد اعتنى كثيراً

1 نورمان فيركلف، تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ص: 26.

2 توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ترجمة غيداء العلي، مراجعة وتقديم عماد عبد اللطيف، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط1، 2014، ص: 189.

3 Paul baker, key terms in discourse analysis, p: 27.

4 ميلز، سارة، الخطاب، ترجمة عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2016، ص: 164.

أصحابها بالتمثيل اللغوي للذاتية والأيدولوجيا وتعدد الأصوات والمشاركين كما كان عند إميل بنفينست، ولسانيي المدرسة الفرنسية، والحوارية مع باختين؛ ناهيك عن أخذ طرق تحليل توزيع الأدوار وأسس النقد اللغوي للمحاورات من المقاربة التواصلية وتحليل المحادثة على التوالي.

وبالنظر إلى علاقة التحليل النقدي للخطاب بلسانيات النص، فينبغي دائما أن تُستحضر علاقة تحليل الخطاب بلسانيات النص في المقام الأول؛ فتحليل الخطاب نتيجة منطقية وتاريخية لتجاوز البحث اللساني النصي للوصف الداخلي لشبكات النصوص وتحليل المكونات المباشرة، وقد كان ذلك بالخصوص مع الاتجاه التواصلية التداولية، والنماذج النصية السياقية التي طفت منذ أواخر السبعينات تتجه نحو تحليل لغة النص في علاقتها بالسياق والاستعمال، وإن في نطاق ضيق.

وتظهر معالم تأثر مقارنة التحليل النقدي للخطاب ببعض النماذج اللسانية النصية، في نطاق الوصف اللغوي للمواد اللغوية التي تُشكل الخطاب قبل تفاعله في السياق الاجتماعي، وقبل تداوله بين أطراف مشاركين. والمقصود بذلك هو مرحلة تحليل الممارسة النصية التي هي أولى الخطوات التي يقدم عليها اللغوي الناقد للخطاب، فحسب التصور المنهجي العام للمقاربة، تتوزع مهام اللغوي في نقده لأي خطاب على ثلاثة نطاقات: النص، والخطاب، والممارسة الاجتماعية¹، وفي تحليل النص، يستدعي اللغوي عدة لسانية ملائمة لوصف الصوت، والكلمة، والجمل، والنص، وفق المنظور البنوي الوصفي لرصد الظواهر والقضايا اللغوية التي تفرزها الاختيارات اللسانية المعول عليها في الممارسة السلطوية وتمير الأيدولوجيا².

ومن أبرز الشواهد على الحضور الفعلي لبعض المبادئ اللسانية النصية في التحليل النقدي للخطاب، تصورُ فان دايك للنص على أنه بنية لغوية ناجمة عن حقائق إدراكية متماسكة ومترسخة في المعرفة الاجتماعية لدى الفئات المستهدفة³. ومن قبيل هذا الكلام ما جاء في الاتجاه الإدراكي للسانيات النص مع دي بوغروند ودريسلر اللذين يريان أن النص

1 فيركلف، نورمان، اللغة والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2016، ص: 46.

2 المرجع السابق، ص: 46.

3 المرجع السابق، ص.ص: 42-46.

حصيلة للعمليات الإدراكية المتعددة والمتعاقبة، وأنه قبل أن يُؤلف باللغة، فإنه يقوم على أساس الاختيار والتوليف بين الإدراكات المتراكمة وفق التنظيم الذهني لأنساق المعرفة¹.

بالنسبة إلى امتدادات اللسانيات النقدية في التحليل النقدي للخطاب، فالناظر في بعض نماذجها التطبيقية -خاصة مع فاوولر وزملائه في كتاب "اللغة والتحكم"، ونورمان فيركلف أو فان دايك -مثلاً- يلاحظ تقارباً كبيراً في التعاطي مع تحليل المادة اللغوية؛ إذ إن كلا التخصصين يحل الخيار اللساني بغية الكشف عن الدلالة الاجتماعية التي يؤديها، والأخرى التي تؤديها الاختيارات اللسانية المحتملة والملغية². إلا أن اللسانيات النقدية تسعى إلى كشف الأيديولوجيا المضمرّة خلف الاختيار اللساني³، في حين أن التحليل النقدي للخطاب يستهدف فضح طبيعة السلطة المراد ممارستها على مستهلك الخطاب. وعليه، فإن المشترك بين التخصصين هو تصور اللغة بوصفها بانية للوقائع الاجتماعية المفترضة أو المنتظرة أيديولوجياً أو سلطوياً اجتماعياً.

إن التشابه بين المسار التحليلي اللساني بين التخصصين نابع من كونهما معا يستندان إلى مرجعية لسانية خالصة، وهي النحو الوظيفي النسقي. فالمعنى حسب هذه النظرية اجتماعي بامتياز، والمادة اللغوية (الجملة أو النص أو الخطاب) تُبنى على أساس الدلالة الاجتماعية كما سبقت الإشارة. لذلك حضر في صلب هذه النظرية مفهوم الاختيار بشكل كبير، ومعناه أن مستعمل اللغة يختار من بين ما تتيحه أنظمة اللغة المتشعبة على مستوى المعجم والنحو، ما يؤدي الوظائف الشخصية والنصية والفكرية⁴. فقد نفى هاليداي أن يكون للغة نظام نهائي ومطلق، وأكد في المقابل أنها تقوم على الاختيارات الممكنة والملائمة لسياق الإنتاج الكلامي⁵. وهنا يمكن استحضار تركيز التحليل النقدي للخطاب واللسانيات النقدية على تحليل الاختيار اللساني الوارد في الخطاب والاختيارات الممكنة الملغية؛ والأكثر من ذلك أن اللغويين في التخصصين معاً، يتبنون مبدأً بالغ الأهمية عند هاليداي، وهو أن الاختيار اللساني النهائي

1 De baeugrande, R, and Wolfgang Dressler, Introduction to Text Linguistics, p: 41.

2 فيركلف، نورمان، اللغة والسلطة، ص: 153.

3 Fairclough, Norman, Discours and Social Change, p: 28.

4 Fairclough, Norman, Discours and Social Change, pp: 64-65.

5 Halliday, M. Explorations in the Functions of Language, London: Edward Arnold, 1973, p: 51

الوارد في النص أو الخطاب رهين بالقرائن السياقية والقصدية التي تتحكم فيها الخبرة الإنسانية والثقافية والاجتماعية¹.

عموماً، يلخص الشكل أدناه تقاطعات مقارنة التحليل النقدي للخطاب مع النحو الوظيفي النسقي، واللسانيات النقدية، وباقي مقاربات تحليل الخطاب، وأبرز النماذج اللسانية النصية السياقية والإدراكية. كما يبسر تحديد موقع هذه المقاربة وحدودها:

النحو الوظيفي النسقي	اللسانيات النقدية	تحليل الخطاب	لسانيات النص
وظائف الأجهزة المعجمية النحوية: الشخصية؛ النصية: الفكرية	اللغة تبني الوقائع اجتماعيا الأيدولوجيا بالهياكل (اللغوية)	(1) التلفظية	الاتجاهات الإدراكية والنماذج النصية السياقية
		(2) التبليغية	
		(3) إثنوغرافيا التواصل	
		(4) التداولية	
		(5) المدرسة الفرنسية	
		(6) الحوارية	
(7) التحليل النقدي للخطاب			

شكل رقم(1): التخصصات اللسانية التي أفاد منها التحليل النقدي للخطاب

3. الإطار النظري

تستند هذه الأطروحة إلى إطار نظري ذي قطبين اثنين متكاملين، أولهما هو التحليل النقدي للخطاب، وثانيهما هو بلاغة الجدل عند العرب. لذلك، يتوزع هذا المحور بين فقرتين: التحليل النقدي للخطاب، ثم بلاغة الجدل.

1.3 التحليل النقدي للخطاب:

1.1.3 نقطة البداية:

التحليل النقدي للخطاب أحدث مقاربات فرع تحليل الخطاب ذي التوجه اللساني، تأسست على يد مجموعة من اللغويين سنة 1991 بعد اجتماع انعقد بجامعة أمستردام الهولندية حضره روادها الأوائل: فان دايك، وفيركلف، وفوداك، وفان لوفين، وكريس غانتر، مشكلين دائرة نقاش انصبت حول علاقة اللغة والخطاب بعدد من المسائل الاجتماعية

1 Fairclough, Norman, Discours and Social Change, p: 64.

والسلطوية والعنصرية¹. غير أن ظهورها الفعلي كان على يد نورمان فيركلف في كتابه "اللغة والسلطة"² سنة 1989³، ففيه أشار إلى هدفين أساسيين من دراسته للعلاقة بين اللغة والسلطة، الأول نظري والثاني عملي: "أما الهدف النظري فيرجع إلى خلفيتي الأكاديمية، وهي علم اللغة.. وأما الهدف العملي.. فهو زيادة الوعي باللغة والسلطة، وخصوصا كيف تسهم اللغة في سيطرة البعض على غيره"⁴.

لقد كان ليفيركلف في هذا الكتاب السبق في الدراسة النقدية للغة بوصفها الوسيط الفعلي لممارسة السلطة الاجتماعية، إذ أعلن أنه يدرس علاقة اللغة بالسلطة حسب توجهه الأكاديمي اللساني ساعيا إلى الكشف عن: "الروابط بين استعمال اللغة وعلاقات السلطة غير المتكافئة"⁵. ومن اللازم هنا استدعاء اعترافه المبدئي بوجود محاولات أخرى للدراسة النقدية للغة قبل محاولته هو، إذ أحال إلى أبرز المداخل اللسانية التي عُنت بالدراسة النقدية للغة من غير التركيز على علاقات السلطة التي ينتجها استخدامها غير البريء، وهي النحو الوظيفي النسقي، اللسانيات الاجتماعية، واللسانيات النقدية، والتداولية، وعلم النفس المعرفي، والذكاء الاصطناعي، وتحليل المحادثة⁶.

إن التحليل النقدي للخطاب نموذج تحليلي ينتمي إلى تحليل الخطاب كما يقول فان دايك: "التحليل النقدي للخطاب (C.D.A) هو نوع من أبحاث تحليل الخطاب"⁷، يدرس استخدام اللغة القاصد إلى ممارسة السلطة الاجتماعية، وتكريس مظاهر الهيمنة والتحكم في المخاطبين عبر الممارسة الخطابية. وذلك بالتعامل مع الاختيارات اللغوية على اعتبار أنها تمثيلات للبنى والعلاقات الاجتماعية القائمة، والأغراض السياسية والفكرية والمذهبية والأيدولوجية لمنشئي الخطاب. إذ إن الخيار اللساني الموظف لا يهدف إلى التواصل بنية نقل

1 روث فوداك وميشال مايير، 2014: مناهج التحليل النقدي للخطاب، ترجمة حسام أحمد فرج وعزة شبل محمد، مراجعة عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2014، ص.ص: 04-05.

2 نورمان فوركولوف، اللغة والسلطة، ترجمة محمد عناني، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2016.

3.Paul Baker and Sibonile Ellece: 2011, Key Terms in Discourse Analysis, p: 26

4 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 15.

5 المرجع السابق، ص: 15.

6 المرجع السابق، ص: 15.

7 Teun Van Dijk, Ltd 2001: Critical Discourse Analysis, in: Deborah Schiffrin, Deborah Tannen, and Heidi E. Hamilton, Handbook of Discourse Analysis, Blackwell Publishers, 2001, p: 352.

الإخبار أو الإفادة البريئة فقط، وإنما يمدُّ للكُتَّاب جسور الإلزام الفكري والإخضاع الاجتماعي. ويمكن إيراد بعض الأمثلة على القضايا التي شملتها الدراسات النقدية للغة من لدن رواد التحليل النقدي للخطاب كما يلي:

- الدراسة النقدية للغة والتحرر الاجتماعي ومواجهة السلطة في تعليم اللغات المدرسي(نورمان فيركلف)¹.
- الخطاب في التغيرات الاجتماعية(نورمان فيركلف)².
- اللغة والعنصرية(فان دايك)³.
- الخطاب والتلاعب(فان دياك)⁴.
- الخطاب والعنصرية(روث فوداك ومارتين ريزيغل)⁵.

والجدير بالذكر أن معالجة مثيلات هذه القضايا الخطابية الاجتماعية تنطلق بالأساس من الشرح والتحليل المستندين بالخصوص إلى الإجراءات اللسانية الوصفية والتفسيرية كما سيتضح أدناه. فقد أفادت هذه المقاربة مما سبقها من النظريات اللغوية الوظيفية والتداولية والبلاغية والسيميائية، ناهيك عن المداخل اللسانية المشار إليها سابقا من قبل نورمان فيركلف، ولاسيما اللسانيات النقدية والنحو الوظيفي النسقي.

2.1.3. التصور المنهجي:

تقوم المناولة التحليلية التي تتبناها مقارنة التحليل النقدي للخطاب بجميع مناهجها⁶- على تحليل صنفين من الممارسات: تحليل الممارسة اللسانية، ثم تحليل الممارسة الاجتماعية. ويمز المحلل بين محطتين في تحليل الممارسة اللسانية، تُعنى الأولى بوصف الممارسة

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص.ص: 305-321.

2 المرجع السابق، ص.ص 263-304.

3 فان دياك، الخطاب والسلطة، ص.ص: 219-254.

4 المرجع السابق، ص.ص: 429-478.

5 Ruth Vodak and Martin Reisigl, Discourse and Racism, in: Deborah Schiffrin, Deborah Tannen, and Heidi E. Hamilton, Handbook of Discourse Analysis, Blackwell Publishers, 2001, pp: 372-397.

6 استقر عدد مناهج التحليل النقدي للخطاب إلى حدود نهاية الألفية الثانية على ستة مناهج: المقاربة الجدلية العلائقية، المقاربة المعرفية الاجتماعية، المقاربة التاريخية لتحليل الخطاب، مقارنة الفاعل الاجتماعي، التحليل التنظيمي للخطاب، لسانيات المدونات. يُنظر الفصل الأول من الباب الثاني في هذه الأطروحة.

النصية، في حين تُعنى الثانية بتفسير الممارسة الخطابية. فيكون المحلل بإزاء ثلاث مراحل كما يقول فيركلف: "وصف النص، وتفسير العلاقة بين النص والتفاعل، وشرح العلاقة بين التفاعل والسياق الاجتماعي"¹. إن عناصر الخطاب وفق هذه الرؤية التحليلية ثلاثة: النص، والتفاعل (الخطاب)، والسياق الاجتماعي. ويُقصد بالنص المادة اللغوية المشكلة للخطاب قبل تفاعله، أما التفاعل فيعني مرحلة الممارسة الخطابية حيث تبرز الذوات المشاركة وما يمثلها من القيم الخبراتية، والعلائقية، والتعبيرية، والمواقف التي تركزها الاختيارات اللسانية؛ في حين أن السياق الاجتماعي يحيل إلى الممارسة الاجتماعية التي يستهدفها النص بعد تفاعله خطابيا.

1.2.1.3. وصف الممارسة النصية:

إن التوصيف: "يمثل المرحلة الخاصة بالخصائص الشكلية"²، أي خصائص النسق الداخلي للنص، مع ضرورة التعامل معه بوصفه إنتاجا لغويا لم يُصَرَّف بعد في التفاعل الخطابي. إذ تُرصد الخيارات اللغوية على صعيد المستويات اللسانية، صرفيا، ومعجميا، وتركيبيا، ودلاليا، وتداوليا، وبلاغيا، وحتى سيميائيا في حالة الخطاب المازج بين الدوال اللغوية والدوال المرئية. كما يُنظر في مستوى التركيب النصي وفق منظور اللسانيات النصية، كرسد شبكة العلاقات النحوية بين أجزاء النص وما يربط بينها من علاقات السبك والحبك والإحالة والتضام والتناص³. إضافة إلى النظر في البعد السيميائي، خصوصا إذا تعلق الأمر بتحليل خطاب إعلامي أو إشهاري أو نشرة إخبارية مثلا، فتُراعى القيم الدلالية للصور والأجسام والرسوم والألوان، وعلاقتها بالتركيب النحوي العام للنص.

ولمزيد من التفصيل، تُعتبر المستويات اللسانية في إطار مقارنة التحليل النقدي للخطاب، مداخل أساسية تُسهم في استنباط ثلاثة أنواع من القيم: القيم الخبراتية، والقيم العلائقية، والقيم التعبيرية. وتترتب على تحصيل هذه القيم ثلاثة أصناف من الآثار البنائية النصية التي تمهد لتفسير الممارسة الخطابية، وهي: كشف المعتقدات، ورصد العلاقات الاجتماعية، ثم تحديد الهويات الاجتماعية⁴.

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 151.

2 المرجع السابق، ص: 45.

3 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 151.

4 المرجع السابق، ص: 155.

إن أبرز سمة لهذا النمط من التحصيل القائم على التوصيف النصي، هي فك التشفير اللغوي للأيدولوجيا، والمستند إلى الخيارات اللسانية على صعيد جميع المستويات المكونة للنص. وقد سبق لفيركلف أن اقترح عشرة أسئلة مؤطرة لمرحلة وصف الممارسة النصية¹؛ ويمكن تلخيصها كلها في البحث عن القيم الخبراتية والعلائقية والتعبيرية التي تؤديها الاختيارات اللسانية على اختلافها. ولعله المبدأ نفسه الذي تبنته كل من روث فوداك ومارتين ريزيغل كذلك، إذ أطرتا اشتغالهما في تحليل الخطاب نقدياً بخمسة أسئلة تصبو بدورها إلى تحقيق الهدف نفسه، وإن تباينت التسميات². والأمر نفسه بالنسبة إلى فان دايك، وإن لم يورد المداخل اللسانية المعتمدة في الوصف النصي في صيغ استفهامية، فإنها تتفق نسبياً³ مع ما جاء عند فيركلف وفوداك وريزيغل.

2.2.1.3. تحليل الممارسة الخطابية:

أما تفسير الممارسة الخطابية، فإجراء: " يختص بالعلاقة بين النص والتفاعل"⁴، ومعنى ذلك أن التحليل وهو يتجه نحو خاتمته، لا يقطع الصلة بين المرحلة السابقة والأخرى التالية لها؛ أي إن مستنتجات الوصف اللغوي للبناء الكلي للغة النص قبل تفاعله، تُستثمر في تفسير الممارسة الخطابية. إذ إن المحلل يحاول أن يربط -مثلاً- بين خصائص النص المعجمية وما تحيل إليه من الصفات والأحكام المسندة إلى الأطراف المشاركين في الخطاب المكتوب أو

1 هذه الأسئلة هي: ما القيم الخبراتية للألفاظ؟ ما القيم العلائقية للألفاظ؟ ما القيم التعبيرية للألفاظ؟ ما الاستعارات المستعملة؟ ما القيم الخبراتية للمعالم النحوية؟ ما القيم العلائقية للمعالم النحوية؟ ما القيم التعبيرية للمعالم النحوية؟ ما وسيلة الربط بين الجمل البسيطة؟ ما أعراف التفاعل المستعمل؟ ما الأبنية الواسعة النطاق التي يتسم بها النص؟ لمزيد من التفصيل، أنظر: نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص.ص: 152-190.

2 هذه الأسئلة هي: كيف تتم تسمية الأشخاص والإحالة إليهم لغوياً؟ ما هي السمات والخصائص والصفات والميزات التي تنسب إليهم؟ من خلال أية حجج ومخططات حجاجية يقوم أشخاص معينون أو جماعات اجتماعية بمحاولة تبرير الإقصاء والاستبعاد والتمييز والقمع واستغلال الآخرين؟ من أي منظور أو وجهة نظر، أعرب عن هذه التسميات، والخصائص، والحجج؟ وهل العبارات التمييزية ذات الصلة، قد تم التعبير عنها علناً، أم إنها تكُنَّت، أم إنها قد تم تخفيفها؟

للاطلاع أكثر، يُنظر: Ruth Vodak and Martin Reisigl, Ltd 2001: Discourse and Racism, p: 385

3 أبرز المداخل اللسانية المعتمدة في وصف النصوص لدى فان دايك هي:

. التحليل اللساني الوصفي (الصوتي، والمعجمي، والتركيبي، والدلالي) . التحليل التداولي لأفعال الكلام . التحليل البلاغي . التحليل الأسلوبي . تحليل البنى الجزئية والكلية . التحليل السيميائي للأصوات (في بعدها التطريزي/العروضي) . تحليل الصور...

4 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 45.

المنطوق¹، كما يحاول -على سبيل المثال كذلك- تفسير العلاقة بين اختيار الصيغ النحوية المبنية للمجهول أو المعلوم، وأفعال الكلام أيضاً، في تأكيد المسؤوليات أو نفيها بالنسبة إلى المتفاعلين في الممارسة الخطابية².

ترتبط هذه المرحلة بين مقتضيات الإنتاج النصي وشروط تفاعله على صعيد الخطاب، وذلك بالتركيز على العلاقة الجدلية بين النص وسياق تفاعله. فمحلل الخطاب يفكك عناصر السياق من حيث الزمان والمكان، وانتماءات المشاركين، وخلفياتهم المعرفية والاجتماعية، وخصائصهم الثقافية³، سواء تعلق الأمر بالمنشئ والجمهور في حالة الخطاب المكتوب أو الخطبة الملقاة، أو المتحاورين في حالة المناظرة أو الجدل أو المحادثة. وغرضه من ذلك هو الكشف عن التوجهات، والمراجع الأيديولوجية، والافتراضات المؤطرة لتوجه صانع الخطاب ومتلقي رسائله. ومن شأن تحليل السياق أن يستخلص المعطيات الأولية التي يتم البناء عليها للوصول إلى الخبرة المشتركة أو الخبرات المتميزة لدى أطراف الخطاب⁴.

على هذا الأساس، يظهر أن مرحلة تفسير العلاقة بين النص والتفاعل، تعين محلل الخطاب على الكشف عن آثار الاختيارات اللغوية على مستوى النص، في التفاعل بينه وبين المشاركين، وتقديم المعطيات الكفيلة بفضح الغايات والمرامي السلطوية التي تمثلها القيم الخبراتية والعلائقية والتعبيرية خلال مرحلة تفسير الممارسة الاجتماعية. وذلك أمر يتأتى من خلال ربط سطح الكلام الملفوظ بالمعنى الكلي والمعاني الجزئية. ولأن تفسير الممارسة الخطابية (التفاعل) يقتضي دراسة اللغة في الاستعمال، فإنه يقتضي لا محالة الإشارة إلى الفرق بين الدلالة في الوضع العادي على مستوى النص، والمعنى السياقي الذي ينتجه التفاعل. لذلك، لا بد من استدعاء بعض النماذج اللسانية الكفيلة برصد الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثاني، كالصواتة التطريزية التي تدرس ظواهر النبر والتنغيم والوقف، ثم الدراسات التداولية والبلاغية التي بمقدورها أن توضح آثار أفعال الكلام والأنساق الحجاجية في التغيرات الدلالية.

1 فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 224.

2 انظر: المرجع السابق، ص: 224.

3 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 195.

4 المرجع السابق، ص: 198.

3.2.1.3. تفسير الممارسة الاجتماعية:

اتضح إذن أن المرحتين السابقتين تختصان بوصف أبنية النصوص وتفاعلها بوصفها خطابات في سياقات اجتماعية ينبغي تحليلها، وجمع المعطيات المحيطة بعناصره. فيظهر أن التحليل النقدي للخطاب -خلال هاتين المرحتين- يركز على مساءلة عمليتين، الأولى هي عملية إنتاج النص أو إحدائه، والثانية هي عملية الاستعمال. هنا، تتفق هذه المقاربة اللسانية النقدية للخطاب مع باقي مقاربات تحليل الخطاب عامة، فحسب ما تم عرضه في المحور الخاص بتحليل الخطاب، تؤكد أنه نظرية تدرس اللغة في الاستعمال¹. لكن السؤال الذي يجب طرحه في هذا الصدد هو: ما الجديد الذي جاءت به مقاربة التحليل النقدي للخطاب؟

تتجاوز هذه المقاربة سابقتها بمعطيين اثنين، الأول هو أنها -كما سبقت الإشارة في تعريفها- تُعنى بفضح أطماع السلطة والهيمنة التي تُسخر لأجلها إمكانات اللغة الطبيعية، والتحكم في السياق بإعادة إنتاجه حسب ما يخدم مصالحها². والثاني هو تجاوزها دراسة اللغة والاستعمال، والوصول إلى الاستجابات المادية أو المعنوية التي تبديها الفئات المستهدفة. إذ تميز بين ثلاثة نطاقات بحثية: النص، والاستعمال، والممارسة الاجتماعية³. وفي هذه الأخيرة، تُستبان السلط الممارسة من خلال تفسير مستنتجات النطاقين الأول والثاني.

يتلخص هدف تفسير الممارسة الاجتماعية في الكشف عن آثار التحكم الاجتماعي التي أسفر عنها الهيكل المخصوص والمقصود لعمليتي الإنتاج والاستعمال⁴. فالأبنية النصية والتفاعلات الخطابية تُنتقى وتُصمَّم حسب المرجع الأيديولوجي الذي يتبناه منشئ الخطاب، وما تحمله خلفيته المعرفية والموارد الاجتماعية التي توّطر إدراكه وأهدافه. وينحصر عمل محلل الخطاب لسانيا نقديا في إعطاء تفسيرات لغوية وخطابية واجتماعية للعلاقة الجدلية بين اللغة والمجتمع، والتي تسفر عما يسميه فيركلف بالمعنى الاجتماعي⁵؛ وبمعنى آخر، يحاول القبض على الدلالة الاجتماعية الموازية للدلالة اللغوية، أو استنباط المعادل الاجتماعي للإنتاج والاستعمال اللغوي. إن من شأن المعادلات الاجتماعية أن تيسر الكشف عن العوامل والمقامات

1 براون جيليان، وجورج يول، تحليل الخطاب، ص: 01.

2 Paul Baker and Sibonile Ellece: 2011, Key Terms in Discourse Analysis, p: 26.

3 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 151.

4 المرجع السابق، ص.ص: 45-46.

5 المرجع السابق، ص.ص: 45-46.

الاجتماعية التي تحكمت في تنسيق الخطاب. فتكون مهمة هذه المرحلة الأخيرة متأرجحة بين بيان تأثير المجتمع في البناء النصي والاستعمال الخطابي من جهة، وتأثير البناء والاستعمال في المجتمع من جهة أخرى.

في هذه المرحلة كذلك، توضع أنماط سيرورات المعنى المحصل عليها في وصف الممارسة النصية، اللسانية والبلاغية والسيميائية والتداولية، بإزاء القيم الخبراتية والعلائقية والتعبيرية التي أسفرت عنها مرحلة تحليل الممارسة الخطابية. إذ إن مبتغى الخطابات السلطوية، في الغالب، ينحصر في هدم المواقف والمعارف الاجتماعية المخالفة لمرجعه الأيديولوجي لدى الفئة المستهدفة، أو تعديلها، أو تثبيتها في حالة التطابق.

3.1.3. مفاهيم مركزية:

يتسم الجهاز المفهومي لمقاربة التحليل النقدي للخطاب بخاصيتين اثنتين: أولاهما هي غزارة المصطلحات، وثانيتهما هي الصفة البيئية، أو تضافر الاختصاصات. فالناظر في ما تراكم من المفاهيم المتداولة لدى أصحاب المناهج الست، يلاحظ أنها توظف مفاهيم لسانية وبلاغية دقيقة، بالتركيز على الأخذ من النماذج والنظريات الملائمة لموضوع البحث وأغراضه. إضافة إلى ذلك، تستدعي مفاهيم غير لسانية، وهي في معظمها مستقدمة من حقول العلوم الاجتماعية. وفي ما يلي، بعض المفاهيم المركزية:

● **اللغة والخطاب:** لا يختلف مفهوم اللغة عن مفهوم الخطاب في أوساط التحليل النقدي للخطاب. فاللغة هنا ممارسة اجتماعية تتحكم فيها الأبنية الاجتماعية¹، أي إنها شكل من أشكال الممارسات الاجتماعية². ويتطابق تعريف اللغة هنا بتعريف الخطاب، إذ إن الممارسة اللغوية على صعيد المجتمع تعني استعمالها، ومعنى الخطاب بالأساس هو اللغة في الاستعمال؛ في هذا الصدد يقول نورمان فيركلف: "أقول إن التركيز لابد أن يكون على استعمال اللغة، بشرط أن ندرك أنه خاضع للمجتمع، ومن ثم يتفق مفهومه مع ما أسماه الخطاب"³.

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 35.

2 المرجع السابق، ص: 38.

3 المرجع السابق، ص: 41.

إن الخطاب بهذا المعنى هو اللغة غير مستقلة عن الموقف والسياق والمجتمع، وهو تحديداً بناء لغوي ينخرط في تفاعل موقعي اجتماعي أو ثقافي أو تاريخي أو سياسي، وموظف في النظام الاجتماعي كما يقول فان دايك: "تتركز مناقشتنا على الخطاب بوصفه شكلاً نصياً محدداً من توظيف اللغة في النظام الاجتماعي"¹.

● **النص:** يتبنى لسانيو التحليل النقدي للخطاب تصورَ مايكل هاليداى للنص الذي لا يفرق بين المنطوق والمكتوب؛ فالنص هو المنتج اللغوي المكتوب أو المنطوق بمعزل عن سياق التفاعل، أي قبل أن ينتقل إلى مرحلة خطاب². ومعنى ذلك أن أي ظهور فعلي للغة هو نص، شرط أن يتجاوز حد الجملة³. بيد أن هذا التعريف لا يقصي قدرة وصف الأبنية النصية على تحليل الخطاب، فالمعالم الشكلية للنص لها دلالة أو دلالات تسهم في تحليل التفاعل الخطابي. وبمعنى أدق، فإن تحليل النص جزء من تحليل الخطاب كما يرى نورمان فيركلف⁴. وتتحدد هذه المعالم الشكلية في أربعة مستويات: المفردات، والنحو، والتماسك، وبناء النص⁵.

● **البنى الجزئية والبنى الكلية:** تعني البنى الجزئية كل ما يتعلق بالتواصل اللغوي الكتابي أو الشفهي بمختلف أنماطهما، وتعني البنى الكلية كل ما يدخل في إطار الممارسة الاجتماعية؛ ويشكلان معاً مستويين متعاليين في كل ممارسة خطابية⁶. أما على مستوى التحليل، فالمحلل الناقد للخطاب يأخذ على عاتقه أن يجد الصيغ الملائمة للربط بين التوصيف اللساني النصي والخطابي والتفسير الاجتماعي؛ لأن بين التوصيف اللساني والتفسير الاجتماعي فجوة لا يتحقق التحليل النقدي للخطاب إلا بتجسيدها على حد تعبير فان دايك⁷؛ أي إن المحلل ملزم بأن يربط كل النتائج التي توصل إليها في الوصف اللغوي بآثار الخطاب في نطاق الممارسة الاجتماعية. فما تتضمنه البنى الجزئية من القيم الدلالية والخبرانية والتعبيرية التي ينتجها استعمال اللغة نصياً وخطابياً، يتوق لا محالة إلى ممارسة

1 فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 78.

2 نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، ص: 17.

3 نورمان فيركلف، التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ص: 22.

4 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 43.

5 نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، ص: 99.

6 توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 192.

7 المرجع السابق، ص: 194.

السلطة وفرض الهيمنة اجتماعيا(فرديا أو جماعيا)؛ لذا، فعلى المحلل أن يلفي الروابط الخفية لكل خيار لساني مع مظاهر السلطة والهيمنة. ويرى نورمان فيركلف من جهة أخرى، أن بين البنى الجزئية والبنى الكلية علاقة تأثير وتأثر متبادلة؛ بحيث يسميها بجدلية الأبنية والممارسات¹. وفي نظره، فإن التأثير لا يكون في اتجاه واحد، كالأخذ بتأثير الاستخدام اللغوي في الممارسة الاجتماعية فقط؛ وإنما يرى أن الممارسة الاجتماعية نفسها لها تأثير في لغة الخطاب. كما يذهب إلى أبعد من ذلك، بحيث يرى أن جوانب التغيير التي تلحق باللغة مرتبطة بجوانب التغيير التي تعرفها الأبنية الاجتماعية بصفة عامة².

● **الممارسة الاجتماعية:** حسب تيُو فان لوفين، فإن المقصود بالممارسة الاجتماعية هو صيغ الفعل التي تُتجز بها الأنشطة والأحداث الاجتماعية، وتُنظم بها العلاقات المجتمعية بين الأفراد والمؤسسات المادية والرمزية؛ وغالبا ما تكون هذه الصيغ معلومة لدى أفراد المجتمع الواحد، ويُتواضع عليها إما ثقافيا أو تاريخيا أو سياسيا أو دينيا، وقد تكون أيضا عبارة عن صيغ للفعل معدة من قبل ذوي القدرة على اتخاذ القرارات، أو الإعلام، أو العالم الافتراضي، أو التكنولوجيا، أو العادات والتقاليد³. قد تبدو الممارسة الاجتماعية طوعية من فرد أو جماعة، ولكنها ضمنيا مصممة -كليا أو جزئيا- بفعل خطاب ما لعامل ما من عوامل التأثير.

● **النقد اللساني:** يرتبط هذا المفهوم في أصله -سواء في التحليل النقدي للخطاب أو اللسانيات النقدية- بالنحو الوظيفي النسقي، بحيث انطلق الرواد الأوائل أمثال روجر فاوُلر وغانتر كريس ونورمان فيركلف من المبدأ الوظيفي الذي يقول إن الشكل اللغوي يجيب عن الوظيفة الاستعمالية، وإن وظائف اللغة متعددة، وما يمكن أن تفعله وتتجزه الأشكال اللغوية متعدد كذلك، كما بين ذلك هاليداي(1973)⁴. وعلى هذا الأساس، فإن النقد اللساني يعني فحص الاستخدام اللغوي في علاقته بالوظيفة(الشخصية أو النصية أو الفكرية) التي يؤديها في

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 60.

2 نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، ص: 13.

3 Theo Van Leeven, discourse and practice: new tools for critical discourse analysis, OXFORD university press, 2008, pp: 06-07.

4 Halliday, M.A.K, Explorations in the Functions of Language, London: Edward Arnold, 1973.

النظام الاجتماعي¹. وعلاوة على هذه المرجعية اللسانية الوظيفية، فإن هذا المفهوم يتصل أيضا بمرجعية أخرى اجتماعية نقدية تعود إلى فكر مدرسة فرانكفورت، إذ إنه يلتقي معها في كون عملية الفحص تلك تعني درجة من الكشف عن الحقيقة المشوهة²؛ بحيث إن مهمة المحلل اللساني الناقد للخطاب تتجلى في فضح وساطة التمثيل اللساني وضلوعه في التحريف والتضليل، وعرض مظاهر التطبيع والتحكم، بغية تعزيز الوعي بخطورة الاستخدامات اللغوية من هذا القبيل³.

● **السلطة والهيمنة:** إلى جانب النص والخطاب والممارسة الاجتماعية، تُعد السلطة مفهوما مركزيا في دراسات التحليل النقدي للخطاب، ويبقى الكشف عنها هو مسعى كل بحث لساني في هذا الإطار. وتعني هنا درجة من السيطرة -كبيرة أو محدودة- على عقول الأفراد والمجموعات وأفعالهم (لا علاقة للمفهومين معا بالسلطة السياسية أو العسكرية بتاتا)؛ أي إنها تلك القدرة على التحكم في منافذ الفهم والاستيعاب وبناء التصورات من خلال وسائط الاستعمالات اللغوية⁴. إن السلطة المقصودة في هذا المقام، هي مدى نجاعة الاستعمال اللغوي في توجيه النماذج الإدراكية البشرية نحو ما يخدم مصالح المستعمل (منشئ الخطاب)، والتحكم في الموارد الاجتماعية والفكرية والثقافية والمادية والرمزية عن طريق التوظيف المخصوص للغة. وبتعبير آخر، إن السلطة هي التمكن من الإنتاج الرمزي الذي تبنيه اللغة في النص والخطاب، ومنه تنظيم الإدراكات العامة وتصميمها وامتلاكها. بل إن سلطة اللغة -موضوع البحث اللساني في هذا المجال- تفكر، وتخطط، وتبني، وتتفاعل، وتصنع الخطاب والإدراك والممارسة الاجتماعية على حد تعبير سيغفريد جاجر⁵. أما الهيمنة فلحظة أو نتيجة لنجاح مساعي اللغة في فرض سيطرتها على العقول والاختيار والعقائد. ومؤدى ذلك أنها تعني إفلاح سلطة الخيار اللساني في إحداث التوازن غير المستقر

1 Fowler, Roger, On critical linguistics, in: Carmen Rosa Caldas -Coulthard and Malcolm Coulthard, Texts and Practices- Readings in Critical Discourse Analysis, Taylor & Francis e-Library, 2003, p: 03.

2 Ibid, p04.

3 Fowler, Roger, On critical linguistics, p: 05.

4 فان دايك، الخطاب والسلطة، ص.ص: 195-196.

5 Siegfried Jager, Discourse and knowledge: Theoretical and methodological aspects of a critical discourse and dispositive analysis; in: Ruth Wodak and Michael Meyer, METHODS OF CRITICAL DISCOURSE ANALYSIS, SAGE Publication, London, 2001, p: 38.

في العلاقة بين صاحب الخطاب ومنتقيه، وبالنتيجة نجاح محاولات التغيير الخطابى ومعه التغيير الاجتماعى¹؛ أي بروز سلوك تبعية المخاطب للخطاب، ورضوخه وتسليمه بالفحوى التي عبرت عنها الاستعمالات اللغوية.

● **المعرفة/الإدراك:** لا علاقة لمصطلحي المعرفة والإدراك في التحليل النقدي للخطاب بالفلسفة أو علم النفس أو علم النفس الإدراكي مطلقا، وإنما المقصود هو مجموع المعتقدات الاجتماعية والأيدولوجية المشتركة، والأعراف والتقاليد والقيم الدينية والتاريخية، ورمزية الأحداث والشخصيات التاريخية²...؛ ويدخل في هذا المقصود كل ما يعرفه الناس عن مجتمعهم بكل سياقاته وأبعاده، محليا وخارجيا، والعلاقات القائمة بينهم، كالتجارب السابقة والآراء الشخصية، والمواقف. أما الإدراك فهو استيعاب الفرد أو الجماعة لأجزاء المعرفة الاجتماعية وآثارها التي تنقلها اللغة في ميدان الخطاب، أو ما يتوق الخطاب إلى تحفيزه أو تحريفه منها في ذهن المخاطب³. ويصح القول إن سُمي هذا الإدراك بالأنموذج العقلي الشخصي الذي تبنيه اللغة لدى مستهلك الخطاب، قبل التلقي وفي أثناءه وبعده.

حسب هذين المفهومين، يمكن تصور دور اللغة بوصفها وسيطا لتحقيق الهيمنة على النماذج الإدراكية البشرية، من خلال التمثيل اللساني لجزيئات المعرفة الاجتماعية حسب ما يخدم مصالح صانعي الخطابات، وبالتالي فهي تسهم إلى حد كبير في التجسيد المخصوص لإدراك منسق وفق الإطارات والمراجع الأيدولوجية. إلا أن هذه العملية التكتيفية للدلالة الاجتماعية على مستوى الإدراك البشري تحتاج إلى آلية قادرة على التصرف الفعال بالهدم أو التعديل أو التثبيت، وهي ما يسمى بإعادة صياغة السياق.

● **إعادة صياغة السياق:** ما يعنيه السياق حسب ثيو فان لوفين هو المقام الاجتماعى (ويتفق معه فيركلف وفان دايك وفوداك أيضا)، أما إعادة الصياغة فتعني عملية تحويلية للدلالة الاجتماعية التي يحتضنها المقام⁴. وتتم هذه العملية عن طريق التوظيف المشبوه للغة التي تكيف المعرفة عند نقلها من المجتمع إلى الخطاب، ومنه إلى الإدراك. إن كل ممارسة أو حدث اجتماعى يتضمن بالقوة جزءا (أو أجزاء) من المعرفة الاجتماعية المشاعة، فيجرح

1 نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعى، ص.ص: 118-120.

2 فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 202.

3 المرجع السابق، ص: 202.

4 Theo Van Leeuwen, discourse and practice: new tools for critical discourse analysis, p vii.

صناع الخطاب إلى إعادة صياغتها بوساطة الإمكانيات التي تتيحها اللغة ساعة بناء الدلالة على صعيد الخطاب، وبناء المعنى على مستوى الإدراك البشري. ويطلق فان دايك على عملية التحويل الدلالي للمعرفة الاجتماعية مصطلحا آخر مخالفا لمصطلح إعادة صياغة السياق كما عند فان لوفين، وإن كان المفهوم واحدا متطابقا، وهي **السيطرة السياقية**¹. ويعتبر فان دايك السيطرة السياقية (أو إعادة صياغة السياق) **منفذا** وخطوة أولى للسيطرة على الخطاب ومعه الممارسة الاجتماعية والنماذج الإدراكية البشرية، وذلك بتحديد من يشارك في التفاعل الخطابي، وموضوع التفاعل، والأنساق المعرفية الاجتماعية المستدعاة، وفرض الرقابة على المحتوى؛ كل ذلك بالقدرة على التوظيف غير البريء للغة².

• **تمثيل الفاعل الاجتماعي:** الفاعل الاجتماعي عنصر مشارك في الممارسة الاجتماعية، إن لم يكن منتجها أو متلقيها؛ فكل نص وكل خطاب -بما تضمنه- هو في الأصل تمثيل للممارسة الاجتماعية³. لذلك، فمناقشة تمثيل الفاعل الاجتماعي هي بالأساس مناقشة لجزء أو أجزاء منها. والحق أن الحديث عن تمثيل الفاعل الاجتماعي مسألة نحوية ذات صلة وثيقة بالتمثيل الاجتماعي للمشاركين، ومقصود ذلك أن الخيار⁴ اللساني هو الذي يحسم صيغ ظهور المشاركين في الممارسة الاجتماعية التي يتجه إليها الخطاب. فالفاعل الاجتماعي حسب فان لوفين هو كل من شارك في الخطاب، سواء أكان صانعه أم متلقيه أم موضوعا له، المهم أنه تحرك أو فعل أو تقبل حدثا ما⁵. لكن السؤال المطروح هنا هو: ما هي طرق تمثيل هؤلاء خطابيا؟ وما هي قيم ظهورهم في الصيغ المخصصة اجتماعيا؟

ينطلق تيو فان لوفين في مقارنته لهذا السؤال من منطلق لساني وظيفي نسقي، وهو أن التمثيل النحوي للمشاركين يقدم معاني احتمالية كما يرى هاليداي⁶؛ بمعنى أنه لا ينتج دلالات نهائية في التأويل والإدراك، وإنما يهيئ للصانع أن يقود مستهلك الخطاب إلى أن يتصوره على النحو الذي يخدم مرجعياته المضمرة.

1 فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 45.

2 المرجع السابق، ص: 45.

3 Theo Van Leeven, discourse and practice: new tools for critical discourse analysis, p: 05.

4 Halliday, M.A.K, An Introduction to Functional Grammar p: 129.

5 Theo Van Leeven, discourse and practice: new tools for critical discourse analysis, p: 22.

6 Halliday, M.A.K, An Introduction to Functional Grammar, p129..

هناك فئات تحليلية نحوية عديدة تسعف المحلل الناقد للخطاب في أن يكتشف العلاقات الفعلية بين صانع الخطاب والمشاركين الذين يمثلهم نحويا، ومن قبيل ذلك: التأسيم، والبناء للمعلوم، والبناء للفاعل، والتعدية واللزوم، والإحالة والإضمار مثلا. ففاعل الفعل الذي يتعدى إلى مفعول أو أكثر ليس -من حيث الموقع والتأثير- كفاعل الفعل اللازم، والفاعل المذكور في سياق سلبي أو مرفوض ليس كالفاعل المحذوف. وعموما، يختار الصانع أن يمثل الأطراف المشاركين بالصيغة النحوية التي ترفع من شأن من شاء وتحط من شأن من شاء كذلك¹.

تجدر الإشارة إلى أن التركيز على ثلاثة عشر مفهوما ليس من باب الاختصار أو الاقتصار، وإنما لأنها مفاهيم أساسية ومشاركة بين المناهج الست التي تفرعت من المقاربة. كما ينبغي التنبيه إلى أن البحث سيقف عند عدد أكبر من المفاهيم الأخرى في باقي مراحلها حسب موضوعات الأبواب والفصول والمباحث.

2.3. بلاغة الحجاج الجدلي:

القطب الثاني من الإطار النظري المزدوج والمعتمد في هذا البحث هو الحجاج الجدلي، والجدل من حيث هو فاعلية حجاجية بلاغية، لا بوصفه مصطلحا فكريا فلسفيا². وإن الغاية من هذه الفقرة هي التقديم لما سيستتب في الفصل الثالث من الباب الأول، وهو خاص باستخراج إجراءات التحليل الحجاجي الجدلي للخطابات الجدلية المكتوبة والمنطوقة؛ ثم لما سيُعرض من الأسئلة البحثية ضمن النموذج المقترح للمقاربة اللسانية الحجاجية التي تتوق هذه الأطروحة إلى بنائها نظريا وعمليا في الباب الثالث.

وعليه، فلا مناص -قبل التطرق إلى الإجراءات المستتبطة والمقترحة في الفصل الثالث من الباب الأول- من التذكير بأبرز مصادر التنظير الحجاجي عند العرب، وتمييز اتجاهات

1 Theo van Leeuwen, The Representation of Social Actors, in: Carmen Rosa Caldas – Coulthard and Malcolm Coulthard, Texts and Practices– Readings in Critical Discourse Analysis, Taylor & Francis e-Library, p: 32.

2 تجدر الإشارة في هذا الموضع إلى أن مصطلح الجدل في هذه الأطروحة سيظهر بمفهومين مختلفين: الأول في إطار التحليل النقدي للخطاب، وهو متعلق بالعلاقة الجدلية بين الممارسة الخطابية والممارسة الاجتماعية (تأثير وتأثر). والثاني في إطار البلاغة العربية، بوصفه ممارسة حجاجية تناظرية تخاطبية أو خطابية.

نظرية الحجاج العربية، والأسس والعناصر التي تقوم عليها الممارسة الحجاجية، ثم بسط بعض المفاهيم الأساسية.

1.2.3. مصادر التنظير للحجاج عند العرب:

لم تستقل بيئة علمية محددة بتخصصها في دراسة الحجاج، وإنما توزعت جهود العلماء من حقول علمية متعددة في التنظير له. وتعد علوم أصول النحو، والبلاغة، وأصول الفقه، أبرز البيئات العلمية التي قدمت مصنفات خاصة بالدرس الحجاجي، والتأصيل لقواعده وضوابطه ومصطلحاته وآدابه. ولا يعني هذا المعطى أن مناقشة الحجاج قد توقفت عند حدود هذه العلوم الثلاثة، بل إن هناك علوماً أخرى عرفت حركية ونشاطاً بالغى الأهمية في هذا الباب، كفقه اللغة، والفقه، والنقد الأدبي، وعلم الكلام، والفلسفة الإسلامية. ولعل العامل الذي يدعو إلى التركيز على علوم أصول النحو والبلاغة وأصول الفقه، هو أنها اتخذت الحجاج مبحثاً أساسياً منصهراً في تخصصاتها، وشرطاً من شروطها، علاوة على توفيقها بين التنظير والتطبيق والتعليم. أما غيرها من العلوم المذكورة، فقد كان فيها الحجاج الجدلي ميداناً للتناظر من أجل تحقيق النظر في مسائلها الخاصة، والحسم في الصراعات التي كانت تنشب بين الفقهاء والنقاد والفلاسفة واللغويين في مسائل خلافية، لا قضية أو مبحثاً علمياً.

وبين البلاغة من جهة، وأصول النحو وأصول الفقه من جهة أخرى، فرق من نوع آخر؛ فإذا كان البلاغيون قد درسوا الحجاج من ناحية البيان والإقناع، ووصلوه بجودة اللفظ وشرف المعنى، وحسن الأداء والعرض والنطق والاستدلال، فإن أصوليي النحاة وأصوليي الفقه قد نظروا في الحجاج من جهة قدرته على الوصول إلى الخلاصة العلمية، واستنباط الأحكام النحوية والشرعية، فركزوا على طرق الوصول إلى الحقيقة، وإظهار الحق، وإزهاق الباطل، والتوسل بكلام العرب، والمبادئ القرآنية والحديثية. والحق أن هذا الفارق عينه هو ما جعل أصول النحو وأصول الفقه علمين حاضنين للمفاهيم أو الآراء الحجاجية التي يشكل أغلبها عناصر نظرية الحجاج العربية.

إن الناظر في ما تراكم من البحوث التعقيدية النحوية، والبلاغية، والأصولية، يلقي فيها مدونةً عربية خالصة ومتخصصة تشكل مصدراً كافياً ووافياً يؤصل للحجاج وإجراءاته وقواعده ومفاهيمه. فالبنسبة إلى علم أصول النحو، فلم يكن الحجاج فيه مجرد وسيلة للفصل بين الفرق

المتصارعة حول أدلة التقييد فقط، وإنما كان هذا العلم مصدرا أساسا لوضع جهاز مفهومي رصين ومتخصص في الحجاج. وما يميز هذا الجهاز المفهومي هو أنه -في كليته- صالح لأن يطبق في تحليل النصوص الحجاجية والخطابات الجدلية، أو لتعليم أصول المناظرة والمجادلة والخطابة.

إن مفاهيم مثل الاستدلال بأنواعه، والمعارضة، والنقض، والعلة بأنواعها، والقياس بأنواعه، والدليل العقلي، والسبر والتقسيم، وعدم الدليل، وعدم النظر، والقلب، والشذوذ، والنقل، وتخطئة الناقل...، ليست مصطلحات خاصة بأصول النحو فقط، وإنما هي مصطلحات اعتُمدت من لدن علماء البلاغة أنفسهم في تأصيلهم للحجاج، كمفهوم الاستدلال، والاستقراء، والسبر والتقسيم، والتمثيل، والعكس، وعكس النظر، عند السكاكي مثلا¹؛ وهي في أصلها مصطلحات مستقدمة من علم أصول الفقه إلى أصول النحو. وإن النظر في حملتها الدلالية يكشف عن وجود سمتين غالبتين ومشتركتين فيها كلها، وهما: الاختلاف والبت. والحق أنها لا تصلح للفصل في المسائل الخلافية المتعلقة بأدلة النحو أو غيرها من الأدلة فقط، وإنما هي صالحة لأن تُتخذ عدة لنقد الخطابات والنصوص المكتوبة والمنطوقة لسانيا أيضا، ووفق مبادئ التحليل النقدي للخطاب كما سيأتي في البابين الأول والثالث.

يكفي الباحث عن علاقة الحجاج بأصول النحو أن ينظر في بعض المؤلفات المتخصصة في هذا المجال؛ وعلى سبيل المثال، ألف كمال الدين بن الأنباري رسالة خاصة بالجدل سماها "الإغراب في جدل الإعراب"، وفي مقدمتها يقول: "وبعد، فإن جماعة من الأصحاب اقتضوني بعد تلخيص كتاب "الإنصاف في مسائل الخلاف" تلخيص كتاب في جدل الإعراب معرّي عن الإسهاب، مجرد عن الإطناب، ليكون أول ما صنّف لهذه الصناعة في قوانين الجدل والأدب، ليسلكوا به عند المجادلة والمحاولة والمناظرة سبيل الحق والصواب، ويتأدبوا به عند المحاوراة والمذاكرة عن المناكرة والمضاجرة في الخطاب، فأجبتهم على وفق طلبتهم طلبا للثواب، وفصلته اثني عشر فصلا على غاية من الاختصار تقريبا على

1 خصص السكاكي القسم الرابع من كتابه لعلم الاستدلال، إلا أن الاستدلال الذي يتحدث عنه لا يعني الاحتجاج من أجل التقييد اللغوي أو النحوي أو البلاغي؛ وإنما قدم رؤية حجاجية لغوية لخواص التراكيب، كالجمل الشرطية، والجمل الخبرية، والجمل المركبة التي تجمع بين الخبرية والشرطية. وقد استقدم في هذه الرؤية مصطلحات حجاجية وطبق ما تدل عليها على التراكيب الجمالية. ويمكن القول عن هذه الرؤية أنها اجتهاد خاص بالسكاكي، لأنه درس مكونات الجمل وعلاقاتها حجاجيا. انظر: السكاكي، "مفتاح العلوم"، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1987، ص.ص: 435-513.

الطلاب"¹. إذن فالرسالة كتابٌ ألفه ابن الأنباري لغاية واضحة هي التنظير للحجاج الجدلي وتعليمه للطلاب. ولكن، لم يفته أن يوضح أن كتابه هو أول مصنف حجاجي جدلي في إطار علم أصول النحو، كما لم ينسَ أن يشير إلى أن ما يتضمنه الكتاب يصلح لكل مناظرة ومجادلة في أصول النحو والأدب وغيرهما، محيلاً إلى دونهما بالخطاب.

تُسَعَف القراءة المتعمقة في رسالة "الإغراب في جدل الإعراب" في الاستزادة بأهم ما يمكن البناء عليه لاستنباط مبادئ الجدل ومقومات بناء البرنامج الحجاجي المحكم. على سبيل المثال اليسير، شدد ابن الأنباري على التزام ما يصح به السؤال²، وإحكام صيغته (المسؤول به)³، ووضوح القضية موضوع السؤال (المسؤول عنه)⁴، وأهلية الخصم (المسؤول منه)⁵، وحسن ترتيب الأسئلة⁶، وإحكام الجواب دون غموض ولا استيهام في حالة التلقي⁷. كما بين طرق الاستدلال وأنواع الاعتراض عليه⁸، وترجيح الأدلة ومناسبتها للسؤال والجواب⁹. وإن كانت هذه الأصول النظرية قد أُعدت خصيصاً للخائضين في الجدل حول المسائل النحوية والتعقيدية كما صرح كمال الدين الأنباري في النص أعلاه، فإنها هي نفسها -أو بعضها- التي نجدها عند بعض علماء البلاغة كابن وهب الكاتب في "البرهان في وجوه البيان"، أو عند بعض علماء أصول الفقه كالجويني في "الكافية في الجدل"، أو الباجي في "المنهاج في ترتيب الحجاج"، وغيرهم.

ويتضمن كتاب "الاقتراح في أصول النحو" لجلال الدين السيوطي ترسانة من المصطلحات التي تحيط -في اتصالها وتضامها- بجزئيات التحليل البلاغي للحجاج في

1 كمال الدين ابن الأنباري، الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة، تحقيق سعيد الأفغاني، دار الفكر، ط2، بيروت، 1971، ص.ص: 35-36.

2 كمال الدين ابن الأنباري، الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة، ص.ص: 36-37.

3 المرجع السابق، ص.ص: 39-42.

4 المرجع السابق، ص: 43.

5 المرجع السابق، ص: 42.

6 المرجع السابق، ص.ص: 64-65.

7 المرجع السابق، ص: 44.

8 المرجع السابق، ص: 45 وما بعدها.

9 المرجع السابق، ص.ص: 65-68.

الممارسة الشفهية والكتابية. من قبيل ذلك، التعليل¹ وما يتفرع منه، كالتعليل بعلتين²، والتعليل بالعلة القاصرة³، وتعارض العلل. والحق أن هذه المصطلحات تفيد كثيرا من المبادئ الحجاجية المعمول بها في تعليم الجدل وتحليله قديما وحديثا، كاستقصاء ما يتعارض من العلل والحجج المقدمة في منطوق المخاطب، والحدز من ضعف السؤال والجواب، وتبنيه الخصم إلى المفارقات في كلامه. ومعنى كل ذلك أن على قارئ الخطاب المكتوب أو المستمع في حالة التخاطب والخطابة، أن ينتبه إلى الحجج والبراهين والعلل المقدمة من الكاتب أو الخطيب أو الخصم في مراحل منقطعة من مسار الممارسة الخطابية، ويتصيد تعارض سابقها مع لاحقها مثلا، ويتبين العلة أو الحجة القاصرة.

أما في أصول الفقه، فتتفق معظم المؤلفات التي صنفت في الحجاج حول جل أبوابه ومباحثه، كأداب الجدل، وضوابطه، ومبادئه، وتقنيات السؤال والجواب فيه؛ وهي كلها مباحث بلاغية صرفة تضمنتها كتب شرعية أصولية. من أمثلة هذه المؤلفات: "الكافية في الجدل" للجويني، و "المنهاج في ترتيب الحجاج" للباي كما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ ففيهما معا خطاطة ذهنية لأهم ما يُحتاج إليه في ممارسة هذه الصناعة وتحليل خطاباتها، ومؤلفاهما يتجهان إلى القارئ في وضعين: بوصفه ممارسا (متكلما ومستمعا)، ثم بوصفه محللا.

من أوجه التنظير للحجاج في الكتابين، بعض المبادئ المتعلقة باستقصاء الأمن من خطاب الخصم⁴، كالحرص على تحصيل دلالات خطابه⁵، وتدبير تمويهاته⁶، وحصر ألفاظه ومعانيه⁷. ثم بعض مبادئ الإنجاز الحجاجي، كمحافظة الممارس على موقعه⁸، واستدلاله

1 جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، ص.ص: 249-373.

2 المرجع السابق، ص.ص: 288-293.

3 المرجع السابق، ص.ص: 284-287.

4 الجويني، الكافية في الجدل، تحقيق فوقية حسين محمود، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1979، ص: 535.

5 المرجع السابق، ص: 540.

6 المرجع السابق، ص: 536.

7 المرجع السابق، ص: 535.

8 المرجع السابق، ص: 531.

بأقوى الحجج¹، والاحتراز من تأثير الأداء على القدر ساعة المحاججة². ناهيك عن آداب الجدل³، مثل حسن الابتداء، واحترام الخصم، وتجنب التقليل من أخطائه، وغيرها.

حرص علماء أصول الفقه على الإحاطة بجميع ما يُحتاج إليه في الحجاج على جميع المستويات، سواء ما تعلق بلغة الممارس، أو كفاءاته النفسية والاجتماعية، أو معرفته الموسوعية، أو الأداء والفصاحة والبيان، أو الاحتراز من هجومات الخصم، أو مطالب التأديب والأخلاق (خصوصا إظهار الحق وإبطال الباطل). كما أنهم استحضروا -تنظيرا وتعلّما- في كل ذلك وضعيات الممارس حسب نوبته في دورة الكلام (بوصفه متكلمًا ومخاطبًا)، إضافة إلى أنهم قدموا برنامجا تحليليا يسترعي كل المستويات المذكورة بالنسبة إلى المحلل الناقد. ومنه، بالإمكان استثمار ما جاء في مؤلفات أصول الفقه متعلقا بالحجاج في بناء برنامج لتحليل حجاجي متكامل، وقادر على الوصف والتفسير لأصناف الخطابات المتضمنة للحجاج كلية أو بشكل جزئي.

وفي علم البلاغة، يصعب الحديث عن استقلال مبحث الحجاج عن باقي مباحثها، إذ إن البلاغة والحجاج متواشجان؛ والأكثر من ذلك، فقد عدّ الحجاج من البلاغة وشرطا من شروط الفصاحة والبيان⁴. لذلك، يمكن العثور على الآراء الحجاجية في ثنايا المؤلفات البلاغية وهي تضبط شروط الفصاحة والبلاغة والبيان في الشعر والنثر (كالرسائل والخطابة والأحاديث..). ففي كتاب "البيان والتبيين" مثلا، عدّ الجاحظ الحجاجَ وجها من أوجه البلاغة، ومقوما من مقوماتها، ولبنة من لبناتها⁵. ولم يكتفِ بذلك فقط، وإنما نظر إلى علاقة المقدرّة النفسية بالمقدرة البيانية ودورها في بناء الخطاب الحجاجي المقنع، كما ربط نجاعة الممارسة الحجاجية باستحضار السياق الاجتماعي والقدرة على مراعاة الأبعاد الثقافية لفضاء التحاجج

1 الجويني، الكافية في الجدل، ص 534. وأنظر أيضا: الباجي أبو الوليد، المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 2000، ص: 10؛ وابن تيمية، تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل، تحقيق علي بن محمد العمران ومحمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، جدة، بدون تاريخ. ص: 05.

2 الجويني، الكافية في الجدل، ص: 529. وانظر أيضا: المنهاج في ترتيب الحجاج، ص: 09.

3 الجويني، الكافية في الجدل، ص: 538. وأنظر أيضا: المنهاج في ترتيب الحجاج، ص.ص: 10-11.

4 الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، ص: 88.

5 المرجع السابق، ج01، ص.ص: 115-116.

وأهله وخصوصياتهم¹. ناهيك عن تقديمه لأهم ما يجب أن يتوفر من صفات ونكاءات وشروط في المحاجج، كالقدرة على وقاية حجاجه بجودة كلامه ونظمه المحكم²، وطرائق التخلص من المراوغات والاستدرجات³، وثبات الفكر، وإتقان الترتيب والتصنيف، ومعرفة منافذ الخطر على برنامج الحجاجي(كالي وعيوب النطق والسقوط في مطبات الإمتاع والاستمتاع)⁴.

ويعد كتاب "البرهان في وجوه البيان" لابن وهب الكاتب، أحد المؤلفات البلاغية التي تضمنت الممارسة التنظيرية للحجاج كذلك؛ فإذا كان قد صنف كتابه لغاية إيضاح وجوه البيان، فقسمه إلى أربعة وجوه: بالاعتبار، وبالاعتقاد، وبالكتاب، وبالعبارة⁵، فإنه خصص الوجه الرابع لفن الحجاج الجدلي، مقدما تعريفا بلاغيا له، وموضحا المقامات التي يُعمل فيها⁶. كما أنه قدم رؤيته الخاصة في أبرز الإجراءات الحجاجية على غرار الجاحظ والجويني، كأقسام الجدل، وصفات المجادل وشروطه، والبناء الحجاجي ساعة الأداء، وآداب الجدل⁷، وبعض المفاهيم المركزية كالعلة والحجة مثلا.

وعلى هذا النهج سار أبو هلال العسكري في كتاب "الصناعتين"، إذ خصص لآرائه في الحجاج بابا سماه بـ"في الاستشهاد والاحتجاج"؛ وفيه نفى عن غير المتمكن من أصول الجدل أن يخوض في الإعجاز القرآني بفلاح، وذكر أهم الإجراءات البلاغية واللغوية والأدائية التي يقوم عليها الحجاج؛ ومن تلك الأصول: حسن المناظرة، وتمام آلة الجدل، وشدة الشكيمة⁸. كما اعتبر الدراية في أصول الحجاج والقدرة على ممارسته وإتقانه أعلى مرتبة بلاغية كما يقول: "أعلى رتب البلاغة أن يُحتج للشيء المذموم حتى يخرج في معرض المحمود، وللمحمود

1 تحدث الجاحظ عن ضرورة مراعاة المحاجج للسياق الاجتماعي، وذلك بتسخير درجات المعنى إلى ما يناسب المخاطب والجمهور، فمعاني الخاصة للخاصة ومعاني العامة للعامة. أنظر: البيان والتبيين، ج01، ص: 136.

2 بين الجاحظ منافع كثيرة لجودة نظم الكلام، فمنها ما هو جمالي ومنها ما هو حجاجي إقناعي، إذ يقول غن الكلام المنظوم: (أجدر أن يمنع جانبن من تناول الطاعنين، ويحمي عرضه من اعتراض العائبين)؛ الجاحظ، البيان والتبيين، ج02، ص: 08.

3 المرجع السابق، ج01، ص: 212.

4 ذكر الجاحظ في "البيان والتبيين" كثيرا من عيوب الكلام التي تحط من قيمة المحاجج، وطالما شدد على عيوب النطق والأداء كما في الصفحة 12 من الجزء 01.

5 ابن وهب، الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، مصر، 1979، ص: 56.

6 المرجع السابق، ص: 176.

7 المرجع السابق، ص.ص: 177-178.

8 أنظر. (باب في الاستشهاد والاحتجاج) في: أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 2006.

حتى يصيره في صورة المذموم¹. وفي هذا الكلام وغيره مما جاء في الصناعتين، يظهر أن نظرة العسكري للحجاج كانت بلاغية صرفة، لا هي جدلية ولا لغوية منطقية؛ بحيث إنه عد الحجاج مرتبة من مراتب البلاغة، والقدرة على الإقناع بالأسلوب والنظم وتأليف الكلام على الوجه المقنع الذي تقبله العقول وتستأنسه القلوب.

ولأن الحجاج لا ينفصل عن البلاغة عند العرب، فإنه لم يحظَ بمؤلفات صنفت له خصيصاً كما في أصول الفقه وأصول النحو؛ إذ إن النظرات العلمية التي شملت أطراف هذا الفن جاءت متواشجة مع آراء العلماء في مسائل النظم، والبيان، والأداء، والتركيب، والأسلوب وغير ذلك. ولا يمكن قصر الجهود العلمية حول الحجاج الجدلي في هذه الحقول الثلاثة على ما ذكر من العلماء والمؤلفات فقط، فكثيرة هي الكتب المصنفة في هذا الموضوع، وعدد العلماء الخائضين فيه كبير؛ وبالإمكان الإشارة هنا إلى غير من ذكر، كالشاطبي في "الموافقات"، وحاتم القرطاجني في "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، والخطابي في "الغنية"، وابن تيمية في "التنبيه"، والأسفرائني في "آداب الجدل"، والشيرازي في "المعونة في الجدل"، وبرهان الدين النسفي في "فصول في الجدل"، وابن سينا في "الشفاء"، والبغدادي في "كتاب الجدل"، والغزالي في "المنتخل في الجدل"، والطوفي في "علم الجدل في علم الجدل"، وغيرهم كثير. وتلك مؤلفات سيستدعي البحث بعض خلاصاتها المتصلة بأهدافه في الباب الأول.

2.2.3. مسارات التأليف بين الشمولية والتصنيف:

تغلب على جهود العلماء العرب في التأليف للحجاج العناية بالتناظر الجدلي القائم على التخاطب. وتلك خاصية نابعة من كون الممارسة التنظيرية تأتي من الحاجة إلى مصنفات تأصيلية أو تعليمية لفن الجدل في ميادين معرفية عديدة، اضطرت الناس إلى التواجه والمضاجرة لمناقشة مسائل عالقة، أو مثيرة للخلافات والصراعات. وعلى هذا الأساس، انصبت جل الآراء حول الحجاج من زاوية التناظر والتدافع مشافهة. وتتغذى العناية بهذا النمط من رافد آخر، وهو اختلاط مبحث الحجاج بقضايا الفصاحة والبيان، وقواعد الفهم والإفهام، والدراية بأصول الخطابة. لذلك، قد يظهر أن التأليف في الحجاج الجدلي كان ذا طابع شمولي، وأنه لا وجود لوعي باختلاف المسارات أو الاتجاهات الحجاجية، وهي نظرة مشروعة لها ما يدعمها من المؤشرات. أو ربما قد تبدو الآراء العربية الحجاجية موزعة في مسارين على الأكثر:

1 أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 53.

الحجاج البلاغي الأسلوبى المحتاج إليه فى الكتابة والمكاتبه والمخاطبه، ثم الحجاج التخاطبى الذى ينشط فى المخاطبه فقط.

فى الحقيقه، وإن كانت جهود العرب تتصف بشموليه التنظير دون تصنيف ولا حصر أو تمييز بين المسارات (وهذا الأمر معزو إلى الرافد السابق وإلى رافد آخر هو النزعه الموسوعيه لدى العلماء)، فإن استقصاء بعض المؤلفات يوصل صراحه إلى مؤشرات تؤكد بأن وعى المؤلفين بالاختلاف بين مسارات الحجاج كان حاضرا، وهو حاصل ماديا ومعنويا. ومن هذه المؤشرات أن الحجاج نال عناية أخرى من جانب آخر يفرض نفسه مسارا ثالثا يضاف إلى المسارين السابقين، وهو حجاج اللغة الذى يمكن أن يُسمى بالحجاج الجملى نسبة إلى الجملة.

من دلائل حضور هذا المسار الثالث فى المدونه النظرية العربية فى الحجاج، ما جاء عند السكاكى فى "مفتاح العلوم" مثلا؛ ففي هذا الكتاب، وبعد أن أوفى الكلام فى علم الصرف، وعلم النحو، وعلم المعانى، وعلم البيان، استدرك على علم المعانى بباب سماه: "الاستدلال أو علم خواص تركيب الكلام"¹. ومن عنوان الباب يظهر التصور اللغوى للحجاج عند السكاكى، فرأيه أن الكلام يتركب على أساس الاستدلال بما هو إثبات أو نفي فى الجملة المركبة لا المفردة². فيوضح أن العلاقات الجامعة بين العناصر التركيبية فى الجمل المركبة هي استدلالية حجاجية بالأساس، ناهيك عن انصهارها مع الأحكام النحوية. ومنه، يظهر أنه يختص بمسار ثالث فى التنظير للحجاج عند العرب، وهو الحجاج اللغوى، أو الحجاج المحتكم إلى منطق اللغة إن صح التقدير.

درس السكاكى فى باب الاستدلال نوعين من الجمل، الخبرية والشرطية، وعدّهما جملتين للاستدلال كما يشير: "اعلم أن جملى الاستدلال: تارة تكونان خبريتين معا، وتارة تكونان شرطيتين معا، وتارة تختلفان خبرا وشرطا"³. وفى وصف فاعليتهما الحجاجيتين وتفسيرهما، استحضر العلاقات المنطقية التى تؤدي قىما إقناعية بالإثبات والنفي، واعتبر المبتدآت وجمل

1 السكاكى، مفتاح العلوم، ص: 435.

2 فى تعريفه للاستدلال، بين السكاكى أنه إما أن يكون إثباتا للمبتدأ بالخبر، أو أن يكون نفيًا له به. وهنا، يقصر الاستدلال وفق هذا المفهوم على الجمل المركبة لا المفردة كما يقول فى التعريف: "وهو اكتساب إثبات للمبتدأ، أو نفيه عنه، بواسطة تركيب جمل، وقولي: بواسطة تركيب جمل، تنبيه على ما عليه أصحاب هذا النوع من إباء أن يسموا الجملة الواحدة حجة واستدلال". السكاكى، مفتاح العلوم، ص: 438.

3 السكاكى، مفتاح العلوم، ص: 440.

الشرط مقدمات، والأخبار وجمل أجوبة الشرط والجمل الاسمية التي تقع خيرا للمبتدآت الأولى نتائج. كما وظف زمرة من المفاهيم ذات الحمولة الحجاجية، وهي مفاهيم شائعة في علوم المنطق وأصول النحو وأصول الفقه كما سلف، وهي نفسها التي تمت الإشارة إليها أعلاه؛ من قبيلها: العكس¹، وعكس النظير²، وعكس النقيض³، وقياس الخلف⁴، وعكس القياس⁵، والتقسيم والاستقراء وقياس التمثيل⁶. كما بين تركيب الدليل في الصيغ الاستثنائية، من حيث الإثبات والنفي كذلك⁷.

استنادا إلى جهد السكاكي وآرائه اللغوية في باب الاستدلال، فقد حق له أن يكون رائدا لمسار التأليف الحجاجي اللغوي المنطقي، لينضاف إلى مسار الحجاج البلاغي الأسلوبية، ومسار الحجاج التخاطبي. إلا أنه لم يعتنِ بالحجاج التخاطبي كما حصل مع علماء أصول النحو وأصول الفقه، بل وضح نظريا وبأمثلة تطبيقية كيف تكون بعض أجزاء العناصر التركيبية (كالمسند والمسند إليه) حجة على جارتها داخل الجملة عينها. وإذاك فإنه يؤصل لتيار حجاجي لغوي صرف يتقاطع مع اتجاه الحجاج اللغوي المعاصر على مستوى الجملة، كما أصل له بعض علماء الغرب منذ منتصف السبعينات كأوزفالد ديكر و أنسكومبر⁸، والعربي كأبي بكر العزاوي⁹ خلال العقود الأربعة الأخيرة. وأبرز مظاهر هذا التقاطع هي دراسة حجاجية الأداة كما فعل السكاكي مع الاستثناء بـ(إلا)، و(كلما) و(إما) الشرطيتين¹⁰ على سبيل التمثيل؛

1 السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 464.

2 المرجع السابق، ص: 465.

3 المرجع السابق، ص: 479.

4 المرجع السابق، ص: 502.

5 المرجع السابق، ص: 503.

6 المرجع السابق، ص: 504.

7 المرجع السابق، ص: 507.

8 Ducrot et Anscombe, L'Argumentation dans la langue, Language, N°42, France, 1976, pp: 05-27.

9 العزاوي، أبو بكر، اللغة والحجاج، دار العمدة في الطبع، ط1، 2006.

العزاوي، أبو بكر، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2010،

العزاوي، أبو بكر، اللغة والمنطق، مطبعة طوب بريس، ط1، الرباط، 2014.

10 السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 490.

إضافة إلى دراسة حجاجية العبارة والكلمة كالمبتدأ والخبر، والطاقة الاستدلالية التي تنتج عن المبتدأ الثاني في الجملة المركبة، وحجاجية الجملة الصغرى بكونها حجة على الجملة الكبرى¹.

إن المنحى الذي تسلكه هذه الأطروحة في التعامل مع معطي الشمولية والتصنيف، هو الفصل بين هذه المسارات التنظيرية للحجاج؛ بحيث تنطلق من التمييز بين ثلاثة: (1) الحجاج البلاغي الأسلوبى (مع ابن وهب الكاتب والعسكري والجاحظ وابن الأثير² مثلاً)، (2) الحجاج التخاطبى (مع علماء أصول النحو وأصول الفقه والجاحظ)، (3) الحجاج اللغوى المنطقى (مع السكاكى). وليس المقصود بهذا التصنيف هو الاقتصار على مسار دون الآخرين، وإنما الغاية الحقة هي التمييز بين المسار الذي يخدم تحليل الخطابات الجدلية التحوارية المنطوقة (حجاج التخاطب) ليوظف حيث يليق به، والمسار الذي يصلح لتحليل الخطابات المكتوبة (الحجاج اللغوى المنطقى)، والثالث الذي يصلح لتحليل الجميع (الحجاج البلاغى الأسلوبى). كل ذلك لأن من أهداف الأطروحة أن تبني - بالتوفيق بين نظرية الحجاج العربية والتحليل النقدي للخطاب - نموذجاً لمقاربة لسانية حجاجية لنقد نمطي الخطاب المنطوق (خطابة وتخطاب) والمكتوب.

3.2.3. أسس الممارسة الحجاجية:

من تصنيف مسارات التنظير للحجاج في التراث اللغوى والبلاغى والشرعى العربى، يمكن الخروج - توفيقاً بين مباحثها وقضاياها - بترسيمة لأبرز الأسس التي قام عليها الحجاج في التصور النظري العربى. فالمشترك بين جميع المسارات خاصيتان: البناء المحكم للبرنامج الحجاجى، ثم النسق الاستدلالي على اختلاف أدواته ووسائله. أما ما تختلف فيه، أو يحضر في أحدها ويغيب في الباقي فهو: العناية بالطاقة الحجاجية للعبارة والأساليب المعنوية والبيانية والبديعية (الحجاج البلاغى الأسلوبى)، والتركيز على القيم الحجاجية للأدوات اللغوية

1 السكاكى، مفتاح العلوم، ص.ص: 438-440.

2 ضم فصل الصناعة المعنوية من كتاب "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" لابن الأثير ثلاثين نوعاً، وعلى امتدادها يتجه إلى أهل النثر وأهل الشعر بأهم الصوابط والمبادئ البلاغية الأسلوبية التي توجد الصناعة الكلامية عامة (كالاستعارة والكناية والتقديم والتأخير..). أما ما له صلة بالحجاج فهو النوع الرابع عشر المعنون بـ (الاستدراج)؛ والاستدراج مصطلح بلاغى حجاجى ورد عند غيره كحازم القرطاجنى، وفيه وصل العلاقات الحجاجية التي تؤدي فيما إقناعية بصيغ التعبير والصيغ الأسلوبية من بابى المعانى والبيان. وبذلك - وإن لم يرد عنده مصطلح الحجاج أو الجدل - فإن آراءه حول الاستدراج (وهو مصطلح حجاجى خالص) تعتبر مواقف نظرية في كفاءات بناء الممارسة الحجاجية بالأساليب البلاغية.

ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1990، ص.ص: 64-66.

والكلمات والعناصر التركيبية وفق علاقاتها المنطقية المجردة (الحجاج اللغوي المنطقي)، ثم الإحاطة بمبادئ الأداء والعرض والنطق والتثبت عند استقبال هجومات الخصم وردوده وحسن تدبيرها ودفعها (الحجاج التخاطبي الجدلي). وبذلك، فإن الإحاطة بكل هذه الأسس المشتركة والمختلفة تعني الإحاطة بمفاصل النظرية الحجاجية بصفة عامة، نسبياً؛ وهي كلها صالحة لأن توظف في تحليل جميع أنماط الخطابات المنطوقة والنصوص المكتوبة. ويوضح الجدول الآتي المسارات الثلاث مع ما تركز عليه من المباحث:

الأداء	الأسلوب	منطق	نسق	البناء	الأسس
الجدلي	والصورة	اللغة	الاستدلال		المسارات
التخاطبي	التعبيرية				التنظيرية
					الحجاج البلاغي الأسلوبي
					الحجاج اللغوي المنطقي
					حجاج التخاطب

جدول رقم(1): المسارات التنظيرية العربية في الحجاج وأسسها

تتشارك المسارات الثلاث في العناية بالبناء الخطابي واعتماد النسق الاستدلالي عموماً. إلا أنها تختلف في جوانب أخرى، فبالنظر إلى المسارين الأول والثاني، فإنهما لم يوليا الأداء الجدلي التخاطبي أي اهتمام، لأن ميداني اشتغالهما هما الصور التعبيرية والأساليب البلاغية ثم العلاقات المنطقية المجردة بين العناصر النحوية في التركيب على التوالي. في حين أن المسار الثالث، أي حجاج التخاطب، فيستوعب كل المباحث والجوانب المشتركة والمختلفة في المسارين الآخرين، بالإضافة إلى ما انفرد به: الأداء التخاطبي الجدلي. ومنه، فإن اشتراكات هذه المسارات واختلافاتها تسعف البحث في استنباط مفاهيم وإجراءات تحليلية لجل أنماط الخطابات التعبيرية اللفظية وغير اللفظية.

مرة أخرى، من أغراض هذه الأطروحة أن تحترم هذا التصنيف، وتعتمده في بناء المقاربة المقترحة في النقد اللساني لكل أنماط الخطابات في تضافرها مع آليات اشتغال التحليل النقدي للخطاب. لذا، فإن البحث سيعمد في البابين الأول والثالث إلى استخراج الإجراءات التحليلية والمفاهيم الحجاجية المنسجمة مع غرضه العام حسب ما يلائم كل نمط خطابي على حدة، بغية بناء المقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة في بداية الباب الثالث.

الباب الأول

مداخل نقدية للغة والخطاب

بين اللسانيات والنظرية الاجتماعية وبلاغة الجدل

الفصل الأول:

نقد استعمال اللغة في اللسانيات

الفصل الثاني:

نقد التواصل اللغوي في النظرية الاجتماعية

الفصل الثالث:

نقد منافذ سلطة التفاعل في بلاغة الجدل

تقديم:

يضم هذا الباب ثلاثة فصول، يعرف الأول بمفهوم النقد في التحليل النقدي للخطاب وأصله الاجتماعي، ويناقش الانتقال من وصف اللسان إلى نقد الكلام؛ كما يحاور أربعة مداخل لسانية متقاطعة مع التحليل النقدي للخطاب في التوجه اللساني النقدي، وهي التداولية، واللسانيات الاجتماعية، والمدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب، وتحليل المحادثة. وينفتح الفصل الثاني على النظريات الاجتماعية المعتمدة أساسا نظريا لمناهج التحليل النقدي للخطاب، وهي: نظرية الفعل التواصلي، ونظرية سوسيلوجيا الهيمنة، ونظرية المعرفة والسلطة، ونظرية التمثيل الاجتماعي. في حين يؤصل الفصل الثالث لآراء البلاغية العربية في موضوع الجدل، ويستخرج ما يمكن أن يكون أساسا نظريا لنقد الاختيارات الحجاجية والتفاعلية وفق منظور التحليل النقدي للخطاب. ولعل الهدف من هذا الباب هو الوصول إلى أفكار نظرية لسانية وبلاغية واجتماعية يمكن استثمارها في صياغة المقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة في هذه الأطروحة، لسانيا وبلاغيا واجتماعيا.

الفصل الأول

نقد استعمال اللغة في اللسانيات

تمهيد

1. مفهوم النقد في التحليل النقدي للخطاب

2. من وصف اللسان إلى نقد الكلام

3. محاولات نقدية لاستعمال اللغة:

خلاصة

تمهيد:

يُخصص هذا الفصل لتقديم مهاد نظري لإجراءات النقد اللساني؛ وسيتعقب لهذا الغرض المبادرات اللسانية الحديثة التي حاولت نقد استعمال اللغة، والنظر في الخطاب بالتوفيق بين التصور اللساني والمرجعية الاجتماعية. ويراعي أولاً التعريف بمصطلح **النقد** وفق حمولته المعرفية وبوصفه إجراءً لسانياً في التحليل النقدي للخطاب. كما يهدف أيضاً إلى تخليصه من الالتباسات التي تشوبه، وهي تتعلق بباقي المفاهيم الرائجة في حقول معرفية أخرى كالأدب، والمناهج النقدية الحديثة والمعاصرة في النقد الأدبي والعلوم الاجتماعية، والنقد العربي القديم؛ لذلك سيكون تدقيق هذا المفهوم من داخل مقارنة التحليل النقدي للخطاب أول خطوة في الفصل.

وتتمثل ثاني خطوة في توضيح المقصود بالانتقال من الوصف اللساني إلى النقد اللساني، وعلاقة هذا التحول بالتطورات الحديثة في العلوم الاجتماعية، إضافة إلى مساهمة كتاب دي سوسير "دروس في اللسانيات العامة" حول الفوارق أو الروابط بين دراسة اللسان ودراسة الكلام، ناهيك عن تداخل العلوم في دراسة اللغة.

وسيركز الفصل في الخطوة الثالثة على تعقب العمل النقدي للغة والاستعمال في أربعة مداخل رئيسية، تبدو أن لها علاقات قريبة وبعيدة بالتحليل النقدي للخطاب؛ والمداخل الثلاثة الأولى كلها من ضمن مقاربات تحليل الخطاب في اللسانيات، وهي: التداوليات، والمدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب، ثم تحليل المحادثة. أما المدخل الرابع فهو: فرع اللسانيات الاجتماعية، أو ما يسمى بعلم اللغة الاجتماعي حسب اختلاف الترجمة.

1. مفهوم النقد في التحليل النقدي للخطاب

1.1. النقد في مناهج التحليل النقدي للخطاب:

لا صلة لمفهوم النقد في مناهج التحليل النقدي للخطاب -وفي اللسانيات النقدية أيضاً- بما يمكن أن يُتصور أنه نقدٌ إيسيمولوجيٌّ للنظريات والنماذج والمقاربات والتصورات اللسانية القديمة أو الحديثة. كما أنه لا علاقة له بالنقد الأدبي أو الإجراءات النقدية المعتمدة في نماذج مختلفة داخل العلوم الإنسانية باستثناء ما سيرد منها في الفصل الثاني من هذا الباب. فمن الممكن أن ينساق وراء ما يمكن أن يحيل إليه المصطلح من المفاهيم العديدة أو العائمة إن

صح التعبير؛ إذ إن النقد بوصفه مساءلة وتأزيماً للمفاهيم والقضايا والمباحث العلمية شائع ومعتمد في مجالات بحثية وعلوم مختلفة، كالتقويم الإبستمولوجي للبحث اللساني العربي أو الغربي، وأصوله، وأأسسه، وخلفياته المعرفية والفلسفية، أو كالمنهج البنوي والمنهج البنوي التكويني في النقد الأدبي، أو كتيار ما بعد الحداثة مع رولان بارت ودريدا وغيرهما، أو كالمنهجية الإثنوغرافية في تحليل المحادثة كما في الولايات المتحدة الأمريكية، أو حتى في فرع علم اللغة النفسي الذي يعتمد نقد السلوك اللغوي الإنساني لفهم علاقة اللغة بخبايا النفس البشرية.

إن مصطلح النقد هنا في هذا البحث وفي تخصصه الدقيق يتجاوز مفاهيم من قبيل التدقيق والتمييز بين ما ينبغي أن يكون وما لا يجب أن يكون، إضافة إلى أنه لا يعني بيان مواطن الإتيان والجودة أو الرداءة والفساد. فجل مقاربات التحليل النقدي للخطاب -إلى جانب فرع اللسانيات النقدية مع فاوولر وزملائه- تتفق حول أن المقصود بالنقد هو فضح ما تم إخفاؤه من الأطماع الأيديولوجية في ثنايا الهياكل اللغوية على صعيد جميع المستويات اللسانية، والتفاعلية، والأدائية، والمرئية أو غير اللفظية على العموم، والهادفة إلى فرض هيمنة على شخص ما أو جمهور ما أو فئات ما¹. وفي هذا الصدد يرى روجر فاوولر في اللسانيات النقدية أن مفهوم النقد يفترض أن هناك درجة من التشويه الأيديولوجي المقصود والذكي لحقائق أو مواقف داخل الخطاب، وأن أسمى وظائفه هي إزالة هذا التشويه الذي يسعى لا محالة إلى سن نظام من القيود عبر وسيط اللغة². ولعله يتفق مع غانتر كريس حين يرى أن النقد إجراء يهدف إلى تغيير الشروط التي تُقدّر شخصا ما أو جهة ما على بناء وعي زائفٍ أو مشوهٍ من خلال الاستعمالات اللسانية في الخطاب، أو إزالتها بالإطلاق³.

من داخل التحليل النقدي للخطاب أيضا، يمكن استدعاء تحديدات اصطلاحية أخرى لمفهوم النقد، وهي وإن كانت تقترب كثيرا مما سبق، فإنها تضيف إليه سمات دلالية أخرى. من قبيل ذلك ما جاء عند نورمان فيركلف الذي يعطي للنقد معنى خاصا يفيد السعي إلى إيضاح الجوانب الخفية التي من الممكن أن تتوارى عن أنظار الناس وأفهامهم؛ ويقدم مثلا عن

1 فوداك ومايبر، من مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص: 23.

2 Fowler, Roger, On critical linguistics, p: 04.

3 Kress, G., Linguistic Processes in Sociocultural Practice, Victoria: Deakin University Press, 1985b, P: 124.

الصلات الخفية بين اللغة والأيدولوجيا والهيمنة والسلطة المجردة كما تمت الإشارة إلى ذلك سابقاً¹. ومنه، فإن الدراسة اللغوية النقدية عنده تعني تحليل جوانب التفاعل الاجتماعي عبر اللغة الظاهرة والمضمرة. وغير بعيد عن فيركلف يرى توين فان دايك أن النقد يعني بالأساس - لاسيما في إطار التحليل النقدي للخطاب- تجاوزَ وصف بنى الخطاب إلى شرحها بحسب خواص التفاعل الاجتماعي والبنية الاجتماعية لتفكيك بنى السلطة الخفية أو المستعصية على الإدراك². وبمعنى أدق، فهو يركز على ضرورة مساءلة سُبُل تمثيل أطماع الهيمنة وتفعيل علاقات السلطة وضمان استمرارها بوساطة اللغة.

لا يعني الحديث عن مفهوم النقد من الناحية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب واللسانيات النقدية أن البحث يعدُّ حكرًا على هذين التخصصين دون باقي التخصصات في فروع علم اللغة النظرية والتطبيقية، وإنما هو مفهوم تبلور ممارسةً إجرائيةً في عدد من التخصصات اللغوية الحديثة والمعاصرة، من قبيل التداولية، واللسانيات الاجتماعية، وتحليل الخطاب في المدرسة الفرنسية مع بيشوه وزملائه، وتحليل المحادثة وفق المنهجية الإثنوغرافية، والنحو الوظيفي النسقي مع مايكل هاليداي، وغيرها؛ وسيأتي الحديث عن بعضها تاليه في الفقرة الثانية في هذا الفصل الأول من الباب الأول، مع ضرورة الأخذ في عين الاعتبار أن التحليل النقدي للخطاب قد تجاوز هذه التخصصات في تعاطيها مع النقد بتفاصيل كثيرة.

2.1. الأصل الاجتماعي لمفهوم النقد:

من وجهة نظر تاريخية وبيئية، تزامن ظهور التحليل النقدي للخطاب مع نمو النماذج والنظريات والتخصصات الأخرى ذات التوجه والهاجس النقديين في العلوم الاجتماعية، مثل "علم النفس النقدي" و "السياسة الاجتماعية النقدية" و "الأنثروبولوجيا النقدية". وتلك وغيرها من التوجهات النقدية مجالاتٌ تأثرت بالانتقال الحاسم الذي حدث في النظرية الاجتماعية من الفلسفة التقليدية إلى الفلسفة النقدية مع مدرسة فرانكفورت وخصوصاً مع هابرماس³. وقد كان للتحليل النقدي للخطاب نصيب من هذا التأثير حتى إنه أُطلقت عليه في البداية تسميات أخرى

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 20.

2 توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 191.

3 Paul Chilton, Missing links in mainstream CDA: Modules, blends and the critical instinct, In: Ruth Wodak and Paul Chilton, New Agenda in Critical Discourse Analysis, John Benjamins Publishing Company, Philadelphia, 2005, p: 19.

مثل "الوعي اللغوي النقدي" أو "دراسات اللغة النقدية" أو "دراسات الخطاب النقدية"¹، بل إن فيركلف (1992a)² نفسه استخدم في البداية مسمى "اللغويات النقدية" قبل أن يستقر على مسمى التحليل النقدي للخطاب.

في هذا السياق، كان متاحا منذ شيوع الفكر الاجتماعي النقدي مع مدرسة فرانكفورت³ الاستناد إلى مصطلح "النقدي" لتمييز نمط معين من الأبحاث الأكاديمية -في مجالات مختلفة- تمتاز عن غيرها (أو عن نماذجها التقليدية أو المستحدثة أو المطورة) بعدم التسليم للإجراءات الوصفية، وبنبذ الرؤية الوضعية والتحليلات الأحادية الجانب، وباستحضار علاقات محورية وأساسية بين العلم وبنى المجتمع، وبمركزية التفاعل في كل بحث ذي صلة بالعلوم الاجتماعية⁴. ولعل هذه الخصائص هي أبرز الآثار المترتبة على هذا التصنيف المؤسس على مفهوم النقد بمعناه المعاصر لا التقليدي.

وبالنظر إلى التصور المعرفي والبناء النظري للتحليل النقدي للخطاب، يتأكد أنه مقارنة تسير جنبا إلى جنب مع هذا الصنف من الدراسات الأكاديمية؛ ذلك لأنها لا تظمن أبدا إلى مجرد الوصف الشكلي لبنى الخطاب اللسانية أو حتى الوصف المتعمق في استعمال اللغة. وفي مقابل عدم الاطمئنان هذا، يبقى هدفها الأولى هو تحليل اللغة في ميدان تفاعلها مع المجتمع والتاريخ والناس والقضايا الاجتماعية. كما أنها لا تتعامل مع مادتها المدروسة والقضايا المعالجة في استقلالها عن سياقها الخاص، والسياق العام للحدث اللغوي في الممارسة الخطابية.

1 توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ص.ص: 31-32؛ فيه نموذج عن ترجيح فان دايك لإطلاق تسمية دراسات الخطاب النقدية بدل التحليل النقدي للخطاب.

2 Norman Fairclough, Discourse and Social Change, Polity Press, 1992a.

3 على الرغم من أن مدرسة فرانكفورت النقدية وليدة لمعهد الأبحاث الاجتماعية المؤسس ببرلين في 23 فبراير 1923، إلا أن الانطلاقة الفعلية لهذه المدرس والفلسفة الاجتماعية النقدية كانت سنة 1931، بحيث لم تعد تقتصر اهتمامات المعهد على قضايا الاقتصاد السياسي فقط، وإنما تبنت نظرة تركيبية وشمولية لتضافر العلوم، وخصوصا علم الاجتماع وعلم اللغة وعلم الفلسفة. وللمزيد أنظر: حسن مصدق، يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت: النظرية النقدية التواصلية، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص.ص: 27-28.

4 Michael Billig, Critical Discourse Analysis and the Rhetoric of Critique, in: Gilbert Weiss and Ruth Wodak, Critical Discourse Analysis: Theory and Interdisciplinarity, Palgrave Macmillan, New York, 2003, p: 37.

إن من أهداف النقد بمعناه الجديد في التحليل النقدي للخطاب، وكما انبثق من النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت (سيتم بيان حركة الانتقال إلى الفكر النقدي بدل الفكر الوضعي في الفصل الثاني)، أن المحلل الناقد للخطاب يدرس الإنتاج الخطابي الطامح إلى سوء توظيف السلطة عبر الاستخدامات اللغوية، كما يهتم بكشف أدوار الخطاب واستعمال اللغة في تكريس اللامساواة ومظاهر الهيمنة الاجتماعية غير المنصفة؛ إضافة إلى الآثار السلبية المترتبة على بناء النص وهيكله الخطاب على وجه موارد ومضلل.

من وجهة نظر عملية لتناول مفهوم النقد في إطار التحليل النقدي للخطاب، فإن عمل المحلل اللساني الناقد، أو الدراسة النقدية للغة، يتوجه بالأساس إلى الأبعاد الخطابية للبت في المهمة التي ينهض بها الخطاب بوصفه استعمالاً للغة وممارسة اجتماعية - في إحداث التغيير الاجتماعي أو نشوئه. وإذا كانت مهمة النقد في هذا الصنف من الدراسات اللسانية الخطابية تُعنى بالتغيرات الاجتماعية، فإنها لا علاقة لها بأي نمط آخر من التغيرات الاجتماعية الناجمة عن أحداث تاريخية، أو صدامات عسكرية أو سياسية أو غير لغوية بشكل عام؛ ومؤدى هذا أن النقد في هذا المجال يُعنى تحديداً بما يثيره تطويع اللغة، وحكمة النظم، والقدرة على التلاعب، من تغيرات اجتماعية بواسطة الخطاب فقط.

لا يفوتُ البحثُ أن يُشير هنا إلى اختلاف المرجعيات الاجتماعية التي استمدت منها مقاربات الدراسة اللغوية النقدية مفهوم النقد المتأصل في التحليل النقدي للخطاب؛ إذ ينبغي الوعي بأن هذا المفهوم في الإطار النظري للتحليل النقدي للخطاب يُفهم بشكل متباين صراحةً، بحيث إن من المقاربات ما استند في بنائه إلى مدرسة فرانكفورت (جل المقاربات، وبخاصة المقاربة العلائقية الجدلية، والمقاربة الاجتماعية المعرفية، والمقاربة التاريخية، ومقاربة الفاعل الاجتماعي)، ومنها ما اعتمد في تأصيله على نظرية السلطة والمعرفة لدى فوكو (خصوصاً المقاربة التنظيمية للخطاب). ومع هذا الاختلاف، فإن جميع المقاربات - بما فيها لسانيات المدونات طبعا - تتفق حول عدم إعطاء جداول البيانات والعمليات التقنية الأولوية في النقد والتحليل، إلا إذا دُمجت في إطار تحليل يولي الأسباب اللغوية والسياقية والمحصلات

الاجتماعية، موقع الصدارة في الإجراءات النقدية¹. والحق أن هذا التأكيد على البعد عن الفكر التجريبي نقطة مشتركة لدى جميع المقاربات.

2. من وصف اللسان إلى نقد الكلام

1.2. وصف اللسان والكلام:

في الفصل الرابع من مقدمة كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة"، والمعنون بـ"لسانيات اللسان ولسانيات الكلام"، دعا فيرديناند دي سوسير نفسه إلى دراسة الكلام في علاقته بميادين أخرى لم تكن لها أية صلة بعلوم اللسان: "يجب أن يُدرس نشاط المتكلم في إطار مجموعة من التخصصات العلمية التي ليس لها أيُّ مكان في اللسانيات إلا بما لها من صلة باللسان"². ومن هذا القول الوجيز المقتطف من آراء دي سوسير الغزيرة في كتابه المذكور، يمكن اقتناص فائدتين اثنتين؛ أولاهما أنه يشترط في دراسة نشاط المتكلم التوسلَ بعلوم أخرى غير اللسانيات، وثانيتها أنه قدم صفة لهذه العلوم بكونها لا ترتبط بعلم اللسانيات إلا بحسب علاقتها باللسان.

يمكن التوسع في هاتين الفائدتين ومناقشتهما من داخل كتاب دي سوسير قبل غيره. بالنسبة إلى الفائدة الأولى، فعندما يتحدث هو نفسه عن نشاط المتكلم فهو لا يقصد شيئاً آخر غير استعمال اللغة، لأن المتكلم -من خلال قراءة دي سوسير في علم اللغة العام- ينشُط في أثناء ممارسته للعملية التواصلية التفاعلية من خلال استخدام ملكته اللغوية في شكل النظام الرمزي المقتطع والمتواضع عليه داخل جماعته اللغوية. ولعل ما يقصده سوسير بنشاط المتكلم وما أُشير إليه باستعمال اللغة هو ما يحدث في ما سماه هو كذلك بدورة الكلام³؛ فلا نشاط لغويًا للمتكلم إلا في إطار العملية الكلامية التي لا تقتصر عليه وحده، وإنما تحتضن أيضاً المخاطب وما يقع في المسافة الفاصلة بينهما، والسياق العام، والمجتمع وغير ذلك.

1Ruth Wodak, What CDA is about – a summary of its history, important concepts and its developments ; in: Ruth Wodak and Michael Meyer, Methods of Critical Discourse Analysis, SAGE Publication, London, 2001, pp: 09–10.

2 Ferdinand De Saussure, Cours De Linguistique Générale, Publié par Charles Bally et Albert Sechehaye et Albert Riedlinger, Arbre d'Or, Genève août 2005, pp: 24–25.

3 Ferdinand De Saussure, Cours De Linguistique Générale, p: 17.

أما بخصوص الفائدة الثانية، فدراسة الكلام أو استعمال المتكلم للغة في سياق معين تستوجبُ النظر فيه من خلال علوم أخرى ليست من علم اللسانيات في شيء حسب قوله، إلا إذا كانت لها علاقة باللسان كعلم الجغرافيا وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأعصاب مثلا. ولما كانت هذه العلوم تتصل باللسان قبل أن تتصل بعلم اللسانيات، ولما نشأت لها علاقة وطيدة باللسانيات لكونها على صلة باللسان، فإن أمر دراسة اللسان والكلام معا حسب هذا الطرح لا يقتصر على اللسانيات فقط، وإنما حري بهما أن يُدرسا لسانيا واجتماعيا. فلماذا اجتماعيا؟

أوضح دي سوسير كما تقدم أن صلة العلوم الأخرى باللسان هي ما يعطيها مشروعية صلتها باللسانيات، ثم حدد في أماكن أخرى من كتابه أن اللسان هو الجانب الاجتماعي للغة مثل ما يقول في هذا الموضوع: "اللسان هو الجانب الاجتماعي من اللغة الخارج عن نطاق الفرد"¹. يقصد بالخارج عن نطاق الفرد أن الحديث عن اللسان ومناقشة قضاياها يعني الانتقال من مستوى الذهن حيث تكمن الملكة المجردة (اللغة) إلى مستوى واقع الجماعة اللغوية المتواضعة على ما اقتطعته منها. أما كونه اجتماعيا فلأنه يشكل الوسيلة التي يتواصل بها أفراد مجتمع معين وهم يمارسون العملية الكلامية، ويلزم -تبعاً لذلك- أن دراسة الكلام تقتضي الاستناد إلى علوم أخرى غير لسانية بعد دراسته بعلوم اللسان ما دام هذا الأخير مادة رمزية واجتماعيا ووسيلةً لتواصل المتكلمين وتفاعلهم.

يستطيع القارئ أن يستشف من خلال طرح دي سوسير أعلاه أنه لم يغلق الباب في وجه الدراسة اللسانية للكلام كما قد يُشاع في بعض الأحيان (خصوصا حين تُرفض كل نظرة اجتماعية أو تاريخية لدراسة اللغة)، بحيث إنه يعتبر الكلام ميدانا لاستخدام اللسان ذي الطابع المادي (أصوات وألفاظ وصيغ وتراكيب) والاجتماعي (تواضع الجماعة اللغوية) في آن واحد. ويتأكد ذلك من خلال إطلالة سريعة على الفصل الخامس من مقدمة الكتاب ذاته الذي عنوانه بـ "عناصر اللسان الداخلية والخارجية"؛ ففي هذا الفصل لا يقتصر موقفه على حتمية التوصل بالعلوم الأخرى لدراسة الكلام فقط، وإنما يؤكد على ضرورتها حتى في دراسة اللسان نفسه كما يقول: "وفي مرتبة ثانية، ينبغي أن نشير إلى العلاقات الموجودة بين اللسان والتاريخ السياسي. فلبعض الأحداث التاريخية كالاحتلال الروماني تأثيرات في العديد من الظواهر

1 Ferdinand De Saussure, Cours De Linguistique Générale, p: 20.

اللسانية.. ويفضي بنا هذا كله إلى مسألة ثالثة هي علاقات اللسان بمؤسسات شتى كالكنيسة والمدرسة وغيرهما"¹.

يتأكد من جديد أن دراسة الكلام واللسان الذي يشكل جزءا منه تتطلب وصفا لسانيا واشتغالا آخر غير لساني من حقول معرفية أخرى كالتاريخ (حسب المقطع أعلاه) والجغرافيا² والأنثروبولوجيا³ حسب ما صرح به دي سوسير، وعلم الاجتماع وعلم النفس والطب وعلوم الحاسوب وغيرها من العلوم الاجتماعية والطبيعية. وربما من هذا المنطلق انبثقت فروع عديدة في اللسانيات العامة فأعطت اللسانيات الاجتماعية، واللسانيات النفسية، واللسانيات الجغرافية، واللسانيات الحاسوبية، واللسانيات الجنائية، وغيرها.

2.2. وصف الكلام ونقده:

ما يمكن إيجازه من هذا الطرح الجامع بين العناصر الداخلية والخارجية للسان والكلام، أن الأمر يتعلق بتصوير قديم لدى دي سوسير هو أن دراسة الكلام تقتضي إجراءين: وصف الأشكال وتفسير علاقاتها الخارجية. في هذه النقطة بالذات يلتقي التحليل النقدي للخطاب (وغيره من المقاربات الوصفية التفسيرية بطبيعة الحال) بموقف دي سوسير، أو لنقل إنها إفادة منه بأصح تعبير. فحتى داخل هذا التخصص المعاصر يتم الاشتغال على ثلاث محطات تلخص النقد اللساني: وصف الشكل، وتحليل التفاعل (الخطاب)، ثم تفسير علاقاتهما بالمجتمع⁴.

صحيح أن دي سوسير قد نبه إلى أن علم اللسانيات يهتم بدراسة اللسان فقط وليس الكلام وإن كان قد توقف في مرات قليلة عند هذا الأخير⁵، إلا أنه أكد أن اللسان وسيلة

1 Ferdinand De Saussure, Cours De Linguistique Générale, p: 27.

2 أنظر القسم الرابع من كتاب دي سوسير.

3 أنظر الفصل الرابع (الشاهد على اللسان في الأنثروبولوجيا وما قبل التاريخ) من القسم الخامس من كتاب دي سوسير.

4 انظر المدخل من هذه الأطروحة، وتحديدًا التصور المنهجي للتحليل النقدي للخطاب.

5 هناك آراء كثيرة، حديثة ومعاصرة، ترى بأن دي سوسير لم يول الكلام حقه، ووصل بها الأمر إلى درجة وصف ذلك بالخسارة مثل ما يقول نورمان فيركلف: "إن الثمن الذي دُفع في شراء علم اللغة كان تصورا ضيق النطاق لدراسة اللغة. فمن المفارقات أن علم اللغة لم يلتفت إلا التفاتا ضئيلا نسبيا إلى الكلام المنطوق أو الكتابة المكتوبة فعلا..". اللغة والسلطة، ص 21. وحين يذكر فيركلف علم اللغة فهو يقصد: "وأنا أشير هنا إلى علم اللغة الحقيقي [كما شاع في أوروبا] الذي يتضمن دراسة النحو بمعناه الواسع، والنظم الصوتية للغة (الصوتيات) والأبنية النحوية للألفاظ (علم الصرف) وللجمل (علم التراكيب) والجوانب الشكلية للمعنى (علم الدلالة)". اللغة والسلطة، ص: 21.

المشاركين التواصلية في دورة الكلام، كما أوضح في المقتطف الأخير أن اللسان متأثر بالتاريخ والمدرسة والكنيسة. ويكفي النظر في هذين الاستنتاجين لتبين أن دراسة الكلام تقتضي دراسة ما استعمل من اللسان وكيفيات استعماله، وما يؤثر فيه مما لا علاقة له باللسانيات. وصحيح أيضا أن علم اللسانيات الذي دافع عنه دي سوسير كثيرا غير اجتماعي بتاتا، أي إنه يُعنى فقط بالصوت والصرف والمعجم والتركيب والدلالة بمعزل عن أي رافد خارجي (وهذا ما يسمى باللسانيات الوصفية أو النظرية بعد أن كان يطلق عليه في الكوليج دي فرانس مسمى التيار اللساني الحقيقي أو الرئيسي)، إلا أنه لم ينف عن اللسان وظواهره صلته بالمؤثرات غير اللغوية.

هدف هذه الفقرة هو تبيان أن المبدأ البحثي القائل بأن اللغة وظواهرها حري بها أن تُدرس بالجمع بين الوصف والتفسير ليست جديدة، فهي قديمة -على الأقل- قَدَمَ كتاب دي سوسير الذي دعا كما وُضِّح أعلاه من بعض أقواله التي تعكس حرصه على ضرورة دراسة اللسان والكلام داخليا وخارجيا؛ وهذا وإن كان طرحا تليدا فإن حصيلة اليوم في اللسانيات وما يجاورها تؤكد، على الأقل في تخصصات من قبيل علم النفس الإدراكي واللسانيات الحاسوبية والذكاء الاصطناعي التي طبقت فعلا ما دعاه دي سوسير **بالعلوم التي تتصل باللسان**.

من جهة أخرى، مبدأ الوصف والتفسير حاضر في كل مقاربات تحليل الخطاب ذي التوجه اللساني كما أعلن منذ المدخل، غير أن المسألة الأساسية التي تروم هذه الفقرة الإشارة إليها هي أن الوصف والتفسير ظلا إجراءين متلازمين منذ دي سوسير وحتى تسعينات القرن العشرين، حيث بدأ درس اللغة يتجاوزهما إلى إجراء ثالث هو نقد الكلام/الخطاب، وما دراسة اللسان وصفا إلا مرحلة من مراحل هذا الإجراء الثالث المعاصر.

3. محاولات نقدية لاستعمال اللغة:

يروم هذا المبحث تقديم إطلالة خاصة على بعض النماذج اللسانية التي مارست النقد اللساني للغة الخطاب، أو -على الأرجح- طبقت بعض إجراءاته. ومن المؤكد أن البحث قد أشار في المدخل إلى أحد هذه النماذج، وهو مقارنة اللسانيات النقدية. ومادام البحث قد أوضح مسبقا طريقة اشتغالها وبين أسسها اللغوية النقدية، فإنه يكتفي بذلك ويقف عند ذلك الحد بخصوصه. وفي الآن نفسه، يتقدم في الحديث عن أربع مقاربات أخرى في هذا الشأن، وهي:

التداولية، والمدرسة الفرنسية، ثم تحليل المحادثة، فاللسانيات الاجتماعية؛ مع العلم أن هذه الأطروحة قد ذكرت في المدخل انتماء تحليل المحادثة إلى تحليل الخطاب ذي التوجه اللساني، ولكنها مقارنة تستحق مزيداً من التفصيل في هذا الموضوع.

1.3. نقد القول في التداولية:

لا نتوخى هذه الفقرة تقديم تعريف جديد أو قديم للتداولية فقط، أو أن تستعرض فروعها ولا مرجعياتها من باب التذكير بها. فالغاية الوحيدة في هذا الموضوع هي مناقشة افتراض وجيه ما يزال البحث يُدكّر به منذ المدخل، وهو مشروعية التساؤل حول احتمال أن يكون هذا الفرع اللساني - أو غيره من الفروع التي ستأتي بعده - قد عرف ممارسة نقدية من نوع ما للغة في الاستعمال. ومنه فالأمر يتعلق باستحضار نهج التحليل اللغوي السياقي، لمعرفة ما إذا كانت التداولية، على اختلاف نماذجها، قد شهدت نموذجاً، أو أكثر، يتجاوز الوصف اللغوي والتحليل السياقي إلى النقد اللساني بأية حال.

عموماً، وحسب جورج يول (1996)، فإن التداولية شعبة من اللسانيات تدرس الوظائف التواصلية للغة. وتحديدًا، تحلل اللغة والتفاعل في السياق¹. كما أكد أنها تُعنى بدراسة المعنى، أي كيف يُحقق المتكلم (أو الكاتب) المعنى في المقام؟ وكيف يفهم المستمع (أو القارئ) ما يتلقاه من استعمالات لغوية في سياق معين؟ ومع ذلك، احتاجت النماذج التداولية الأوروبية والأمريكية إلى أن تشتغل قبل كل شيء على ما يساعد في معرفة اللغة قبل فهم استعمالها في السياق لتحديد المقصودات من الأقوال، كالقواعد التركيبية لتفكيك الجمل، والصيغ الصرفية، ودلالات الكلمات والألفاظ، وطرائق نطقها. وقد ظهر مبكراً أنها فعلاً قد اعتمدت وصف الأشكال ثم رصدَ علاقاتها بالحال².

ما يُعنى به البحث في ذلك بالتحديد، هو أن التداوليات قد تناولت السياق واشتغلت عليه واحتكمت إليه في تحديد المعنى³ كما يحدث عادةً في التحليل النقدي للخطاب؛ بيد أنها تعاطت معه وفق نظرة محدودة بحيث تقصُر على لحظة استعمال اللغة ومكانه. بتعبير أكثر تفصيلاً،

1 George Yule, Pragmatics, Oxford University Press, 1996, p: 03.

2 جيوفري لينش، مبادئ التداولية، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2013، ص: 26.

3 بالنسبة لتحديد المعنى في التداوليات، يُعد السياق محدد الأساس على اعتبار أن القول الواحد قد يفيد معانٍ متعددة بحسب الموقف المحدد كما يرى جيوفري لينش (مبادئ التداولية، ص: 05).

قد تكون للقول أغراضٌ آنية مكانية، وأخرى لا تتحقق إلا في زمن ممتد وأماكن أخرى وأشخاص آخرين غير حاضرين. أما التداوليات، وفي جميع الأحوال، فلا تُعنى بمعاني الأقوال في امتداداتها الزمانية والمكانية، ولكن في سياقها الحالي والموقفي الذي استُعملت فيه، أي أنيا ومكانيا. من جهة أخرى، تركز النماذج التداولية على القول والمفرد¹ لا على الخطاب والجماعة؛ بمعنى أن المشتغل في هذا المجال يُوَطر نشاطه البحثي بالبعد الفردي في تعامله مع اللغة، متناسيا حيثيات التفاعل الخطابية وما ينجم عنها.

نعم، تتفق التداولية والتحليل النقدي للخطاب في دراسة استعمال اللغة تارة، وفي الفكرة القائلة بأن اللغة قولٌ وفعلٌ تارة أخرى، وأن ما يُقال أو يُكتب يُؤثر لا محالة. لكنها لم تُعن بتأثير الأفكار والعرف والمعتقدات والأيدولوجيات التي تختزنها الأقوال، فبذلك تكون قد استنتجت ما للاجتماعي من تأثير على الناس عبر استعمال اللغة، فلم تتعامل مع استعمالها على أنه قولٌ بمقدوره أن يُسهم في بناء الهويات والقناعات أو زعزعتها، وهنا يظهر معطى النقد اللساني بالذات².

لقد توقفت مهمة التداولية عند حدود القدرة على التفريق بين ما يُقال وما يُقصد، وكيفيات إنجاح التواصل من خلال مبادئ التأدب وقواعد التخاطب. وصحيح أنها قد انتبهت كثيرا إلى عدم التكافؤ بين المشاركين في العملية التواصلية، واشترطت حدوث التكافؤ لإنجاح التواصل، ولكنها ظلت تقارب هذا المعطى في حدود شروط التعاون أو التلاعب باللغة. في حين أن التواصل مع التحليل النقدي للخطاب بات ممارسة اجتماعية مؤثرة ومتأثرة.

2.3. اللغة شكل للأيدولوجيا في المدرسة الفرنسية:

انصبت أعمال اللسانيين المنتمين إلى المدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب حول متن محدد من سياق واحد هو الخطابات السياسية بالأساس، لاسيما المقارنة بين خطابات الحزب

1 اعتبر نورمان فيركلف الطابع الفردي للتداولية الأوروبية والأمريكية ضعفا رئيسيا فيها من وجهة نظر نقدية، بحيث إنها تركز نظرة أحادية للفعل بوصفه نابعا كليا من الفرد، وفي هذا يقول: "وهذا يستهين بمدى سيطرة الأعراف الاجتماعية على الناس، ومدى القيود التي تفرضها عليهم،.. اللغة والسلطة، ص.ص: 24-25.

2 في ما يخص استثناء البعد الاجتماعي للغة، يجب عدم إنكار أن التداولية قد اهتمت بالبعد الإنساني في دراسة الأشكال اللغوية واستعمالاتها كما في يول(1996)؛ وعلى الرغم من ذلك فإنها لم تدرس التأثير في القناعات والنماذج الإدراكية والذهنيات وبقيت عند حدود كشف المعنى المقامي الذي يعكسه القول. للمزيد: George Yule, Pragmatics, p: 05

الشيوعي والحزب الاشتراكي بفرنسا خلال فترة الستينات والسبعينات. ويمكن في الحقيقة عدُّ هذه المدرسة إحدى المحاولات الأولى لنقد لغة الخطاب إلى جانب اللسانيات النقدية، بحيث إن رائدها الأول ميشال بيشو قد استطاع التوفيق بين مرجعيتين اثنتين: الأولى لسانية وتتمثل في إعمال الإجراءات التوزيعية لوصف النصوص كما أصل لها زليغ هاريس في بدايات علم اللغة النصي الذي سُمي في البداية بتحليل الخطاب¹ (أنظر مدخل هذه الأطروحة لمعرفة الفرق)، والثانية اجتماعية تتجلى في تبني محصلات القراءة البنوية التي أجراها ألتوسير² على الفكر الماركسي من خلال كتابيه (قراءة رأس المال) و (من أجل ماركس).

ولم يكتفِ بيشو وفريقه بالتوفيق بين المرجعيتين المتكاملتين، فاستعان بالتحليل الآلي للخطاب³؛ بحيث قدم بمعونة فريقه من خلال كتاب (بيشو وآخرون 1979)⁴ مقارنة خاصة في تحليل الخطاب تنتقد اللغة بوصفها شكلا ماديا من أشكال الأيديولوجيا في الخطابات السياسية الفرنسية حصريا. وقد استعانت مقارنة بيشو في ذلك بقدرة آلة الحاسوب⁵ على تحليل التجمعات والضمامم اللغوية في النصوص من خلال عرض متون ضخمة في شكل مدونات لغوية قابلة للتحليل الآلي الشبيه بعمل مقارنة لسانيات المدونات في التحليل النقدي للخطاب منذ العقد الأخير من القرن العشرين. هنا بالذات تكمن النزعة النقدية للغة داخل هذه المقارنة، بحيث إن التحليل اللغوي يُسَعَف المحلل في أن يرصد تشكلات الخطاب وما تعكسه من المواقف الأيديولوجية السياسية؛ ووصل الأمر بهذه المقارنة إلى حد أن اعتبرت أن الخطاب يوضح الصراع الأيديولوجي داخل اللغة.

يقوم الاشتغال في هذا الإطار على إجراءات التقطيع اللساني للنصوص بتحديد الجمل البسيطة وجردها وتفكيك الجمل المركبة إلى بسيطة كذلك، ثم تجرد العلاقات بينها كالنسبية والشرطية والتبعية والسببية والإضافة في جداول ممحصّة ومصنّفة؛ كما يتم التركيز على

1 Zellig Harris, Analyse de discours, pp: 8-45.

2 Althusser, L. Etienne Balibar, Roger Establet, Pierre Macherey et Jacques, Lire Le Capital, Presses Universitaires de France, 1970.

Althusser, L. Pour Marx, Maspero, coll. « Théorie », 1965.

3 لاستزادة أكثر في موضوع التحليل الآلي للخطاب كما عند بيشو وزملائه، أنظر : شارودو ومنغونو، ص.ص: 39-40.

4 Michel Pecheux, Henry. P, Piotu. J-P, et Haroch. C.: " Le rapport Mancholt: Un Cas D'ambiguïté ideologique." Technologies, Idéologies, et Pratiques, 1979.

5 Michel Pecheux, Analyse Automatique du discours, Dunod, Paris, 1969.

الكلمات الأساسية ذات الحمولة الأيديولوجية داخل حقل السياسة الفرنسية في هذه النصوص¹. بعد ذلك تنتقل المقاربة إلى عمل إجراءات آلية عن طريق الحاسوب الذي يتكفل بالكشف عن تجمعات الجمل والعبارات والكلمات التي ترتبط في ما بينها بعلاقات استبدالية أو تعارضية في سياقات تركيبية مماثلة داخل نصوص المدونة عينها².

تستثمر المدرسة الفرنسية نتائج هذا الوصف اللساني النصي المستعين بالآلة في النقد الأيديولوجي للخطاب، معتمدةً مبدأ التشكيل الخطابي القائم على أن المادة اللغوية هي بمثابة واجهة مادية لأفكار سياسية انبنت أصلاً على أسس أيديولوجية. أما مفهوم التشكيل الخطابي فمفهوم مستعار من ميشال فوكو³، وهو يعني أن الخطاب مشكل من تفاعل المادي والمجرد والمؤسساتي والعرفي والعقدي. وحسب تصور بيثو لهذا المصطلح، فإن الكلمات تتغير معانيها والجمل تتحول دلالاتها بحسب المواقع والمجالات التي يتخذها مستخدموها فيتحول معها التشكيل الخطابي ومعه تُعاد صياغة الأفكار الأيديولوجية حسب الموقع والمجال⁴.

بات من اللازم الإقرار في هذه المرحلة بأن مقاربة المدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب مع بيثو وزملائه قد أثبتت سبقها إلى الاشتغال على استعمال اللغة في الخطاب بالوصف النصي والتحليل الآلي في أفق نقد الأيديولوجيا المتوارية خلف الجمل والكلمات بمساعدة آلة الحاسوب؛ وهذا أمر يُحسب لها نظراً للسياق التاريخي (1979) الذي أتت فيه حيث لم تكن هذه الآلة قد وصلت بعدُ إلى الذكاء المخيف كالذي تهيأ لها اليوم. إلا أن ما يجعلها غير متطابقة مع إجراءات التحليل في مناهج التحليل النقدي للخطاب، وحتى في لسانيات المدونات التي تعتمد الحاسوب في النقد اللغوي أيضاً، هو أنها تستسهل مسألة تأليف مدونات ضخمة من الجمل والعبارات التي تم استئصالها من نصوصها الأصلية، فتصبح أمام تراكمات كبيرة من المتواليات الجمالية والكلمات الغريبة عن سياقها النصي والخطابي، فتُكره النصوص على تجانس لم يكن قبل مرحلة تقطيعها وتوزيعها، مما قد يهدد بتحريف المقصودات الفعلية والأطماع الأيديولوجية.

1 Michel Pecheux, *Analyse Automatique du discours*, p: 123.

2 Ibid.

3 Michel Pecheux, Henry. P, Piotu. J-P, et Haroch. C, : " Le rapport Mancholt: Un Cas D'ambiguïté ideologique", pp: 33-34.

4 Pecheux, M. *Languages, Semantics, And Ideology*, Macmillon, London, 1982, pp: 13-112.

من منظور لغوي آخر، إن انتقاء كلمات بعينها فقط لأنها ذات حمولة فكرية وأيديولوجية قصوى، أو لأنها أكثر تداولاً في الأوساط السياسية الشيوعية والاشتراكية الفرنسية، من قبيل الثوري، ورأس المال، والإنتاج، والحتمية، والكتلة العمالية، على سبيل المثال، من شأنه أن يوجه التحليل والنقد اللغويين نحو اتجاه واحد دائماً؛ بحيث إن إغفال كلمات ومصطلحات وعبارات وشعارات أخرى من شأنه أن يوجه عمل المحلل الناقد للخطاب نحو البحث عن البعد الفكري للمعنى فقط، وليس الاجتماعي والذاتي والتأثير في الفئات الاجتماعية. ناهيك عن نقطة الضعف الكبرى والاختلاف مع التحليل النقدي للخطاب في الآن نفسه، وهي المتجلية في كون المقاربة الفرنسية في تحليل الخطاب (بيشو وزملاؤه) لا تعتبر النصوص أدوات للتقويض والتأثير، ولم تُشر إلى أي قدرة لها على الهيمنة والسلطة؛ بل اعتبرتها نتائج حتمية للتشكيلات الخطابية¹ التي مثلت غايتها وضالتها في الوقت نفسه.

3.3. تحليل المحادثة:

تحليل المحادثة مقارنة في تحليل الخطاب ذي التوجه اللساني، تأسست بالولايات المتحدة الأمريكية خلال السبعينات من قبل لسانيين أمريكيين هم: ه. ساكس، و أ. شغلوف، و ج. جيفرسون². وتعتمد في جزء كبير من إجراءاتها -إلى جانب تحليل لغة التحدث- على أطر تحليلية اجتماعية مستعارة من اتجاه المنهجية الإثنوغرافية؛ وهو المدخل الأمريكي في علم الاجتماع الحديث خلال منتصف الستينات. ويُترجم هذا المفهوم عن المصطلح الإنجليزي (Ethnomethodology) بالإثنومنهجية تارة، وهي الترجمة الأكثر شيوعاً، وبالمنهجية الشعبية عند البعض القليل³. وكان هارولد غارفينكل واضع هذا المصطلح أول مرة سنة 1954⁴.

في إطار التخصص الاجتماعي لمدخل المنهجية الإثنوغرافية، وقبل الحديث عن أثره في تحليل المحادثة، تنهض الأبحاث المنضوية تحته بمهمة استقصاء الخصائص والسمات

1 Fairclough, Norman, Discours and Social Change, p: 37.

2 شارودو ومنغونو، ص: 40؛ وأنظر أيضاً:

Sacks, H, Schegloff, E. A., and Jefferson, G, "A simplest systematics for the organization of turn-taking for conversation." Language, N° 50, 1974, pp: 696-735.

3 للتأكد من نموذج لهذه الترجمة يُنظر: مجموعة الفصول المترجمة "قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع"، ترجمة مصطفى خلف عبد الواحد، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة، 2002، ص 61 و ص: 158.

4 Garfinkel, H, Ethnomethodology's Program. New York: Rowman and Littlefield, 2002.

المعرفية (المعرفة هنا تعني المشترك الاجتماعي) لجماعة أو فئة أو تجمعٍ ما من خلال مجموع الأفعال والسلوكيات العملية التي تُنتج في حياتهم الواقعية بشكل يومي ومباشر وحقيقي¹. كما تهتم الدراسات في هذا المجال بمعالجة المعاني التي يمنحها الناس لأفعالهم (على اختلافها) وأنماط سلوكياتهم واستجاباتهم في محيطهم الاجتماعي². ويعتقد غارفينكل أن النهج الذي يستند إليه الأفراد بوصفهم فاعلين اجتماعيين في ابتداء معاني الأشياء والأفعال هو (الاستنتاج الفطري) مهما تعددت الروافد الخارجة عن ذواتهم؛ ومعنى ذلك أن أفراد الفئة أو الجماعة يصلون في نهاية المطاف -عبر التفاعل والاستنتاج بالفطرة- إلى تفسيرات مشتركة للخبرات، ويطورون أساليبهم الخاصة بهم في التفكير والتصرف³.

وبتلخيص دقيق، فإن المنهجية الإثنوغرافية تبقى مبادرة بحثية تسعى إلى وصف طريقة فهم الأفراد لسلوكياتهم وأفعالهم وتجاربهم وكيفية تفسيرها داخل المجتمع الواحد أو العشيرة الواحدة؛ وذلك مسعى يتم باستحضار مفهومين اثنين أساسيين في المدخل: التوثيق الاجتماعي، ثم الإشارية⁴. يُقصد بالتوثيق الاجتماعي أن فهم الناس وأفعالهم والأحداث التي ينتجونها يتم من خلال ما تُدوّل من صور السلوكيات وأنماط التصرفات، كريط كثرة الوشم على جسد شاب بإمكانية دخوله السجن مسبقاً. وتعني الإشارية أن الأحداث والحركات يتحدد معناها لدى الأفراد والجماعات في السياقات التي جمعهم، كأن ترى سيدة خجول جالسة أمام المسجد خارج أوقات الصلاة منطوية على نفسها بلا حركة، لتفهم أنها مسكينة تنتظر صدقة، وليست مصلية أو مارة تستريح، أو ممتهنة للتسول.

من أبرز مظاهر امتداد الإجراء المنهجي للإثنومنهجية في مقارنة تحليل المحادثة مع ساكس، وشِغْلُوف، وجيفرسون، أن التصور القائل بأن كل ما يصدر عن الأفراد في المجتمع يُفهم من خلال تفاعلهم في سياقاتهم المشتركة قبل كل شيء، وأن أفعالهم تُستوعب من الفهم

1 Garfinkel, H, Studies in Ethnomethodology, Englewood Cliffs, Prentice Hall, New Jersey, 1967, pp: 115-118.

2 عبد العاطي السيد وآخرون، نظرية علم الاجتماع: الاتجاهات الحديثة والمعاصرة، دار المعرفة الجامعية، بيروت، 2006، ص: 362.

3 موقف هارولد غارفينكل منقول عن: مجموعة الفصول المترجمة "قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع"، ترجمة مصطفى خلف عبد الواحد، مراجعة الجوهري، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة، 2002، ص: 61.

4 مصطفى خلف عبد الواحد، قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع"، ص: 160.

والتفسير القائمين على الاستنتاج الفطري، ما يثبت من تركيز عند محلي المحادثة على التبادلات اللغوية عبر التحادث اليومي في سياقات فعلية، كاستجابات الشرطة، والمرافعات في المحاكم، واللقاءات التلفزيونية، وقاعات الدرس في المدارس والمحاضرات في الجامعات. إذ يتأسس العمل اللساني على اكتشاف الأبنية النصية برصد التلازمات اللفظية، والثنائيات المتجاورة على صعيد العبارات والاصطلاحات، والدلالات المضرة في التبليغ، والتعبير عن الشكوى والاعتذار والتحسر والاستعطاف والشفقة¹. كما يتم التركيز على استخراج تنظيم الحديث والتحادث بجد فواتح كل مداخلها وخواتمها، وتقنيات العرض، وقواعد التناوب وكيفياته².

لعل الاشتغال على هذه الفئات التحليلية المذكورة أنفا لا يعني أنه يتوقف عند مجرد الوصف فقط، وإنما يتجاوز الأمر إلى تفسير المضمرات التي تحكمت في اختياراتها لغويا وتنظيميا. كل ذلك لفهم الطرق التي يتوخاها المتحادثون لإعطاء معنى لما يقولون أو يفعلون، ثم ليتمثلوا ويفهموا العالم المحيط بهم في تفاعلات طبيعية وأوضاع متنوعة؛ وهذا في حد ذاته ما كان مع المنهجية الإثنوغرافية لكن ليس لغويا وتنظيميا، بل اجتماعيا وسلوكيا.

ومن جوانب القصور التي لا يمكن اعتبار -على أساسها- هذه المقاربة نقدية، وإن كانت تعتمد الوصف الشكلي والتحليل شبه الاجتماعي، أنها حسب المواقف السابقة، تميل إلى تفسير المعطيات التفاعلية والاجتماعية للمحادثات بناء على وجود توافق اجتماعي قبلي مشترك بين المشاركين فيها، وبالتالي رسم نموذج منسجم مبالغ فيه من حيث ضمان التوافق والتعاون بين المتحادثين دونما أي إشارة إلى قضايا الأيديولوجيا والسلطة والهيمنة والتحكم والطبقة في التفسير. فغالبا ما يستأثر القضاة والمفتشون والأطباء ومقدمو البرامج الحوارية بسلطة أكبر استراتيجيا تخولها لهم مواقعهم المتعارف عليها اجتماعيا مقارنة مع المذنب والمتهم والمريض والضيف؛ إلا أن تفسيراً كهذا الذي عُرِفَت به منهجية تحليل المحادثة -وإن كان لغويا اجتماعيا- فإنه يلغي في نهجه فرضية السلطة والهيمنة بشكل مطلق. ولعل هذه النقاط الأخيرة

1 شارودو ومنغونو، معجم تحليل الخطاب، ص.ص 40-42.

2 أوضح شارودو ومنغونو أن التحليل في هذه المقاربة يركز بالأساس على الطريقة التي تنتظم بها المحادثات اليومية وكيفيات ترتيب التبادلات الحوارية. للمزيد يُنظر: شارودو ومنغونو، معجم تحليل الخطاب، ص.ص: 40-42.

كافية لعدم الحكم على هذه المقاربة بأنها نقدية لغوية في جميع مراحلها وتفصيلها، وإن جمعت بين وصف الأشكال والتفسير الاجتماعي.

4.3. اللغوي والاجتماعي في اللسانيات الاجتماعية:

صحيح أن اللسانيات الاجتماعية درست اللغة في علاقتها بالمجتمع، ولكنها تدرس تحديدا الظواهر اللغوية ذات الصلة بخواص التركيب الاجتماعي، كاختلاف الطبقات الاجتماعية، وتأثير الحيز الجغرافي، وتعدد القوميات، وتضاييف اللغات وتعايشها. وقد قام هذا العلم بالأساس على انتقاد لعلم اللغة النظري-الوصفي لكونه أغفل حقيقتين اثنتين في دراسته للغة، أولاهما هي أن اللغة تتنوع بتنوع مستعملها وانتماءاته الطبقية والعرقية، وثانيتهما هي أن اللغة تقوم خصوصا بخدمة مستخدميها¹. ومع ذلك فإن التركيز الملح على علاقة ظواهر اللغة بالمجتمع لا يُعطي هذا العلم المشروعية للانتماء إلى نطاق اشتغال التحليل النقدي للخطاب؛ وتعليل ذلك هو أنه لا يمارس نقد الاستعمالات اللغوية في الممارسة الخطابية.

لقد تصاعدت أصوات باحثين كثر في اللسانيات الاجتماعية خلال سبعينيات القرن العشرين، وقد نادوا بوصف أشكال التفاعل التواصلي مع اهتمام متنامٍ بعلاقة الظواهر اللغوية بقضايا التسلسل الهرمي الاجتماعي، وخصوصا ما يتعلق بالتنوع اللغوي المرتبط باختلاف الطبقات والصراع الطبقي². من هؤلاء: لابوف 1972، وهايمز 1972، وتردجل 1974، وجوشوا 1968 و 1972، وفاسولد 1984. ولم يتجه هؤلاء إلى الجانب النقدي لسلطة اللغة والخطاب، وإنما درسوا الفروق الدقيقة في نطق الصوائت والصوامت، واستعمال الألفاظ وصيغها الصرفية واشتقاقاتها، والصياغات التركيبية، بفعل التباين في الانتماء الطبقي أو العرقي أو الجغرافي³.

إن اللسانيات الاجتماعية تختص بدراسة علاقة التلازم بين تغيرات الشكل في المادة اللغوية والمتغيرات الاجتماعية، وهي بذلك لا تُعنى بالنقد اللساني التواصلي إلى فضح سلطة اللغة وما تُحدثه من تغيرات اجتماعية.

1 رالف فاسولد، علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، ترجمة إبراهيم الفلاي، جامعة الملك سعود، الرياض، 2000، ص.ص:ك-ل.

2 Ruth Wodak, What CDA is about – a summary of its history, important concepts and its developments, p: 05.

3 Ibid, p: 05.

وعلى الرغم من العناية القصوى بالعلاقة الجوهرية بين اللغة والمجتمع، فإن السمتين الغالبتين على اللسانيات الاجتماعية هما التعامل مع المعطيات الاجتماعية وليس مع الممارسات الاجتماعية، ثم اعتبار هذه المعطيات وسائل وأسباب لفهم الاختلافات في الشكل الذي تتخذه المادة اللغوية بين الطبقات والفئات والقوميات والمناطق. وعلى عكس ذلك، فإن نقد اللغة في اللسانيات النقدية والتحليل النقدي للخطاب يتخذ البحث اللغوي لتفسير الاجتماعي (وتحديدًا الممارسات الاجتماعية)؛ وهنا يكمن الفرق بين التخصصين.

خلاصة:

أوضح الفصل جملة من النقاط التي تثير كثيرا من التساؤلات أو تفرز التباسا في استيعاب بعض المفاهيم كمفهوم النقد. وبخصوص هذا الإشكال، لقد تبين أن مفهوم النقد المعتمد في التحليل النقدي للخطاب لا صلة له من قريب أو بعيد بالأدب أو بمناهج النقد الأدبي الحديثة والمعاصرة بأي شكل من الأشكال. وفي المقابل، اتضح أنه يشكل ركيزة أساسية في العملية التحليلية اللسانية للنصوص والخطابات ذات التأثير الاجتماعي. كما ثبت أن له حمول اجتماعية، بحيث إنه يعكس التوجه الفلسفي النقدي لمدرس فرانكفورت، وتلخيصه عدم التسليم بأية علاقة وضعية، وعدم الاطمئنان للتجربة، وإنما الحكم للممارسة النقدية القائمة على الوصف والتحليل والتفسير. وعلى هذا المبدأ قام التحليل النقدي للخطاب ذاته، بحيث لا يكفي بالملاحظة والدراسة الواصفة أو البحث عن العلاقات السببية من وجهة نظر وضعية، وإنما ينهج التفكير والتحقيق لفضح خبايا الاستخدام اللغوي والتفاعل والأداء.

من النتائج المهمة كذلك في هذا الفصل، اكتشاف صنفين من المداخل اللسانية في تحليل الخطاب التي اعتمدت النقد اللساني المتقارب مع التحليل النقدي للخطاب منهجا، والأخرى التي لا صلة لها به وإن كانت تتفق معه في بعض المبادئ أو التصورات. فالبنسبة للصنف الأول، تتقاطع التداوليات الأمريكية والتداوليات الأوروبية مع التحليل النقدي للخطاب في تجاوز المعنى الأول والبحث عن المعنى الثاني المقصود، وتأثيره على المخاطب وتصرفاته وسلوكياته. إلا أن التداوليات بصفة عامة تتعامل مع القول المفرد، والسياق بالنسبة إليها ضيق وليس اجتماعيا؛ بحيث لا تنظر في التأثير السلطوي وإحداث المتغيرات الاجتماعية. غير أن هذا لا يعني أن مناهج التحليل النقدي للخطاب تُغفل بالمرّة القضايا اللسانية التي تشغل بها التداوليات، وإنما تُعد مسائل الفعل اللغوي المباشر وغير المباشر كما أشار فان دايك إلى

ذلك¹، والعلاقة بين الإنجاز والقصد، والصدق والكذب، ومبادئ التأديب² وقواعد التخاطب والافتراض المسبق³ كما تحدث فيركلف عن ذلك، من الأسئلة البحثية التي تُطرح في معظم الدراسات الناقدة للغة، إلا أنها تتعمق فيها وتنتظر إليها من جهة التأثير السلطوي الذي تكرسه.

وعلى الرغم من أن المدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب قد تقدمت على التحليل النقدي للخطاب بقراءة العقدين، وعلى الرغم أيضا من أن استفادتها من آلة الحاسوب لم تصل إلى مستوى الاستفادة العظمى للسانيات المدونات من البرامج والتطبيقات المعاصرة، إلا أن بيثو وزملاءه تبناوا بالفعل منطق التحليل اللساني للنصوص والخطابات بالجمع بين اللغوي والاجتماعي والآلي لنقد الأيديولوجيا في لغة السياسيين الفرنسيين. ويُحسب لهم حسب ما تقدم في هذا الفصل، أنهم تعاملوا مع اللغة بوصفها أداة للممارسة الأيديولوجية، وتوفيقهم بين الوصف والتحليل والتفسير في العمل اللساني الخطابية.

إلا أن ما لم تصل إليه المدرسة الفرنسية مما حققته مقارنة التحليل النقدي للخطاب هو اعتبار اللغة وسيطا للهيمنة الاجتماعية، سواء تعلق الأمر بلغة السياسيين أم غيرهم، وسواء كان الموضوع ذا حساسية قصوى في الجدل العمومي أم كان في سياقات عادية بالمنزل والمدرسة والمسجد والكنيسة والمعمل. علاوة على هذا الفرق المنهجي الدقيق، هناك فرق آخر يجمع بين المصطلح والقضايا المثارة للبحث؛ والحديث هنا عن كون المدرسة الفرنسية ركزت على قضية واحدة تتجلى في البعد الأيديولوجي للغة، إذ جذبها دائما أن تبحث عن قدرة اللغة في حمل الأيديولوجيا وتمثيلها، ولكنها -بخلاف التحليل النقدي للخطاب- لم تهتم بقضايا التطويع الاجتماعي باللغة، والهيمنة، والعنصرية، والسلطة، والتحكم في الإرادات، وتعديل الإدراكات الاجتماعية، وغيرها.

وبالنظر إلى الصنف الثاني، فقد برهنت مقارنة تحليل المحادثة أنها تتبنى النهج النقدي للغة والتفاعل، من خلال دراسة اللغة وتنظيم التفاعل والإدراكات الاجتماعية المشتركة في سياقات فعلية حقيقية. ويظهر اعتمادها للنقد بحق في اشتغالها وفق المدخل الاجتماعي المتمثل في المنهجية الإثنوغرافية؛ بحيث إنها تبحث في العلاقة بين اللغوي والتفاعلي والاجتماعي،

1 توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 225.

2 Norman Fairclough, Discourse and Social change, pp: 162-167.

3 Ibid, pp: 156-159.

للكشف عن المضمرات التي تحكمت في الخيارات اللغوية، والأنساق الإشارية التي توصل المعنى إلى المتحادثين. فيظهر أن المشترك أمران: الربط بين اللغوي والاجتماعي في التحليل اللساني، ثم نقد الكلام لاستنباط المضمر الاجتماعي المتحكم في المعاني المشتركة جماعيا. ولكنها لم تهتم بنقد سلطة اللغة.

وعلى غرار مقارنة تحليل المحادثة، تبنت اللسانيات الاجتماعية -مستفيدة كذلك من دعوة مدرسة فرانكفورت إلى ضرورة التوفيق بين الذاتي والموضوعي- نهجا يجمع بين الدرس اللساني والمعطيات الاجتماعية. وإن كانت قد اشتغلت على تحليل الخطاب تركيزا على قضايا التداخل اللغوي في نصوص وخطابات معينة، وتأثير العوامل الاجتماعية بالمعنى التقني في لغة الخطاب. إلا أن اشتغالها ظل وثيق الصلة بالبحث عن الأسباب الاجتماعية التي كانت من وراء تغير شكل المادة اللغوية في الاستخدامات اللسانية. أما عن نقد السلطة والهيمنة والأيدولوجيا في اللغة، فهذا لا علاقة له بهذا التخصص.

وعليه، فإن الأطروحة تستنتج من هذا الفصل أفكارا مهمة ستعتمد بوصفها مفاهيم ومبادئ لتأسيس المقاربة اللسانية الحجاجية في التحليل النقدي للخطاب:

- تعتمد الأطروحة **مفهوم النقد** كما استخدم في التحليل النقدي للخطاب والنظرية الاجتماعية النقدية، ومؤداه هو: عدم التسليم بأية علاقة وضعية، وعدم الاطمئنان للتجربة، وإنما الحكم للممارسة النقدية القائمة على الوصف والتحليل والتفسير.
- تستفيد الأطروحة من المقاربة التداولية في تحليل الخطاب بخصوص تجاوز المعنى الأول والبحث عن **المعنى المضمر**، والقدرة الإنجازية الواقعية للأفعال اللغوية؛ إلا أنها تتجاوز تعاملها مع السياق الضيق للقول المفرد، وتوسع السياق ليشمل كل عناصر الممارسة الاجتماعية.
- تتبنى الأطروحة مبدأ **الصناعة اللغوية للمعاني الأيدولوجية** كما عند المدرسة الفرنسية، لكنها لا تركز على تعاملها مع الأيدولوجيا وحدها، وتتقدم إلى نقد الصناعة اللغوية للسلطة والتلاعب والهيمنة والتضليل والتحكم.
- تتفق الأطروحة مع مقارنة تحليل المحادثة في الربط بين **اللغوي والتفاعلي والإشاري والاجتماعي**، وتجد في هذا المبدأ تقاطعا مع أعراف التفاعل عند العرب كما سيبيّن في الفصل الثالث من هذا الباب.

- تتفق الأطروحة مع اللسانيات الاجتماعية بخصوص البحث عن الأسباب الاجتماعية المتحركة في تغير شكل المادة اللغوية، ولكن لأغراض نقد الاستخدام السلطوي للغة، وليس الاقتصار على تفسير الظواهر اللغوية فقط.

الفصل الثاني

نقد التواصل اللغوي في النظرية الاجتماعية

تمهيد

1. الأصول الاجتماعية لنقد اللغة

2. امتدادات الأصول الاجتماعية في التحليل النقدي للخطاب

خلاصة

تمهيد:

غاية هذا الفصل هي التأطير النظري للمرجعية الاجتماعية في التحليل النقدي للخطاب، وهي نماذج النقد الاجتماعي للغة؛ أي إنه يسعى إلى الكشف عن بعض النظريات الاجتماعية الأكثر انخراطا في مسألة نقد لغة الخطاب. ولكن، ولمزيد من الأمانة والموضوعية، لم تتأثر مقارنة التحليل النقدي للخطاب فقط بالنماذج والنظريات الاجتماعية التي أبانت عن انخراط فكري اجتماعي جاد في تحليل قضايا استعمال اللغة ومناقشتها كما سيأتي هنا، وإنما هناك نظريات اجتماعية تتقاطع معها في بعض المفاهيم والإجراءات المتعلقة بالتفسير الاجتماعي، وأخرى مؤثرة بشكل بالغ في هذا الشق الاجتماعي الذي يخلص إليه لسانيو هذه المدرسة، ولاسيما نظرية التمثيل الاجتماعي التي أصلها عالم النفس الاجتماعي سيرجي موسكوفيتشي في كتابه (التحليل النفسي: صورته، وجمهوره)¹.

ومادام هدف هذا الفصل الثالث من الباب الأول هو البحث عن الجذور الاجتماعية للنقد اللساني، فإنه سيركز أساسا على تعليل ذلك في أربع نظريات: نظرية الفعل التواصلي مع يورغن هابرماس، ونظرية سوسولوجيا الهيمنة مع بيير بورديو، ثم نظرية السلطة والمعرفة مع ميشال فوكو، فنظرية التمثيل الاجتماعي مع سيرجي موسكوفيتشي. أما عن هذه النظرية الأخيرة، فسيقف خصوصا عند تصور واضعها بخصوص كيفية تمثيل المعرفة الاجتماعية عبر التواصل، وهو أمر بعيد عن النقد اللغوي، ولكنه مفهوم حاضر بقوة في مناهج التحليل النقدي للخطاب. ولن تكون مهمة الفصل مختزلة في البحث عن هذه الأصول وعرض نقاط تلاقيها مع التحليل النقدي للخطاب، وإنما ستشمل أيضا مناقشتها والبحث عن امتداداتها في مناهجه.

1. الأصول الاجتماعية لنقد اللغة:

1.1. نظرية الفعل التواصلي:

لنقد اللغة في التحليل النقدي للخطاب علاقة وطيدة بمشروع يورغن هابرماس من خلال مناقشته للنظرية النقدية. وفي إطار نظريته المسماة بـ "الفعل التواصلي"²، يتبنى ما يسميه

1 Moscovici S, La Psychanalyse, son image et son public, Paris, Presse universitaires de France, 2014.

2 Habermas, Jürgen. The Theory of Communicative Action, Vol 2: Life world and System: A Critique of Functionalist Reason. T. McCarthy. Boston: Beacon Press, 1987.

بالمنعطف اللغوي¹؛ إذ بيّن أن النظريات العلمية تسعى عموماً إلى إحدى المصلحتين: إما مصلحة تقنية أو مصلحة عملية، وهما مصلحتان نابعتان من خاصيتين تميزان الإنسان عن الحيوان: *العمل والتواصل*. فبالنسبة إلى المصلحة التقنية، وهي -كما يرى- المتصلةً بحاجتنا إلى الاستفادة من الموارد والعمليات الطبيعية²، فهي مصلحة أدت إلى قيام العلوم التجريبية التي يدعوها بالعقل الأداتي³. أما المصلحة العملية، فلها علاقة بالتفاعل البشري عن طريق اللغة، وهي متوقفة على القدرات الإنسانية على الفهم، وبالنتيجة فهي متصلة بالعلوم التفسيرية (يقصد العلوم الإنسانية والاجتماعية)⁴. أو ما يسميه بالعقل التواصلّي الذي يعني عنده المعالجة الجادة للإشكالات الاجتماعية والإنسانية من وجهة نظر تفاعلية، بحيث يتم الاستناد إلى تفاعل عقلائي بنّاءٍ ينبذ الاحتكار والتسلط، ويهدف إلى عقلانية جماعية لا عقلا وضعياً تجريبياً⁵.

تشكل إدانة هابرماس للعقل الأداتي ودعوته إلى تواصل عقلائي، محطةً فارقةً في تاريخ الفكر الاجتماعي، بحيث إن العقلانية عنده غدت رهينة بوجود ذوات قادرة على الانخراط في البحث العلمي، ولها شغف معرفي عن طريق التواصل اللغوي في الكلام والعمل؛ ومن هذه

1 نقلا عن: إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسين غلوم، مراجعة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1999، ص: 306.

2 نقلا عن: المرجع السابق، ص: 307.

3 يقصد هابرماس بالعقل الأداتي التصور العلمي التجريبي الذي يتبناه مجموع العلوم الوضعية. إن العقل الأداتي في نظره ينظر إلى الإنسان والطبيعة وفق منظور اختزالي على حد سواء؛ بحيث يعتبر الإنسان جزءاً من أجزاء الطبيعة أو مكوناً من مكوناتها. وبما أنه يشتغل على قضاياها الطبيعية بمنهجية تقتت الكل إلى أجزاء، فإنه ينظر إلى الإنسان بوصفه موضوعاً ثابتاً وكامياً. وإذ ينتقد هابرماس هذا العقل الأداتي فإنه يروم هدم موقعه المركزي الذي يحتله في فلسفة العلوم، وبذلك فإنه يدعو إلى بديل يراعي الخبرة البشرية يسميه بالعقل التواصلّي أو العملي. للمزيد بخصوص مفهوم العقل الأداتي عنده يُنظر: هابرماس بورغن، التقنية والعلم كأيدولوجيا، ترجمة إلياس حاجوج، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1999، ص: 88.

4 نقلا عن: إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ص: 308.

5 يعني هابرماس بطرحه لمفهوم العقل التواصلّي عدم الامتثال لمركزية العقل الوضعي/الغائي، ويدعو في مقابل ذلك إلى اعتماد العقلانية -وليس العقل المجرد- في معالجة الإشكالات الإنسانية والثقافية والاجتماعية والكونية عموماً. إنه يقصد بلورة إجماع على الفعل الخلاق الذي يقوم على الاتفاق ويعبر عن المساواة بحيث يجد الفرد فرصة لانتزاع جانب من ذاتيته ودمجها في الإسهام الجماعي. وبذلك فإنه يدعو إلى تواصل عقلائي بدل عقل أداتي يكره الظواهر الإنسانية والثقافية والاجتماعية على الانصياع إلى القاعدة العلمية الجافة.

للمزيد أنظر: هابرماس بورغن، التقنية والعلم كأيدولوجيا، ترجمة إلياس حاجوج، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1999، ص:

البوابة، اقترح نظرية الفعل التواصلي¹. لقد دعا بهذه الطريقة إلى تطوير نظرية تواصلية استنادا إلى كون الفعل التواصلي متأصلا في الممارسة اللغوية²، ووعيا منه بأن اللغة ليست مجرد وسيلة لنقل الأفكار والعواطف، وبأن دراستها يجب أن تستحضر تفاعل العلوم لاستكناه الجوانب الخفية للمعنى وتيسير الفهم. ويتأكد الوعي اللساني ذو المنزح الاجتماعي عند هابرماس خصوصا في فكرته القائلة إن فحص اللغة لن يقتصر على الصوت والتركيب والدلالة بل حتى التداول، لكنه لم يقصد التداول في بعده الإنجازي الفردي، وإنما التداول الكوني مثلما أوضح ذلك في مقاله الموسوم بـ: "ما التداولية الكونية؟" والصادر سنة 1976³.

وإن كان هابرماس في تعاطيه مع المسألة اللغوية قد انطلق من تبني موقف الفلسفة التحليلية، فإنه مع نظرية الفعل التواصلي قد رفض قصر وظائف اللغة على الوصف والتعريف والتعبير والتصديق، وتجاوزها إلى تبني مبدأ الفعل اللغوي مستفيدا من علم التداولية، وداعيا إلى تداولية كونية كما في مقاله (نحو نظرية للكفاءة التواصلية)⁴.

إن فلسفة التواصل عند هابرماس قطعت كل صلة بأي مفهوم مختزل للغة في كونها تعبيرا لفظيا عن الحالة النفسية أو التصور الذهني، أو توسطا بين الحالة النفسية الداخلية والعالم الخارجي. وإنما عدها الوسيلة الوحيدة لمعرفة أي قصد للتشويه الأيديولوجي، أو إخفاء وقائع معينة عن بعض المشاركين أو كلهم في عملية التفاعل المقصود بها الممارسة اللغوية في الخطاب⁵. إن الفعل التواصلي نظرية نقدية تواصلية للغة تسعى إلى تحقيق مصلحة عملية تتجلى في التحرر والانعقاد -في إطار علم الاجتماع- لتخليص التفاعل البشري من العناصر

1 لاستزادة أكثر بخصوص الفعل التواصلي يُنظر:

Habermas, Jürgen. The Theory of Communicative Action, Vol 2: Life world and System: A Critique of Functionalist Reason. T. McCarthy. Boston: Beacon Press, 1987, p: 397.

2 Ibid, p: 397.

3 نُشر هذا المقال أول مرة سنة 1976 باللغة الألمانية في كتاب كارل أوثو آب في كتابه: (Sprach Pragmatik und Philosophie)، ثم أُعيد نشره مترجما إلى الإنجليزية في مجلة:

IEEE Transactions on Professional Communication, Volume: 41, Issue: 2, Jun 1998.

4 Habermas, Jürgen, Towards a Theory of Communicative Competence, Inquiry Journal, Vol 13, Issue 1-4, 1970.

5 نقلًا عن: إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ص: 308.

المعرضة والفجوات المضللة في الممارسات والتنظيمات الاجتماعية¹. كما أنها تتطلق من مبدأ العلم النقدي المتمثل في قدرة الإنسان على التفكير والوعي ذاتيا بما يقول ويفعل ويسمع ويرى.

لقد توجه هابرماس في نظرية الفعل التواصلي إلى فلسفة اللغة وبنى عليها في مسعى توسيع أساس النظرية التواصلية النقدية للغة؛ بحيث تجاوز البعد الفلسفي التحليلي واعتمد على مفهوم الكفاءة التواصلية²، واضعا أطروحة تقوم على ثلاثة أسس: (1) التحرر من فلسفة الوعي التي تنظر إلى اللغة في إطار علاقة (ذات وموضوع)، والانتقال إلى تمثيلها في إطار (لغة=فعل). (2) ترك اعتبار الفعل الاستراتيجي للغة كما في التداولية الذي يبقى غائيا مستندا إلى العقل الأداتي، واعتبار أن الفعل اللغوي تواصلي يُنتج ويُفسر عن طريق الفهم والتفاعل. (3) إعطاء فعل التواصل اللغوي المكانة الأولى في إطار عقلانية تفاعلية تتشدق التفاهم وسماع كل الأصوات³.

لا تقطع فلسفة التواصل (نظرية الفعل التواصلي تحديدا) مع مفهوم اللغة في التداولية والفلسفة التحليلية كليا، صراحة، وإنما لا تظمن ولا تكتفي بقصرها على مجرد الفعل الناجم عن التعبير اللفظي أو المبدأ الشهير: كل قول فعل وإنجاز، أو إن استعمال اللغة هو الذي يحقق الأفعال كما مع أوستين، وسورل، وغرايس، ولفنسون، وبراون، وليتش، وتوماس، وفيتجينشتاين؛ وإنما تعالج المسألة اللغوية بطرح أسئلة أكثر عمقا ستشكل بؤرة الاشتغال في البحث اللساني داخل مقاربة التحليل النقدي للخطاب: كيف يتحقق الفعل اللغوي؟ وكيف تحدث عملية إنجازه وتؤثر؟ والحق أن المقاربات اللسانية في مجال تحليل الخطاب لم تقرب هذه الأسئلة ولم تعرها أي اهتمام إلا مع بيشو وزملائه واللسانيات النقدية والتحليل النقدي للخطاب، وكأن تحقق الفعل اللغوي ونجاح عملية الإنجاز لا رابط لهما بما يقع ويجري في الحياة الاجتماعية والمجتمع برمته.

أما النقطة المفصلية المحفزة لرواد التحليل النقدي للخطاب -وهي هدف هذا البحث وضالته في فصول هذا الباب والبحث كله- على الاستتارة بنظرية الفعل التواصلي لهابرماس، فيمكن استنتاجها مما تقدم، وهي المتمثلة في وضع اللغة في علاقة تفاعلية مع المجتمع

1 نقلا عن: إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ص: 308.

22 Habermas, Jürgen, "Toward a Theory of Communicative Competence," p: 371.

3 نقلا عن: إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ص: 308.

والإنسان والثقافة؛ ومن هذا الوضع أظهر وجهها آخر لتحليل الاستعمال اللغوي بفتح زاوية النظر، أو بتعداد زوايا النظر إلى الممارسة اللغوية بعدم اعتبارها مجرد فعل لغوي فردي. ولا غرابة أن يأتي هابرماس برؤية اجتماعية في تحليل استعمال اللغة لا تقنع بالوصف اللغوي أو اعتبار استخدام اللغة فعلا وإنجازا، إذا نُظر إلى التصورات اللغوية -بالطبع- في الفكر الألماني المعاصر؛ إذ دمج بين اللسانيات وعلم الاجتماع والفلسفة¹، رافضا التقانة العلمية المغالية حتى في دراسة الإنتاج البشري اللغوي والثقافي والفكري والفني، خصوصا بعد استحكام الآراء العلمية التي ترى أن التقنية هي الخلاص من قوة تأثير الطبيعة الكونية².

2.1. سوسيولوجيا الهيمنة والسوق اللغوية:

لطالما أعلن بيير بورديو في كثير من المواضيع عن موقفه من التقسيم الإيبستمولوجي للعلوم كما خطه ديكرت الذي يفرق بينها استنادا إلى معيار الذاتي والموضوعي، والأكثر من ذلك أنه يسم هذا المعيار بمعارضة المنطق³. يظهر هذا الرأي جليا من خلال تصغيره لقيمة المعرفة الاجتماعية التي تقدمها النزعة الذاتية، واصفا إياها بالتمركز حول الخبرة الانفعالية والتصور الفردي، والتنازل عن أهمية الشروط الموضوعية المتدخلة في البناء المعرفي⁴. ومن ناحية أخرى، لم تسلم حتى النزعة الموضوعية من انتقاده لاقتصارها على الشروط المادية والملموسة وإغفالها للخبرة الإنسانية الفردية⁵.

1 أفاد هابرماس كثيرا من الفلاسفة الألمان المعاصرين في بناء تصوره الاجتماعي للنظرية العلمية حين فصل بين المصلحة التقنية المكرسة للعقل الأداتي والمصلحة التواصلية المحفزة للعقل التواصلية. كما أفاد من تمثل فلاسفة كثر للمسألة اللغوية في إطار فلسفة العلوم كما مع كارل أوتو أبل في كتابه (فكرة اللغة في مآثر الإنسية من دانتي إلى فيكو (1963)) وكانط وهيدجر؛ وخصوصا هيدجر حين تحدث عن الفرق بين اللغة الطبيعية وما يمكن أن تجلبه من منافع في التواصل والفهم العلميين، ولغة التقنية القائمة على الإغراق في التجريد والصورية. وللتعرف أكثر على مظاهر الدمج بين اللسانيات وعلم الاجتماع والفلسفة في الفكر الألماني المعاصر، والفرق بين لغة التقاليد ولغة التقنية، يُنظر: الفصل الثالث المعنون ب: أسس علم التواصل في الفكر الألماني المعاصر، من الجزء الأول المعنون ب: أسس مدرسة فرانكفورت وبناء نظرية اجتماعية نقدية، من كتاب: حسن مصدق، يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت: النظرية النقدية التواصلية، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص.ص: 25-177.

2 المرجع السابق، ص.ص: 25-177.

3 Pierre Bourdieu, The Field of Cultural Production: Essays on Art and literature, Edited and Introduced by Randal Johnson, Cambridge, UK: Polity Press, 1993a, p: 03.

4 نقلا عن: أحمد موسى بدوي، ما بين الفعل والبناء الاجتماعي، بحث في نظرية الممارسة لدى بيير بورديو، ص: 10.

5 نقلا عن: المرجع السابق، ص: 10.

من جملة النظريات والنماذج الاجتماعية والإنسانية ذات النزعة الذاتية التي شملها هذا النمط من النقد، يمكن الإحالة إلى الرومانسية، وفرع الأنثروبولوجيا القائمة على التأويل، وفلسفة اللغة. أما ما وصله نقد بورديو من النظريات والنماذج ذات النزعة الموضوعية، فهناك الأنثروبولوجيا البنيوية، والنقد البنيوي للفكر الاجتماعي مع ألتوسير، واللسانيات البنيوية مع فيرديناند دي سوسير واللسانيات التوليدية مع تشومسكي¹. ما يهتم البحث في هذه المحطة هو بيان تعاطي بيير بورديو مع المسألة اللغوية من خلال بنائه لنظرية سوسيلوجيا الهيمنة وتأسيسه لمفهوم الممارسة، لذلك فلا بد من تعقب حيثيات نظريته الاجتماعية.

هكذا، تمتد رؤيته الموقفة بين الذاتي والموضوعي حتى في مباشرته للنقاش القائم حول الفهم الأحادي والآخر التفاعلي (أو المنفتح) للحياة الاجتماعية؛ خير دليل على ذلك هو قرنه المستمر بين البنى الثقافية والاجتماعية الموضوعية، والممارسات والتجارب الذاتية الفردية أو الجماعية، حتى إنه صرح برفضه لوجود علمين منفصلين: علم الاجتماع وعلم النفس مؤكداً أنه

1 لمعاينة مواقف بيير بورديو من اللسانيات البنيوية واللسانيات التوليدية، يُراجع مقال (السوق اللسانية)؛ ففيه على سبيل المثال يناقش مفهومي الكفاءة اللغوية عند تشومسكي ومفهوم الكلام عند دي سوسير وينتقدهما باعتبارهما معا اختزالا لشيء واحد اسمه التنفيذ كتفويض مضمين نص موسيقي بعزفه في مقطوعة؛ كما ناقش مفهوم المقبولية (إن كان المترجم قد ترجمه وظيفيا وليس توليديا على هذا النحو: النحوية)، وبخصوصه أشار إلى أنه أقبح من قبل التوليديين في النحو التوليدي ولكنهم -حسب تصريحه- اختزلوه في النحوية فقط، في حين أن معناه واسع بحيث قد تكون جمل الرجل صحيحة نحويا لا غبار عليها، ولكن كلامه كله لا ينضبط لقواعد من نوع آخر، وهي القواعد المتحكمة حدسيا واجتماعيا؛ بمعنى أدق يقصد أن ما صح بمنظور القواعد النحوية قد لا يصح بمنظور القواعد الاجتماعية. للتأكد من هذه الأفكار، ولمعرفة المزيد بخصوص هذا الشأن والنقاش اللساني لبيير بورديو، يُراجع المقال الذي صدر بمجلة اللغة الفرنسية بباريس قبل عقود، ثم تُرجم إلى العربية بالمغرب سنة 1999: بيير بورديو، السوق اللغوية، ترجمة حسن أحجيج، مجلة فكر ونقد، العدد 20، المغرب، 1999. ويُنظر أيضا: بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع: حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي، ترجمة: إبراهيم فتحي، دار العالم الثالث، ط1، القاهرة، 1995، ص.ص: 137-154.

ويُنظر خصيصا الصفحات المذكورة هنا كذلك:

Bourdieu P, Ce que parler veut dire. L'économie des échanges linguistiques. Paris, Éditions Fayard, 1982, pp: 14-77.

Pierre Bourdieu et Luc Boltanski, Le fétichisme de la langue: Actes de la recherche en sciences sociales, vol. 1, no 4, juillet 1975, pp: 02-32.

Pierre Bourdieu (préf. John B. Thompson), Langage et pouvoir symbolique, Paris, Seuil, coll. « Points essais » (no 431), 2001.

فصل ناتج عن خطأ جسيم في تعريفهما¹، بدعوى أن الفرد لا ينتج أفعالا إلا في إطار البنى الاجتماعية التي لا تأثير لها إلا من خلال ممارسة الذات الفاعلة لنشاطاتها.

لا مناص من تجسير الفجوة بين الفاعل الذي هو الشخص النشط والبنية الاجتماعية التي تضمه في مجال معين، وهذا المجال يحتاج رأسمال² نوعيا²، والمشاركون الآخرون يمتلكون استعدادات متفاوتة بتفاوت رأسمالهم النوعي، وبالتالي فموازين القوى تتحدد بحسب الرأسمال النوعي الذي يمتلكه كل مشارك وهو مشكل بحسب الخبرات السابقة (الآبيتوس)³. ومنه، فهناك علاقة جدلية بين الاستعدادات الذاتية والشروط البنوية الموضوعية. والأمر غير مقصور على الأفراد هنا فقط، وإنما الجماعات والطبقات والمؤسسات كذلك تحتاج إلى رأسمال نوعي لكي توجد وتثبت حضورها في إطار البنية الاجتماعية أو المجال، مما يعني أن علاقة الجدل أو الصراع ليست من مستوى فرد ضد بنية فقط، وإنما كذلك جماعة ضد بنية.

إن الرأسمال النوعي يتوزع حسب هذه الرؤية على ثلاثة مستويات، الرأسمال النوعي للفرد ويتشكل عبر تجاربه الشخصية، والرأسمال النوعي للجماعة وهو الخاص بالمحيط الضيق للفرد كالمدرسة والأسرة والمنطقة، ثم الرأسمال النوعي للمجال ومعناه الحيز أو الحقل العلمي أو

1 للمزيد أنظر: بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع: حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي، ص: 37.

وانظر أيضا: بيير بورديو، وجون كلود باسرون، إعادة الإنتاج، ترجمة ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2007، ص.ص: 33-34.

2 الرأسمال النوعي عند بورديو بكل بساطة هو مجموع النواتج والإنجازات المحرزة من قبل الفرد في مجال ما، وهو إما رمزي أو ثقافي أو اجتماعي أو اقتصادي؛ وكل نوع من رؤوس الأموال هذه قابل لأن يُستثمر ويُوظف في تحصيل رأسمال نوعي آخر من صنف آخر. وتتجلى قيمة الرأسمال النوعي في قدرته -إلى جانب قيمة نسق الاستعدادات المتركمة- على الحسم في الصراعات الاجتماعية التي تفرضها شتى أنواع الممارسات وفرض الهيمنة.

للاستزادة في علاقة الرأسمال النوعي والمجال والاستعدادات الدائمة بالهيمنة الاجتماعية يُنظر خاصة: بيير بورديو، العنف الرمزي: بحث في أصول علم الاجتماع التربوي، ترجمة نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص.ص: 48-50.

3 الآبيتوس عند بيير بورديو هو نسق الاستعدادات الدائمة، أي مجموع الخبرات السابقة المدمجة بالتراكم عبر سيرورة تاريخية متجهة من ماضي الفرد أو الجماعة في اتجاه الحاضر دائما، وبذلك فهي منطوية ومنحولة ومرشحة للتعديل مع حركة التاريخ. إن المقصود بهذه الاستعدادات تحديدا هو التجارب التي راكمها الفرد أو راكمتها الجماعة في تعاطيها مع الواقع الاجتماعي في مجالات مختلفة وبنى مختلفة وسياقات مغايرة، ويقدر ما يتفاعل الناس مع المجتمع والسياقات المتباينة فإن تشكيلها يتغير، أو كما يرى بورديو بأنها طاقة توليدية فعالة تستطيع أن تعيد تشكيلها مادامت مواكبة للتطور التاريخي والاجتماعي.

للمزيد أنظر: جون سكوت، علم الاجتماع: المفاهيم الأساسية، ترجمة: محمد عثمان، المكتبة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت، 2009، ص: 42.

الاجتماعي أو الديني أو الفني أو الثقافي الذي ينخرط فيه الفرد بممارسة معينة¹، أي بنشاط من نوع ما كاستعمال اللغة وتبادل أطراف الحديث، في السوق، والتلفزيون، والصحف، ومواقع التواصل الاجتماعي، والمدرسة، ودور العبادة، وغيرها من الفضاءات الخاصة والعامة. يظل الرأسمال النوعي مؤثرا في الفرد إلى ما لانهاية، ويظل رأسمال الفرد والجماعة في جدل مع رأسمال المجالات بحسب الممارسات والتفاعل مع المعطيات المتاحة اجتماعيا في كل مجال على حدة².

الممارسة في علاقتها بالهيمنة هي نشاط إنساني يقوم به فاعل يمتلك القدرة على صنع الاختلاف ولكنها ليست قدرة ذات متعالية وإنما قدرة ذات فاعل نشط مكافح³. والكفاح المتحدث عنه هنا انخراط في الجدل المستدام القائم بين فعل الفرد والشروط الموضوعية التي تفرضها البنية الاجتماعية. بهذا المعنى، وحسب مفاهيم الأبييتوس (الاستعدادات الدائمة) والرأسمال النوعي والمجال، يرى بيير بورديو أن الجدل أو الصراع الدائم بين الفرد وحتى الفرد والجماعة - والبنية الاجتماعية في كل المجالات تتخذ ثلاثة مسارات مختلفة، فإما أنه يتوافق كليا مع شروطها الموضوعية، أو إنه يفرق جذريا بين أغراض الفاعل ومحددات الموضوع، أو إنه يتخذ وجهة نظر رافضة وسلبية حيال الممارسة جملة وتفصيلا⁴. ولكن، ما علاقة المسألة اللغوية بكل هذا الإطار النظري لسوسيولوجيا الهيمنة؟

تقتضي الإجابة عن هذا السؤال استدعاء سؤال آخر كان قد طرحه بيير بورديو نفسه منذ عقود في كتابه (أسئلة علم الاجتماع)، وهو: ما السوق اللغوية؟⁵ وقد كشفت معالجته تنزيلا عمليا لمفاهيم الاستعدادات الدائمة (الأبييتوس) والرأسمال النوعي والمجال في النقاش الاجتماعي للمسألة اللغوية. عموما، فالسوق اللغوية وضعية اجتماعية لها طقوسها الخاصة وقوانينها المتفردة، وكل ما يتعلق بها هو متصل شديد الاتصال بالمشاركين في العملية الكلامية

1 أحمد موسى بدوي، ما بين الفعل والبناء الاجتماعي، بحث في نظرية الممارسة لدى بيير بورديو، ص.ص 17-18.

2 المرجع السابق، ص.ص: 17-18.

3 بيير بورديو، بعبارة أخرى: محاولات باتجاه سوسيولوجيا انعكاسية، ترجمة أحمد حسان، دار ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، 2002، ص: 33.

4 بيير بورديو وجون د. فاكونت، أسئلة علم الاجتماع في علم الاجتماع الانعكاسي، ترجمة عبد الجليل الكور، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1997، ص: 93.

5 ويُنظر أيضا: بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع: حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي، ص: 141.

و: Bourdieu P, Ce que parler veut dire. L'économie des échanges linguistiques, pp; 14-77.

ومواقعهم التراتبية والاجتماعية¹. وإن خصائص المتكلمين وانتماءاتهم التطبيقية والعلمية والثقافية والعقدية، سواء أكانت مدرّكة أم غير مدرّكة، فإنها تؤثر في عمليتي الإنتاج والتفسير خلال الممارسة التواصلية القائمة على أساس الأداء والاستعمال اللغوي، بصورة واعية أو غير واعية. فكيف ذلك؟

يعني إنتاج خطاب ما في إطار عملية تواصلية ما وجود سوق لغوية بالضرورة، وهو خطاب موجه إلى مخاطبين يتصفون بالأهلية للحكم على الكلام وتقويمه؛ وذلك بناء على معرفتهم وكفاءتهم اللغويتين². فيقدر جودة الكلام وقدرة المتكلم (يستبدل مصطلح القدرة بمصطلح الرأسمال اللغوي)³ على انتزاع المقبولية والرضا من لدن المتلقين، فإن سعر كلامه يكون أعلى من كلام غيره. وليس المقصود بالمقبولية كما تمت الإشارة في الإحالة (أول إشارة لمقال السوق اللغوية) هو الإجابة النحوية وصحة القواعد التركيبية، وإنما الالتزام بالقواعد المتحكمة في الحدس والاجتماع⁴. وبتعبير آخر، فأن ترتفع أسعار الخطابات في السوق اللغوية معناه أنها قد استقوت على قوانينها المتفردة وفرضت نفسها على طقوسها الخاصة؛ إذ لكل سوق قوانينها⁵. فما هي هذه القوانين المتحكمة في السوق اللغوية؟

من خلال تتبع مفهوم السوق اللغوية في المقال المذكور، اتضح أنه يقصد بها أي سياق اجتماعي محدد مكانيا وزمانيا يحتضن ممارسةً تواصليةً ما عبر اللغة؛ والممارسات على اختلافها تبقى دائما تحت رحمة البنيات الاجتماعية التي تحدد قيمة الرأسمال اللغوي⁶. معنى ذلك، أن الممارسة اللغوية، كأية ممارسة تخضع لقانون سوسيلوجيا الهيمنة. فأن يخاطب الفرد الناس باللغة في سياق معين موظفا مكتسباته الاجتماعية والفكرية والعقدية وغيرها، وأن يلج الحوار باعتبار اجتماعي ما أو مكانة كبيرة أو صغيرة معترف له بها، معناه أنه فاعل اجتماعي دخل غمار ممارسة اجتماعية في مجال ما باستعداد ناتج عن تراكم خبراته السابقة تاريخيا، وأنه يحمل معه رأسمال نوعيا هو مهارته وكفاءته اللغويتين ومكانته الاجتماعية. هنا سيكون طرفا

1 بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع: حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي، ص 141.

2 المرجع السابق، ص: 141.

3 المرجع السابق، ص: 142.

4 المرجع السابق، ص.ص: 141-142.

5 المرجع السابق، ص.ص: 142-143.

6 المرجع السابق، ص: 143.

في صراع مع بنية اجتماعية لمجال محدد، صراع قوامه جدل بين استعداداته ورأسماله والشروط الموضوعية لهذه البنية الاجتماعية.

وإن الكلام الذي يكون سعره أعلى في هذه السوق اللغوية هو الذي يُربح صاحبه رهان علاقات القوة كما يقول بورديو: "في السوق اللغوية، فثمة علاقات قوة. ومن ثم فللسوق اللغوية قوانين تكوين للأثمان تفرض بطريقتها ألا تكون المنتجات اللغوية والأقوال متساوية"¹؛ وبالتالي فإن المتكلم الذي له رأسمال لغوي نوعي يفرض الهيمنة لأن كلامه أفلح في أداء وظيفة اجتماعية استناداً إلى المتاح من الاستعدادات والرأسمال النوعي. وإلى حد ما، فإن أية ممارسة لغوية هي شكل من الأسواق اللغوية التي تُحسَم فيها النزاعات تبعاً للاستعدادات الدائمة والرأسمال النوعي (اللغوي). وبذلك، فإن بورديو قد وجد في مفهوم الرأسمال اللغوي البديل الأمثل لمدلول الكفاءة اللغوية، وبالانتقال بين المفهومين تظهر النظرة الاجتماعية المضافة إلى الاشتغال على اللغة واستعمالها.

3.1. السلطة والمعرفة والخطاب:

هل ناقش ميشال فوكو المفهوم اللساني للخطاب في كل ما ألفه وقاله عن "الخطاب"؟ سؤال ملح خصوصاً عند استحضار إحدى العبارات المطردة بوتيرة مهولة في جل مؤلفاته، لاسيما في كتاب "حفريات المعرفة"؛ الحديث هنا عن عبارات ومقاطع عديدة وليست عبارة واحدة، ولكن يمكن تكثيفها كلها في الاقتضاب التالي: (قواعد الخطاب كفيلة بفهم نُظْم المعرفة والحقيقة). ولكن عن أي خطاب يتحدث؟ وأية قواعد يقصد هنا؟ وهل الدراسة اللغوية أو الأخرى اللغوية النقدية للخطاب تسعى إلى فهم المعرفة والحقيقة؟ بطبيعة الحال لن يجيب هذا البحث عن أمثال هذه الأسئلة، ولكنها مشروعة للفصل بين مجاله العلمي وبين ما يقصده فوكو، ولتحديد الصلات بين المجالين حتى وإن كانت طفيفة، لاسيما أن هناك محاولات نشطت في تحليل الخطاب بتطبيق بعض مفاهيمه معلنةً ذلك صراحةً؛ وسيذكر البحث أهمها.

إن ما قدمه فوكو عن "الخطاب" عموماً -وهنا سيُشار إلى مفهوم الخطاب ومشتقاته كما يتصوره فوكو دائماً بين المزدوجين ("...") لتمييزه عن الخطاب بمفهومه اللساني المعتمد في هذا البحث- هو مدخل تجريدي لدراسة المجالات المشكلة للمعرفة الاجتماعية المتداولة وليس

1 بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع: حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي، ص 143.

لغويا ولا نصيا. ولكن، يحق القول، وعلى الرغم من ذلك، إنه كان أساسا من الأسس الاجتماعية (لا اللسانية) لأحد المناهج في التحليل النقدي للخطاب، وهو منهج التحليل التنظيمي مع جاجر وفلورينتاين مايبير؛ وسيأتي الحديث عن هذه العلاقة بتفصيل.

هناك مرحلتان اثنتان لتطور مفهوم "الخطاب" ومكانته وما يحيط به في مشروع فوكو، الأولى متعلقة بالقراءة التأصيلية المقتبسة من علم الحفريات، وتمثلها بعض مؤلفاته فقط وأهمها كتاب (حفريات المعرفة)¹؛ والثانية هي المرتبطة بمنهجية علم الأعراق، وتمثلها كذلك مؤلفات عديدة ومعلومة أهمها (المراقبة والمعاقبة)². أما الأولى فأهم عنوان يمكن إطلاقه عليها هو بيان الطابع التكويني "للخطاب"، بمعنى أنه هو الذي يكون الموضوعات والمفاهيم والعلاقات والذوات الاجتماعية (الأفراد والجماعات والمؤسسات). إضافة إلى اعتبار أن أي "خطاب" هو حصيلة منطقية للتداخل بين "خطابات" متعددة ومركبة لمجالات وحقول مختلفة. أما الثانية، فعنوانها هو أن "الخطاب" ميدان للصراع وموضوع له وهو تابع للسلطة، وكل السلط تتجه إليه وتمارس من خلاله. فما تفاصيل كل مرحلة؟

قد يقدم البحث إجابة عن هذا السؤال الأخير نسبيا وليس كليا في هذا الموضوع. وقد يخطئ لاعتبار معرفي صرف، وهو أن بعض المصطلحات المعروفة لسانيا وحتى اجتماعيا وفلسفيا تعبر عند فوكو عن مفاهيم متغيرة وأحيانا متناقضة، على سبيل المثال: "الخطاب"، وتحليل "الخطاب"، والملفوظ، والقول، والعبارة، والمصطلح، والقاعدة، والتشكيل، والتكوين؛ وكلها مفاهيم تتحول حسب تحول نسقه الفكري³. ولربما قد يحتاج الباحث المهتم بهذا المشروع قاموسا اصطلاحيا خاصا بميشال فوكو قبل أن يقرأ له أي من مؤلفاته؛ فالمفهوم عنده متحول ومتغير لا يستقر على حال من كتاب إلى آخر، بل من فصل إلى آخر داخل الكتاب نفسه. ولأن تبيان تفاصيل هذا المعطى ليس من أهداف البحث في شيء، فمن الممكن الإحالة إلى قاموس

1 ميشال فوكو (1972)، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، 1987.

2 ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة، ترجمة علي مقلد، مراجعة مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990.

3 يعترف فوكو نفسه في كتاب حفريات المعرفة أن فهمه لمفهوم الخطاب كان غير مستقر، وأنه مبهم، وعمام. يقول في هذا الصدد: "أما لفظ [مصطلح] الخطاب الذي أكثرنا وبالغنا في استخدامه بمعاني مختلفة، فإننا نفهم الآن سبب إبهامه، فقد استعمل بكيفية أكثر عمومية وأكثر التباسا للدلالة على مجموع الإنجازات اللفظية، وكنا نفهم عندئذ من لفظ [مصطلح] خطاب، ما تم إنتاجه أو كل ما تم إنتاجه، عند الاقتضاء) بواسطة الأدلة". انظر: ميشال فوكو (1972)، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، 1987، ص: 100.

اصطلاحى من هذا القبيل، وهو (معجم ميشال فوكو) الذي ألفته باحثة فرنسية اسمها جوديت ريفال¹. وفي جميع الأحوال سيعمد البحث إلى وسم المفهوم كما هو في البنية التصويرية عند فوكو بمزدوجين ("...").

عموماً، في المرحلة الأولى، يمكن اعتبار مدخل فوكو لتحليل "الخطاب" تجريبياً كما سبقت الإشارة إلى ذلك لأنه لم يقدم قواعد لسانية لتحليله أو لبنائه وهذا طبيعي بالنظر إلى التخصص، وإنما اعتقد أن تحليل "الخطاب" يكون بقواعد من نوع خاص تتوقف على القدرة على فهم ما يسميه بالتشكيلات "الخطابية"، والتي يعرفها بأنها أنماط "الخطابات" المختلفة المتدخلة في تكوين مجالات المعرفة الاجتماعية والعلمية على حد سواء². وفق هذا الطرح، فإن "الخطاب" عنده لا صلة له بمفهومه اللساني كما قد يدعي البعض، وإنما هو مفهوم يوازي المدونة التي تحوي تراكمات عديدة -فيها الثابت والمتحول- من الإنتاجات، والمفاهيم، والأفكار، والمؤسسات، والعمران، والنظريات، والمعتقدات، التي تخص كل مجال معرفي أو اجتماعي على حدة؛ ولتوضيح أكثر، فهو يقصد المجلد الرائج من العناصر والمكونات المجردة والمادية المتداولة في مجال ما من المجالات داخل المجتمع، سواء أكانت خاصة أم عامة؛ ولكنها تجتمع وتلتقي وفق ما يسميه بنظام التبعر³.

بهذا المعنى، يحوي "الخطاب" موضوعات المعرفة، والذوات الاجتماعية، ومواقعها، ونفسيات الأفراد، والصلات الاجتماعية، والأطر النظرية، والمفاهيم، والأشكال الهندسية، وأصناف التعبير⁴. وتتضافر كل هذه العناصر لتقرز تشكيلاً "خطابياً". لكن قواعد التشكيل كما يرى مختلفة ومتعاقبة في آن؛ وأولها هي قاعدة تشكيل الموضوعات التي يعني بها أهداف البحوث العلمية والإدراكات الاجتماعية الخاصة والعامة في آن واحد، وهي متغيرة وغير مستقرة كموضوع الجنون مثلاً⁵. إذن فـ"الخطاب" طاقة خلاقية تتدخل في إنتاج الموضوعات وتحويلها وإعادة إنتاجها. أما ثانيها، فهي قاعدة تكوين الأنواع التعبيرية التي تثبت وجود التشكيل "الخطابي" مادياً وتحديداً لغوياً؛ وفي هذا السياق، يرى أن التحليل لا يحتاج إلى ما يدل على

1 Revel Judith, Dictionnaire Foucault, Ellipses Edition, Marketing, S.A, 2008.

2 ميشال فوكو، حفريات معرفية، ص.ص: 37-38.

3 المرجع السابق، ص: 37.

4 المرجع السابق، ص.ص: 31-38.

5 المرجع السابق، ص: 32.

الذات المعبرة من الوحدات اللغوية كالضمائر مثلا، وسواء كان ما يدل عليه في العبارات أم لا، فإن تحليل العبارة يعني تحديد موقع قائلها أو كاتبها¹.

ثالثة القواعد هي تشكيل المفاهيم. المفاهيم هي مجموع الدلالات والسمات والفئات المشتقة التي يستخدمها علم من العلوم أو نظرية من النظريات بوصفها جهازا يُيسر مطلب التعاطي مع المجال المخصوص. لكن فوكو يرى أنه ليست هناك أجهزة مفهومية موحدة وثابتة داخل التشكيل "الخطابي" (المفاهيم والموضوعات والعبارات والاستراتيجيات)، وإنما المفاهيم متغيرة ومتحولة وعائمة ومتحركة من مجال إلى آخر (هنا منبع عدم استقرار فوكو نفسه على مفهوم واحد للمصطلحات كمصطلح "الخطاب" (أو مصطلح القاعدة مثلا). لذلك فكل الأقوال تأتي في نصوص تحمل مفاهيم لها علاقات تتابع وتبعية لمفاهيم أخرى واردة في نصوص أخرى في تشكيل "خطابي" آخر². وصولا إلى رابعة القواعد، أي تشكيل الاستراتيجيات، يبدو أنه يقصد بها الاختيارات النظرية، أي وضع النظريات والأفكار المحورية العلمية والثقافية³. وهي كذلك من صنع "الخطاب" الذي ينهض بقواعد (وأحيانا يسميها وظائف) التشكيل الأربعة المذكورة لحد الآن.

لكن، التشكيلات "الخطابية" على غرار ما ذكر متعددة بتعدد "الخطابات"، لذا يرى فوكو أن الأليق هو الوصف الخاص لكل تشكيل في محله. مع الحرص على أن التعالقات بين التشكيلات "الخطابية" هي ما يسميه بنظم "الخطاب"⁴. مما يعني أن تحليل "الخطاب" عنده هو تحديد التشكيلات المتغيرة اجتماعيا وتاريخيا، والقابعة خلف الكلمات والعبارات والجمل. إذن، فهذا ليس تحليلا لسانيا للفئات اللغوية المنفصلة والمتصلة في الخطاب، وإنما هو تحليل مجرد لما خلف التمثيلات اللغوية (أو ما يسميه تارة بالعبارات وتارة أخرى بالملفوظات وثالثة بالأقوال). أما ما هو خلف التمثيل اللغوي فليس شيئا بعيد المنال غير قواعد التشكيل المذكورة آنفا: العبارات، والموضوعات، والمفاهيم والاستراتيجيات.

1 ميشال فوكو، حفريات المعرفية، ص.ص: 87-88.

2 المرجع السابق، ص: 53.

3 المرجع السابق، ص.ص: 60-64.

4 المرجع السابق، ص.ص: 105-107.

في المرحلة الثانية، حقق مشروع فوكو نقلة نوعية تجلت في إضافة السلطة إلى نظم "الخطاب"، وبذلك فقد هدم مركزية "الخطاب" الذي استأثر كثيرا في المرحلة الأولى بالقدرة على التشكيل في الحياة الاجتماعية على صعيد كل الأبعاد والمستويات. بل إنه قد احتل هنا موقعا ثانويا يأتي بعد السلطة. والحقيقة أنه يصعب إيجاد تفسير منطقي لهذا التراجع المفاجئ لمكانة "الخطاب"، والأصعب من ذلك هو كيف حافظت قواعد التشكيل "الخطابي" على وظائفها في الوقت الذي تضاءلت حظوظ "الخطاب" لصالح السلطة؟

ولكن، ومع تلك الصعوبة، من اليسير العثور على حيثيات البروز الجديد للسلطة واضطلاعها بأدوار أقوى من "الخطاب" في كتيب (نظام الخطاب)¹ و (المراقبة والمعاقبة)² و(تاريخ الجنسانية)³؛ إذ يستमित في بيان أن السلطة متغلطة ومضمرة في جميع المستويات داخل المجتمع⁴، كما وضع "الخطاب" -ومعه اللغة- في صلب الممارسة الاجتماعية. وينتج عن هذا الوضع نشوء علاقة مضمرة وضمنية بين السلطة والمعرفة (هنا يظهر الخطاب إلى جانب اللغة بمفهومه اللساني ولكن سرعان ما يتراجع إلى المعنى السابق في المرحلة الأولى)، وهي ما يسميه بالسلطة الحيوية التي توجد على نحو سلس في كل مستويات البنية الاجتماعية، والمستخدم في مجالات متعددة كالجيش، والمدرسة، والطب، والاقتصاد، والسياسة، والصيدلة، وغير ذلك من القطاعات الحياتية⁵. ويقصد بالمعرفة هنا -المعرفة العلمية والاجتماعية- الإدراكات المعقدة والخاصة بأحد هذه المجالات، فإدراكات الجندي للتراتبية العسكرية وما يستحقه الضباط الأعلى درجة منه من احترام والتزام بتعليماتهم هي معرفة اجتماعية خاصة بالعسكر، ملزمة له، أي إنها سلطة المعرفة العسكرية التي يحملها ويكرسها "الخطاب" العسكري.

إن سلطة المعرفة التي يتحدث عنها فوكو في هذه المرحلة هي سيطرة الإدراكات الاجتماعية داخل "الخطاب" بمعناه الفوكوي (مجموع المعارف والمفاهيم المتداولة في مجال ما)، بحيث إن هذا النمط من المعرفة الاجتماعية الخاصة هو العامل الذي يتحكم، ويوجه، ويفرض

1 ميشال فوكو، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير، د.ت.

2 ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن، 1990 (مرجع سابق).

3 ميشال فوكو، تاريخ الجنسانية ج1 إرادة المعرفة، ترجمة محمد هشام، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2004.

4 المرجع السابق، ص.ص: 76-77.

5 المرجع السابق، ص.ص: 117-118.

القيود على ما يمكن أن يُقال أو يُكتب، وعلى الذين يقولونه أو يكتبونه، وعلى المناسبات والأماكن التي يُقال ويُكتب فيها، وإضفاء صفة القداسة أو الحقارة عليه، وآثار الإحالة إلى الشخوص المرتبطين به. ولم يعد "الخطاب" كما في المرحلة الأولى الصانع والمشكل¹، وإنما بات وسيلة تعبر عن أطماع السلطة والهيمنة، وهذا ما تسعى إليه كل العلاقات الجدلية في المجتمع². ومن هنا أصبح يخول للسلطة إمكانية التشييء والإخضاع.

إن، وبعد هذه الإطلالة السريعة على المرحلتين، لا يمكن المعادلة بين مفهوم "الخطاب" عند فوكو، ومفهومه في اللغويات وخاصة اللغويات النقدية والتحليل النقدي للخطاب؛ فإذا كان الخطاب من الناحية اللسانية يعني استعمال اللغة في اتصالٍ لساني داخل سياق معين بين مشاركين على الأقل من أجل قضاء أغراض معينة³، فإنه عند فوكو يعني -تحديداً- مجمل والمعطيات، والمعارف، والأفكار، والمواضعات، والمفاهيم، والمسلمات، والأشكال المترابطة تاريخياً⁴، والتي تروج في مجال علمي، أو اجتماعي، أو مهني، أو عقدي، أو ثقافي، أو مكاني معين؛ بحيث تكون مشتركة بين أفراد المجال الواحد أو أفراد المجالات المتداخلة⁵.

1 Michel Foucault, The Order of Discours, In M. Shapiro (Ed), Language and Politics, Oxford, Basil Blackwell, 1984, p: 109.

2 Ibid, p: 110.

3 أنظر تعريفات مفهوم الخطاب في مدخل هذه الأطروحة، عند شارودو ومنغونو، ويول وبراون، وفان دايك، وفيركلف.

4 لدى (Clare O'Farrell) موقف يعزز هذه القراءة المتواضعة لمفهوم "الخطاب" في عمل فوكو، إذ يقول: "الخطاب فكرة منزقة إلى حد ما في عمل فوكو، لكنه في أبسط صورته يستخدم المصطلح للإشارة إلى الآثار اللفظية المادية التي خلفها التاريخ". أنظر: Clare O'Farrell, "Michel Foucault", Sage Publications, London, 2005, p: 133 .

5 بالإمكان العثور على تعريف أدق من هذا في القاموس المذكور آنفاً عن مصطلحات فوكو (معجم فوكو)؛ ومنه ما جاء على لسان مؤلفته: "الخطاب بشكل عام عند فوكو مجموعة من البيانات التي قد تنتمي إلى مختلف المجالات، والتي قد تظهر في حقول مختلفة، والتي تشغل حيز الخضوع والرقابة بشكل جماعي. هذه القواعد أو البيانات ليست لسانية أو صورية فقط، ولكنها عملية إنتاجية لكافة المشتركات التاريخية المحددة (العقلانية واللاعقلانية)". أنظر:

Revel Judith, Dictionnaire Foucault, Ellipses Edition, Marketing, S.A, 2008, p: 39.

سيوضح المفهوم الخاص بالخطاب في البنية التصويرية لفوكو من خلال استشهد آخر لستوارت هال الذي يؤكد أنه لم يتحدث عن الخطاب باعتباره مفهوماً لسانياً أبداً: " أول نقطة تجب ملاحظتها هي أن فوكو حول الانتباه من "اللغة" إلى "الخطاب". لم يدرس اللغة، ولكنه درس الخطاب بوصفه نظاماً تمثيلاً. عادة، يُستخدم مصطلح "الخطاب" مفهوماً لسانياً، وإنه يعني ببساطة مقاطع من الكتابة أو من الكلام المتصل. لكن ميشيل فوكو أعطاه معنى مختلفاً. وما كان يهمه هو القواعد والممارسات التي أنتجت صياغات ذات معنى وخطاب منظم في فترات تاريخية مختلفة. من خلال "الخطاب"، كان فوكو يعني مجموعة من العبارات التي توفر لغة للحديث عن طريقة لتمثيل المعرفة - موضوع معين في لحظة تاريخية معينة ... أي الخطاب حول إنتاج المعرفة من خلال اللغة". أنظر:

لكن، ما الذي له صلة بالتحليل النقدي للخطاب في هذا التصور للخطاب والسلطة؟ سؤالٌ تُرجأ الإجابة عنه إلى المبحث الثاني من هذا الفصل.

4.1. تمثيل المعرفة الاجتماعية:

حاجة البحث إلى النظر في هذه النظرية المنتمية إلى علم النفس الاجتماعي يفرضها معطيان، أولهما هو أن مفهوم (التمثيل الاجتماعي) معتمد من لدن بعض مناهج التحليل النقدي للخطاب، ولأسيما في المنهج الاجتماعي الإدراكي مع فان دايك، ومنهج الفاعل الاجتماعي مع فان لوفين، والمنهج التاريخي لمارتن رايزغل وروث فوداك، كما سيُبين تاليه. وثانيهما هو أن صاحب النظرية (سيرجي موسكوفيتشي) ينطلق من عملية التواصل، ويركز عليها باعتبار أنها السند الحامل للتمثيل الاجتماعي، أي الصورة المادية لكل عناصر المعرفة الاجتماعية والأبعاد النفسية والإدراكية المشتركة¹. ولهذين المعطيين، ينبغي معرفة تصوره للتمثيل الاجتماعي في علاقته بالتواصل.

يُعد سيرجي موسكوفيتشي واضع هذه النظرية في علم النفس الاجتماعي، وذلك في كتابه المرجعي (التحليل النفسي: صورته وجمهوره) سنة 1961². ويتبنى أطروحة مفادها أن: "التوجهات والآراء التي تنتظم في هياكل معرفية هي تمثيلات مجتمعية"³. ويركز بالأساس على التمثيل الاجتماعي بوصفه شكلا من أشكال المعرفة الاجتماعية التي يكونها وبينها الشخص (والجماعة أيضا)، بوعي أو بغير وعي، انطلاقا من وجوده الفعلي والتجربة الحياتية في نسيج اجتماعي معين، وكذلك من خلال تفاعلاته مع كل عناصر هذا النسيج⁴.

وتُعنى هذه النظرية بتحليل التمثيل الاجتماعي للإنتاجات والتجارب والإدراكات ذات المعنى المشترك بين أفراد البنية الاجتماعية، وتعتبره وسيلة لتأويل العالم وتفسيره والتفكير في

Stuart Hall, Foucault and Discourse, in: Clive Seale, Social Research Methods, Routledge Taylor and Francis group, London, 2004, pp: 345-349.

1 Nikos Kalampalikis, Serge Moscovici: Psychologie des représentations sociales, Hal, 2019, p: 10.

2 Moscovici S, (1961), La Psychanalyse, son image et son public, Paris, Presses universitaires de France, 2014.

3 جون سكوت، علم الاجتماع: المفاهيم الأساسية ص: 126.

4 Nikos Kalampalikis, S. Moscovici: Psychologie des représentations sociales, Hal, 2019, p: 11

معطيات الحياة اليومية. كما ترى في هذه الإدراكات المشتركة أداة مفيدة ومؤصلة ومرسخة للمعرفة الاجتماعية التي تغدو شرطاً لكل فهم واستيعاب؛ إذ إنه: "لا يوجد عقل خالٍ من آثار الشرط السابق الذي تفرضه تمثيلاته ولغته وثقافته"¹. فكيف يكون التمثيل الاجتماعي للمعرفة الاجتماعية المشتركة التي هي في الأصل معنى مشترك لأفراد المجتمع الواحد؟

يرى موسكوفيتشي أن بين أفراد البيئة الاجتماعية الواحدة أعرافاً معتمدة بالتواضع في عمليات التواصل، وهي كذلك من ضمن عناصر المعرفة الاجتماعية المشتركة²، إلى جانب: المفاهيم الشائعة، والافتراضات المسبقة، والمواقف المشتركة والخاصة، والقيم، والمعتقدات، والأنساق الثقافية، والعادات الشعبية، ونظام العلاقات، وتعدد الأنواع. ويؤكد أن مصدر هذه العناصر المكونة للمعرفة الاجتماعية بمعناها المشترك (ليس العلمي) هي الخلفية المعرفية ببعديها الفردي والجماعي، لأنها قادمة أساساً من معطيات البنية الاجتماعية تاريخياً³.

2. امتدادات الأصول الاجتماعية في مناهج التحليل النقدي للخطاب:

من وجهة نظر موضوعية، وبناء على مراحل التحليل في التصور المنهجي للتحليل النقدي للخطاب كما أُصل في المدخل، يمكن القول إن ما جاء في هذه الإطارات النظرية الاجتماعية لا علاقة له ببرنامج الوصف النصي والتحليل الخطابي (المرحلتان 1 و 2 في البرنامج التحليلي)، وإنما هو ذو صلات من قريب أو بعيد بمرحلة النقد الاجتماعي وتفسير نتائج الوصف والتحليل (وهي المرحلة الثالثة من البرنامج التحليلي).

1.2. امتداد نظرية السلطة والمعرفة:

يشير علماء الاجتماع إلى مدخل فوكو كما لُخص أنفاً بوصفه نموذجاً من نماذج تحليل "الخطاب" في علم الاجتماع والفلسفة، لا صلة له بالتحليل اللساني كما في علم اللسانيات الاجتماعية، أو فلسفة اللغة، أو مقاربات تحليل الخطاب ذات التوجه اللساني. لكن، هناك مقارنة لسانية واحدة لتحليل الخطاب ذي التوجه اللساني اعتمدت أجزاءً من هذا المدخل الاجتماعي، ويُشار هنا إلى مقارنة المدرسة الفرنسية (بيشو وزملاؤه 1979) التي اقتبست مفهوم

1 Serge Moscovici, Social Representations: Essays in Social Psychology, Explorations in Social Psychology, Edited by Gerard Duveen, Polity Press, 2000, P: 23.

2 Nikos Kalampalakis, Serge Moscovici: Psychologie des représentations sociales, p: 10.

3 Ibid, pp: 10-13.

التشكيل الخطابى الفضاى، فطبقتة على الخطاب بمعناه اللسانى كما تمت الإشارة إلى ذلك أعلاه فى الفصل الأول، متخذةً لذلك الغرض نماذج من الخطابات السىاسية الفرنسىة المكتوبة متونًا للدراسة.

أما فى التحلىل النقدى للخطاب، فثمةً نموذج المنهج التتظىمى الذى أصل له فى مقال (جاغر وفلورىنتاىن ماىبر 2001)، والذى نُشر فى (فوداك ومىشىل ماىبر 2001، 2002، 2009) بعنوان عرىض يمكن ترجمته كما يلى: "الجوانب النظرىة والمنهجىة فى التحلىل النقدى للخطاب وتحلىل المركب الخطابى لى فوكو"¹؛ وهو بحق المنهج الذى اعتمد الأطر الاجتماعىة لنظرىة الخطاب عند فوكو، بحىث قدم تقنىة لنقد الأبعاد المعقدة والمتباىنة للممارسة السلطوىة من خلال تحلىل المعرفة المكثفة فى الخطاب، والمضمرة خلف العلاقات، والموضوعات، والمفاهىم، والاستراتىجىات، والعبارات، والمؤسسات، والنشاط الإنسانى بمختلف أنماطه²، إضافةً إلى التحلىل اللسانى الصرف. وىظهر أن جاغر وماىبر قد أفادا من فوكو مسألتىن اثنتىن: الأولى هى المنطق المركب للخطاب مع التراجع عن مفهوم "الخطاب" الفوكوى الفضاى والاشتغال على الخطاب بوصفه استعمالا للمادة اللغوىة فى علاقتة بالممارسة غير الخطابىة؛ والثانىة هى كون المعرفة المحملة فى الخطاب مكرسة للسلطة داخل النسىج الاجتماعى³.

غير أنهما قدما بدىلا لانعدام الصلة بىن الممارسة الخطابىة بالمعنى اللسانى والممارسة الخطابىة بالمعنى الفوكوى، وهو توسط النشاط الإنسانى بىن الضفتىن⁴. وقد استندا فى وضع هذا البدىل إلى نظرىة التتشىط للمتخصص فى علم النفس الاجتماعى ألكسى لىونىف (1982)، وخلصتها أن النشاط الإنسانى (اللغوى وغيره) ىتوسط بىن المعانى القائمة سلفا وتجلىاتها اجتماعىا⁵.

1 Jager-Siegfried, and Maier, Florentine, Theoretical and methodological aspects of Foucauldian critical discourse In: Wodak, Ruth & Meyer, Michael, Methods of CDA. London: Sage, 2001, pp: 32-61.

2 Ibid, p: 34.

3 Ibid, pp: 40-42.

4 Ibid, pp: 83-39.

5 Ibid, pp: 49-51.

أما عن المنهج الجدلي العلائقي، فقد يدعي البعض (فوداك ومايبر 2009 مثلا)¹ أنه يتعاطى مع مفهومي السلطة والأيدولوجيا وفق التصور الفوكوي، والأمر ذاته مع مفهوم الممارسة الاجتماعية. غير أن نورمان فيركلف نفسه يحسم في هذه المسألة، بحيث إنه قد نفى أية علاقة بين التحليل النصي في التحليل النقدي للخطاب وتحليل الخطاب عند فوكو، في هذا يقول: "التعارض كبير هنا [يحيل بـ(هنا) إلى التحليل النقدي للخطاب] بين تحليل الخطاب ذي المنحى النصي.. وبين مدخل فوكو.."². وبذلك فإنه يُسقط أي ادعاء لأية صلة إستيمولوجية بين فيركلف وفوكو، خصوصا في ما يتعلق بمادة التحليل؛ ففوكو لا يحلل نماذج خطابية فعلية، وإنما يناقش أفكارا فلسفية، وسياسية، ومرضية، وعلمية، رائجة تاريخيا من وجهة نظر اجتماعية، هذا ما يؤكد فيركلف في هذا المقطع الثاني: "من أوجه الاختلاف الرئيسة بين فوكو وتحليل الخطاب ذي المنحى النصي أن تحليل فوكو للخطاب لا يتضمن تحليل نصوص حقيقية من الجانبين الخطابي واللغوي"³.

لقد انشغل المنهج الجدلي العلائقي بالتحليل اللغوي للنص والخطاب، وقدم نماذج نصية وخطابية فعلية ومعلومة زمانا ومكانا ومصدرا. وعلى عكس ذلك، ظل شغل فوكو الشاغل هو استقصاء طرق إنتاج الخطاب باعتباره معرفة المؤسسات التي تولد السلطة والهيمنة والتحكم في الإنسان عبر التاريخ⁴. ذلك لأن الخطاب عنده لم تكن له أية حمولة لسانية - وإن تحدث عن العبارات والملفوظات والأقوال - وإنما عنده مدونة من المقولات والمفاهيم التابعة لمؤسسات المجتمع المنتجة للآليات الكفيلة بالسيطرة⁵.

1 روث فوداك وميشيل مايبر، التحليل النقدي للخطاب: التاريخ والبرنامج والنظرية والمنهجية، ضمن: روث فوداك وميشيل مايبر وآخرون، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ترجمة حسام أحمد فرج وعزة شبل محمد، مراجعة عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2014، ص: 54.

2 Norman Fairclough, Discourse and Social Change, p: 37.

3 Ibid, p: 56.

4 Clare O'Farrell, "Michel Foucault", p: 133.

5 يمكن الاستشهاد هنا مرة أخرى بتعريف من معجم فوكو: "الخطاب بشكل عام عند فوكو مجموعة من البيانات التي قد تنتمي إلى مختلف المجالات، والتي قد تظهر في حقول مختلفة، والتي تشغل حيز الخضوع والرقابة بشكل جماعي. هذه القواعد أو البيانات ليست لسانية أو صورية فقط، ولكنها عملية إنتاجية لكافة المشتركات التاريخية المحددة (العقلانية واللاعقلانية)..."

Revel Judith, Dictionnaire Foucault, P39.

أنظر:

2.2. امتداد نظرية الفعل التواصلي:

اعتُمد الفكر النقدي لهايرماس في نظرية الفعل التواصلي مرجعا اجتماعيا واحدا في الكثير من النماذج البلاغية واللسانية الخطابية، وقد وُجّهت مبادئه إلى تحليل اجتماعي للخطاب لا يدعي أية صلة بالدراسات التقنية لا سيما في البلاغة النقدية مع ستيوارت هال. كما تم الاعتماد عليه من لدن علماء لسانيين اتجهت أبحاثهم بالأساس إلى استخدام اللغة، وأبرزهم: فاوولر وآخرون 1979، وفيركلف 1989، وفوداك 1996، وفوداك ومايير 2001. وكانت الفكرة المحورية المعتمدة من النظرية النقدية وخاصة هايرماس، هي أن اللغة يمكن أن تُستخدم لغايات المصلحة الذاتية من قبل مجموعات السلطة¹.

وقد امتدت هذه الفكرة وتطورت مع منهجين محددين من مناهج التحليل النقدي للخطاب على الخصوص، الأول هو المنهج الجدلي العلائقي مع فيركلف²، والثاني هو المنهج التاريخي للخطاب مع فوداك ومايير. فالمنهجان معا لا يهتمان بالجوانب التقنية بقدر ما يركزان على المصلحة العملية، وهذا بادٍ بوضوح في تعاملهما مع اللغة باعتبارها فعلا تواصليا في السياق. وقد تبنى رواد المنهجين مبدأً أساسيا لدى هايرماس، وهو اعتماد العقل التفاعلي البناء الذي ينبذ الاحتكار والتحكم وفرض الأمر الواقع³. أما من حيث النظرة إلى مفهوم اللغة، فهم لا يعتبرونها مجرد وسيلة للتعبير اللفظي ونقل المشاعر فقط، وإنما هي الوسيلة الوحيدة لتكريس أطماع الهيمنة والتشويه الأيديولوجي لسياقات النصوص والخطابات وكشفها في آن واحد. لذلك ففحص اللغة في هاتين المقاربتين لا يقتصر على وصف المستويات اللغوية، وإنما يتعداه إلى اعتبار الاختيارات اللغوية وثيقة الصلة بالإنسان والمجتمع والثقافة.

3.2. امتداد نظرية التمثيل الاجتماعي:

تمتد نظرية التمثيل الاجتماعي لدى موسكوفيتشي في المنهج المعرفي الاجتماعي عند فان دايك بالأساس، إذ يدرس الخطاب بالمزج بين بناء الصغرى (مستوياته اللسانية) وبناء

1 Paul Chilton, Missing links in mainstream CDA: Modules, blends and the critical instinct, p19.

2 أنظر مثلا الفصل السادس بالقسم الثاني من كتاب نورمان فيركلف، تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ص: 212-217. وقد خصص فيه مبحثا بعنوان (الفعال الاستراتيجية والفعال التواصلي) وأعلن فيه صراحة أنه يبنى منهجه على نظرية الفعل التواصلي لهايرماس وطبقه على نص بعنوان (مدينة المهرجانات تزدهر).

3 هايرماس يورغن، التقنية والعلم كأيديولوجيا، ترجمة إلياس حاجوج، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1999، ص: 94.

الكبرى (المعرفة الاجتماعية). ولا يقصد فان دايك بمصطلح المعرفة الاجتماعية مفهوم فوكو للمعرفة والسلطة، وإنما يقصد صور الإدراك المشترك بين أفراد المجتمع الواحد، وهو يعتمد في هذا بالأساس على نظرية الصور التمثيلية للأنشطة الاجتماعية في الحياة اليومية لموسكوفيتشي¹؛ بحيث إن الخطاب -في نظر فان دايك- يمارس هيمنته من خلال استهداف المعرفة الاجتماعية المخزنة في ذاكرة النماذج الإدراكية². وهو بذلك يقدم تحليلاً يجمع بين اللساني والاجتماعي والذهني، وهذا أبرز مظهر لنظرية التمثيل الاجتماعي.

ومن أبرز الأدلة على العلاقة النظرية والمنهجية بين المنهج المعرفي الاجتماعي ونظرية التمثيل الاجتماعي في علم النفس الاجتماعي، ما يسوقه فان دايك نفسه في هذا المقطع: "إذا كانت السيطرة على الخطاب أول شكل رئيس للسلطة، فإن السيطرة على عقول الناس هي الطريقة الأساسية الأخرى لتكريس الهيمنة والغلبة"³. ويقصد بالسيطرة على العقول التحكم في العوامل التي تؤدي إلى بناء المواقف أو تغييرها، وهي كما يحددها في المعرفة الشخصية والاجتماعية، والتجارب، ووجهات النظر الشخصية، والأعراف والقيم؛ وكلها يسميها تمثيلات لعمليات الإدراك المعقدة⁴؛ وهي عينها ما يسميها موسكوفيتشي مظاهر التمثيل الاجتماعي عن طريق الإدراك الاجتماعي كما سبقت الإشارة إلى ذلك⁵.

4.2. امتداد نظرية سوسولوجيا الهيمنة:

مثلما دعا بيير بورديو في نظرية سوسولوجيا الهيمنة إلى الجمع بين النزعة الذاتية والنزعة الموضوعية، فإن ثيو فان لوفين يرى في مقاربة (الفاعل الاجتماعي) أن الفاعلين الاجتماعيين يولدون دائماً الهيكل الاجتماعي من خلال الممارسة الاجتماعية التي تُترجم في

1 Serge Moscovici, Social Representations: Explorations in Social Psychology, Edited by Gerard Duveen, Polity Press, 2000, pp: 18-79.

2 لمعرفة المزيد عن التمثيل الاجتماعي للإدراك المشترك يُنظر كتاب استراتيجيات فهم الخطاب لفان دايك ووالتر كينتس، وتحديدًا مبحث "تمثيل الاستراتيجيات":

Teun Van Dijk and walter Kintsch, Strategies og discourse Comprehension, Academic Press, New York, 1983, pp: 95-98.

33 توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 201.

4 المرجع السابق، ص: 48.

5 Serge Moscovici, Social Representations: Explorations in Social Psychology, pp: 18-79.

شكل أحداث¹. لقد استند فان لوفين وفق ذلك إلى الحل الذي قدمه بورديو لتجسير الهوة بين الفاعل والبنية الاجتماعية، بحيث رأى أن الفاعل الاجتماعي هو الذي صنع ويصنع البنية على الدوام². فيظهر أن العلاقة الجدلية بين الفواعل والبنية تفرز إعادة إنتاج البنية من لدن الفاعلين أنفسهم حسب بورديو. ومن هذا المنطلق، لم ينظر فان لوفين إلى اللغة والخطاب من جهة المتكلم والمتلقي ولا حتى من جهة السياق الاجتماعي، وإنما اعتمد في ذلك على بديل وهو وسيط استعاره من علم التربية، وتحديدًا من بيرشتاين، وهو مفهوم إعادة السياق أو المساوقة (Recontextualization) الذي يعني أن منشئ الخطاب يتحكم في الممارسة الاجتماعية من خلال إعادة صياغة السياق حسب مقصوداته وأغراضه³.

يبقى منهج لسانيات المدونات هو المنهج الوحيد الذي لم يُعلن استناده إلى أي إطار نظري اجتماعي صريح، ولكنه أعلن بكل وضوح استناده إلى البرمجيات والتطبيقات الحاسوبية لدراسة مدونات ضخمة من النصوص والخطابات، معجميًا، وصرفيًا، وتركيبًا، بدقة مع التقليل من هامش الانحياز وفرض الذاتية⁴. غير أن أحد رواد هذا المنهج، وهو جيرلند ماوتنر، أشار إلى أن لسانيات المدونات بوصفها منهجًا داخل هذه المقاربة المعاصرة، تعتمد نهج التفسير وفق منطق اشتغال التيار العام في التحليل النقدي للخطاب، وأشار بالأساس إلى المنهج العلائقي الجدلي، والمنهج المعرفي الاجتماعي، والمنهج التاريخي⁵. وهو بذلك يعلن المزج بين التحليل الكمي باستخدام الحاسوب والتفسير الاجتماعي للنتائج اللسانية باعتماد مبادئ النظرية النقدية لفرانكفورت، ما دام يتبع نهج التيار العام في التحليل النقدي للخطاب.

خلاصة:

يُخُصّ الفصل الثالث إلى جملة من النتائج المهمة لتطور مسار البحث، ويمكن استثمارها من جانبيين، أولهما أن النظريات الاجتماعية المذكورة أعلاه قد نظرت إلى اللغة

1 تيو فان لوفين، الخطاب باعتباره إعادة تشكيل الممارسة الاجتماعية: دليل إرشادي، ضمن: فوداك وماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص: 315.

2 بيير بورديو، أسباب عملية، ترجمة أنور مغيث، دار الأزمنة الحديثة، بيروت، لبنان، 1998، ص: 203.

3 Theo Van Leeuwen, Discourse and Practice: New Tools for Critical Discourse Analysis, p: vii.

4 جيرلند ماوتنر، فحوص وتوازنات: كيف تضيف المدونات اللغوية إلى التحليل النقدي للخطاب، ضمن: روث فوداك وميشيل مايبير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص: 236.

5 المرجع السابق، ص: 265.

والخطاب والممارسة السلطوية على صعيد السياق الاجتماعي، وخصوصا الفعل التواصلي، وسوسولوجيا الهيمنة، والمعرفة والسلطة؛ وثانيهما أنها كلها امتدت في أغلب مناهج التحليل النقدي للخطاب أو بعضها.

فأما نظرية الفعل التواصلي، فمن المؤكد أنها غدت التحليل النقدي للخطاب -كما غدت البلاغة النقدية واللسانيات النقدية- بالمبدأ الذي تقوم عليه إجمالاً، وهو أن اللغة أول وسيلة لتحقيق المصالح الشخصية وممارسة الهيمنة الاجتماعية، وأن دراستها لا تتوقف على مجرد وصف الهياكل، وإنما تحتاج إلى تفاعل بين العلوم من منطلق إعادة النظر في العلاقة الإستمولوجية بين التخصصات. وانطلاقاً من معطى التفاعل المشدد عليه، ظهرت الحاجة الملحة في التحليل النقدي للخطاب إلى دراسة الاستعمالات اللسانية وصفاً (النص)، وتحليلاً (الخطاب)، ونقداً (الممارسة الاجتماعية).

كما امتدت أبرز الركائز الفلسفية والاجتماعية لسوسولوجيا الهيمنة التي أرساها بيير بورديو في التحليل النقدي للخطاب، وهي الجمع بين الذاتي والموضوعي؛ بل إن هذه الركيزة انتقلت بشكل شبه متطابق، وتجلت في مسلمة يؤمن بها معظم رواد هذا التخصص، وهي أن الفاعل الاجتماعي هو الذي يولّد البنية الاجتماعية أو يتدخل في بنائها. ويمكن القول الشيء نفسه عن مفهوم التمثيل الاجتماعي للإدراكات الفردية والجماعية على صعيد كل الممارسات الاجتماعية من خلال استخدامات اللغة في النصوص والخطابات، وهو ما استُقدم من طرح موسكوفيتشي الذي يسميه بتمثيل المعرفة الاجتماعية.

فأما عن مفهوم الخطاب عند فوكو، فقد اتضح أنه لا علاقة له بالتحليل النقدي للخطاب كما جاء على لسان نورمان فيركلف كما وُثّق أعلاه، وأن تحليل الخطاب الذي يدعو إليه غير لساني، بل إنه تحليل مجرد يشتغل على ما يمكن أن يسمى بالمدونة المجالية أو القطاعية، وليس على الخطاب بوصفه استعمالاً للمادة اللغوية في السياقات الاجتماعية. أما عن سلطة الخطاب، فصحيح أن المنهج التنظيمي في التحليل النقدي للخطاب قد استمد تصور فوكو في الموضوع، ولكن مع إعادة صياغة مفهوم الخطاب وتكييفه مع التخصص اللساني.

ومنه، تتبنى الأطروحة مجموعة من المبادئ الاجتماعية النظرية وتعتبرها من الأساس النظري للمقاربة اللسانية الحجاجية في التحليل النقدي للخطاب كما سيُبين في الباب الثالث:

- حسب نظرية الفعل التواصلي لهابرماس، تتبنى الأطروحة موقفه من أن اللغة أول وسيلة لتحقيق المصالح الشخصية وممارسة الهيمنة الاجتماعية، وأن دراستها لا تتوقف على مجرد وصف الهياكل، بل لابد من نقد علاقاتها وتأثيراتها الاجتماعية.
- تتبنى الأطروحة موقف بيير بورديو في سوسيولوجيا الهيمنة، وهو ضرورة الجمع بين الذاتي والموضوعي؛ وأن الفاعل الاجتماعي هو الذي يولد البنية الاجتماعية أو يتدخل في بنائها.
- تستعير الأطروحة من سوسيولوجيا الهيمنة مفهوم الرأسمال النوعي، أي مجموع المكتسبات والخبرات والمكانة الاجتماعية التي ترفع من قيمة الاستخدام اللغوي للفاعل الاجتماعي.
- على غرار نظرية التمثيل الاجتماعي لدى موسكوفيتشي، ترى الأطروحة أن التمثيل الاجتماعي للإدراكات الفردية والجماعية على صعيد كل الممارسات الاجتماعية يتم من خلال التواصل النصي والخطابي.

الفصل الثالث

تقد منافذ سلطة التفاعل في بلاغة الجدل

تمهيد

1. رؤى نقدية في أعراف التفاعل:

2. رؤى نقدية في إجراءات الإقناع:

خلاصة

تمهيد:

لا يسعى هذا الفصل إلى استعراض أدبيات الحوار والحجاج في الخطابة والتخاطب عند العرب بمنوال ملخّص أو إعادة صياغتها وفق منهجية تعليمية، لأنها طالما شكلت مبحثاً غنياً أُلّفت فيه أعمال أكاديمية كثيرة. لكنه يرمي في المقابل إلى تحقيق هدف مرحلي يتجلى في تأصيل مرجعي بلاغي عربي يكون إطاراً نظرياً لمنهج نقدي للتفاعل الحوارية والأداء في التخاطب والخطابة، هو في الأصل من الأهداف الكبرى التي يتوق البحث إلى تحقيقها في الباب الثالث. بتعبير آخر، المسعى الفعلي لهذا الفصل هو استنباط أسئلة موجهة لكل دراسة ناقدة للتفاعل الخطابي والتخاطبي، توضح الإجابات عنها طرقَ التسلط ووسائل فرض الهيمنة على المخاطب، من جانبين: الكفاءة الأدائية والكفاءة التفاعلية.

لقد أُشير في المقدمة والمدخل من هذه الأطروحة إلى أن سبب التوفيق بين تخصصي التحليل النقدي للخطاب وبلاغة الجدل هو ملاحظة فجوة منهجية في التخصص الأول، وتتخلص في كون رواده لم يولوا التفاعل والبعد الأدائي ونمط الخطابات الشفهية وأفعال المخاطب (الحركية والنفسية والقولية والسلوكية) في الخطبة أو التخاطب الأهمية التي تستحقها - هذا لا يعني بأنهم لم يحلّلوا الخطاب المنطوق ولكن المقصود هو أنهم لم يقدموا طروحات كافية ووافية لتحليل الجانب الأدائي¹ - عند تطبيق إجراءات التحليل النقدي المعتمدة في البرنامج العام للمقارنة.

وتجدر الإشارة إلى أن الدراسة النقدية لأعراف التفاعل في أوساط التحليل النقدي التي تبدو قريبة أكثر من هدف هذا الفصل الأول، هي التي جاءت عند فيركلف في كتابه (Discours and Social Change)، وتحديدًا الفصل الخامس الذي خصصه لبناء العلاقات

1 يمكن الاطلاع على عمل مهم لدراسة التفاعل في الحوار، وهو الفصل الثامن من كتاب "النقد اللساني" لروجر فاوولر؛ أنظر: روجر فاوولر، النقد اللساني، ترجمة عفاف البطاينة، مراجعة هيثم غالب الناجي، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2002، ص.ص: 219-262.

غير أنه اقتصر فيه على دراسة الجانب التداولي فقط في التفاعل الحوارية، مركزاً على ثلاثة قضايا فقط: التتابع، وأفعال الكلام، والاستئزاز الضمني. وعلى الرغم من أنه لم يفتح على قضايا التفاعل الأساسية مما يكرس أطماع الهيمنة والصراع على السلطة الخطابية، فإنه قدم نتائج جد طيبة - خصوصاً في ما يتعلق بمسألة التتابع - بحيث أبرز أنه يتضمن إجراءات بإمكانها إفراز عواقب سلبية، ومن هذه الإجراءات: ترتيب الإسهامات في الحوار، بدء المحادثات، إنهاؤها، والمقاطعة، وغيرها. غير أن نقده لأمثال هذه الإجراءات ارتبط كثيراً بالأقوال، أي بما يرافق التفاعل من الجمل والمفردات، وفي هذا اختلاف كبير بين ما يقصده هذا الفصل الأول (وهو منافذ السلطة في أعراف التفاعل والإجراءات الحجاجية) وما قصده فاوولر.

الاجتماعية عن طريق التفاعل¹، وقد سمي هذا المبحث بلامح السيطرة التفاعلية². وإن كانت ثلاث قضايا في هذا الفصل (من أصل ست عشرة قضية سنثيرها في هذا الفصل) متطابقة مع عناوين ثلاث مسائل بحثية ناقشها فيركلف من أصل ثماني مسائل (وهي: تتابؤ أدوار الحديث، والتحكم في الموضوعات، والتأديب). إلا أن الفرق بين الفصلين هو أن عمل فيركلف يستند إلى إطارين نظريين في التأصيل لمسائله، وهما مقارنة تحليل المحادثة والتداولية الأمريكية، في حين أن الإطار النظري الذي يستند إليه هذا البحث هو بلاغة الجدل عند العرب في أفق استخلاص أفكار علمية مغايرة ومثمرة.

وعليه، فإن مسار البحث في هذا الفصل سينطلق من بيان الأبعاد النقدية في التأصيل العلمي للحجاج الجدلي خطاباً وتخطباً عند العلماء العرب، مع مناقشتها بالأطروحات اللسانية لدى المتخصصين الرواد في التحليل النقدي للخطاب، في أفق الوصول إلى الخطوط العريضة للشق الثاني من المقاربة اللسانية الحجاجية الناقدة للخطاب. لذلك، وجب التنبيه إلى أن هذا الفصل ليس مخصصاً لتلخيص آراء العلماء العرب في الحجاج الجدلي والخطابي أبداً، وإنما غايته القصوى هي أن يستنبط من هذه الآراء رؤاهم النقدية لعملية التفاعل وما يروج خلالها.

لذلك، سيركز في هذا الفصل على مبحثين أساسيين: أعراف التفاعل في بلاغة الجدل، والإجراءات والمفاهيم الحجاجية الكفيلة بنقد سلطة التفاعل والأداء. لكن الاشتغال على المبحثين سيؤطر بالسؤال الفرعي الآتي: ما مظاهر التحليل الناقد للخطاب والأداء في أطاريح العلماء العرب عند وضعهم لأصول الحوار في الجدل؟ كما ستستدعي مناقشة هذه القضايا مجموعة من المفاهيم المنصهرة في البناء المعرفي لنظرية الحجاج عند العرب، وستستحق الوقوف عندها في الأماكن التي ستفرض نفسها فيها.

1. رؤى نقدية في أعراف التفاعل:

تعددت التسميات المقابلة لأعراف التفاعل في البيئات العلمية العربية التي عُنيت ببلاغة الجدل، نقصد البلاغة وأصول النحو والعلوم الشرعية، كقوانين المناظرة، وضوابط المحاورة، وأصول المناقلة والمساجلة، وشروط المجادلة، وآداب البحث؛ وتبقى أكثرها استخداماً وأعمقها ارتباطاً بمقصود البحث في هذه المرحلة هي تسمية: آداب الجدل. والحقيقة أن المؤلفات التي

1 Fairclough, Norman, Discours and Social Change, pp: 137-168.

2 Ibid, p: 152.

أولت هذا المبحث (بهذه التسمية) العناية التي يستحقها كثيرة ومتنوعة من حيث تخصصاتها وانتماءات مؤلفيها، على سبيل المثال، آداب الجدل للأسفرائني¹، والمنهاج في ترتيب الحجاج للباجي (باب نكر ما يتأدب به المناظر)²، والمعونة في الجدل للشيرازي³، والكافية في الجدل للجويني (فصل في آداب الجدل)⁴، والبرهان في وجوه البيان لابن وهب (فصل في آداب الجدل)⁵، والإغراب في جدل الإعراب للأنباري⁶، والاقتراح في علم أصول النحو⁷.

وإذ يتحدث هؤلاء العلماء وغيرهم في هذا المبحث فهم يؤصلون لقوانين الممارسة الحجاجية التخاطبية والخطابية، فمنها ما يتعلق بالخطاب والمشاركين، وما يتصل بالموضوع. لكن ما يهم البحث هو ما يرتبط بالعلاقة بين المتجادلين أو بين الخطيب والجمهور، وهو احترام الأعراف والالتزام بمكارم الأخلاق. لقد شكلت الأخلاق عماد الممارسة الجدلية عند علماء البلاغة وأصول النحو والشرع، بحيث إن **التأدب** أول شروط المجادل والخطيب المعترف لهما بالصنعة. لكن، للبحث غرض أعمق من أن يذكرها جزافاً ناقلاً آراء أصحابها تباعاً، وهو الكشف فيها عما يمكن أن يكون مؤشراً بلاغياً لنقد أفعال المجادل والخطيب وأنشطتهما ساعة استهدافهما للجمهور لفرض سلطة أو ممارسة هيمنة ما.

1.1. خرق مبدأ التناوب:

أول الضوابط التي شدد علماء البلاغة وأصول النحو والشرع على الالتزام بها، والحرص على احترامها في أعراف التفاعل هو **حق المناوبة** في أثناء العملية التواصلية الجدلية، وحتى الخطابية في بعض الأحيان؛ ومعناه أن يحترم المخاطب المتكلم وهو يدافع عن رأيه أو يدحض رأي غيره دون مقاطعته أو التشويش عليه. ويظهر هذا الشرط بهذا الاسم عند الجويني في كافيته تحديداً حين يؤكد أنهما معا: "متساويان في حق المناوبة. فمن لم يصبر منهما لصاحبه، فقد قطع عليه الحق".

1 الأسفرائيني، آداب الجدل، مخطوطة بحوزة جمعية إحياء التراث الإسلامي بدولة الكويت (لم يتسن الوصول إليها).

2 أبو الوليد الباغي، المنهاج في ترتيب الحجاج، ص: 08.

3 أبو إسحاق الشيرازي، المعونة في الجدل، تحقيق علي بن عبد العزيز العميريني، منشورات مركز المخطوطات والتراث، ط1، الكويت، 1987.

4 الجويني، الكافية في الجدل، ص: 529.

5 ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص.ص: 177-178.

6 كمال الدين ابن الأنباري، الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة، تحقيق سعيد الأفغاني، دار الفكر، ط2، بيروت، 1971.

7 السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، ص: 359.

فبالنظر إلى هذا العرف المُدرَج ضمن قائمة آداب الجدل والخطابة لدى العديد من العلماء من زاوية الأخلاق، فإن من التزم به ساعٍ إلى الحق، أما من أخل به فهو يسعى إلى إقرار الباطل بأية وسيلة كانت، أو على الأقل أنه يفرط في الفائدة ويستجلب الانقطاع¹. أما إذا نُظر إليه بمنظار التحليل النقدي للخطاب، فإن عدم احترامه انتهاكٌ ومنفذ من منافذ الهيمنة والسيطرة على الحوار ومنها إلى السيطرة على العقول والاعتقادات الخاصة. إن للتفاعل في كل الثقافات نُظماً مشتركة وأخرى متباينة، لكن احترام مبدأ التناوب في الكلام قارٌّ فيها جميعها. وإن تركيز العلماء العرب على هذا المبدأ ينم عن وعي نقدي ومعرفي بأنَّ عدم مراعاة التناوب في دورة الكلام، والتماذي على حق المتكلم، ممارسة سلطوية خطابية.

ما يؤكد هذا الوعي النقدي الخطابي بأن سوء المعاملة في ما يتعلق بحق المناوبة في التحدث والكلام، هو أن معظم العلماء العرب من مختلف المشارب يدعون إلى التخلي عن محاورة المتدخل والكف عن محاججته ما دام قد تكلم في غير نوبته. على سبيل المثال، وقف الجويني عند هذه النقطة وأشار بضرورة تنبيه الخصم المتدخل في غير دوره إلى انتهاكه لحق المتكلم، ثم الانقطاع بصفة نهائية إذا ما استمر في الأمر²، لأن ذلك من صفات المجادل الذي: "لا يقصد الخير والتحصيل بالمناظرة"³. ومن لا يقصد الخير يقصد الشر الذي لا ينتج إلا الممارسة السلطوية. وفي التحليل النقدي للخطاب، يستند اللساني بول تشيلتون في محاولته الجادة لتأسيس مقاربة تداولية في هذا المجال، إلى منطق التأدب عند اللساني الأمريكي غرابيس؛ فاعتبر من وجهة نظر نقدية، أن خرق قواعد التأدب في التخاطب يُعتبر فعلاً سلطوياً، وعده مبدئياً بأحد وجوه التلاعب⁴. هذا ما يزكي ما استُنبط من موقف الباجي والجويني.

إن الحرص على حق المناوبة يعكس رؤية نقدية خطابية تتجلى في الكشف عن الطابع التعسفي في مخططات المتحاورين في الجدل والمناظرة والخطابة، إذ إن المتدخل الذي يقاطع المتكلم يتخذ هذا النهج وسيلة لإظهار خصمه ضعيفاً، وآلية للضغط والإسكات. وهذا كله من جوهر الهيمنة الخطابية في التفاعلات الكلامية، كما أنه قيد من قيود المشاركة التي يرمي ذوو أطماع الهيمنة إلى فرضها، سواء على منافسيهم وخصومهم أم على جمهورهم. وقد ناقش

1 أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، ص.ص 9-10.

2 الجويني، الكافية في الجدل، ص.533.

3 المرجع السابق، ص.533.

نورمان فيركلف هذه المسألة تحت عنوان (القيود على المشاركة: الإجراءات الرسمية)¹، يقصد بالإجراءات الرسمية أن للتخاطب أدبيات رسمية ينبغي احترامها، وأضاف في المقابل أن خرق مبدأ التناوب وكل شروط التأدب يأتي لتأكيد المكانة وإظهارها وحفظ ماء الوجه، ليخلص إلى أنه مظهر من مظاهر السلطة السافرة على حد تعبيره².

في خرق مبدأ حق المناوبة، قد يستأنف المقاطع مناقشة الموضوع الذي كان يتناوله الطرف المقاطع ذاته، أو قد يفند ما كان يبينه من الحجج، ولكن المقاطعة قد تقتنر باستراتيجية تفاعلية سلطوية أخرى هي **التحكم في الموضوع**، بحيث يوجه المقاطع الحوار إلى مناقشة موضوع آخر خادماً لمصالحه الشخصية والأيدولوجية؛ فتتجم عن ذلك إحدى الوضعيات الآتية: إما أن يسلم الآخر بالموضوع الجديد دفاعاً، وإما أن يسلم به تراجعاً؛ وهنا يُمكنُ خصمه من الاستنثار بالكلام، وإما أن يبدي مقاومة للمتدخل المقاطع فينشأ صراعٌ جديد. وفي جميع الحالات -من وجهة نظر نقدية- فهناك ممارسة سلطوية تتجلى في بروز الطابع التعسفي، لأن المبادرة بالمقاطعة تجاوزاً لمبدأ حق المناوبة، ثم القصد الصريح إلى تغيير موضوع المحاورَة لتحقيق **الاستنثار**، استراتيجيةً سلطوية ترمي إلى فرض الأمر الواقع. وهذا ما اعتبره فان دايك مدخلاً للنفاذ إلى سلطة الخطاب تحت مسمى **السيطرة على الأحداث التواصلية**³، وقصده من ذلك أن من وسائل السيطرة على التفاعل بخرق أعراف التناوب وتنظيم مجرى الحديث التحكم في الموضوع⁴.

ومن بين ما يزكي كون تغيير الموضوع تحكما ورغبة في السيطرة عند علماء أصول النحو ما جاء عند الأنباري في كتابه (الإغراب في جدل الإعراب) حين حذر من الانتقال من طرح سؤال إلى سؤال آخر، أو ترك الإجابة عن سؤال والانتقال إلى الإجابة عن آخر؛ بحيث عدَّ هذا الإجراء من محض التعسف وخروجاً عن أصول بلاغة الجدل⁵. إذن يمكن أن القول إن عدم احترام حق المناوبة، وقصد المقاطعة، والاستنثار، والتحكم في الموضوعات استراتيجيات

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 96.

2 المرجع السابق، ص: 97.

3 فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 156.

4 المرجع السابق، ص: 157.

5 ابن الأنباري، الإغراب في جدل الإعراب، ص: 38.

سلطوية تخرق أعراف التفاعل لدى علماء الجدل في الثقافة العربية القديمة، كما عند رواد التحليل النقدي للخطاب حالياً.

2.1. سلطة تقديم الذات:

اقتضت ممارسة الحجاج الجدلي عند العرب امتلاك مقدرات عديدة في جوانب ومستويات مختلفة، فبالإضافة إلى الدراية في العلوم اللغوية والشرعية، وموسوعية التكوين، والالتزام بميثاق العرف الأخلاقي، لابد للمجادل أن يمتلك القدرة على أن يقدم ذاته بشكل إيجابي ساعة المجادلة. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الاستراتيجية تتدرج ضمن إطار منافذ الهيمنة في التحليل النقدي للخطاب تحت مسميات مختلفة ومتقارب، مثل تسمية *ثيو فان لوفين* الذي يدعوها *بأساليب التقديم*¹. من هذا القبيل ما أورده الجاحظ في "البيان والتبيين" عن تأثر العرب، في السجلات والمناقلات والمجادلات والخطب، بالمجادل أو الخطيب الذي يقدم نفسه قويا رصينا؛ بل إنه أشار إلى أنهم يمتدحونه فيحلو كلامه وتُنقَبَلُ حججه، ويهجونه وينفرون منه إن بدا ضعيفا متراخيا. وقد أطلق على هذه الصفة اسم *ثبات الجنان*²، وهو يقصد بذلك استقرار النفس واعتدالها وثباتها لحظة الإلقاء.

بإمعان النظر في هذه الصفة المتعلقة بالمقدرة النفسية في علاقتها بما تُحدثه من تأثير إيجابي لدى الجمهور أو الحضور بصفة عامة، يتضح أن تقديم الذات في الجدل والخطابة بشكل إيجابي يفرض سلطة على النماذج الإدراكية المستهدفة بالخطاب؛ ومعنى ذلك بالتحديد أن من يقدم نفسه قويا مستقرا وثابتا من الناحية النفسية والحضورية (اعتدالا ووقوفا مستويا، وأحيانا ملبسا وصحبةً كما يرى فالوفين³) يكون كلامه مسموعا ومتقبلا، ويصل بيُسر إلى الجمهور المستهدف. علاوة على أن التقديم الإيجابي للنفس يكون سلطة حتى على المخاطب كما يرى فان دايك الذي عنون هذا المنفذ بـ *(تقديم الذات إيجابيا)*⁴. ويتأكد ذلك عند الجاحظ من اقتران صفة ثبات الجنان (أو الاستقرار النفسي) بتحقيق *العلو على الخصم*⁵ كما يسميه، ويعني العلو الاستقواء والسيطرة الخطابية. والدلائل على ذلك كثيرة في كتب أخرى لعلماء آخرين، إذ

1 ثيو فان لوفين، الخطاب باعتباره إعادة تشكيل سياق الممارسة الاجتماعية: دليل إرشادي، ص.ص: 315-316.

2 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 17.

3 ثيو فان لوفين، الخطاب باعتباره إعادة تشكيل سياق الممارسة الاجتماعية: دليل إرشادي، ص315.

4 فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 291.

5 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 17.

يرى الباجي مثلا في منهاجه أن على الممارس للجدل أن يلزم الوقار في طريقة جلوسه وتحركه في مكانه، وإلا فإنه يُعتبر ضعيف النفس (الركّة كما سماها) والعقل (الخُرق)¹.

إن الملمح النقدي لتحليل التفاعل في رأي الجاحظ هو تركيزه على العلاقة السببية بين التقديم الإيجابي للذات والنتيجة السلطوية التي تأتي بعد ذلك، وهي أن المتكلم يفرض من خلال حضوره القوي سلطة لا صلة لها -قبل كل شيء- بمضمون منطوق الخطاب؛ إذ يسعى أولا إلى بناء صورة اعتبارية لدى خصمه والجمهور بوقوفه الراسخ وخاطره الثابت قبل فرض هيمنته باللغة والأفكار والحجج. ولعل هذه الاستراتيجية الأدائية هي ما سُميت عند الباجي **قصد المباهاة والمفاخرة**²، والتي حذر منها هو نفسه مشيرا إلى أنها ممارسة غير شريفة في التفاعل الخطابى جدلاً وخطابةً ومناظرةً.

للمزيد من التوضيح، يمكن استدعاء مناقشة من ابن وهب الكاتب للمسألة ذاتها، فإذا أطلق الجاحظ على الاستقرار النفسي للخطيب والمجادل اسم ثبات الجنان، فإن ابن وهب يسميه **بالهدوء والوقار**³؛ وكلا الاسمين يُقصد بهما الاجتهاد في تقديم الذات في أقوى مظهر وأبهى صورة لفرض سلطة على الخصم أو للسلم من مغالطاته. ولعل موقف الجويني أكثر تعبيرا عن هذا الطرح المشترك بين الجاحظ وابن وهب الكاتب، إذ يدعو صاحب الحجاج الجدلي إلى المحافظة على القدر في أثناء المناظرة أو الخطبة⁴. وسواء أُطلق على الثبات والاستقرار، اسم ثبات الجنان، أو الهدوء والوقار، أو المحافظة على القدر، فإن الفائدة المستخلصة هي أن للتقديم الجيد للذات في ميدان التخاطب والخطابة -من الناحية النفسية والمظهرية- سلطة خطابية.

من جهة أخرى، تُعتبر المبالغة في تقديم الذات مغالاةً في الممارسة السلطوية في السياقات التواصلية التخاطبية الرسمية وغير الرسمية. فإذا كان تقديم الذات إيجابيا -صمتا وحركة وسلوكا- منفذا لفرض الهيمنة بلا كلام ولا مضمون، فإن الوعي بأهميتها لدى صناع الخطابات والممارسين للحجاج الجدلي يشجع على اعتمادها نهجا قارا ودائما في كل التخاطبات

1 الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، ص: 09.

2 المرجع السابق، ص: 09.

3 ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص: 192.

4 الجويني، الكافية في الجدل، ص: 529.

والخطب نسبياً، إلى درجة أنها تصير تصنعاً وتفاخراً، وهذا في حد ذاته مبالغة قصوى وإفراط في تكريس أطماع الهيمنة والتحكم. يمكن تعليل هذا المعطى من خلال التأمل في البعد الأخلاقي للممارسة الجدلية عند العلماء العرب، إذ إنهم طالما دعوا -وخاصة الجويني- إلى التواضع والانقياد إلى الحق وترك الباطل في الجدل، وحذروا من التفاخر والتعاضم لأنه يذكي الصراع والمناضلة ويقود إلى تحقيق الغلب من طريق غير شرعي¹، بل من خلال منافذ السلطة الخطابية المتجلية في أعراف التفاعل.

3.1. الإيماءُ منفذاً للتسلط:

تتسع دائرة أعراف التفاعل لتشمل -علاوة على منفذَي التناوب وتقديم الذات- منفذاً آخر له تأثيراته السلطوية؛ الحديث هنا عن العوامل السلوكية التي ترفع من منسوب الطابع التعسفي المتوسل بالوسائل غير اللفظية، أي الأدائية والتفاعلية والجسدية، وتحديدًا أنماط الإيماء المختلفة. وتكشف متابعة الآراء البلاغية العربية في الحقول المعرفية المعلنة في بداية هذا الفصل، أنهم ميزوا بين ثلاثة أنماط من الإيماءات ذات التأثير السلطوي على مستوى الخطاب في الحديث الفردي والمخاطبات، أي من النشاط التفاعلي إلى التحكم في الخطاب؛ هذه الأنماط الثلاثة هي: **تأثير النظر، وتأثير الإشارة، ثم تأثير القسمات.**

لعل أول ملاحظة يمكن تسجيلها في هذه الأنماط السلوكية هي أنها كلها من أصل جسدي، والملاحظة الثانية أنها غير لفظية أو لغة بصرية على حد تعبير فيركلف²، بل كلها تتدرج ضمن حيثيات التفاعل الكلامي في صيغة التخاطب أو الخطابة. بالنسبة إلى **النظر**، يرى العديد من العلماء العرب أنه وسيلة خطابية غير لسانية تمكن الخائض في الجدل من أن يمارس وجهاً من أوجه السلطة المتناثرة بين فصول أعراف التفاعل. من هذا القبيل حديثُ الجاحظ عن قيمة النظر إلى الخصوم في الجدل وإلى الجمهور في الخطابة، بحيث يرى أن للطريقة التي ينظر بها المتكلم إلى المخاطب تأثيراً بالغ الأهمية، وأنه يحدث ارتباكاً أو انصياعاً خادماً لمصلحة الناظر. ويتضح ذلك من خلال تأكيده على أن النظر الصارم يززع المخاطب ويمنع استقراره النفسي معبراً عن ذلك بقدرته على إزالة موطن القدم³. وصحيح ما يقول الجاحظ

1 الجويني، الكافية في الجدل، ص: 530.

2 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 48.

3 استشهد الجاحظ لهذا الرأي ببيت شعري جاء فيه: (يقارضون إذا التقوا في موقف***نظرا يزيل موطن الأقدام). أنظر

البيان والتبيين، ج1، ص: 11.

حتى من منظور التحليل النقدي للخطاب، إذ إن كلامه يجد ما يؤازره لدى فيركلف حين يقول:
"والمظاهر البصرية يمكن أن تصاحب الحديث وتساعد على تحديد معناه"¹.

مظهر النقد الخطابى للأداء غير اللفظي في هذه المسألة هو اعتبار الجاحظ للنظر -
حدته واتجاهه ووتيرته وتحريكه وتوزيعه وعدم النظر إلى الخصم - عاملاً مؤثراً في المخاطب،
وإذ كانت له القدرة على التأثير السلبي وخصوصاً الإرباك والزعزعة فهو آلية سلطوية كذلك.
ولأن علماء الجدل والخطابة يُقدمون احترام العرف الأخلاقي في تنظيراتهم ومناقشاتهم، فإنهم
يركزون على عدم السعي إلى السيطرة بغير الطريق الصحيح، فنبهوا كثيراً الممارسين للحجاج
التخاطبي في الجدل والخطابة إلى نبذ سوء استخدام النظر وحركاته، ودعوا في المقابل إلى
الإقبال بالوجه على الخصم كما يرى الباجي²، ومقاطعة المعتمد على النظر وحركاته لتحقيق
مطامع الهيمنة الخطابية كما يرى الجويني³.

تُمارسُ السلطة سلوكياً كذلك من خلال الإشارة، سواء كانت حركة أم إيماءً. وهذا نوع
من المسائل التي نوقشت، على غرار النظر والصوت والهيئة واللباس، في موضوعات التفاعل
في الخطابة والجدل قديماً. فبالرجوع إلى رؤى الجاحظ البلاغية في ما يتعلق بأصول الممارسة
الخطابية، يتضح أنه خص مسألة الإشارة بحيز محترم من النقاش؛ فهو يرى مثلاً أن الإشارة
والحركة من الحجاج، وشأنهما كشأن الكلام المبين المقنع⁴. كما أنه عدّ من لا يعتمد الإشارة
في مخاطباته وجدالاته قاصراً من الناحية الأدائية إلى درجة أنه شبهه بالصخر الذي لا
يتحرك⁵. وفي الجدل، يأتي موقف لابن تيمية من كتابه الذي عقده خصيصاً لهذا الفن والمسمى
"تنبيه الرجل العاقل على ما في الجدل الباطل"؛ إذ يبرز فيه أن للإشارة سلطة على الجمهور
والمخاطب حين صرح بأنها تكسو الأدلة في منطوق الخطاب بـ: "ما يحليها عند الناظرين،
وينفقها عند المتناظرين، مع ما اشتملت عليه من الأدلة"⁶. ففي جميع الحالات، تقرب الإشارة

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 48.

2 الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، ص: 09.

3 الجويني، الكافية في الجدل، ص: 534.

4 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 91.

5 المرجع السابق، ج1، ص: 91.

6 ابن تيمية، تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل، ص: 05.

المعنى أكثر، وتمكن المتكلم من زمام مستهدفه، وتفرض ما يرافقها من الأفكار والحجج والبراهين على من يتلقاها إدراكيا بطريقة مجردة.

المعطي النقدي الذي يمكن استنباطه من رأي الجاحظ هو ما للإشارة من دور في الإثبات والإقناع والإبانة، فإذا كان يحث على أهميتها فلأنها مؤثرة من غير كلام، أو لأنها مؤثرة في اقترانها بالملفوظات التي تتضمن الحجج والبراهين والخيارات اللسانية الرامية إلى التحكم. فالمتكلم الذي يلوح بيده يمينة ويسرى مثلا، أو الذي يضرب برجله أو يده على المنصة التي يلقي منها خطابه يستهدف إقرار شيء من القبول أو فرض رأيه بالضغط على العقول والخواطر. الأمر نفسه بالنسبة للخطيب كثير الحركة أمام الجمهور، أو الآخر الذي يلوح بوثيقة أو قلم أو عصا وهو يلقي كلامه كما يفعل المحامون في المرافعات القضائية مثلا، أو رئيس الحزب أو الحكومة حين ينحني برأسه صوب الجمهور، أو حين يعقد كتفيه مشيرا إلى استحالة أمر ما أو خروج أمر ما عن السيطرة. وإذا اعتُبرت الإشارة مظهرا بصريا على غرار النظر، فمن الممكن اعتبار انحناء الرأس أو هز الكتف بديلا للتعبير اللفظي عن الرضوخ(نعم) أو الرفض(لا) أو التعنت(لا أدري) كما ذكر فيركلف مثلا¹.

ينتقل الحديث الآن إلى ثالث نوع من منافذ السلطة السلوكية، وهو **قَسَمَات** الوجه. والمقصود بها التغييرات التي تطرأ على ملامح وجه الخطيب أو المجادل أو المناظر ساعة إلقائه لخطابه أو استماعه لخطاب خصمه. فإن لحركات الفم والحواجب والعينين دلالات متعددة، منها الخوف، والإصرار، والتعجب، والاستفهام، والحزن، والقبول، والتراجع، وعدم الرضى، والرفض، والتسلط دون كلام. من هذا القبيل ما يوجد عند الجويني حين يناقش مسالك المحافظة على علاقة التوازن بين الأطراف الضرورية في الجدل، ومنع أسباب الغضب والتصدع والتسلط، من وجهة نظر أخلاقية²؛ ومنها الابتسام للخصم ورسم الاستبشار على المحيا، والابتعاد عن آثار العبوس على الوجه. وتلك استراتيجية أخرى يعتمدها المجادل أو الخطيب المتمرس لزرع نوع من الهيبة أو الرهبة أو الارتباك في نفوس المناظر والجمهور.

لقسمات الابتسام والاستبشار تأثير سلوكي يُلتقطُ حسيا وشعوريا، وترسخ تبعاً لذلك سيطرة إدراكية وعاطفية. وقد تُرسخُ بقسمات أخرى كالغضب والوعيد والاستحراق والاستصغار

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص.ص: 48-49.

2 الجويني، الكافية في الجدل، ص: 532.

أيضا، كما سيأتي أسفله. ومن الناحية النقدية، يمكن استثمار تحذير علماء الجدل والخطابة لخطورة القسّمات الساعية إلى الممارسة السلطوية بالتأثير أو الاستمالة أو بالضغط والدفع، ليكون منفذا يُتوقّى خطابيا، وسؤالا بحثيا يُطرح لمعرفة إسهام السلوك في الهيمنة الخطابية. وقد وردت أمثال هذه الرؤى النقدية للسلوك المرئي ودوره في تكريس الهيمنة وفرض السلطة الخطابية عند بعض رواد التحليل النقدي للخطاب، مثل ما قال فيركلف: "الابتسامّة المتكلفة يمكن أن تحول السؤال ذا المظهر البريء إلى سخرية مريرة"¹، ويمكن لها كذلك أن تحقق جزءا من الهيمنة الخطابية.

4.1. تأثير الصوت:

دعا علماء الحجاج الجدلي كثيرا إلى التثبيت بآداب الجدل والمناظرة، ونفروا الممارسين من كل ما يقبحهم ويسقط آراءهم لدى الجمهور. ومن المسائل التي حظيت بنقاشات جادة في هذا الباب، تركيزهم على تأثير الصوت ونغمته وما ينتج عنه من ردود الأفعال والمواقف المتخذة، كالقبول والخضوع بلا وعي، أو الرفض والاستقباح بوعي. من ذلك ما ساقه الباجي في "المنهاج في ترتيب الحجاج" عن ضرورة ضبط مستوى الصوت والسهر على اعتداله حتى لا يكون له تأثير سلبي على صاحبه وعلى الجمهور وحتى خصمه، إذ يقول: ".ولا يخفي صوته جدا فينسب منه إلى ضعف المنّة؛ وكان بين ذلك قواما"².

يتضح أن الباجي يقدم رؤية نقدية لتوظيف الصوت في المناظرات الجدلية، فبينما يوصي الممارس للجدل والمناظرة والخطابة بقاعدة من قواعد هذه الفنون المتقاطعة، فإنه يترجم حرصه من أن يُساء استخدام الصوت من أجل أطماع غير بريئة؛ فما دام قد نبه إلى أن الصوت الخفي -أي المنخفض والرقيق- منسوب إلى صاحبه الضعف، فذلك يعني أن الصوت الفخم والمضبوط والمعتدل بمقدوره أن يحرز لصاحبه قوة وسلطانا على المستمعين. وهذا ما يعززه رأي ابن وهب الكاتب وهو يستعرض آداب الخطابة وأصولها، إذ يقول: "وليس يلفت في الخطابة إلا حلاوة النغمة إذا كان الصوت جميلا"³. وقصده من (يلفت) لفت الانتباه وجذب خاطر، أي النفاذ إلى العاطفة.

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 48.

2 الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، ص: 09.

3 ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص: 168.

ما يؤكد الطرح الذي قدمه أبو الوليد الباجي هو ما جاء عند الجويني الذي أفاد بأن أهل الجدل -ويقصد علماء هذه الصناعة- يجوزون توظيف حدة الصوت من أجل فرض الهيمنة والتفوق على الخصم في الحجاج الجدلي، أو كما عبر عن ذلك بتخجيل الخصم وقطع خاطره بالتهويل والصياح¹. وما يؤكد أيضا أن لهذه المظاهر صفتها السلطوية الخطابية هو أنه اعتبرها ممارسات بعيدة كل البعد عن ذوي المروءة، أي إنها تبقى غير شرعية ما دامت تسعى إلى الهيمنة².

وتلتقي هذه الآراء العربية القديمة حول تأثير الصوت البالغ في إنتاج علاقات السلطة والصراع، بطرح لفان دايك حين يتحدث عن إسهام الوحدات اللغوية الصغرى في الهيمنة على الإدراك الاجتماعي المتلقي للخطابات السلطوية، ويسميتها *بملاءمة البنى الشكلية الدقيقة*³. ويقصد بالملاءمة تعبير أية وحدة لسانية، مهما كان حجمها، عن المقصد العام للخطاب السلطوي. ومن بين هذه الوحدات اللسانية الدقيقة *التنغيم* على حد تصريحه⁴. ومن المعلوم أن التنغيم مظهر من المظاهر الصوتية التطريزية، إلى جانب الوقف والنبر والإمالة وغيرها. وهي بذلك وحدات شكلية دقيقة مؤثرة في المعنى في جميع أنماط الخطابات.

لطالما امتدحت العرب من اتصف فمه برحابة شذقيه واتساعهما دلالة على جهازة صوته، وكثيرا ما يُنعتُ أمثال هؤلاء بالخطيب المفوه لصفاء أصوات الحروف وهي تنطلق من مخارجها، ووصول الكلام إلى الأذان قويا واضحا لا يحتاج التكرار. إلا أن علماء العرب في البلاغة قد نبهوا إلى أن جهازة الصوت بالتشادق والتنعير تكتسي خطورة خطابية تتجلى في نوايا فرض السيطرة وتكريس الهيمنة والغلبة؛ ومن هؤلاء العلماء الجاحظ الذي يرى أن المتلقي قد يحصل له أن يُفْتَنَ بأمور بلاغية خطابية كثيرة كجودة الكلام وفصاحة اللفظ وسلاسة المعنى، ومنها كذلك جهازة الصوت التي تورثُ الاقتدار والتهمك والتسلط على حد تعبيره⁵. ومنهم أيضا ابن وهب الكاتب الذي أشار إلى أن خطباء العرب كانوا يجتهدون للظفر في

1 الجويني، الكافية في الجدل، ص: 538.

2 المرجع السابق، ص: 538.

3 توين فان دايك، دراسات الخطاب النقدية، المقاربة المعرفية الاجتماعية، ضمن مناهج التحليل النقدي للخطاب، ترجمة حسام أحمد فرج وعزة شبل محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2014، ص: 154.

4 المرجع السابق، ص.ص: 154-155.

5 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 254.

ممارستهم للخطابة: فـ"يتعاطون سعة الأشداق وتبيين مخارج الحروف، ويُمتدحون بذلك"1. فيتأكد مع هذه الآراء أن الصوت، وتلويناته، ومستوياته، ونغماته، ونبراته، منفذ أدائي تفاعلي للممارسة السلطوية على مستوى الخطاب.

5.1. التحكم في العواطف:

يكتسي منفذ سلطة العاطفة خطورة أكبر مقارنة مع ما سلف من المنافذ في مجال التحليل النقدي للخطاب، إذ لا سلطة تضاهي سلطة المشاعر - إلى جانب الإدراك، حتى وإن كانت سلطة اللغة نفسها. وتكتسب طابع الخطورة هذا لأنها تحدث بعد إلغاء كل دور للعقل والإدراك الواعي والتصور المنطقي، بل إن الذات المتلقية لأي رسالة لسانية أو غير لسانية تعالجها شعورياً مغيبّة أية وسيلة موضوعية في تحليل المعطيات التي تتضمنها. وتجدر الإشارة إلى أن هذا النمط من منافذ السلطة ذو وجهين، أولهما احتيالي يقوم على التلاعب، وثانيهما إقصائي يتأسس على الاستحراق؛ لكنهما يتفقان في خاتمتها التي هي الممارسة السلطوية على صعيد الخطاب. وعليه، يمكن دراسة هذا المنفذ من الزاويتين: سلطة التلاعب أثناء التفاعل، ثم استحراق الخصم والجمهور.

1.5.1. سلطة التلاعب:

لا يمكن حصر التلاعب في الجانب الوجداني فقط، لأنه قد يكون إدراكياً أو إشارياً أو لسانياً. إلا أن التلاعب العاطفي يكون أكثر فاعلية، ووقعه على العاطفة الإنسانية يكون بالغ التأثير من حيث الهيمنة الشعورية، إضافة إلى أنه يأتي بعد حدوث التلاعب الإدراكي. ومهما يكن، فإن معنى التلاعب - في جميع أبعاده المذكورة - هو اضطراب المخاطب إلى اتخاذ - تلقائياً - قرارات وتبني أفكار وتأييد مواقف قد تكون مخالفة لوجهة نظره وقناعاته الخاصة، ومسيسة له أو مهددة لمصالحه الشخصية بشكل مباشر²؛ ولكن من خلال رسالة خطابية (لفظية أو غير لفظية) ظاهرها مُغرٍ ومستميل، وباطنها ممارسة سلطوية تسعى إلى التحكم والهيمنة، وذلك من خلال سوء استخدام المقدرات اللغوية والتخاطبية والعلامية.

1 ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص: 170.

2 يمكن مقارنة هذا التعريف المقترح ومسائلته بالتعريف الذي قدمه توين فان دايك: "المقصود بالتلاعب هنا هو الممارسة التواصلية التفاعلية التي تمكن المتلاعب من السيطرة على الآخرين رغماً عن إرادتهم أو ضد مصلحتهم"؛ انظر: توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 430.

أما عند علماء الجدل والخطابة العرب، وتحديدًا في البلاغة والعلوم الشرعية، فهناك مساقات طويلة عريضة من التحذيرات والتنبيهات من خطورة التلاعب، وخصوصًا التلاعب العاطفي. ولا يمكن الإنكار بأي شكل من الأشكال أنها تحذيرات وتنبيهات جاءت في سياق تعليمي للممارسين لهذين الفنين، بغية إعدادهم للمناظرات والخطب العلمية التي تكتسي طابع التدافع واللجاج. إلا أنها تتضمن رؤى نقدية خطابية يمكن البناء عليها لاستنباط أسئلة قرائية مفيدة للبحث.

أول مظهر من مظاهر التلاعب العاطفي يمكن الوقوف عنده هو التقرب من الجمهور في الخطابة أو من الخصم في المناظرة والتودد إليهم. ويتحقق هذا المظهر بجلاء مع **مطلب التأدب** الذي يُعتبر أول شرط يجب أن يتوفر في كل ممارس للحجاج الجدلي والخطابي¹. إذ يمكن أن يكون التأدب مطية للتقرب من الخصم وتحفيزه على إظهار مشاعر حميمية تولد لديه الثقة والأحاسيس الإيجابية. إلا أنه سرعان ما يتحول إلى جسر لفرض الهيمنة الشعورية، ومنها إلى الهيمنة الإدراكية التي تُصبح معها كل مقولات المتكلم وأفكاره مدرّكة ومقبولة وصحيحة، أو على الأقل تُضعف المخاطب وتجعله راضيا بتراجعه وسقوط رأيه. ومن الأمثلة على ذلك ما تنطق به بعض النصوص التراثية المؤلفة في هذا المجال، مثل ما جاء عند الجويني حين حكم على **التأدب** بالقدرة على تلميع صورة المعوّل عليه كما يقول: "فالأدب في الجدل يزين صاحبه"².

وإن كان الجويني يتحدث من زاوية نظر أخلاقية يدعو من خلالها الممارسين إلى التحلي بأداب الجدل، إلا أنه فتح المجال في التفكير في ما يمكن أن يحققه التظاهر بالتأدب من فرص تكريس الهيمنة وإنتاج علاقات السلطة. فكل ما يزين صورة المتكلم في الممارسة الخطابية عن طريق الأداء في التفاعل الجدلي والخطابي هو وسيلة للتلاعب بالمخاطب والسيطرة على عالم الخطاب. وقد سبق أن أدلت روث فوداك برأي متقارب مع رأي الجويني

1 عبر الجويني عن ذلك قائلاً: "وأحسن شيء في الجدل: المحافظة من كل واحد من المتجادلين على أدب الجدل"، وذلك في معرض حديثه عن أصول الممارسة الجدلية وقواعدها وضوابطها وقوانينها، فقدم الحديث عن التأدب بوصفه شرطاً أولى قبل أن يناقش باقي التفاصيل. الجويني، الكافية في الجدل، ص: 538.

2 المرجع السابق، ص: 538.

حين اعتبرت أن افتقار المتلقي إلى معرفة العواقب التي من المحتمل أن تترتب على أي تصرف إيجابي مخائل من المتكلم، هو استعداد للسقوط أمام نوايا المتلاعب¹.

تتأكد المسألة بالتقدم في قراءة آراء الجويني بخصوص التأدب والخلق الحسن في الممارسة الحجاجية الجدلية، إذ تأتي فكرة منه تعيد النظر في جزء من آداب الجدل؛ بحيث يحذر هو نفسه من بعض ما أشار به، وهو أحد أوجه التأدب مع الخصم المتجلي في التسامح معه. فقد نهى المجادل عن أن يسامح خصمه إلا في المسائل التي لا تضره²، فيُفهم أن التسامح نفسه -بوصفه من أرقى وأنبئ آداب الجدل- يمكن أن يكون تلاعباً مضراً للمسامح. وهنا يتبين أن التأدب، سواء كان مسامحة، أو تقديراً للخصم، أو تودداً، أو قولاً جميلاً، أو إشارة لطيفة، يمكن أن يكون محض تلاعبٍ للإيقاع بالمخاطب في شرك الممارسة السلطوية التي تسلبه رأيه وتجعله مقتنعاً بما لا يخدم مصالحه. وخير دليل هو استشهاد الجويني بمثل شائع مفاده: "المسامحة في المناظرة شؤم"³.

ولم يفت الجاحظ أن يناقش قضية التأثير العاطفي الذي يحدث للمخاطب فيضعف وجدانه أمام تلاعبات خصمه، غير أنه ركز تحديداً على التلاعب العاطفي من مدخل بلاغة الكلام؛ بحيث إنه يؤكد أن جمال الكلام وحسن الألفاظ وسهولة المعنى تحلو في قلب المخاطب وتملاً صدره⁴، وهذا مناط السلطة العاطفية، بحيث يُهيمن المتكلم كيفما شاء وتظهر حججه مقنعة وآراؤه صائبة بفعل التلاعب بالعاطفة، وفي ذلك يقول: "والقلب ضعيف وسلطان الهوى قوي"⁵.

بهذا المعنى يلتقي رأياً الجويني والجاحظ ليعززاً فرضية هيمنة العواطف بوصفها منفذاً لسلطة الخطاب، فإذا كان الأول يرى بأن التأدب يضمن للمتكلم بناء صورة براءة ومستحبة لدى المخاطب، لكن الثاني يؤكد بأن ما هو مستحب عند المخاطب وسيلة سلطوية عند المتكلم إذا أُعملت لغرض التلاعب. لأن التلاعب يُظهر أي فعل وحركة ولفظ في مصلحة المخاطب

1 Ruth Wodak, Language Behavior in Therapy Groups, Los Anglos: California University Press, 1986, p88.

2 الجويني، الكافية في الجدل، ص: 535.

3 المرجع السابق، ص535.

4 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 254.

5 المرجع السابق، ج1، ص: 254.

والجمهور، لكنه ضد مصالحهم كما يقول فان دايك: "فالتلاعب يجعل الآخرين يعتقدون أشياء تصب في مصلحة المتلاعب أو يفعلونها، وتكون ضد المصالح المفضلة للمتلاعب بهم"¹.

ومن المظاهر التي تجلي مدى خطورة منفذ العواطف في تحقيق الممارسة السلطوية على صعيد الخطاب من خلال التفاعل والأداء هو إبداء حسن النية. يمكن الاستناد إلى هذا الموقف في معالجة هذه النقطة: " لا يكن قصده الظفر بالخصم والسرور بالغلبة والقهر"². جاء التصريح من الجويني في سياق الإيحاء بالإسهام في إظهار الحق ونبذ الباطل والغرور والتباهي. ولذلك يجده قارئه هنا لا يتفق مع القصد إلى ممارسة السلطة في التفاعل الجدلي من أجل تحقيق الغلبة والإلزام(القهر). فالملاحظ أنه يوصي بحسن النية في التعاطي مع المخاطب، لكنه يحيل إلى أن هذا المبدأ قد يكون مدخلا من مداخل التسلط والاعتزاز، أي من الممكن أن يكون حسن النية تلاعبا بالمشاعر؛ لذا فهو يستमित في التنبيه إلى ما يمكن أن يتوارى خلف إبداء حسن النية.

ومن مظاهر التلاعب العاطفي كذلك، الإشعار بالهدنة. والقصدُ هو أن المتكلم(وخصوصا في لحظات احتدام الصراع في الجدل والمناظرة واستثارة الجمهور في الخطابة) ينهج استراتيجية متلعبة تتلخص في كونه يلجأ إلى تهدئة المخاطب وإشعاره بهدنة بغية الاستمرار في المحاوراة بطريقة إيجابية. لكن الهدف الأساس هو الطمأنة ظاهريا والتحكم في العاطفة باطنيا. وسواء أكان معتمدا في التلاعب العاطفي على التأدب أم حسن النية أم المهادنة أم الكلام الحلو، فإنه: " حُبب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب"³. ومن الأكد أن الجاحظ في هذا القول الأخير قد جمع بين خلاصتين للممارسة السلطوية القائمة على التلاعب بوصفه منفذا، وهما الهيمنة على العاطفة(النفوس-الأسماع-القلوب)، ثم التحكم في الإدراك(الأذهان-العقول).

2.5.1. استحقال المخاطب:

تعدُّ زاوية النظر الثانية إلى منفذ التحكم في العواطف باكتشاف جوانب أخرى من علاقات السلطة في التفاعل والأداء على مستوى الممارسات الخطابية، الجدلية والخطابية؛ غير

1 توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 431.

2 الجويني، الكافية في الجدل، ص: 529.

3 الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص: 08.

أن الحديث هذه المرة سينصب حول معطى يكتسي طابعا إقصائيا، وإفراطا في انتهاك أصول الحوار. إن بمقدور أي ممارس للجدل والمناظرة والخطابة أن يحافظ، من تلقاء نفسه، على شروط اللياقة وآداب التخاطب، وباستطاعته أيضا الخروج عنها وسوء استخدام السلطة في تعاطيه مع المخاطب فردا أو جماعة. ويُعد الاستحغار أحد أصرخ مظاهر الممارسة السلطوية على الإطلاق، إذ إنه إعلان مسبق عن رغبة المرسل في الهيمنة الخطابية.

لكن، ما الذي يمكن أن يحققه الاستحغار؟ يجيب الجويني عن هذا السؤال كما يلي: "ولا يغرنك ضعف السائل، فربما يكون في الحاضرين من يضيق بقوته في العلم عليك الدنيا"¹. يبدو أن الجويني هذه المرة يخاطب الممارس للحجاج الجدلي بوصفه مخاطبا لا متكلمًا، ويتوجه إليه بنهي جادٍ عن استصغار من يسأله، والذي قد يكون الخصم في الجدل أو أحد الحاضرين في الخطابة والمناظرة. أما ما قد يتحقق بالاستحغار فهو ما تعبر عنه الجملة (يضيق بقوته عليك). فالمقصود بالقوة هو السلطة بالأساس، أما التضيق هنا فمعناه التحكم في الممارسة الخطابية. ومنه، يظهر أن الاستحغار نهج سلطوي هدفه إقصاء الطرف الآخر وإيصاله إلى حد التيقن من ضعفه واستقواء خصمه عليه.

تزداد الفكرة وضوحا باستدعاء أحد الآراء الملائمة لهذا السياق من كتاب "البرهان في وجوه البيان"، فهذا ابن وهب الكاتب ينهى بدوره عن استصغار الخصم ضعيف الحضور في الجدل²، لأن تحقيق الظفر والغلبة (قصد بهما في كتابه الهيمنة) بهذه الطريقة يُعد بعيدا عن الحق. ومثله يضيف الجويني في موضع آخر: "وأياك واستصغار من تناظره والاستهزاء به"³. إلا أن ابن وهب الكاتب قد وضح جليا الناتجة السلطوية للاستحغار إذا لم يتحرك الطرف المستضعف، وهي القهر والاستظهار⁴.

وقد يظهر الاستحغار - علاوة على مظهره الأول القائم على الإفراط في الإقصاء والذي هو الاستصغار - في عدم الاكتراث، فألا يلقي المتكلم لخصمه بالا وهو يتحدث، أو أن يقبل بوجهه على غيره وهو يتكلم مهملا إياه، أو أن يستشهد ويحتج لكل الحضور أو بعضهم دون

1 الجويني، الكافية في الجدل، ص: 534.

2 ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص: 192.

3 الجويني، الكافية في الجدل، ص: 531.

4 ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص: 192.

مبالاة به¹، معناه أنه يمارس عليه سلطة أدائية تفاعلية جوهرها أنه يستحقه ويقلل من قيمته وقيمة ما يقول.

وفي هذا الباب يوصي الباجي الممارسين بأن يحسنوا الاستماع إلى كلام خصومهم، وألا يثقوا في قوتهم وضعف مناظرتهم لأنه تصرف ينتهي بهم إلى صراع على السلطة². وهو وضع طالما دعا فيه الجويني إلى إيقاف المناظرة أو الجدل، ما دام المخاطب لم يُقبل بوجهه على المتكلم أو تركه يتكلم والتفت أو أعرض³. أما الآثار السلبية المضمونة لعدم الاكتراث فهي كما يضيف الجويني، انشغال قلب الطرفين معاً، وانقطاع الفهم والاستعداد النفسي. ومن وجهة نظر نقدية خطابية، يسمي فان دايك الاستحقاق عن طريق اللامبالاة بالتمييز التفاعلي المباشر، وقد قدم مثالا عن ذلك بعدم الرد على الأسئلة في الحوارات، بل ذهب إلى حد اعتبارها عنصرية⁴. مما يعني أن استصغار الخصم كما أكد العلماء العرب يكرس سوء توظيف سلطة التفاعل.

2. رؤية نقدية في إجراءات الإقناع:

1.2. الاستدراج:

غالبا ما يرتبط مفهوم الاستدراج بفعل التمويه في الخطابة والتخاطب، فهما معا يقومان على أساس واحد مؤداه هو بناء الإقناع بوسيلة كاذبة تظهر في صورة الوسيلة الصادقة. إلا أن التمويه يكون في الملفوظات، والاستدراج يكون في إجراءات الأداء والتفاعل. وليس من أهداف هذا البحث تبيان وظائف الاستدراجات -وحتى التمويهات- أو قيمها أو مواقعها أو استخداماتها الحجاجية، أو التأصيل أو التنظير للحجاج عند العرب أبداً، وإنما من أهدافه الولوج إلى بعض المواقف حولها لاستنباط ما يمكن اعتماده أسئلةً بحثيةً لنقد سلطة التفاعل والأداء في الممارسة الخطابية، وفق منطق الإطار النظري المعلن لهذه الأطروحة، أي التحليل النقدي للخطاب.

ووفق هذا الطرح المعلن الآن -وفي مواضع أخرى سابقة من هذه الأطروحة- يُمكن استدعاء موقف بلاغي تخاطبي (جدلي) سبق لحازم القرطاجني في مناجه أن وضح فيه الفرق

1 ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص: 193.

2 الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، ص: 10.

3 الجويني، الكافية في الجدل، ص: 534.

4 فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 225.

بين التمويه والاستدراج بأيسر تعبير حين قال: "التمويهات تكون فيما يرجع إلى الأقوال، والاستدراجات تكون بتهيؤ المتكلم بهيئة من يقبل قوله، أو باستمالته المخاطب واستلطافه له بتزكيته وتقريظه، وإحراجه على خصمه، حتى يصير بذلك كلامه مقبولا عند الحكم، وكلام خصمه غير مقبول"¹. إذن فالتمويه حسب القرطاجني يتعلق بما يقوله المتكلم، وليس هذا من أهداف هذا الفصل الثالث من الباب الأول، وإنما ما له علاقة بالفصل المذكور في قوله هو اعتباره الاستدراج استراتيجية تفاعلية أدائية تتلخص في كون المتكلم في الجدل والمناظرة والخطابة (المخاطبات كما يسميها القرطاجني) يعمد إلى التظاهر بكونه صاحب قول مقنع بكل ثقة، أو إلى إظهار إعجابه بمخاطبه وتأييده في رأيه (تزكيته وتقريظه) استمالَةً واستلطافًا وإغراءً، لكنه في الحقيقة يستدرجه لكي يقبل بكلامه، أي إلى أن يهيمن عليه في الخطاب.

ولعل الهيمنة على الخطاب هي الهدف الأساس من الاستدراج والإغراء والاستلطاف - وحتى من التمويه - كما يقول أيضا: "وإنما يصير القول الكاذب مقنعا وموهما أنه حقٌ بتمويهات واستدراجات ترجع إلى القول أو المقول له"². فما يرجع إلى القول هو التمويه، وما يرجع إلى المقول له هو الاستدراج. وفي الحالتين معا يحقق كل ما يرتبط بالاستدراج كالتمويه والاستلطاف والإغراء ما يسميه فيليب بروتون بالتأثير القسري الذي يحمل المنلقي على فعل ما لا يريد³.

قد تبين وفق هذا النول أن الاستدراج منفذٌ آخر لممارسة السلطة الخطابية في التفاعل والأداء، غير أنه منفذٌ إجرائي مجرد لا يمكن إدراكه بسهولة من لدن الجمهور أو المخاطب كما هو الحال للإشارة والصوت والحركة والملح وغيرها مما سبق في هذا الفصل. ولذلك، فكثيرا ما نبه علماء الجدل والبلاغة من خطورة الاستدراجات والتمويهات أيضا، مثل ما ورد عند الجويني حين نبه إلى ضرورة الخروج عن عهدة التمويه كلما ظهر للمخاطب دليل عليه، ولو بما هو مرفوض في آداب الجدل وأصوله، كالإسهاب في التعبير أو تطويل الكلام⁴. وإلى الأمر نفسه

1 حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966، ص: 64.

2 المرجع السابق، ص: 56.

3 فيليب بروتون، الحجاج في التواصل، ترجمة محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العالمي، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2013، ص: 49.

4 الجويني، الكافية في الجدل، ص: 536.

دعا ابن وهب الكاتب بقوله: "وأن يتحرر من مغالطات المخالفين ومشبهات المموهين"¹. ولعل ما تعنيه العبارتان (الخروج عن العهدة-أن يتحرر) هو التخلص من سلطة المستدرج وكذلك المموه.

2.2. السبر والتقسيم:

السبر والتقسيم² مفهوم يتأرجح استخدامه بين علمي أصول النحو وأصول الفقه، والأمر المشترك فيه بينهما هو أنه من المفاهيم التي يُحتاج إليها في المسائل الخلافية داخل هذين الحقلين، أي في جدل التععيد النحوي وجدل التععيد الفقهي على مستوى الأصول. ومهما يكن، فإنه يشكل إجراءً للممارس الجدلي هنا وهناك، يُعتمد من لدن المتكلم لفرض هيمنته على الخطاب من خلال إقرار كلامه وإبطال كلام الغير. لذا، فإن فيه فائدة خادمة لمسار البحث، بحيث إنه يعبر عن إحدى قواعد الهيمنة على الممارسة الخطابية المتداولة في أوساط التحليل النقدي للخطاب، وهي الافتراضات المضمرة³ والافتراضات المسبقة⁴ كما عند نورمان فيركلف، ولكنه يمثل أيضا وسيلة لاحتوائها وإسقاطها.

إن معنى السبر هو الاختبار كما يرى ابن جني وغيره⁵، وهو يأتي بعد التقسيم الذي هو نكر جميع الوجوه المحتملة على حد قوله دائما⁶. بمعنى أن هذا الإجراء يقوم على التقسيم الدال على تعداد علل، أو صفات، أو أوجه، أو أنواع، أو شروط، أو أركان، داخلية في منازع الخلاف بين المجادل وخصمه أو بين الخطيب وما يُفترض في جمهوره، ثم سبرها الذي يعني اختبارها وامتحانها من أجل اختيار ما يخدم موقف المتكلم السابر المقسم. وكما يرى ابن الأنباري⁷، فقد يكون السبر بإبطال كل الأقسام لأنها من اقتراح الخصم، أو بإبطال أغلبها مع

1 ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص: 192.

2 للمزيد عن السبر والتقسيم، وأنواعه وقواعده والاعتراض عليه، واستعمال السبر مفردا والتقسيم مفردا كذلك، ورأي العلماء في ترتيب شقي المصطلح، يُنظر: محمد السبيهي، اعتراض النحويين للدليل العقلي، مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية، 1426هـ، ص.ص: 78-86.

3 نورما فيركلف، اللغة والسلطة، ص112.

4 المرجع السابق، ص: 207.

5 ابن جني، الخصائص، ج3، ص: 67.

6 المرجع السابق، ج3، ص: 67.

7 نقلا عن: السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، ص: 317.

الإبقاء على قسم واحد لأنه من المتكلم، ولأنه يفرض به سلطته على المخاطب ومنها إلى الهيمنة على الخطاب.

لكن، أيُّ قيمة لهذا الإجراء المزدوج؟ معرفياً، تتجلى قيمة السبر والتقسيم في كونه وجهاً من وجوه الاستدلال التي ألحقت بالقياس عند النحويين والأصوليين، ثم في اتفاقهم على صحة الاحتجاج به في إثبات الأحكام اللغوية والشرعية¹. أما خطابياً، فإنه استراتيجية احتوائية، بمعنى أنها تستوعب جل الخيارات المتاحة للخصم أو الجمهور، أي الحجج والعلل والبراهين التي قد يتخيلها، ثم تفسيرها بيان عيوبها وضعفها على أنظار الجميع، من أجل استبعادها كلها أو الإبقاء على ما يكرس سلطة المتكلم وتحكمه في الخطاب.

إن مكن الممارسة السلطوية التي يتيحها السبر والتقسيم على صعيد الخطاب هو أنه إجراء يتوقع جل الافتراضات المنتظرة لدى الفئة المستهدفة بالخطاب، فيحصلها كلها جملة، ثم يستقصيها ليعيد صياغتها على المنوال الخادم لأيديولوجية صانع الخطاب أو من ينوب عنه. عندها فقط -وبعد تحصيل الدلالة من جميع الافتراضات- يُهدم كل افتراض معارض للمرجع الأيديولوجي للخطيب، ويُنَى في المقابل افتراض واحد موافق له.

3.2. الإقرار والإلزام:

يُعتمد مفهوم الإقرار في الجدل الأصولي والكلامي أكثر من اعتماده لدى علماء أصول النحو، والأمر نفسه بالنسبة إلى الإلزام. وبإمعان النظر فيهما، يتضح أنهما يحيلان إلى خاتمة الصراع الخطابية في التخاطب والخطابة أداءً وتفاعلاً. وجلي جداً أنهما يحيلان أكثر إلى نهاية الممارسة الخطابية التفاعلية، فالإقرار متعلق بالمخاطب، والإلزام متعلق بالمتكلم، أي إنه من فعله لكنه يقع على المخاطب. في هذا الصدد، لا بد من معرفة المقصود بالإقرار أولاً، وهو يعني في الحقيقة أن المخاطب قد أذعن بعد أن تراءى له الحق والصدق في ما أتى به المتكلم²، وأن ما كان يجادله به غير مجدٍ. أما الإلزام، فمعناه أن المتكلم قد أفلح في أن يغلق

1 محمد السبيهي، اعتراض النحويين للدليل العقلي، ص: 81.

2 الشريف الجرجاني، التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، 2004، ص: 31. ويُنظر أيضاً: التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق رفيع العجم وعلي دحروج، مكتبة لبنان، بيروت، 1996، ص: 246.

شتى الطرق التي أتت منها حجج المخاطب وبراهينه، ففرض عليه الاقتياد واضطره قهرا وتسلطا إلى أن يقر¹.

يتلزم إذن الإقرار والإلزام بوصفهما مفهوماً وإجراءين كذلك، لأن الإقرار نتيجة منطقية وحتمية للإفلاح في الإلزام. بيد أن هذه العلاقة التلازمية تحتاج شرحاً أعمق من وجهة نظر التحليل النقدي للخطاب، فكيف ذلك؟ اتضح قبل قليل معنى الإقرار والإلزام في الشرع، خصوصاً في علم الأصول؛ لكنهما يمتدان حتى في النقد اللساني للخطاب. فمفهوم الإلزام يجد ما يقابله -أو على الأقل ما يلائمه وينسجم مع حملته الاصطلاحية- في جل المفاهيم المركزية في التحليل النقدي للخطاب، على سبيل المثال: السلطة، الهيمنة، التحكم، الاستضعاف، القوة. فهذه المفاهيم تمثل الهدف الأساسي لكل صناعات الخطابات المكتوبة والتفاعلية، بحيث إنها تخدم هذا الهدف الذي هو بالتحديد ظهور المتكلم (منشئ الخطاب) سديد الرأي واتباع مواقفه وأفكاره سواء أكانت صالحة أم غير صالحة؛ وهذا بحق هو الإلزام في حد ذاته.

أما مسألة اتباع أفكار المتكلم/المرسل واعتناق مذهبه والانصهار في أيديولوجيته، فمعناها الانصياع إلى خطابه اللساني وإجراءاته الأدائية التفاعلية المقصودة والمصممة على وجه مخصوص؛ ويعد الإلزام بهذا المعنى انصياعاً وقبولاً بامتياز.

خلاصة:

حاور هذا الفصل بعض علماء البلاغة العربية، وأصول النحو، والعلوم الشرعية، من خلال مؤلفاتهم التي هي أمهات الكتب في مجالاتها. وقد استعرض مواقفهم النظرية بخصوص الرؤى النقدية في التخاطب والخطابة التي تصلح للدراسة النقدية للشق المتعلق بنظم التفاعل والأداء والإجراءات الإقناعية على صعيد الخطابات المنطوقة بطبيعة الحال. فكان للفصل بعض ما أراد، إذ استنبطت أفكار علمية منيرة للعلماء العرب في الموضوع، وظهرت منفعتها أكثر بعد مناقشتها بأفكار رواد التحليل النقدي للخطاب بخصوص الأسئلة البحثية نفسها؛ والأكثر من ذلك أنه قد سُجلت تقاطعات في مسائل كثيرة بين القدماء والمحدثين.

1 الجويني، الكافية في الجدل، ص: 543.

والآن، يمكن إيجاز حصيلة هذا النقاش بين القديم والحديث، وعرض أبرز نتائج الفصل. ويجدر التنبيه إلى أن عناصر نقد التفاعل والأداء والإجراءات الإقناعية التي سترد تاليه، تمثل بالأساس منافذ السلطة إلى الخطاب، وبإزائها يمكن صوغ أسئلة بحثية كفيلة بنقدها، وهي التي ستعتمد في الباب الثالث لبناء المقاربة اللسانية الحجاجية:

أ. في نقد أعراف التفاعل والأداء:

. خرق مبدأ التأدب: كيف يكون خرق مبدأ التأدب منفذا للسلطة على مستوى الممارسة الخطابية؟ كيف يمثل عدم احترام حق المناوبة من أطماع الهيمنة؟ ما دلالات التحكم في الموضوع؟

. سلطة تقديم الذات: ما الوظائف السلطوية لتقديم الذات إيجابيا؟

. الإيماء منفذا للسلطة: كيف يُسهم السلوك المرئي والسمعي كحدة الصوت ونغمته وطريقة النظر وقسمات الوجه في التحكم في المخاطب والخطاب؟

. التحكم في العواطف: بأية طريقة تُكْرَسُ الهيمنة على الخطاب من خلال التحكم في العواطف؟ أية أدوار للتلاعب والاستحقار بالخصم؟

ب. إجراءات إقناعية:

. الاستدراج: ما مظاهر الممارسة السلطوية التي يحققها الاستدراج؟

. السبر والتقسيم: أي دور للسبر والتقسيم في إسقاط المخاطب؟

. الإقرار والإلزام: ما العلاقات الاجتماعية التي تكرسها ثنائية الإقرار والإلزام؟

الباب الثاني

نقد التمثيل اللساني للسلطة في الخطاب

الفصل الأول:

علاقة الأشكال الخطابية بالممارسات الاجتماعية

في التحليل النقدي للخطاب

الفصل الثاني:

التجسيد النحوي للسلطة في الخطاب

الفصل الثالث:

التمثيل الدلالي والتداولي والبلاغي للهيمنة الخطابية

تقديم:

يُعدُّ هذا الباب الثاني من أجل هدفين اثنين: أولهما هو تمحيص الفرضية التي انطلقت منها هذه الأطروحة في المقدمة، وهي أن العلاقة بين الشكل والممارسة علاقة تأثير عمودية تتجه من الخطاب إلى الممارسة الاجتماعية. وثانيهما هو بيان طرق تمثيل اللغة للسلطة والأيدولوجيا وكيفية نقدها. لذلك فإن الفصل الأول سينفتح على مناهج التحليل النقدي للخطاب الستة لمحاورتها بخصوص هذه العلاقة، بغية تقديم وجهة نظر مغايرة. أما الفصلان الثاني والثالث، فيتجهان إلى تحليل العلاقة العمودية المباشرة بين الشكل والممارسة الاجتماعية كما تتبناها الأطروحة؛ أي التعاطي مع نماذج لغوية ونقدها تطبيقياً. وإن معنى نقد الخيارات اللسانية هو البحث عن مظاهر تأثير الهياكل اللغوية في الممارسات الاجتماعية، وهذا ما يُقصد به في التحليل النقدي للخطاب نقد الممارسة الاجتماعية.

الفصل الأول

علاقة الأشكال الخطابية بالممارسات الاجتماعية

في التحليل النقدي للخطاب

تمهيد

1. العلاقة الجدلية بين الأبنية والممارسات
2. جسر الإدراك الاجتماعي
3. الممارسة وسيلة لإنتاج الشكل
4. الشكل إعادة صياغة للممارسة الاجتماعية
5. الشكل تناص تاريخي للخطابات
6. الشكل مصدر التفسير

خلاصة

تمهيد:

ما تقصده الأطروحة بالعلاقة بين الأشكال الخطابية والممارسات الاجتماعية، هو طبيعة الصلة التي تربط بين اللغوي والاجتماعي في مناهج التحليل النقدي للخطاب المختلفة؛ ومنه فإن البحث يركز في هذا الفصل على كشف الرؤى والتصورات المتباينة لطبيعة هذه العلاقة، وقبلها لمفهومي الشكل والممارسة. ولكن، يبقى الهدف الرئيس من استقراء هذه الرؤى هو تقديم رؤية خاصة بهذا البحث، لتكون مبدأ أساسا في بناء المقاربة اللسانية الحجاجية في الباب الثالث؛ إذ قد يكون من غير اللائق تقديم هذه الرؤية الخاصة دون محاورة باقي المناهج في هذا الجانب.

لذا، فإن الفصل سيحاول إيضاح طبيعة العلاقة بين الشكل الخطابى والممارسة الاجتماعية في المناهج الستة للتحليل النقدي للخطاب وفق هذا الترتيب: المنهج الجدلي العلائقي، المنهج الإدراكي الاجتماعي، منهج التحليل التنظيمي، منهج الفاعل الاجتماعي، المنهج التاريخي، ومنهج لسانيات المدونات.

1. العلاقة الجدلية بين الأبنية والممارسات:

ناقش نورمان فيركلف العلاقة بين الأبنية والممارسات في أعمال عديدة¹، وطالما تبنى المبدأ القائل بأن العلاقة بين النطاقين جدلية منطقية، بحيث كما يؤثر الخطاب في الأبنية الاجتماعية، فإنه متأثر بها كذلك². وينبني مفهوم الخطاب عند فيركلف على أساس لساني صرف كما أُشير إلى ذلك في مدخل هذه الأطروحة، متجاوزا بذلك التصور الموسع لهذا المفهوم في إطار النظريات الاجتماعية والفلسفية كما هو الشأن عند فوكو وهابرماس وغيرهما (أنظر الفصل الثاني من الباب الأول). إن الخطاب عند فيركلف معناه الاستخدام الفعلي للغة في سياق محدد بغية أداء وظائف اجتماعية³. لذلك فهذا الاستخدام الفعلي يُعد عند

1 اللغة والسلطة، الخطاب والتغير الاجتماعي، تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي، التحليل النقدي للخطاب. وهي كلها مراجع سابقة في هذا البحث.

2 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 35.

3 يقول تحديدا: أما مصطلح الخطاب فيشير إلى اللغة قيد الاستعمال في الواقع بوصفها جزءا من الحياة الاجتماعية، يرتبط بغيره من عناصرها ومكوناتها". انظر:

فيركف نوعاً من أنواع الممارسة الاجتماعية؛ ويقصد بذلك أن الممارسات الاجتماعية في أي سياق تتعدد وتختلف حسب الحاجة إليها، وأن استخدام اللغة ممارسة ناتجة عن حاجة اجتماعية ملحة كسائر الممارسات¹.

من جهة ثانية، يُقصد بالأبنية عند فيركف الأبنية الاجتماعية وليست الأبنية اللسانية للخطابات كما قد يتراءى منذ الوهلة الأولى. أما المقصود بالممارسة الاجتماعية فهو الخطاب تحديداً². إذن فإن طرفي العلاقة الجدلية الفعلين، وهذا أمر بالغ الأهمية تتبغى الإشارة إليه بتشديد، هما: الخطاب (بوصفه الممارسة الاجتماعية) والأبنية الاجتماعية (المؤسسات، والطبقات، والعلاقات، والأعراف، والمعتقدات، والمعارف..)³. لذلك، فإن البناء الاجتماعي هو ما يشكل الخطاب ويفرض عليه قيوداً اجتماعية، كما أن الخطاب ممارسة اجتماعية تمتلك القدرة على تشكيل البناء الاجتماعي ومعتقداته، وأعرافه، ومؤسساته، ومعارفه، وكل عناصره ذات الطابع الخطابي وغير الخطابي.

إن العلاقة بين الممارسات الاجتماعية والأبنية الاجتماعية، بهذا المعنى جدلية بنائية؛ إذ إن التأثير بين الطرفين متبادل وبنّاء. ومنه، فإن للخطاب حسب فيركف ثلاثة أصناف من الآثار في الأبنية الاجتماعية، فهو يسهم في بناء الهويات الاجتماعية، والعلاقات الاجتماعية، ثم نظم المعرفة والمعتقدات⁴، كما أنه قادر على إعادة إنتاجها وتغيير المجتمع⁵. وتقف هذه الآثار الثلاثة بإزاء ثلاث وظائف اجتماعية تؤديها اللغة في الخطاب كما يدعي، وهي: وظيفة الهوية، ووظيفة العلاقة، ووظيفة الفكر⁶.

بالتأمل في هذه الوظائف يتأكد أنها مستدعاة من الفكر اللساني الوظيفي النسقي، إذ إن الهوية والعلاقة هما ما قصد به هاليداي الوظيفة الشخصية، والفكر هي الوظيفة الفكرية، أما الوظيفة النصية فهي ثلاثة الوظائف عند هاليداي، لكن فيركف لم يذكرها. غير أن عدم ذكره

1 Norman Fairclough, Discourse and Social Change, p: 64.

2 Ibid, p: 64.

3 Norman Fairclough, Discourse and Social Change, pp: 63-64.

4 Ibid, p: 64.

5 Ibid, p: 64.

6 Ibid, p: 64.

لها لا يعني أنه يلغياها، ولكنه يتحدث عنها في إطار آلية البناء النصي في الأسئلة العشرة التي حددها لنقد الخطاب¹.

ويتجسد الخطاب -وإن كان ممارسة اجتماعية بالنظر إلى موقعه في البناء الاجتماعي- في شكل لغوي خالص يستوعبه، أي في النص. والنص عند فيركلف يشمل اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة². فإذا كانت الممارسة الخطابية ممارسةً من نمط سياسي أو اقتصادي أو ثقافي تنتمي إلى هيكل اجتماعي معين، فإنها في الآن نفسه تبقى ممارسة لغوية؛ ويعني طابعها اللغوي أن كل تأثيراتها إنما تتم بالصوت والكلمة والجملة والأسلوب وكل الخيارات اللسانية في جميع مستويات اللغة المعهودة، قبل تأثيرها بأساليبها وتقنياتها الخاصة. هكذا ينبغي التمييز في تصور فيركلف لعلاقة الأبنية بالممارسات بين مجموعة تحديدات أساسية لتجنب كثير من اللبس:

- كل فعل لغوي أو خطابي أو اقتصادي أو سياسي أو إعلامي أو تعليمي.. يستحق أن ينعت بأنه ممارسة اجتماعية ما دام يقع في إطار بناء اجتماعي

- الخطاب ممارسة اجتماعية مؤثرة وممتأثرة

- التجلي الفعلي المادي للخطاب يكون في النص المنطوق والمكتوب

- كل أنماط الممارسات التي يحتضنها خطاب ما هي قبل كل شيء ممارسات لغوية

- يتحدث فيركلف عن نوعين من الأبنية: البناء الاجتماعي ويقصد به الهيكل الاجتماعي بمؤسساته ومعتقداته وعلاقاته وأطرافه، ثم البناء اللغوي للممارسة الخطابية الذي هو المادة اللغوية الخالصة التي تحقق الخطاب، وهذا النوع يركز عليه في حديثه عن طرق إنتاج الممارسة الخطابية وتفسيرها.

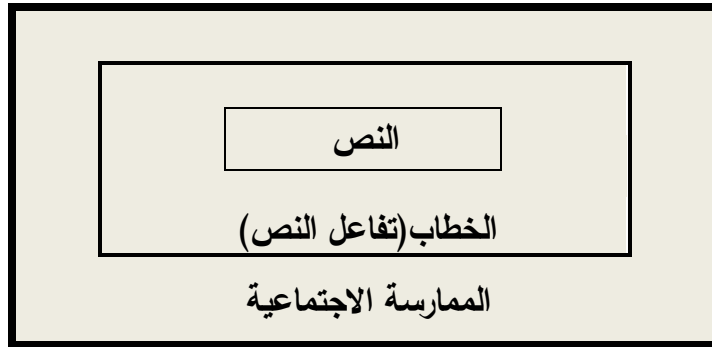
لا يعني هذا التحديد الأخير أن ما قيل عن البناء الاجتماعي يصدق على البناء اللغوي للخطاب أبداً، لأن البناء الاجتماعي يتألف من عناصر ذات خصائص كلية في حين أن البناء اللغوي يتكون من عناصر ذات خصائص جزئية ودقيقة. ودليل ذلك أن فيركلف يقصر العلاقة

1 انظر الأسئلة العشرة التي يحل من خلالها الوظائف النصية للاختيارات اللغوية في: نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص.ص: 155-190.

2 المرجع السابق، ص: 43.

الجدلية على الممارسات الاجتماعية والأبنية الاجتماعية¹، وإن كانت الممارسة الاجتماعية تعني الخطاب الذي له بناء لغوي خاص. وللخروج بفهم ميسر ومبسط من كل ما جاء إلى حد الآن عن فيركلف، يمكن القول إن العلاقة الجدلية تقع بين ممارسة وبناء. إلا أن ما يمكن تسجيله من نقد لهذه الرؤية هو أن فيركلف قد أغفل مسألة مهمة، وهي أن الخطاب الذي نعته بالممارسة الاجتماعية له بناؤه الخاص الداخلي، وهو ما يستحق أن ينعت بالبناء أصلاً وحقيقة، لذلك يمكن أن نقول -وهذا موقف مخالف لفيركلف يتبناه هذا البحث- إن العلاقة الجدلية التي يعينها قائمة بين نوعين من الأبنية: البناء اللغوي للخطاب (الممارسة الاجتماعية) ثم البناء الاجتماعي.

ويظهر من خضم هذه الأفكار اللسانية الاجتماعية أن فيركلف يميز بين ثلاثة أحياز يقع فيها التحليل النقدي الذي يقترحه، وهي: النص، والخطاب، والممارسة الاجتماعية. وقد سمي هذا التوجه التحليلي بالتصور ذي الأبعاد الثلاثة للخطاب، ووضحه في النموذج الآتي²:



شكل رقم(02): الأبعاد الثلاثة لتحليل الخطاب عند نورمان فيركلف

أما عن البناء الداخلي الخاص بالخطاب، أي النص، فإن فيركلف يتصوره تشكيلاً من العناصر اللغوية والأخرى غير اللغوية؛ وتندرج حسب مجموعة من الأجزاء التي قد تكون بينها علاقة تكامل وتلاؤم أو تناقض³. ومن هذه الأجزاء غير اللغوية: الأحداث التي يعبر عنها الخطاب (ويسمى الأحداث الخطابية)، وطرائق التحادث (وفق الإثنو-المنهجية)، ومواقع الذوات،

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 60.

2 يظهر هذا النموذج في موضعين أساسيين عند نورمان فيركلف: اللغة والسلطة، ص: 46؛ ثم في: Discourse and Social Change, p: 73.

3 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 48.

والشروط الاجتماعية، وأعراف التخاطب (نظم التفاعل)، والخلفية المعرفية، وسمات الدلالة الأيديولوجية¹. ويطلق على هذه الأجزاء المتكاملة و/أو المتناقضة مصطلح أنظمة الخطاب². ويعتبر فيركلف كل العناصر والأجزاء اللغوية وغير اللغوية علامات دالة تشكل بعدا سيميائيا للممارسات الاجتماعية وما تعبر عنه، وما تبنيه أو تثبته أو تعدله³.

يظهر في العنوان الذي اختاره فيركلف لمتغيري العلاقة الجدلية (الأبنية والممارسات) أن الأمر يتعلق بطرفين فقط. وقد تبين في السياق ذاته أن الممارسة الاجتماعية (التي لا يعني بها أي شيء آخر غير الخطاب) هي نفسها ناتجة لقيام تضافر داخلي بين أبنية دقيقة وأخرى كلية: المعالم اللغوية بالإضافة إلى الأحداث، والشروط، وطرائق التخاطب، والخلفية المعرفية. ولعل هذا التفصيل الداخلي للخطاب يوضح أهمية العامل اللساني في العلاقة الجدلية، لأن كل ما يتعلق بالأبنية غير اللغوية المذكورة يتم تمثيله في النص بالدليل اللساني الصرف على حد تعبير دي سوسير ثم بالدليل العلامي، أي العلامة السيميائية. وانطلاقا من هذه العلاقة التمثيلية بين دليل لغوي وسمات أو دوافع اجتماعية غير خطابية، يمكن استنباط أن فيركلف يتصور الأشكال اللغوية المتجلية في النصوص وفق إحدى الفرضيتين:

- لا صلة لها بالعلاقة الجدلية المنطقية بين الخطاب والبناء الاجتماعي
- الأشكال اللغوية التي تتجلى في النصوص أجزاء من الخطاب

بالبحث في مؤلف آخر لنورمان فيركلف وهو "تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي"، تسقط الفرضية الأولى وتتأكد الفرضية الثانية، وهي أن للأشكال اللغوية نصيب من العلاقة الجدلية. ويتضح ذلك حين يسلم بأن اللغة جزء من الحياة الاجتماعية وبينها وبين باقي الأجزاء الأخرى علاقة جدلية منطقية⁴. ومن بين ما يعنيه هذا الرأي أن الأشكال اللغوية أجزاء من الخطاب الذي هو جزء من الممارسة الاجتماعية أو إنه هو عينها. والملاحظ أن فيركلف وهو يتحدث عن الطرف الأول من العلاقة الجدلية، أي الخطاب، يذكره بمسميات متعددة تكاد تلقي اللبس والغموض على تصوره الدقيق؛ فتارة يذكر الخطاب، وتارة أخرى

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 48.

2 نورما فيركلف، مقارنة جدلية-علائقية للتحليل النقدي للخطاب في البحث الاجتماعي، ضمن: مناهج التحليل النقدي للخطاب، فوداك ومايبر، 2014، ص: 342.

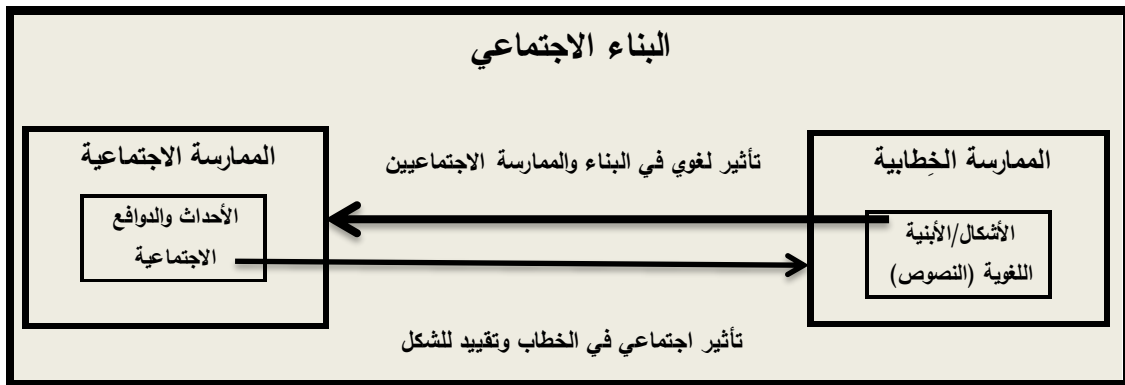
3 المرجع السابق، ص.ص: 341-342.

4 نورمان فيركلف، تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ص: 17.

الممارسة الاجتماعية، أو الممارسة الخطابية، أو الأبنية والهياكل والأشكال اللغوية، أو اللغة، أو النصوص؛ وهو يقصد شيئاً واحداً هو الاستخدام الفعلي للغة. كما أنه يعتبر الخطاب ممارسة اجتماعية، وفي الآن نفسه جزءاً منها كما هو موضح أعلاه في (الشكل رقم: 02).

إن الخطاب عنده وإن كان ممارسة - هو محور العلاقة الجدلية بين الأبنية والممارسات، لذلك فهو الواسطة بين الشكل اللغوي (النص) والممارسة الاجتماعية التي تنتمي إلى البناء الاجتماعي. فبالنظر إلى علاقة الخطاب بالنص، فهو الحامل للأشكال اللغوية والمحتضن للتمثيل اللساني، أما بالنظر إلى علاقته بالممارسة الاجتماعية، فهو جزء من أية ممارسة اجتماعية تستخدم اللغة، سواء أكانت اقتصادية أم إعلامية أم ثقافية أم سياسية...؛ أما بالنظر إلى كونه حلقة وصل بين النص والممارسة، فهو التفاعل الاجتماعي للأشكال اللغوية مع مختلف الممارسات الاجتماعية في البناء الاجتماعي.

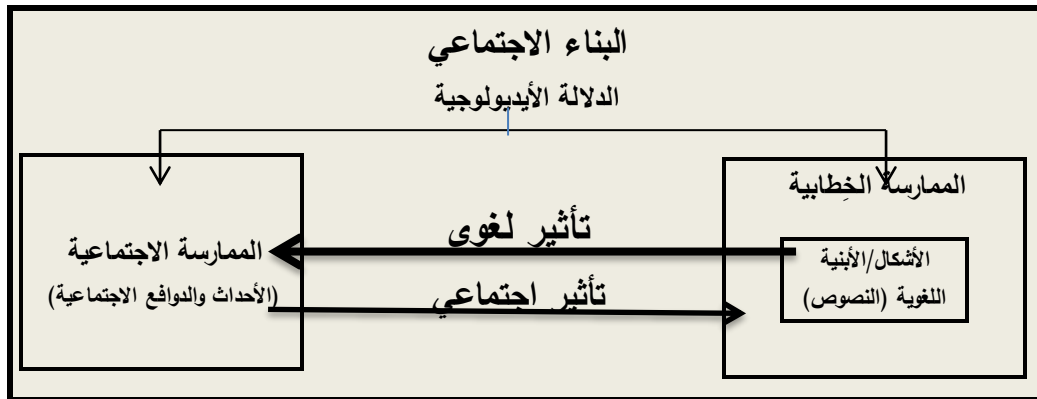
لذا، فإن النموذج الملخص حسب رؤية فيركلف اللغوية وتصوره الاجتماعي، والموضح في الشكل أعلاه لا يعبر حقيقة عن العلاقة الجدلية بين الممارسة والبناء حق تعبير، أولاً لأنه لا يلقي الضوء على الشكل اللغوي، وثانياً لأنه لا يظهر أي مشاركة جدلية للأشكال اللغوية وإن كانت من صلب نظريته، وثالثاً لأنه يعتبر الممارسة الاجتماعية حاضنة للخطاب، والخطاب حاضناً للنص (الشكل اللغوي). وإن كانت جوانب هذا الاحتضان صحيحة لا خلاف فيها، إلا أنها لا تجلي أبداً العلاقة الجدلية كما يتصورها هو نفسه. وعليه، تقترح هذه الأطروحة توضيح العلاقة بين هذه الأطراف الثلاثة كما يتصورها فيركلف بنموذج آخر:



شكل رقم (03): نموذج مقترح للعلاقة الجدلية بين الأبنية والممارسات كما يتصورها فيركلف

إن، فالعلاقة الجدلية المنطقية تعني أن الأبنية النصية التي تتفاعل في إطار الممارسات الخطابية تعود في أصلها إلى دوافع اجتماعية تقف وراء أية ممارسة اجتماعية، كما أن النتائج الاجتماعية كالتغير الاجتماعي وتعديل نظم المعارف والمعتقدات، والصراع الاجتماعي، وجل أنماط العلاقات الاجتماعية، هي محصلة خطابية منطقية للأثر البالغ للمعالم الشكلية اللغوية كما يعبر فيركلف عن ذلك في هذا المقطع: "تجد أنه [الخطاب] يؤثر فيها [الأبنية الاجتماعية] ويسهم في تحقيق الاستمرار الاجتماعي أو التغير الاجتماعي"¹. ومنه فإن علاقة الأبنية بالممارسات كما اتضحت أعلاه هي في الحقيقة علاقة بناءة بين المعلم الشكلي والدافع الاجتماعي.

يذهب فيركلف إلى أبعد من هذا التأثير المتبادل بين الأبنية الاجتماعية والممارسات الخطابية بأبنيتها الشكلية اللغوية الداخلية، إلى حد اعتبار الشكل اللغوي مصطبغا دائما بالأيدولوجيا². فالدلالة الأيدولوجية عنده راسخة في البناء الاجتماعي وخصوصا في الأعراف والمعتقدات، والأفكار المروجة من لدن محركي الممارسات الاجتماعية، كما أنها راسخة في الأشكال اللغوية. فيعطيه القدرة على الحضور المتوازي في النطاقين معا: نطاق البناء الاجتماعي ونطاق الممارسة الخطابية (وتحديدا الشكل اللغوي). بناء على ذلك يمكن اقتراح صياغة العلاقة الجدلية وموقع الدلالة الأيدولوجية عند فيركلف كما يلي:



شكل رقم (04): موقع الدلالة الأيدولوجية في العلاقة الجدلية بين الأبنية والممارسات حسب فيركلف

أما عن اصطباغ الشكل اللغوي (النص) بالدلالة الأيدولوجية فمعناه أن الخيارات اللسانية تبنى على أساس الأيدولوجيا المتحكمة في جل الممارسات الخطابية والاجتماعية؛ أي إن كل

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 60.

2 Norman Fairclough, Discourse and Social Change, p: 88.

انتقاء لأية فئة لغوية ممثلة يستند بالأساس إلى خدمة الخلفية الأيديولوجية. وعلى أساس هذه الفكرة المتعلقة بالأيديولوجيا سينبني الفصلان المقبلان من هذا الباب، والذي سيخصص للتمثيل اللساني وصناعة المعاني الأيديولوجية والممارسات السلطوية، ولكن من وجهة نظر مغايرة تظهر الإسهام الكبير للشكل اللغوي وتأثيره البالغ والمباشر في الممارسات الاجتماعية.

2. جسر الإدراك الاجتماعي:

ناقش فان دايك العلاقة بين الأشكال والممارسات من منظور مغاير لكل مناهج التحليل النقدي للخطاب، إذ انتقد الربط المباشر بين الأبنية الخطابية والممارسات الاجتماعية في إطار البناء الاجتماعي¹. وهو بذلك يؤشر على تجاوز نظري ومنهجي للعلاقة الجدلية التي بينها فيركلف، ولكون الخطاب وسيلة إنتاج للواقع مع ياغر ومايير، ولكونه إعادة صياغة للسياق مع فان لوفين، ثم للعلاقة الجدلية بين العوامل التاريخية وأنساق التغيير الاجتماعي عند فوداك وريزيغل، فالتأثير المباشر للوحدات اللغوية مع موتر في لسانيات المدونات كما سيتضح أسفله في هذا الفصل. أما البديل الذي يقترحه فان دايك في العلاقة غير المباشرة التي يثبت أنها تتحكم في تأثير بنية الخطاب في الممارسة الاجتماعية فهو مفهوم الإدراك الاجتماعي²، وهو عينه ما تقصده هذه الأطروحة بسمى "جسر الإدراك الاجتماعي".

يسلم فان دايك في منهجه الذي يدعوه بالتحليل الإدراكي-الاجتماعي بوجود سلط مشروعة في المجتمعات تمنحها التراتبية المؤسسية والاجتماعية³، أو النظم العلاقاتية في التعليم، والأوساط الأكاديمية، وأجهزة الأمن والقضاء، والطب والرعاية الصحية وغيرها؛ وأن ظهورها على سطح الخطاب يبقى شيئاً منطقياً وانعكاساً للواقع⁴. بيد أنه يرى في المقابل أن توظيف سلط من هذا النمط لأغراض ومآرب ذاتية أو أيديولوجية هو ما يُعد توظيفاً سيئاً للسلطة. ويقصد بالتوظيف السيئ للسلطة تكريس أطماع الهيمنة بالاستناد إلى المواقع التي تتيحها الوظائف والقدرة على النفاذ إلى قنوات التخاطب ووسائله مع الجمهور. لذلك فهو يرى

1 تنوين فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 57.

2 المرجع السابق، ص: 57.

3 المرجع السابق، ص: 44.

4 المرجع السابق، ص: 44.

أن هذا النمط من السلطة إذا اتخذ أشكال الأفعال التواصلية (الخطبة والتخاطب تحديداً) فإنه يصبح محاولة للسيطرة على خطاب الآخرين¹.

إن هذه السيطرة على خطابات الآخرين حسبه محصلة منطقية للممارسة الاجتماعية أو إنها هي عينها². بل إنه يذهب إلى أن السيطرة على خطابات الآخرين وهي السلطة عنده تحديداً - نتيجة حتمية للعلاقة بين الأبنية والممارسات. وقصده من ذلك أن الخطاب يعيد إنتاج السلطة على نحو غير عادل³، من خلال الهيمنة على الإدراك العام على صعيد الممارسة الاجتماعية⁴. ومن الملاحظ أنه يختلف مع فيركلف في رفض علاقة التأثير الجدلية والمتبادلة بين بنية الخطاب والممارسة الاجتماعية. وإنما يؤكد أن التأثير يتجه من الأبنية إلى الممارسة، ولكن بوساطة الإدراك الاجتماعية. فكيف ذلك؟

إن ما يؤثر بالنسبة لفان دايك هو ما يحمله الفاعل الاجتماعي⁵ من الخصائص الأيديولوجية للإدراك الجماعي والشخصي بوصف الثاني جزءاً من الأول. ولكن نوعي الإدراك يمثلان بوساطة الخطاب ونظمه اللسانية والتفاعلية والاستراتيجية⁶. ومعنى ذلك أن الإدراك المعتبر وسيطاً بين طرفي العلاقة محمول في الطرف الأول (البناء الخطابي) وممثل به، وموجه إلى الطرف الثاني (الممارسة) ومؤثر فيه⁷. هنا، ينبغي أن يفهم أن الخيار اللساني والإجراء التفاعلي يحملان معانٍ ومعارفَ وأفكاراً مجردة وشائعة اجتماعياً، وهي ذات التأثير البالغ الذي يكرس سوء توظيف السلطة، أي الهيمنة والتحكم. وفي ما يلي خطاطة موضحة لمثلث الخطاب والإدراك والمجتمع كما يتصوره فان دايك:

1 توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 45.

2 المرجع السابق، ص: 45.

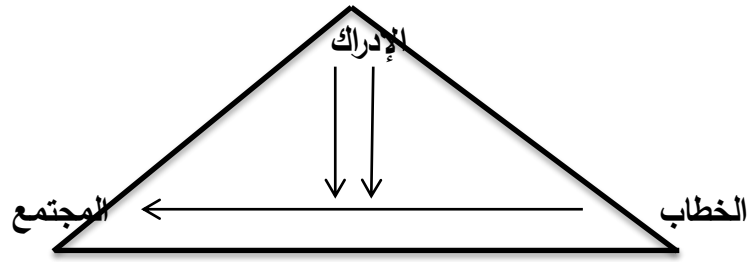
3 توين فان دايك، دراسة الخطاب النقدي: المقاربة المعرفية الاجتماعية، ص: 139.

4 المرجع السابق، ص.ص: 43-45.

5 المرجع السابق، ص: 57.

6 المرجع السابق، ص: 57.

7 المرجع السابق، ص: 77.



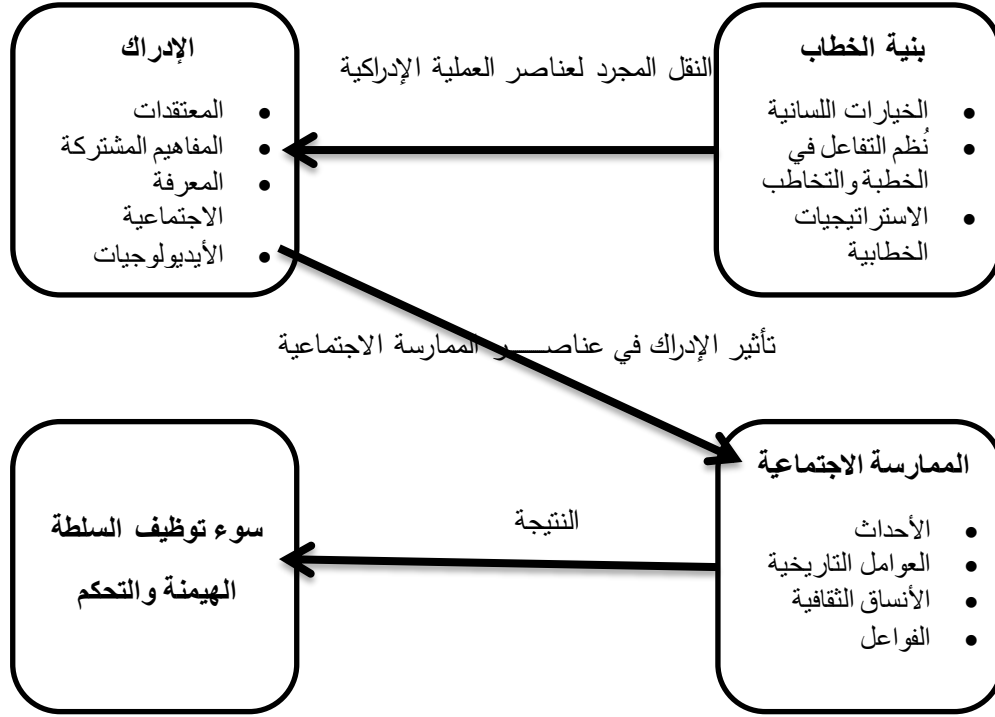
شكل رقم(05): مثلث التحليل الإدراكي - الاجتماعي للخطاب عند فان دايك

إن وسيط الإدراك عند فان دايك هو مجمل المعتقدات والمعارف والأيديولوجيات المشتركة بين أفراد المجتمع الواحد¹ والمتحكمة في أفكارهم وتوجهاتهم وعقائدهم، وهو المحدد للسياق المتصل بالخطاب². وينجم عن هذا الحد الذي يقدمه لمصطلح الإدراك أن الأشكال اللغوية تمثل هذه المعتقدات والمعارف والأيديولوجيات على صعيد الخطاب، وهي التي تفرض سلطته الاجتماعية على الممارسات الاجتماعية داخل المجتمع. غير أن الممارسة الاجتماعية حسب هذه العلاقة لا تقتصر على الأنشطة والأفعال والأحداث الصادرة عن الفواعل الاجتماعيين، وإنما تشمل على حد تعبيره السياق والثقافة والتاريخ أيضاً³. ومؤدى هذا أن الممارسة الاجتماعية معقدة، بحيث تتركب من العوامل التاريخية، والأنساق الثقافية، والسياق، والأحداث. ولعل المراد بالسلطة الاجتماعية على هذا النحو هو السيطرة على هذه العناصر. ومنه، يمكن تقديم المقصود بمثلث التحليل الإدراكي-الاجتماعي بمزيد من التفصيل والإيضاح على هذه الشاكلة في هذا النموذج الذي تقترحه الأطروحة:

1 توين فان دايك، دراسات الخطاب النقدي: المقاربة المعرفية الاجتماعية، ص: 142.

2 المرجع السابق، ص: 143.

3 توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ص.ص: 57-59.



شكل رقم(06): وساطة الإدراك بين أبنية الخطاب وعناصر الممارسة الاجتماعية

تفصي هذه العلاقة بالعملية النقدية إلى جعل التحليل الإدراكي للغة الخطاب جسرا رابطا بين التحليل الخطابي والتحليل الاجتماعي¹. بمعنى أدق، العمل على الكشف عن الأبعاد والدلالات والعناصر الإدراكية في تحليل الشكل للوصول إلى مظاهر الممارسة السلطوية؛ بحيث تكون غاية تحليل بنية الخطاب هي بيان العوامل الإدراكية التي تحكمت في اختيار الاستخدام اللغوي الظاهر على سطح الخطاب، وهذا في الحقيقة عمل يشكل مرحلة مهمة للكشف عن السلطة المراد ممارستها اجتماعيا، ويسمي فان دايك هذا الإجراء بالتحليل الجزئي للسلطة².

بيد أن العلاقة المذكورة تشترط عدم إغفال مسألة مهمة متعلقة بسياق الحدث الاجتماعي، إذ يرى فان دايك أن للإدراك -وهو ينهض بمهمة الوساطة- وظيفة أخرى تتمثل في كونه يؤثر في التمثيلات الإدراكية للفواعل الاجتماعية المشتركة في العملية التواصلية الخطابية؛ بحيث ينمذج السياق الخاص ويحوّله إلى معرفة اجتماعية أو يجعله سمات إدراكية

1 توبين فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 54.

2 المرجع السابق، ص: 55.

جديدة¹. فيغدو السياق نفسه نموذجا إدراكيا تفاعليا يتوسط بين الكلي والجزئي وبين بنية الخطاب وبنية المجتمع²؛ وبتعبير آخر، فإنه يصبح وسيلة تيسر للخطاب إعادة الإنتاج الخطابى للبنى المتفاوتة³.

بناء على هذا التصور الإدراكي الاجتماعي لتأثير اللغة والخطاب، يمكن استخلاص أن الشكل حسب فان دايك مؤثر في الممارسة بشكل مشروط؛ وتتجلى هذه العلاقة الشرطية بين تحليل الخطاب وتحليل الإدراك الاجتماعي قبل تحليل الممارسة الاجتماعية لكشف المرامي السلطوية⁴. إلا أن ما يمكن تسجيله من ملاحظات حول هذا التصور، هو الدور المنوط إلى البعد الإدراكي، والنظرة إلى الإدراكات الاجتماعية؛ إذ يظهر أن فان دايك يفرط في الحديث عن التأثير السلطوي للإدراكات أكثر من التأثير البالغ للأبنية الخطابية، أي الوحدات اللسانية والبلاغية والسيمائية. كما أنه يجعل من الإدراك - وإن كان مجردا - كلا مركبا بتعقيد كبير، بحيث يرى بأنه يحمل المعتقدات، والمفاهيم المشتركة، والمعرفة الاجتماعية، والأيديولوجيات، بالإضافة إلى خصائص السياق.

3. الممارسة وسيلة لإنتاج الشكل:

يختلف مفهوما (الشكل والممارسة) عند سيغفريد ياغر وفلورينتين ماير عن مفهوميهما في باقي مناهج التحليل النقدي للخطاب، إذ إنهما يعنيان بالممارسة الخطابية تحديدا، ويقصدان بالشكل الواقع المادي والموضوعي الذي تفرزه الممارسة؛ إلا أنهما يقيدان الممارسة بوصف (الخطابية) وليس الاجتماعية. فكيف ذلك؟

معلوم أن المقصود بالشكل في هذه الأطروحة وفي مجالها اللساني - وفي مواضع أخرى - هو البناء أو الهيكل اللغوي للنصوص والخطابات، وأن الممارسة هي الفعل أو الحدث الذي يقع في مكان وزمان، ومتعلق بفواعل اجتماعيين في سياق اجتماعي معين لتحقيق غرض محدد. إلا أن التحديد الاصطلاحي الذي قدمه كلٌّ من ياغر وماير معكوس بالكامل، بحيث يعتبران الخطاب ممارسة تصنع الواقع بوصفه شكلا متغيرا بتغيير الممارسة الخطابية⁵. ويأتي

1 توين فان دايك، دراسات الخطاب النقدي: المقاربة المعرفية الاجتماعية، ص: 143.

2 المرجع السابق، ص: 173.

3 المرجع السابق، ص: 169.

4 المرجع السابق، ص: 144.

5 ياغر وماير، الجوانب النظرية والمنهجية في التحليل النقدي للخطاب وتحليل التصرفات لدى فوكو، ص: 84.

موقفهما المغاير هذا من كونهما ينطلقان من مبدأ أساس في منهجهما التنظيمي وهو أن الأشياء تتغير معانيها بتغير الخطاب، وتتحول إلى أشياء أخرى مغايرة¹، وهو مبدأ له أصوله في الفكر الاجتماعي لفوكو، وتحديدًا في حديثه عن العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي، ففي نظره أن الوعي يصنع الوجود الاجتماعي، وقد انطلق ياغر وماير من هذه العلاقة مقابلين الخطاب بالوعي، والواقع بالوجود الاجتماعي².

إن المقصود بالشكل حسبهما هو المعطيات والموضوعات والعلاقات والجزئيات والكليات التي تمثل الواقع، وأن الممارسة هي الخطاب الذي يبني وعيا يكون مسؤولًا عن بناء الواقع بوصفه شكلا. وبتركي هذا الفهم من موقف الباحثين المذكورين حين يعرفان الخطابات بأنها ممارسات اجتماعية تنتج الموضوعات والواقع³. إن الخطاب حسب هذا الطرح ممارسة تؤسس الوعي الفردي والجماعي، والوعي مسؤول عن الفعل، والفعل يصنع ما هو مادي، أي يصنع شكل الواقع⁴. لكن، ونظرا لهذا التأثير بالغ الأهمية، كيف يصنع الخطابُ الشكلَ (الواقع تحديدا)؟

إن الخطاب حسب منهج ياغر وماير يوفر عنصر الإرشاد والتوجيه والقيادة للفرد والجماعة في مسعى خلق الواقع⁵، كما أنه يحدد الكيفية التي يُجسّد بها المجتمعُ الواقع⁶. وله كذلك أن يصنع الفرد والجماعة نفسها وليس العكس⁷، إلا أن الأفراد والمجموعات لا تتأتى لهم السيطرة عليه، وإن كانت لهم تأثيرات مختلفة فيه حسب إسهامهم ومواقعهم⁸.

ما يخول للخطاب (من الناحية اللسانية والإدراكية) إمكانية ممارسة السلطة على الفرد والجماعة هو قدرة مواده اللغوية على نقل المعرفة التي يُستمدُّ منها الوعي الفردي والجماعي. وحسب ياغر وماير فالمعرفة هي أساس العقل الخطابي وغير الخطابي، الفردي والجماعي⁹.

1 ياغر وماير، الجوانب النظرية والمنهجية في التحليل النقدي للخطاب وتحليل التصرفات لدى فوكو، ص: 98.

2 المرجع السابق، ص: 83.

3 المرجع السابق، ص: 85.

4 المرجع السابق، ص: 89.

5 المرجع السابق، ص: 86.

6 المرجع السابق، ص: 85.

7 المرجع السابق، ص: 86.

8 المرجع السابق، ص: 88.

9 المرجع السابق، ص: 89.

لأن المعرفة تمثل قاعدة الفعل¹، أي المرجع الذي على أساسه يتصرف الناس ويفعلون وينتجون. غير أن ما يقصدانه بالمعرفة هنا ليس هو المعرفة العلمية بمفهومها الإستمولوجي، وإنما مجموع ما يعرفه الناس للقيام بالأشياء اليومية المختلفة، وإنجاز الأفعال والقيام بالأنشطة الاجتماعية البسيطة والمهمة، كمعرفة المراحل التي يقطعها الطالب للذهاب إلى الثانوية، أو كيفية تنظيم الامتحانات، أو العلاقة بين أفراد الأسرة أو بين الجيران، وغير ذلك من الأنشطة المعتادة. فالخطاب حسبهما يسخر آلياته اللغوية لنقل هذه الأنماط من المعرفة الاجتماعية الساذجة فيحولها إلى وسائل لممارسة السلطة.

يظهر من خلال المقارنة بين علاقة الخطاب بالمجتمع في المنهج التنظيمي للخطاب لدى ياغر وماير، والمنهج الاجتماعي الإدراكي عند فان دايك، أن بينهما تطابقا في تصور طبيعة هذه العلاقة وتوسط الإدراك الاجتماعي (المعرفة الاجتماعية) بين طرفيها. إلا أن الاختلاف الأول البارز هو مفهوم الشكل والممارسة في المنهجين، ففان دايك يرى أن الشكل هو الهيكل اللغوي للخطاب، والممارسة هي الأحداث والأفعال التي تظهر اجتماعيا. أما ياغر وماير كما اتضح قبل قليل فيعتبران الخطاب هو الممارسة والشكل هو الواقع الاجتماعي الذي تفرزه. إلا أن المنهجين يختلفان في شيء ثانٍ ومهم جدا، وهو: موقع الخطاب في هذا التأثير السلطوي. فكيف ذلك؟

يظهر أن منهج ياغر وماير التنظيمي يبني علاقة ثلاثية الأقطاب تتوسط فيها المعرفة الاجتماعية بين الخطاب والواقع، ولعلهما يتقاطعان نسبيا مع فان دايك وإن لم يعلن أن منهجهما يعتمد الثالث عينه الذي اعتمده فان دايك (الخطاب والمجتمع والإدراك الاجتماعي) مع اختلافات جمة ذكر أبرزها أعلاه، وسيُوضَّحُ آخرُ الآن: إن فان دايك -كمعظم لسانيي التحليل النقدي للخطاب- يتعامل مع الخطاب بوصفه مادة لسانية صرفة. أما ياغر وماير فلا يتصوران الخطاب مؤثرا في استقلاله وماهيته اللسانية فقط، وإنما في خضوعه لبنية أكبر منه، وهي ما يُسمى بالمركب الخطابي (Dispositive)².

1 ياغر وماير، الجوانب النظرية والمنهجية في التحليل النقدي للخطاب وتحليل التصرفات لدى فوكو، ص: 90.
2 أخذ الباحثان سيغفريد ياغر وفلورينتين ماير مصطلح (Dispositive) من كتاب (نظام الخطاب) لميشال فوكو، وعليه أسسا منهجهما اللساني الناقد للخطاب، وقد وضحا في عملهما المشترك والمؤسس لمنهجهما (الجوانب النظرية والمنهجية في التحليل النقدي للخطاب وتحليل التصرفات لدى فوكو، ص.ص 127-128) أنه يعني بنية ثلاثية الأبعاد تضم الخطابي وغير الخطابي والمادي. ومؤدى ذلك أن الخطاب لا يفصل عن البعدين الآخرين في أي تأثير. إلا أن المصطلح يطرح إشكالا في ما تعلق بنقله إلى العربية، إذ طُرحت له ترجمتان اثنتان لحد الآن: الأولى هي **التنظيم**، وهي التي اقترحها جمعان عبد الكريم

حسب المنهج التنظيمي، لا وجود لخطاب بالمعنى اللساني مستقل بذاته، ولا يمكنه أن يؤثر إلا في اتصاله بعنصرين آخرين يشكل معهما المركب الخطابي، وهما: الممارسة غير الخطابية والتجسيد المادي للمعاني. وبذلك يتكون المركب الخطابي من الممارسة الخطابية، والممارسة غير الخطابية، والتجسيد المادي للمعاني¹. والمقصود بالممارسة الخطابية هو اللغة تحديداً، والممارسة غير الخطابية هي الأفعال/الأنشطة، والتجسيد المادي هو الشكل الواقعي².

من الواضح أن المنهج التنظيمي لنقد لغة الخطاب يعتمد التصور الفلسفي والاجتماعي لمفهوم الخطاب لدى فوكو، وخصوصاً الفكرة التي تتلخص في كون عمليات تخصيص المعاني هي التي تخلق الواقع³، أي إن الخطاب بوصفه واقعا رمزياً يصنع الواقع بوصفه مادياً⁴. إلا أنه يتجاوز في ما يخص إغفاله للفاعل ودوره الحاسم في تحديد المعاني وصناعة الوعي⁵. فعن

جمعان في كتابه (من تحليل الخطاب إلى تحليل الخطاب النقدي، ص.ص: 175-216)، وتحديداً في ملحق مبحثه السابع حيث قدم ترجمة للفصل الثاني من الكتاب الجماعي "مناهج التحليل النقدي للخطاب" لروث فوداك وميشيل ماير. وفي الحقيقة فقد اقترح ترجمة لهذا المصطلح تلامس المقصود نسبياً، نظراً لكون الكاتب قد استند فيها إلى الاشتقاق من المأخذ الأصل لهذا المصطلح، أي مفهوم النظام عند فوكو؛ وإن كانت لا تعبر عن مفهوم المصطلح في اللغتين الإنجليزية والفرنسية، لأنها أصبحت تفيد *التسويق*. أما الترجمة الثانية فهي (التصرف)، وهي التي جاءت في ترجمة الكتاب الجماعي نفسه (مناهج التحليل النقدي للخطاب) لمحريه روث فوداك وميشيل ماير، وتحديداً في ترجمة الفصل ذاته والمنجز من لدن سيغفريد ياغر وفلورينتين ماير (الجوانب النظرية والمنهجية في التحليل النقدي للخطاب وتحليل التصرفات لدى فوكو، ص.ص: 79-136)، ترجمة حسام أحمد فرج وعزة شبل محمد.

والحق أن هذه الترجمة الثانية بعيدة كل البعد عن المقصود من هذا المصطلح، ذلك لأن المترجمين قد ظنا خطأً أن مصطلح (Dispositive) اشتقاق من Disposition التي تعني عند نقلها من الفرنسية إلى العربية التصرف، كقول: (Je suis sous votre disposition) أي أنا تحت تصرفكم. من جهة أخرى، المصطلح مبتكر من لدن ميشيل فوكو الذي يقصد به كلاً يضم الأقوال والأحداث والموجودات المادية. ومن جهة ثالثة، يفيد هذا المصطلح حسب واضعه الطابع المركب والمتداخل لعناصر متعددة في بنية واحدة أكبر من عناصرها، ومن ضمنها الخطاب بوصفه مادة لسانية. ولهذه الأسباب، تعتمد هذه الأطروحة ترجمة للمفهوم من مصطلح (Dispositive)، وهي **المركب الخطابي** الذي يعني تداخل عناصر متعددة في خطاب واحد: اللغة والأحداث والمادة؛ ولعل ذلك ما ذكره ياغر وماير بالتحديد: "المركب الخطابي [Dispositive] توليف منطور -باستمرار- للمعرفة التي تتشكل في صورة اللغة والأفعال والتجسيد المادي". جاء هذا القول في:

Jager-Siegfried, and Maier-Florentine, Theoretical and methodological aspects of Foucauldian critical discourse 2009, p: 75.

1 ياغر وماير، الجوانب النظرية والمنهجية في التحليل النقدي للخطاب وتحليل التصرفات لدى فوكو، ص.ص: 127-130.

2 المرجع السابق، ص: 128.

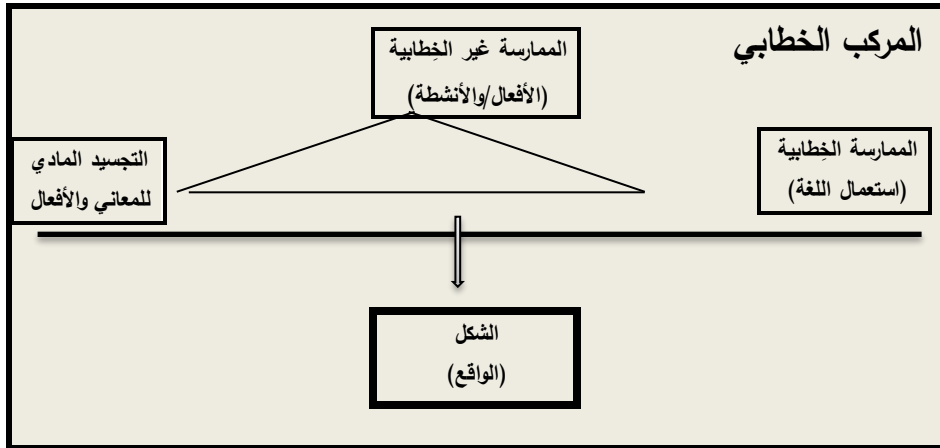
3 المرجع السابق، ص: 90.

4 المرجع السابق، ص: 95.

5 المرجع السابق، ص: 97.

طريق اللغة يستطيع الإنسان تغيير الوعي الجمعي والمعاني المشتركة ثم تجسيدها واقعا ماديا، فاللغة حسب هذا المنهج التنظيمي هي التي تسهم في تحويل ما يعرفه الناس اجتماعيا وتاريخيا لفظيا وشفهيا إلى موجودات ومعطيات مادية في الواقع¹.

من هنا يمكن تبسيط علاقة الممارسة الخطابية بالشكل (الواقع) وفق المنهج التنظيمي لدى سيغفريد ياغر وفلورينتين ماير:



شكل رقم(07): علاقة الشكل بالممارسة حسب المنهج التنظيمي

4. الشكل إعادة صياغة للممارسة الاجتماعية:

على الرغم من أن تيو فان لوفين يتبنى المفهوم اللساني لمصطلح الخطاب²، فإنه يضيف إلى تعريفه تفصيلا أكثر عمقا حين يميز بين النص والخطاب؛ إذ إن النص حسب شكل، والخطاب شكل (أي نص) متفاعل في سياق اجتماعي³. وقصده من أن النص شكل هو أنه دليل حتمي ومادي قوامه اللغة واستخداماتها. من جهة أخرى، يتقاطع مع المنهج التنظيمي وميشال فوكو في القيمة التركيبية للخطاب⁴؛ غير أن هذا لا يعني أنه يتبنى تصورا فلسفيا بعيدا عن اللسانيات، وإنما القصد أنه ينظر إلى الخطاب -هذا الشكل/النص المتفاعل في السياق

1 ياغر وماير، الجوانب النظرية والمنهجية في التحليل النقدي للخطاب وتحليل التصرفات لدى فوكو، ص: 99.

2 فان لوفين، الخطاب باعتباره إعادة تشكيل سياق الممارسة الاجتماعية: دليل إرشادي، ضمن مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص: 307.

3 المرجع السابق، ص: 309.

4 المرجع السابق، ص: 307.

الاجتماعي- بوصفه مركبا من عناصر هي في الأصل متفرقة، ولكنها في إطاره متضامة بفعل إمكانات التكثيف والتضمين التي تتيحها اللغة.

الخطاب إذن نص موظف ومتفاعل في سياق معين. وبذلك فهو شكل تمثيلي للأفعال والأحداث والأشخاص¹، أي صورة تمثيلية للممارسات الاجتماعية التي يعبر عنها. ويعرف هذه الممارسات الاجتماعية نفسها بأنها طرق منظمة اجتماعيا للقيام بالأشياء والأفعال والأنشطة². من هنا، يتضح أن الخطاب شكل يصور الممارسة الاجتماعية، أي يحملها. إلا أن السؤال الذي يمكن طرحه على فان لوفين هنا هو: كيف يمثل الشكل المتفاعل (الخطاب) الممارسة الاجتماعية؟

قبل البحث عن جواب من صلب منهج "الفاعل الاجتماعي" الذي يقترحه فان لوفين، لا بد أولاً من استدعاء تحديده لعناصر الممارسة الاجتماعية، بعد أن اتضح أن الخطاب عنده شكل لغوي نصي يتفاعل في سياق ما. يرى فان لوفين أن الممارسة الاجتماعية تتكون من العناصر الآتية³: الأحداث، المشاركون، طرق الأداء، أساليب التقديم، الزمن والمكان، شروط أهلية العناصر.

الممارسة الاجتماعية إذن طرق منظمة اجتماعيا للقيام بالأشياء والأفعال والأنشطة شرط أن تتوفر فيها هذه العناصر. ولتبسيط مفهوم الممارسة الاجتماعية -حتى لا تُفهم فهما فلسفيا مغرقا في التجريد- فإنها تعني أية علاقة تفاعلية بين أطراف قادرين على التعبير والإدلاء بأرائهم في موضوع معين، بواسطة اللغة أو أية وسيلة تعبيرية؛ المهم أنها تفاعل بشري طبيعي كعملية البيع والشراء، والتعليم، وحوار شرطي المرور مع سائقي العربات، والمقال الصحفي، ووصفات الطبخ المنشورة في المجلات أو الإنترنت أو على شاشة التلفزيون، وكل ما شابه ذلك.

بالنسبة إلى السؤال المطروح عاليه والمتعلق بكيفية تمثيل الخطاب لهذه الممارسات الاجتماعية، فإن فان لوفين يعتقد أن مسألة التمثيل اللساني هي عملية نقل أو تحويل للممارسة

1 فان لوفين، الخطاب باعتباره إعادة تشكيل سياق الممارسة الاجتماعية: دليل إرشادي، ص: 311.

2 Van Leeuwen, DISCOURSE AND PRACTICE, p: 06.

3 فان لوفين، الخطاب باعتباره إعادة تشكيل سياق الممارسة الاجتماعية: دليل إرشادي، ضمن مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص.ص: 314-317.

من الواقع الاجتماعي إلى الواقع الخطابي، أي إلى الشكل. بالفعل، الخطاب شكل تمثيلي للممارسة، ولكنه تمثيل رهين بآلية إعادة صياغة السياق؛ ويقصد أن الخطاب ينهج أساليب مختلفة للتعبير عن الممارسة المقصودة وعن سياقها. إلا أن الخطابات حسبه لا تتقل الممارسات أو عناصرها بمنوال شفاف دائماً، وإنما قد يتم تجاهل بعضها أو إقحام عناصر غريبة عنها لتصبح منها -إكراها- على مستوى الخطاب¹.

إن معنى إعادة السياق هو نقل تفاصيل الممارسة الاجتماعية وحيثياتها وعناصرها باللغة إلى مستوى النص لتصبح خطاباً متفاعلاً. أي إن الخطاب شكل لغوي صيغته فيه الممارسة الاجتماعية لغوياً، أو عالم جديد يحتضن عناصر الممارسة الاجتماعية، اللغوية وغير اللغوية؛ ولكن تلك الصياغة قد لا تكون بريئة. في هذا الصدد، يوضح فان لوفين أن إعادة صياغة السياق هي عبارة عن سلسلة من الأنشطة والأفعال اللغوية والسيمائية لممارسة لغوية أو غير لغوية، أو لممارسة تتضمن في الآن أنشطة لغوية وأخرى غير لغوية. وأنها -كيفما كان نمط الفعل فيها- لا تكون صريحة أو صادقة في الغالب، بل تتضمن دائماً عناصر جديدة، وأحياناً ممارسات جديدة مقحمة².

يُفهم أن الخطاب شكل لغوي تمثيلي للممارسة الاجتماعية، ناتج عن الاستخدامات اللغوية. أي إن صانع الخطاب يعتمد على قدراته في استخدام اللغة لتصوير الممارسة الاجتماعية على المنوال الذي يرتضيه ويخدم مصالحه وأيديولوجيته على صعيد الخطاب. إن الطرق المتبعة في عملية تحويل الممارسة إلى شكل لغوي (خطاب) حسب فان لوفين أربعة: حذف عناصر محددة غير ملائمة³، وتقديم بدائل جديدة⁴، ثم إقحام عناصر غريبة⁵، وإعادة ترتيب العناصر⁶ في صورتها النهائية وفق مصلحة صاحب الخطاب. أما عن الأساليب

1 فان لوفين، الخطاب باعتباره إعادة تشكيل سياق الممارسة الاجتماعية: دليل إرشادي، ضمن مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص: 308.

2 Theo van Leeuwen, Discourse and practice, p: 12.

3 Ibid, p: 18.

4 Ibid, p: 17.

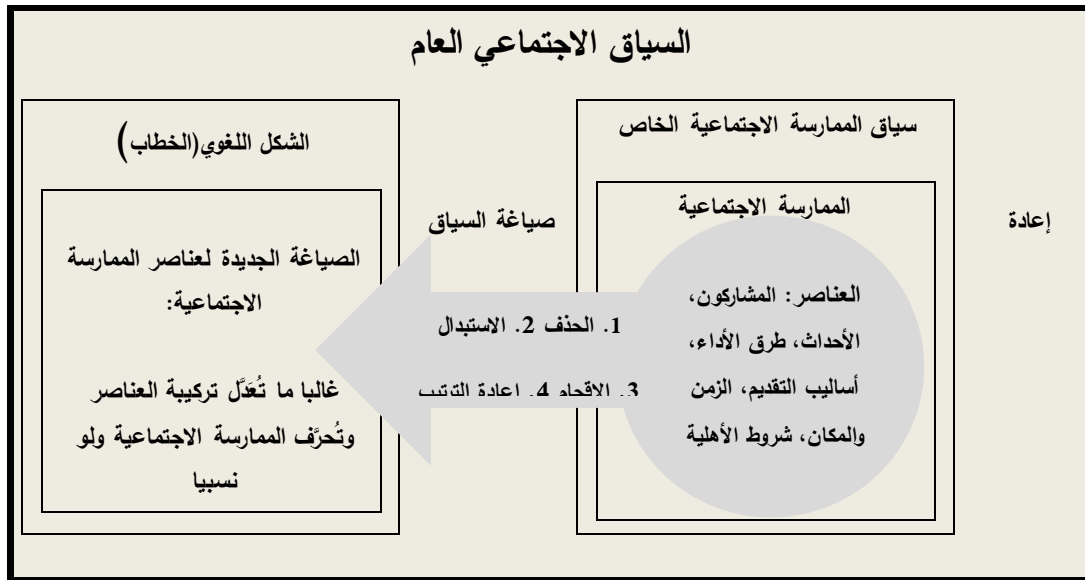
5 Ibid, p: 17.

6 Ibid, p: 17.

والاستخدامات اللغوية المعتمدة في ذلك فلا حصر لها، على سبيل المثال: التأسيم، والتعدية واللزوم، والإضمار، والاستعارة النحوية، وغير ذلك.

علاقةً بتصورات ثنائية الشكل والممارسة، يتضح أن توجه فان لوفين لا صلة له بتصور فيركلف القائم على علاقة التأثير والتأثر المتبادل؛ إذ لا يذكر للممارسة أي تأثير على الشكل. كما أن تصوره بعيد كل البعد عن توسط الإدراك الاجتماعي الذي دعا إليه فان دايك، ويناقض أيضا سيغفريد ياغر وفلورينتين ماير حين يدعيان أن الشكل هو الواقع، وأن الممارسة هي الخطاب.

وسيرا على نهج التبسيط لكل التصورات الواردة بخصوص ثنائية الشكل والممارسة في مناهج التحليل النقدي للخطاب، يقدم البحث مخططا لتصور فان لوفين لهذه العلاقة:



الشكل رقم (08): إعادة صياغة السياق وتحويل الممارسة إلى شكل لغوي حسب منهج الفاعل الاجتماعي

من بين كل عناصر الممارسة الاجتماعية المذكورة أعلاه، يركز فان لوفين على دراسة تمثيل عنصر المشاركين ويفرط في ذلك؛ وليس هذا بغريب بالنظر إلى المسمى الذي أطلقه على منهجه هذا في التحليل النقدي للخطاب (الفاعل الاجتماعي Social Actor)¹. غير أن الملاحظ على تصنيفه لطرق تمثيل المشاركين، وتحليله، هو أنه ميز بين التمثيل اللساني وطرق تمثيلية أخرى: استبعاد الفاعل الاجتماعي²، سوء توزيع الأدوار³، التعميم والتجريد¹،

1 Theo van Leeuwen, The representation of social actors, pp: 32-70.

2 Theo van Leeuwen, Discourse and practice, p: 28.

3 Ibid, p: 32.

الاستيعاب²، الجمع والتفكيك³، عدم التحديد والتمييز⁴، التأسيم والتفئية⁵، التوظيف وتحديد الهوية⁶، الشخصنة وانتحال الشخصية⁷، الإفراط في التعريف⁸، التعميم والتخصيص⁹.

يرى هنا أن هذه الطرق التمثيلية أساليب اجتماعية ومنها يجب أن ينطلق النقد اللساني لتمثيل الفاعل الاجتماعي¹⁰. لذلك فهو يعلن صراحة أنه يخالف كل رواد التحليل النقدي للخطاب ويعكس منهجية النقد، أي إنه يستهل تحليل التمثيل بكشف حالات التمثيل الاجتماعي (استراتيجيات الخطاب) ثم يتردد إلى دلالتها اللسانية¹¹.

يمكن الاتفاق مع فان لوفين بخصوص مفهوم الخطاب في إطار منهج الفاعل الاجتماعي، إذ يظل وفيًا للمنطلق اللساني؛ ثم اعتباره الشكل متحكماً في تصوير الممارسة الاجتماعية ونقلها. أضف إلى ذلك مسألة إعادة صياغة السياق، بحيث إن الخطاب بوصفه شكلاً لغوياً ينبني بالفعل على أساس حيثيات ممارسة اجتماعية ما، ولا يمكن أن تُتقل بكل وفاء، بل إن صناعات الخطابات -خاصة السلطوية والمتلاعبة والعنصرية والسياسية- يعيدون البناء وفق مرجعياتهم الأيديولوجية وانتماءاتهم الفكرية والعقدية والسياسية.

من ناحية أخرى، يمكن الاختلاف مع فان لوفين بخصوص مجموعة أفكار، أولاًها هي تعريفه للفاعل الاجتماعي، فليس من الممكن أن يكون دائماً مشاركاً فاعلاً ونشطاً باللغة أو بغير اللغة، فالجماهير والمؤسسات نفسها فواعل اجتماعية. لذا من الأنسب الحديث عن مفهوم الفاعلية الاجتماعية بدل الفاعل الاجتماعي، آنئذ يُنظر من يقوم بهذا الدور. قد يكون من تُسبب

1 Theo van Leeuwen, Discourse and practice, p: 35.

2 Ibid, p: 37.

3 Ibid, p: 38.

4 Ibid, p: 39.

5 Ibid, p: 40.

6 Ibid, p: 42.

7 Ibid, p: 46.

8 Ibid, p: 47.

9 Ibid, p: 46.

10 Ibid, p: 23.

11 Ibid, p: 23.

إليهم الفاعلية الاجتماعية حقيقة مشاركين غير نشطين أو سلبيين، أي لا يفعلون ولا يتكلمون، ولكنهم مؤثرون بفعل مكانتهم الاعتبارية والرمزية اجتماعيا، أو مواقعهم أو سيرهم الاجتماعية.

في هذه المرحلة تحديدا، لا بد من الإشارة إلى أن فان لوفين يميز بين الفاعل الاجتماعي في الممارسة الاجتماعية والفاعل النحوي في الشكل؛ لكن ألا يكون هذا التمييز تشبيها لهوة فاصلة بين الفاعلين؟ تعتقد هذه الأطروحة أن الأمر كذلك، خصوصا أن الخطاب يمثل الفواعل الاجتماعية نحويا، بل الممارسة الاجتماعية برمتها. من هنا، تقدم الأطروحة مفهوما بديلا هو في الأصل جمع بين ما يسميه فان لوفين بالفاعل النحوي وما يدعي أنه الفاعل الاجتماعي؛ فبما أن هذين النمطين من الفواعل يلتقيان ويُجسدان تجسيدا واحدا على صعيد الشكل/الخطاب، فإن المسمى الذي يبدو ملائما لهذا التجسيد هو "**الفاعل الخطابي**"¹، وسيُشار بهذا المفهوم دائما -في هذه الأطروحة- إلى التمثيل اللساني للفاعل الاجتماعي بواسطة الفاعل النحوي.

مما سبق من حديث عن الشكل والممارسة عند فان لوفين، يتضح أنه بالفعل يُثبت القيمة التأثيرية للشكل في الممارسة، إلا أنه لا يُثبت أي تأثير للممارسة على الشكل. وهذا رأي تتبناه الأطروحة وستعتمده في ما سيأتي من فصول.

أشير آنفا إلى أن فان لوفين -وعلى خلاف كل مناهج التحليل النقدي للخطاب- يستهل النقد اللساني للخطاب من مناقشة الطرق التمثيلية الاجتماعية، ثم يلتفت إلى ما يُعادلها ويمثلها من الاختيارات والاستخدامات اللسانية. في هذه النقطة بالذات، يمكن تبني العكس؛ وتدعي الأطروحة أنه من شأن تأخير نقد الاستخدامات اللسانية أن يضيع فرص القبض على أجزاء من الممارسة الاجتماعية، أو ممارسات اجتماعية أخرى؛ كما يمكن أن يغفل التحليل في هذه الحالة عن نقد بعض الدلائل اللسانية التي قد تقود إلى ممارسات أكثر تكريسا للسلطة والتحكم والهيمنة والتلاعب.

ما يمكن تسجيله على منهج فان لوفين من إغفال لعناصر مهمة في عملية النقد اللساني للخطاب، هو مستقبل التأثير. القصد هنا هو أنه يُعنى فقط بتحليل الشكل وكيفية إعادة

1 تقترح الأطروحة هذا المفهوم الجامع بين الفاعل الاجتماعي والفاعل النحوي كلما كان الحديث عن قضية من القضايا المتعلقة بتحليل الخطاب/الشكل في الفصول والفقرات والأمثلة المقبلة.

صياغته للممارسة، دونما أي اكتراث بالتأثيرات المحتملة على المشاركين في الممارسة الاجتماعية، أو على جمهور سياقها الخاص، أو جمهور السياق الاجتماعي العام.

5. الشكل تناص تاريخي للخطابات:

تتبنى روث فوداك ومارتن ريزيغل في المنهج التاريخي الناقد للخطاب مفهوم الخطاب اللساني، أي استخدام اللغة بشكلها المنطوق والمكتوب، وتضيفان أنه نوع من أنواع الممارسات الاجتماعية¹. وقد دعمتا هذا التبنى باتفاقهما مع تصور نورمان فيركلف للغة بوصفها ممارسة اجتماعية. وبذلك فمفهوم الخطاب عندهما ما هو إلا امتداد لمفهومه عند فيركلف كما سبقت إليه الإشارة؛ إذ ورد في مدخل هذه الأطروحة وبداية هذا الفصل أن الخطاب عند فيركلف هو استخدام فعلي للغة في سياق اجتماعي لتحقيق غرض أو أغراض معينة.

إلا أن الباحثين تقدمان رؤية مغايرة بخصوص طرق تشكل الخطاب، بحيث تعدانه تضافرا لممارسات لغوية وسيميائية عديدة تستند إلى السياق بوجه خاص، وتتأطر ضمن مسارات عدة من الأحداث الاجتماعية². لذلك فالخطاب عندهما ليس بنية مغلقة، وإنما هو بناء منفتح وحيوي وممتد³، ويتوسط بين النص والأحداث الاجتماعية⁴.

تصور الخطاب المنفتح والحيوي والممتد نابع من كون هذا المنهج التاريخي يقوم بالأساس على مفهوم التناص الخطابى التاريخى⁵، والقصد أن الخطاب مؤلف من عناصر مختلفة: النصوص، والمنطوقات، والمتغيرات الاجتماعية؛ وتسميان تعدد العناصر المختلفة في الخطاب بالتداخل الخطابى⁶. ومعنى ذلك أن الخطاب مجال لالتقاء خطابات أخرى سابقة وآنية ولاحقة، أو على الأقل بعض عناصرها.

في التحليل النقدي، ينطلق المنهج التاريخي من طرح السؤال الآتي: كيف تتغير الخطابات نتيجة للتحويلات الاجتماعية⁷؟ تجيب رائدنا هذا المنهج بأن الأمر يتم من خلال

1 روث فوداك وميشيل مايبير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص: 26.

2 المرجع السابق، ص: 185.

3 المرجع السابق، ص: 185.

4 المرجع السابق، ص: 186.

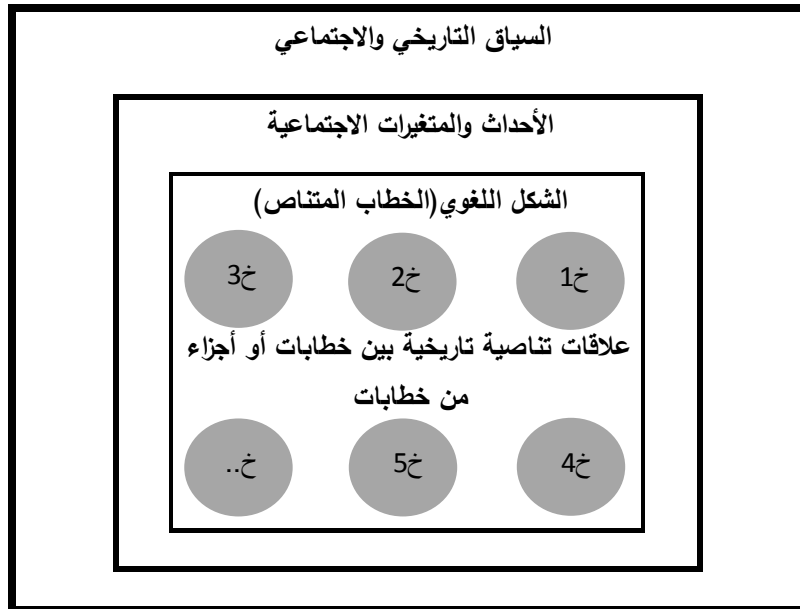
5 المرجع السابق، ص: 186.

6 المرجع السابق، ص: 187.

7 المرجع السابق، ص: 186.

استراتيجيتين كبيرتين: إعادة صياغة السياق، ثم إلغاء السياق. ويجب أن لا يفهم من إعادة صياغة السياق ما تعنيه في **منهج الفاعل الاجتماعي** عند فان لوفين، بل إن المقصود هنا هو إعادة صياغة السياق اللغوي للخطاب، وليس سياق الممارسة الاجتماعية. وكل ذلك يتم في نظرهما على صعيد التناس، بحيث إن نصوصاً أخرى أو أجزاء أو عناصر منها تمتد وتلتقي في نص آخر يكون مادة الممارسة الخطابية الشفهية أو المكتوبة¹. أما إلغاء السياق، فمعناه أخذ عنصر معين من سياق لغوي خطابي معين، وإدراجه ضمن سياق جديد²؛ مما يفيد أن إلغاء السياق يسبق إعادة صياغة السياق، ولكنهما ينتهيان معا في شكل خطابي متناس في نهاية المطاف.

هنا، يمكن تبسيط هذا التصور من خلال الخطاطة الآتية:



شكل رقم (09) الخطاب بوصفه شكلا لغويا تتعالق فيه نصوص تاريخية

مما سبق، يظهر أن التوجه التاريخي للخطاب يُعنى قبل كل شيء بتفكيك التناس اللغوي للخطاب، أي يدرس مسارات قيام الخطاب بوصفه شكلا لغويا موظفا في السياق التاريخي والاجتماعي. من هنا فإن فوداك وريزيغل تقدمان طريقة التحليل النقدي لديهما بأنها تتلخص في أربعة إجراءات رئيسية³:

1 روث فوداك وميشيل مايبير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص: 186.

2 المرجع السابق، ص: 187.

3 المرجع السابق، ص: 191.

- . تحليل اللغة أو المحتوى الداخلي للسياق اللغوي
- . تحليل علاقات التناص
- . تحليل المتغيرات الاجتماعية
- . استحضار السياق التاريخي والاجتماعي

أول ما يبدو ضروريا أن تُناقش فيه فوداك وريزيغل هو تركيزهما على مفهومين آخرين في الإشارة إلى الممارسة الاجتماعية، وهما المتغيرات والأحداث الاجتماعية؛ إذ لا يرد لديهما مفهوم الممارسة الاجتماعية، ولكن ما اعتمدتهما (الأحداث والمتغيرات) يندرج ضمن الممارسة الاجتماعية. وما يعزز إغفالهما لهذا المفهوم الوارد لدى كل مناهج التحليل النقدي للخطاب، هو أن منهجهما لا يولي تحليل الممارسة الاجتماعية أية أهمية، أو على الأرجح أنهما لا تُعنيان بالعلاقة بين تأثير الخطاب وتأثره.

إن ما يجعل تحليل الممارسة الاجتماعية في علاقتها بالاختيارات اللغوية في هذا المنهج، هو عناية صاحبيه فقط بالبحث عن أصول الخطاب اللغوية، وتتبع المسارات التاريخية للنصوص والدلائل اللغوية وغير اللغوية التي تضافرت وانصهرت فيه؛ لذلك فتحليل الخطاب وفق هذا المنهج -في نظر هذه الأطروحة- يبقى تحليلا غير متماسك، بحيث لا يفي بشروط البحث الذي يحقق أهداف التحليل النقدي للخطاب، وخصوصا نقد الاختيارات اللغوية الرامية إلى الهيمنة والسلطة والتحكم والتلاعب. وبدلا من ذلك، فإن عمله يقتصر على الكشف عن شبكات النصوص وتداخله التاريخي.

6. الشكل مصدر التفسير:

الحديث هنا عن منهج دراسات الخطاب بمساعدة المدونات، الذي يُعرف عالميا بالمسمى الإنجليزي (Corpus-Assisted Discourse Studies)¹، أو ما يسمى عربيا في التحليل النقدي للخطاب بمنهج لسانيات المدونات. لابد أولا من التمييز بين مفهومين مختلفين يدل عليهما مصطلح لسانيات المدونات:

الأول هو كونها فرعا من فروع اللسانيات التطبيقية، يُعنى بدراسة الظواهر اللغوية وصفيا كليا استعانةً بالبرامج الحاسوبية التي تمكن من الغوص في مدونات لغوية من آلاف أو

1 يُشار عادة إلى هذا المسمى بالاختصار الآتي: C.A.D.S.

ملايين الكلمات؛ وذلك قصد رصد الاستخدامات اللغوية الأكثر تكرارا، والتصاحبات/التلازمات المعجمية والدلالية والتركيبية، بالإضافة إلى تتبع مسارات الاشتقاقات، والكلمات المفتاحية الدالة والأكثر ورودا¹. والهدف من هذا البحث الحاسوبي العميق في المدونات الضخمة هو تحصيل معرفة تقنية بخصوص استخدامات العقل البشري للغة، وتفسير الظواهر اللغوية من خلال سياقات ورودها.

المفهوم الثاني الذي يعنيه مصطلح لسانيات المدونات هو ما يهيم هذه الأطروحة، وهو منهج دراسات الخطاب بمساعدة المدونات. يقوم المحلل الناقد للخطاب وفق هذا المنهج باعتماد مدونة لغوية ضخمة، سواء أكانت مدونة مرجعية معدة مسبقا من قبل بعض المؤسسات، أم مدونة شخصية يعدها الباحث بنفسه وفق القضايا اللغوية التي يزمع دراستها، والأسئلة البحثية التي ينطلق منها².

تضم المدونات عادة عددا ضخما من النصوص المؤطرة في مجال الموضوع الذي يبحث فيه، ثم يضع الباحث أسئلته البحثية في مقدمة عمله. بعد ذلك يبحث بمساعدة الحاسوب عن نسب الورد والتكرار والكلمات الدالة ومشتقاتها وتصاحباتها المعجمية والتركيبية والدلالية، فيقدم برنامج الحاسوب المعتمد إحصاءات تفيد نسبا مئوية معينة، وتعكس دلالات اجتماعية لا بد للمحلل الناقد من تفسيرها من خلال تجربته مستندا إلى السياق الاجتماعي³.

وحسب هارد مونتير الرائد الأول لهذا المنهج، فإن البرمجيات المستخدمة في مثل هذه الدراسات توفر: "كلا من المنظورات الكمية والنوعية حول البيانات النصية. بما توفره من عرض تكرارات وقياسات ذات أهمية إحصائية، وبما تقدمه من مستخلصات بيانات تمكن الباحث من تقييم تكرارات لفظية فريدة ضمن كلمات البحث والفحص النوعي لبيئاتها المصاحبة، ووصف الأنماط الدلالية البارزة، والتعرف على وظائف الخطاب"⁴.

1 Baker–Paul, Using Corpora in Discourse Analysis, London: Continuum, 2006, pp: 10–12

McEnry and Welson, 1996: Corpus Linguistics, Edinburgh University press, p: 01

2 هارد مونتير، فحوص وتوازنات: كيف تضيف المدونات اللغوية إلى التحليل النقدي للخطاب، ص: 279.

3 Baker–Paul, Using Corpora in Discourse Analysis, London: Continuum, 2006, pp 10

4 هارد مونتير، فحوص وتوازنات: كيف تضيف المدونات اللغوية إلى التحليل النقدي للخطاب؟ ص: 263.

يتلخص إذن، دور المحلل الناقد للخطاب وفق منهج لسانيات المدونات في استثمار نتائج البحث الحاسوبي الكمي في المدونة اللغوية، ليقدم تويلاً كيفياً يعل من خلاله تعبير النسب المئوية والمعدلات المحصلة عن مظاهر السلطة والتحكم والهيمنة. أي إن الحاسوب يتكفل بالجانب التقني حيث يستخرج الاستخدامات اللغوية الأكثر حضوراً، وسياقات ووردها، وأنماط الصيغ والمفردات والأساليب التي تلازمها في كل ظهور. بمعنى أن الهدف من: "مقاربة دراسات الخطاب بمساعدة الحاسوب هو الكشف، في نوع الخطاب قيد الدراسة، عما يمكن أن نسميه بالمعنى المضمر، المعنى الذي قد لا يكون متاحاً بيسر للاطلاع عليه بالعين المجردة"¹. وذلك من خلال التوفيق بين المقاربة الكمية والمقاربة النوعية².

ومن الأعمال الأولى التي أعلنت نشأة منهج دراسات الخطاب بمساعدة المدونات في التحليل النقدي للخطاب يُذكر: الرائد الأول (هارد موتر 1995)³ ومايكل ستابس (2001⁴ و1996⁵). ثم ظهرت أبحاث جادة أخرى في هذا المجال على يد باحثين اشتغلوا - في إيطاليا على وجه الخصوص - بشكل فردي مثل ألان بارتنتون كالأبحاث التي أنجزت على مدونة الصحف (*Newspool*)⁶، أو بشكل جماعي تشاركي كأبحاث حلقة معلومات البحث والتطوير المجتمعي (*Cordis*)، بزعامة (جون مورلي)⁷¹. بالإضافة إلى جهود كل من ويلسون ماكينري وخاصة (ماكينري 1996)²، وبول بايكر (2006)³.

1 ألان بارتنتون، الكرسي والآلة: أبحاث الخطاب بمساعدة المدونات، ترجمة محمد يطاوي، مجلة خطابات، العدد الثالث، الجزائر، 2021، ص.ص: 337-362.

2 المرجع السابق، ص.ص: 337-362.

3 Hardt-Mautner, Gerlinde, 'Only Connect'. Critical discourse analysis and corpus linguistics. University of Lancaster, 1995.

Online <www.comp.lancs.ac.uk/computing/research/ucrel/tech_papers.html>

4 Stubbs, Michael, Words and Phrases: Corpus Studies of Lexical Semantics. Oxford: Blackwell, 2001.

5 Stubbs, Michael, Text and Corpus Analysis. Oxford: Blackwell, 1996.

6 Partington, Alan / Morley, John / Haarman, Louann (eds) 2004. Corpora and Discourse. Bern: Peter Lang, 2004.

7 Morley, John / Bayley, Paul (eds) forthcoming. Wordings of War: Corpus-Assisted Discourse Studies on the Iraq War. London: Routledge.

يظهر جليا أن منهج دراسات الخطاب بمساعدة المدونات يولي الأهمية القصوى وبالدرجة الأولى لوصف الشكل، بل إنه ينظر إلى أن الشكل اللغوي(الخطاب) هو مصدر التفسير النقدي لمظاهر السلطة والمعاني المضمرة والمتوارية. وهو بذلك منهج لا تعنيه الممارسة الاجتماعية بحد ذاتها، ولا حتى عناصرها الصغرى والكبرى. ولعل ذلك معزو إلى العمل التقني الذي تشترطه المقاربة الكمية. وإن كان المحلل الناقد ملزم بأن يستفيد من نتائج الإحصاءات في المرحلة الثانية للبحث -المقاربة الكيفية- فإن التأويل يظل لسانيا صرفا دون أية صلة بالعوامل الاجتماعية. إلا أن الجانب الاجتماعي في هذا المنهج لا يظهر حتى نهاية التحليل، حيث تكون النتائج تفسيرات للاختيارات اللغوية ووظائفها السلطوية على صعيد المجتمع.

خلاصة:

تتفق هذه الأطروحة مع منهج دراسات الخطاب بمساعدة المدونات من حيث المبدأ العام الذي يجمع كل مناهج التحليل النقدي للخطاب، وهو كشف الاستخدامات اللغوية غير البريئة والموظفة لممارسة السلطة، وتحقيق أطماع الهيمنة والتلاعب والتضليل. بيد أنها لا تستطيع أن تطبق إجراءاته نظرا لصعوبة الحصول على البرامج الحاسوبية المعتمدة في تحليل المدونات، وإن كانت مغرية في الحقيقة. وتجدر الإشارة إلى أن الساحة الأكاديمية العربية تتوفر -لحد الآن- على برنامج واحد من صناعة عربية خالصة، يستطيع أن يقوم بمهمة هذا المنهج على أكمل وجه، وهو برنامج "غَوَاص"⁴ الذي يُعرف كذلك بالاختصار (ACPTs): "The Arabic Corpus Processing Tools"

1 المعطيات الواردة في هذه الفقرة منقولة عن: ألان بارتنتغتون، الكرسي والآلة: أبحاث الخطاب بمساعدة المدونات، ترجمة محمد يطاوي، مجلة خطابات، العدد الثالث، الجزائر، 2021، ص.ص: 326-337.

2 Mcentry and Welson, Corpus Linguistics, Edinburgh University press, 1996.

3 Baker-Paul, Using Corpora in Discourse Analysis, London: Continuum, 2006.

4 أنشئ برنامج(غواص) بمدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية(KACST) سنة 2012 بالمملكة العربية السعودية لأول مرة. ثم أُدخلت عليه تعديلات وتطور خلال أربع سنوات وتحديدا في نهاية 2015، ومن الباحثين العرب الذين شاركوا في تطويره: عبد المحسن الثبيتي، ومنال المزروع، ومرام الموسى، ومروة خان وآخرون. ولذلك توجد منه خمس نسخ: النسخة الأولى، النسخة (1.2.4)، النسخة (2.0)، النسخة (4.0)، النسخة (4.6).

للاستزادة حول برنامج (غواص) يُنظر: أيمن الذكورري، المدونات اللغوية ودورها في معالجة النصوص العربية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، المملكة العربية السعودية، الرياض، 1، 2018، ص.ص: 123-126.

من جهة أخرى، تستخلص الأطروحة بعد الاطلاع على مواقف رواد التحليل النقدي للخطاب، مجموعةً من الأفكار التي ستتناها في البابين المقبلين مبادئً أساسيةً لبناء المقاربة اللسانية الحجاجية. ومن هذه الأفكار ما يعكس اتفاقاً مع بعض الآراء الواردة في هذا الفصل، ومنها ما هو تجاوز أو تعديل أو تكييف لها حتى تفي بمطلب الالتزام بالإجراءات اللسانية الصرفة:

- **النص** في نظر الأطروحة بناء لغوي قائم على أساس اختيارات لغوية ذات أغراض محددة مسبقاً لا تتحقق إلا من خلال التفاعل الخطابية.
- تتفق الأطروحة مع فيركلف بخصوص **مفهوم الخطاب** بوصفه استخداماً فعلياً مادياً للغة في سياق اجتماعي لأداء وظائف سلطوية. لكنها تختلف مع اعتباره الخطاب ممارسة اجتماعية - من الناحية اللسانية - كسائر الممارسات الاجتماعية الأخرى.
- العلامات السيميائية على اختلاف أنماطها لا تدخل في النص، وإنما هي جزء من التفاعل الحقيقي في أنواع **الخطابات الشفهية التخاطبية والخطابية**.
- تعتمد الأطروحة **مفهوم الممارسة الاجتماعية**، إلا أنها تعتبرها: حدثاً أو مجموعة أحداث وقعت، أو تقع في سياقه الاجتماعي المشروط والمحدد، والمتصل بالخطاب وموضوعه وأغراضه وأهدافه السلطوية.
- تُطلق الأطروحة **مفهوم الشكل** لتقصد به البناء اللغوي، أو المادة اللغوية للخطاب، وأكثر تحديداً: الخرج النهائي للخطاب كما وُظف في سياق الممارسة الاجتماعية. كما لا تعتمد مفهوم البناء أو الأبنية في الإشارة إلى الممارسات الاجتماعية وكل ما هو اجتماعي. وبذلك فهي تتجاوز كون الشكل هو الواقع كما في المنهج التنظيمي.
- لا ترى الأطروحة أية علاقة جدلية بين الخطاب والمجتمع كما يدعي فيركلف، وإنما تتبنى طرحة مغايراً: بين الخطاب والممارسة الاجتماعية **علاقة تأثير عمودية من الخطاب إلى المجتمع**.
- يُعنى فان لوفين بتحليل طرق نقل عناصر الممارسة الاجتماعية إلى الخطاب بشكل معكوس، وتُعنى هذه الأطروحة **باستهداف الخطاب لعناصر الممارسة الاجتماعية**.
- تستعير الأطروحة **مفهوم الإدراك الاجتماعي** من منهج فان دايك، ولكن لا ترى أنه ذا قدرة على إعادة صياغة الممارسة الاجتماعية، بل هو منفذ من منافذ الهيمنة على الجمهور، من خلال إيلاء قيمة إيجابية أو سلبية للمعرفة المشاعة بين فئاته وأفراده.

- لن تتبع الأطروحة مسار التحليل عند فان دايك الذي يهتم كثيرا بالاستراتيجيات الخطابية المجردة، وإنما ترى أن الاستراتيجيات الخطابية لا تتحقق إلا من خلال الخيارات اللسانية الدقيقة.
- لا وجود في نظر هذه الأطروحة لممارسات غير خطابية كما يرى ياغر ومايير في المنهج التنظيمي، بل كل ما يأتي في التفاعل الخطابي هو عنصر من عناصر الممارسة الخطابية، وإن لم يكن لغويا.
- تتبنى الأطروحة القيمة التركيبية للخطاب كما عند فان لوفين، ولكن في نمط الخطابات الشفهية حيث يتفاعل النص والخطاب والأداء والاستراتيجيات.
- تستعير الأطروحة من منهج فان لوفين مفهوم إعادة صياغة السياق، ولكن في نمط الخطابات السلطوية التي تركز التضميل والتلاعب على وجه خاص.
- تقترح الأطروحة مفهوم الفاعلية الاجتماعية بدل مفهوم الفاعل أو الفواعل الاجتماعيين كما عند فان لوفين، على اعتبار أن الفاعل قد يكون مشاركين غير آدميين.
- تقترح الأطروحة مفهوم الفاعل الخطابي وتقصد به التمثيل النحوي للفواعل الاجتماعيين.
- ترى الأطروحة أن التناص ليس نتيجة كما عند روث فوداك وريزيل، بل التناص وسيلة مقصودة لتمثيل المقصودات السلطوية.
- تعتمد الأطروحة مفهوم إلغاء السياق على نحو مخالف للمنهج التاريخي، وتعني به إخراج عنصر اجتماعي أو أكثر من سياقه الحقيقي.

الفصل الثاني

التجسيد النحوي للسلطة في الخطاب

تمهيد

1. اللزوم والتعدية مظهر سلطوي
2. الإحالة وتبرئة الذات بالبناء للمجهول
3. التلاعب بالفاعلية النحوية والخطابية
4. حفظ الموقع بنوع الجملة
5. إقصاء الآخر بالاستدراك والظرف الفجائي

خلاصة

تمهيد:

غاية هذا الفصل هي بيان التأثير المباشر والعمودي للشكل في الممارسة الاجتماعية بكشف طرق تمثيل مظاهر السلطة والهيمنة والتحكم في الخطاب بالخيارات اللسانية المخصصة والمختارة قصداً، وذلك بالتركيز على المستوى النحوي، وتحديد المسائل الآتية: للزوم والتعدية، والبناء للمجهول، والفاعلية النحوية والخطابية، ونوع الجملة، والاستدراك.

وكما أُعلن في تقديم هذا الباب الثاني، فإن الاشتغال في هذا المستوى ينصب على تبسيط كفاءات تمثيل الأَطماع السلطوية والأيدولوجية، مع تقديم نموذج لنقدها لسانيا في إطار المقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة. وقد اختار البحث لذلك أمثلة من مجالين في هذا الفصل، وهما الخطاب الاقتصادي والخطاب السياسي. وهي أمثلة مقتبسة من سياقات اجتماعية وأحياء جغرافية مختلفة، كخطاب الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب، وخطاب الرئيس العراقي برهم صالح إبان احتجاجات أكتوبر 2019، وخطاب مديرة صندوق النقد الدولي في مؤتمر دعم الشعب اللبناني، والتقرير السنوي لصندوق النقد الدولي لسنة 2020.

العلة التي اختيرت على أساسها هذه الخطابات هي كونها تتضمن بالفعل مظاهر صارخة للممارسة السلطوية على صعيد الخطاب، ثم اشتمالها على نماذج نحوية تستند إلى مرجعيات أيديولوجية، وتتوخى الهيمنة والسيطرة. كما أنها تعرف حضوراً بارزاً لدور الاستراتيجيات الخطابية التي تؤديها الاستخدامات النحوية، من قبيل إقصاء الآخر، تقديم الذات إيجاباً، تقديم الآخر سلباً، تبرئة الذات، إلغاء الفاعل الحقيقي وتقمص أدواره، وغيرها.

1. اللزوم والتعدية مظهر سلطوي:

1.1 تمثيل التعدية للقدرة والإدانة:

يركز البحث في هذه المحطة المتعلقة باللزوم والتعدية على الأفعال المتصرفة في أحد الأزمنة الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل. ولا يشمل الأفعال الموظفة في صيغتي الأمر والنهي لأنها ستدرس في باب التداول، والأفعال المبنية للمجهول التي سيُخصص لها مبحث منفرد متعلق بالبناء للمجهول في المحور التالي. ويبقى أهم هدف لتحليل عينات التعدية واللزوم هو مساءلة المواضع التي وُظفت فيها الأفعال اللازمة والأخرى التي وُظفت فيها الأفعال المتعدية، وعلاقتها بالفاعل النحوي والاجتماعي.

النموذج الخطابي الذي ينتقيه البحث متنا لدراسة هذه القضية هو خطاب ترامب عند تنصيبه أول مرة¹. لذلك، فمن الضروري هنا تحديد الفواعل التي أُسندت إليها الأفعال اللازمة والمتعدية، لأن طبيعتها وموقعها يُعدان جزءاً من التفسير والنقد لا محالة. ومن خلال متن الخطاب يتضح أن الفاعلين الاجتماعيين الذين يُعنى بهم خطاب ترامب هم خمسة: إدارة ترامب، والإدارة الأمريكية السابقة، والشعب الأمريكي، والشركات والمصانع الأجنبية، والعصابات.

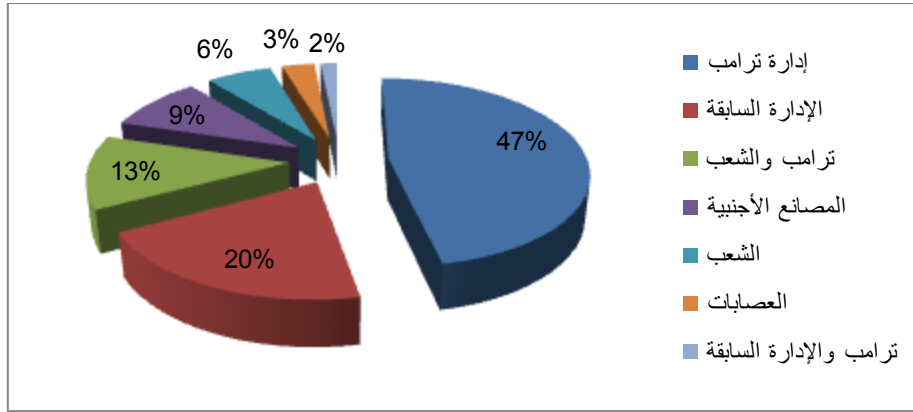
عموماً، وباستثناء أصناف الأفعال والصيغ المستثناة أعلاه، ضم الخطاب 63 فعلاً متعدياً (76.82%) و19 فعلاً لازماً (23.17%)، أي إن المجموع بين التعدية واللزوم وصل 82 فعلاً. وقد جاء 58 من الأفعال المتعدية مثبتة، وخمسة فقط منفية، كما أن عدد الأفعال اللازمة المثبتة بلغ 15 فعلاً، في حين بلغت الأفعال اللازمة المنفية أربعة أفعال.

إن كانت التعدية تعني نحويًا أن الفعل المتعدي يتجاوز الفاعل ويصل إلى مفعول به فيعمل فيهما معاً، فإنها تعني حسب المقاربة اللسانية الحاجية المقترحة في التحليل النقدي للخطاب -في إطار هذه الأطروحة- أن الفعل المتعدي المسند إلى فاعل اجتماعي ما يحقق ممارسة اجتماعية ما أو إنجازاً ما اجتماعياً، وأن قيمة هذا الفاعل الاجتماعي تتحدد بمحددتين: الأول هو هل هذا الفعل المسند إليه متعدّد أم لازم؟ والثاني هو إن كان هذا الفعل متعدياً هل المفعول/الإنجاز الذي وصل إليه وحققه إيجابي ومغزٍ أم إنه سلبي وذو قيمة عكسية؟ أما عن المفعول/الإنجاز، فهناك محدد ثالث، وهو: ما طبيعته؟ هل هو إنجاز يُحسب للفاعل الاجتماعي وذو قيمة خطابية واجتماعية؟ أم إنه إنجاز ذو قيمة سلبية يُحتسب ضده؟ أما عن اللزوم، فإن كان يعني نحويًا عدم تجاوز الفعل للفاعل، فإنها تعني حسب المقاربة اللسانية الحاجية المقترحة، أن الفاعل الاجتماعي الذي أُسند إليه الفعل عاجز وغير قادر على تحقيق أي شيء ذي قيمة.

1 رابط خطاب الرئيس دونالد ترامب في يوم تنصيبه بتاريخ 20/01/2017. آخر مراجعة: 2021/8/5:

<https://arabi21.com/story/979594/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B5%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%A7%D9%85%D9%84%D9%84%D8%AE%D8%B7%D8%A7%D8%A8%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D9%85%D8%A8%D8%AE%D9%84%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D9%85%D8%AA%D9%86%D8%B5%D9%8A%D8%8%D9%87%D8%B1%D8%A6%D9%8A%D8%B3%D8%A7>

من خلال قراءة فاحصة وإحصائية للأفعال المتعدية المسندة إلى الفاعلين الاجتماعيين المذكورين أعلاه، يتضح أن هناك فرقا شاسعا في عددها المسند إلى كل فاعل، ويوضح الرسم البياني رقم (2) هذا الفرق بجلاء:



شكل رقم (10): نسبة الأفعال المتعدية المسندة إلى الفاعلين الاجتماعيين في خطاب تنصيب ترامب

يمثل الرسم البياني نسبة الأفعال المسندة إلى كل فاعل اجتماعي، منفردا أو بالاشتراك في الفعل مع فاعل اجتماعي آخر. ويوضح أن إدارة ترامب قد نالت أعلى نسبة (47%) من مجموع الأفعال المتعدية، مما يعني أن ترامب وهو يلقي الخطاب يعدد الإنجازات التي يعد بها أمريكا. في حين أن الإدارة السابقة لم تتل في الخطاب إلا نسبة (20%) من مجموع الأفعال المتعدية، وبمقارنة بسيطة يظهر أن ملقي الخطاب يدعي أن الإدارة السابقة لم تقدم إنجازات مهمة أو نافعة. المقصود بالإنجاز هنا هو العمل الذي يمثله وصول الفعل إلى المفعول به، فقد أشار نورمان فيركلف في السؤال الخامس من الأسئلة العشرة التي طرحها لدراسة المستوى النحوي¹، إلى أن البنية (فعل+فاعل+مفعول: أي جملة الفعل المتعدي) تعني أن الفاعل قد أنجز عملا ما منسوبا إليه دون غيره؛ وذلك على عكس البنية (فعل+ نائب فاعل أو فعل + فاعل: أي البناء للمجهول والفعل اللازم) التي تعني أن هناك حدثا ما قد وقع، أو وصفا ما قد أُخبر به². بالعودة إلى الخطاب المدروس، يتضح أن الإنجازات/المفاعيل التي تخص الإدارة السابقة (إدارة أوباما) الممثلة لنسبة (20%) فقط من الأفعال المتعدية الواردة فيه، لم يكن ولو

1 انظر الصفحة رقم () من هذا البحث، وانظر أيضا: نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص.ص: 155-190.

2 انظر السؤال الخامس وما تحته في: نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص.ص: 165-170.

إنجاز واحد منها إيجابيا؛ معنى ذلك أن ما تعدت إليه الأفعال المسندة إلى الفاعل الاجتماعي المسمى بالإدارة السابقة كله كان سلبيا، وهي عشر إنجازا توزعت كما يلي:

الصناعة والدفاع وحماية الشعب	الفقر والتعليم	المصلحة الخاصة
إثراء الصناعة الخارجية على حساب الصناعة الأمريكية	يحصروهم الفقر في مدن الداخل	حمت المؤسسة نفسها
الدعم المالي لجيوش دول أخرى		
التدهور المحزن جدا لجيشنا		
دافعت عن حدود دول أخرى	نظام تعليمي يمتلك الكثير من المال	ترك شبابنا وطلابنا الرائعين محرومين من المعرفة
رفضت الدفاع عن حدودنا		
أنفقت تريليونات وتريليونات الدولارات في الخارج		
جعلت دولاً أخرى غنية	ترك شبابنا وطلابنا الرائعين محرومين من المعرفة	ترك شبابنا وطلابنا الرائعين محرومين من المعرفة
لم تحم المؤسسة مواطني بلدنا		
لا يفعلون شيئا لعلاج ذلك		

جدول رقم (02): مفاعيل الأفعال المتعدية المسندة إلى إدارة أوباما

حتى نسبة (20%) من الأفعال المتعدية المسندة إلى الإدارة السابقة، والتي تعني مبدئياً أن الفاعل الاجتماعي قد حقق إنجازات ما، لم تكن في صالح هذا الفاعل الاجتماعي والشعب؛ بحيث إنها كلها إنجازات/مفاعيل ضد مصالح الشعب الأمريكي والاقتصاد الأمريكي. ففعل متعدّد واحد عكس خدمة الإدارة لمصالحها الخاصة (حمت)، وثلاثة أفعال تمثل انهيار القدرة الاقتصادية للشعب وخراب التعليم (يحصروهم، يمتلك، ترك)، وتسعة أفعال متعدية تمثل إهدار ثروات البلاد في الخارج (دافعت، رفضت، أنفقت، جعلت، لم تحم، لا يفعلون،). مما يعني أن صانع الخطاب قد انتقى الأفعال المتعدية والمفاعيل/الإنجازات الناقدة لمنافسه (الإدارة السابقة). وبخلاف ذلك، تمثل نسبة (47%) من الأفعال المتعدية التي أسندت إلى إدارة ترامب، إنجازات/مفاعيل إيجابية وممارسات اجتماعية خادمة لمصلحة الشعب الأمريكي والولايات المتحدة الأمريكية بصفة عامة. هذه الأفعال هي: نحدد، نواجه، نتحدى، ننجز، نصدر، ستحكم، نحمي، نسعى (مرتين)، سنقود، ستعود، ستفوز، تفعل، نعيد (ثلاث مرات)، سنعيد (ثلاث مرات)، سنبنّي، سنرفع، سننتبع، سنفعل، نناقش، يقول لكم، نفهم، لا نسعى، لن نقبل.

أما عن المفاعيل/الإنجازات التي تعدت إليها هذه الأفعال، فقد شملت حقوق الموظفين والعمال، ومسار أمريكا والعالم المنافس، واستغلال الشركات والمصانع الأجنبية للشعب الأمريكي، والتحديات والصعوبات، والمهمات، والرؤية الجديدة، والحدود، والتضامن، والثروة، وأحلام الشعب، وبناء البلاد، والصداقات، ومصالح الشعب، والخلافات.

إذن، ومن خلال الأفعال المتعدية المسندة إلى إدارة ترامب، والمفاعيل/الإنجازات التي تعدت إليها، يتضح أن التعدية هنا تعني أن الفاعل الاجتماعي الذي أسندت إليه قادر على الفعل والإنجاز الإيجابي والبناء والنافع، على عكس ما أسند إلى منافسه، حيث كانت المفاعيل/الإنجازات كلها سلبية وضد الشعب الأمريكي.

لم يكتفِ خطاب ترامب في إسناده التعدية إلى إدارته بنسبة (47%) فقط، وإنما هناك أفعال متعدية أخرى مسندة بالاشتراك إلى فاعلين اجتماعيين، أولهما إدارة ترامب وثانيهما الشعب الأمريكي، وقد مثلت نسبة (13%) من مجموع الأفعال المتعدية الواردة في الخطاب إجمالاً. ستة من هذه الأفعال عبرت عن قدرة ترامب والشعب على الفعل والإنجاز والتحقيق، أربعة منها (سنجعل أربع مرات) تعدت إلى القوة، والثروة، والفخر، والأمن، واحد منها (سنعيد) تعدت إلى العظمة، وآخر تعدى إلى القلب الواحد، في حين أن فعلاً واحداً (سيحرك) تعدى إلى الروح الوطنية، وفعل أخير (يداوي) تعدى إلى الانقسامات.

بالتأمل في هذه الأفعال ومفاعيلها/إنجازاتها، يتضح أن ترامب يُشرك نفسه والشعب الأمريكي في القدرة على تحقيق منجزات مهمة وإيجابية لم تستطع الإدارة السابقة تحقيقها حسب خطابه. بحيث إن نسبة الأفعال المتعدية التي أسندها إلى نفس -بالجمع بين ما أسند إلى إدارته وما أسند إليه بالاشتراك مع الشعب- تبلغ 60% (47+13).

أما عن المصانع الأجنبية، فقد بلغت الأفعال المتعدية المسندة إليها نسبة (9%)، وهذا لا يعني أنه يشهد لها بأنها قد حققت منجزات إيجابية مفيدة للشعب الأمريكي، بل على العكس، فقد تعدت إلى مفاعيل/إنجازات كلها مضرّة ومهددة له. والجمل التي تضمنت هذه الأفعال هي:

(1/أ) أغلق المصانع أبوابها وغادرت أراضيها.

(1/ب) ملايين العمال الأمريكيين الذين تتركهم وراءها.

(1/ج) الدول الأخرى تصنع منتجاتنا.

(1/د) تسرق شركاتنا.

(1/هـ) تدمر فرصنا الوظيفية.

بالنظر إلى الأفعال المتعدية المذكورة في هذه الجمل، فكلها تعبر عن أعمال مهددة للشعب الأمريكي ومضعفة لأمريكا، وهي: أغلقت، غادرت، تترك، تصنع، تسرق، تدمر. أما المفاعيل التي تعدت إليها فهي: أبوابها، أراضيها، منتجاتها، شركاتها، وفرصنا الوظيفية. مما يعني أن التعدية هنا قد أدت وظيفة خطابية غير تمثيل القدرة على الإنجاز النافع، بل هي قدرة على إنجازات غير صالحة ومعادية للشعب الأمريكي. مما يعني أن صانع الخطاب قادر على أن يتلاعب بالتعدية كيفما شاء، وخصوصا حسب ما يخدم مصالحه ومصالح إدارته ومرجعياته الأيديولوجية.

لقد أسند الخطاب إلى الشعب الأمريكي منفردا أربعة أفعال متعدية حققت نسبة (6%) فقط، ولكنها ذات تأثير إيجابي للغاية، وهي الآتية في المجموعة القادمة:

(1/2) إن صوتكم وآمالكم وأحلامكم ستحدد مصيرنا الأمريكي.

(2/ب) شجاعتكم وطيبتم وحكم سيقودنا دائما طوال الطريق.

(2/ج) الأمريكيون يريدون مدارس عظيمة لأطفالهم.

(2/د) الشعب لم يحصل على حصة من ثروته.

أسند الخطاب إلى الشعب الأمريكي بوصفه فاعلا اجتماعيا في أمثلة المجموعة (2) أربعة أفعال هي: ستحدد، سيقودنا، يريدون، لم يحصل. وهي مجتمعة تعبر عن أربعة أوهام يود صاحب الخطاب ترويجها: قدرة الشعب على تحديد المصير الأمريكي، والقيادة، ثم الإرادة، فعدم حصوله على نصيبه من الثروة. ففي الجملتين الأوليين تمثيل لقدرة الشعب، وفي الثانية والثالثة إدانة للإدارة السابقة بأنها حرمت الشعب من المدارس التي تليق بأبنائه، ومن حقه في ثروة البلاد.

هكذا فالتعدية هنا تمثل استمالة ترامب للشعب من ناحية، وتوريث الإدارة السابقة من ناحية أخرى. ولم تعد تمثل فقط القدرة على الفعل والإنجاز من خلال تجاوز الفعل للفاعل ووصوله للمفعول.

أسند إلى ما سماه خطاب ترامب بالعصابات فعلا متعديا فقط، وقد مثلا نسبة (3%) من مجموع الأفعال المتعدية. هذان الفعلان هما (سرق وحمى):

- (1/3) الجريمة والعصابات والمخدرات التي سُرقت حياة العديدين.
- (3/ب) الجريمة والعصابات والمخدرات حرمت بلادنا من الكثير من المقدرات غير المستغلة.

لا تمثل التعدية هنا القدرة على الفعل والإنجاز الإيجابي، إذ تتوارى الوظيفية النحوية وتظهر بقوة الوظيفة الاجتماعية. بحيث إن جرائم العصابات وترويجها للمخدرات تعدت إلى مفاعيل/إنجازات اجتماعية خطيرة ومهددة لأبناء أمريكا. إلا أن التعدية هنا تمثل إدانة أخرى لإدارة أوباما السابقة، بحيث إنها تصور أبناء الشعب ضحايا لتهاون هذه الإدارة في التعامل مع هذه العصابات. ذلك ما يتجلى تحديدا في نتائج وخيمة اجتماعيا، وهي حرمان أمريكا من قدرات أبنائها ضحايا العصابات، وضياع حياتهم إما بالإدمان أو الموت. واجتمعت إدارة ترامب وإدارة أوباما فقط في جملة واحدة تتضمن فعلا متعديا، وهي:

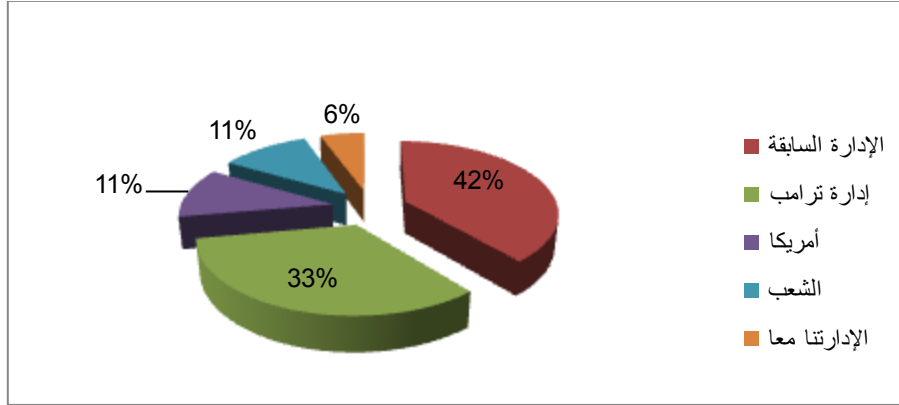
(4) نقوم بالانتقال المنظم والسلمي للسلطة.

على عكس كل الجمل الواردة عن إدارة أوباما السابقة، وبخلاف الأفعال المتعدية المسندة إليها والممثلة لإساءتها لأمريكا والشعب الأمريكي في خطاب ترامب، أُسند فعل واحد ذو طابع سلمي وقيمة إيجابية للإدارة السابقة، وهو (نقوم). وتبرير ذلك أنه فعل تشترك فيه الإدارتان معا، ثم لأنه يمثل اللحظة الآنية والسياق الرئيس لإلقاء خطاب ترامب، وهو حفل تنصيبه رئيسا جديدا.

إن إسناد الفعل المتعدي أو اللازم إذن يبني على أساس المرجع الأيديولوجي، والسلطة المراد ممارستها؛ بحيث إن العفل المتعدي إلى مفعول إيجابي وبناء يُسند فقط إلى المتكلم الطامع في الهيمنة الخطابية، أما الطرف الآخر فلا تُسند إليه إلا الأفعال المتعدية إلى مفاعيل ذات حمولة سلبية أو هادمة، والأفعال اللازمة.

2.1. تمثيل اللزوم للعجز والإدانة:

مثلما لا يستطيع الفعل اللازم تجاوز الفاعل والعمل في المفعول من الناحية النحوية، فذلك يفعل صناعات الخطاب إذا ما أرادوا تمثيل عجز منافسيهم وأعدائهم. فإسناد الفعل اللازم للفاعل الاجتماعي المنافس تمثيل نحوي لممارسة اجتماعية عنوانها العجز عن الفعل. ومن خلال الجرد الإحصائي للأفعال اللازمة في الخطاب والفاعلين الاجتماعيين المسندة إليهم، يظهر أن نصيب كل فاعل اجتماعي جاء على هذه الشاكلة:



شكل رقم (11): نسبة الأفعال اللازمة المسندة إلى الفاعلين الاجتماعيين في خطاب تنصيب ترامب

يظهر أن نسبة الأفعال اللازمة -على عكس المتعدية- المسندة إلى الإدارة السابقة قد كانت أعلى مقارنة مع باقي الفاعلين الاجتماعيين، بمن فيهم ترامب وإدارته بحيث بلغت (42%) من مجموع الأفعال اللازمة الواردة في الخطاب إجمالاً. والملاحظ أن اللزوم قد أُسند بكل دقة فُوِّزعت الأفعال اللازمة المسندة إلى الإدارة السابقة لتمثل ثلاث أحداث حساسة: تحقيق المصلحة الخاصة، العجز، التفريط في أمريكا. ومعنى ذلك أن إسناد الأفعال اللازمة ينفي عن إدارة ترامب القدرة على الإنجاز والعمل، وإنما هو فقط إحداث أحداثٍ. فالفعل اللازم كما سبقت الإشارة -حسب نورمان فيركلف- لا يفيد العمل (ليس نحوياً) وإنما يفيد الحدث فقط¹. وللتأكد من حساسية المعاني التي أفادها إسناد الفعل اللازم، يُنظر الأمثلة أسفله:

(أ/5) ازدهرت واشنطن.

(ب/5) ازدهر السياسيون.

(ج/5) احتفلوا في عاصمة البلاد.

يُسند الفعل اللازم الأول (ازدهر) والفعل اللازم الثاني (احتفل) الازدهار والاحتفال إلى الإدارة الحاكمة فقط، أي إلى أوباما والحزب الديمقراطي الأمريكي، ويستثنى من هذا الازدهار الشعب الأمريكي بكل أطيافه. والقصد من ذلك أن الإدارة السابقة قد سعت إلى تحقيق مصالحها الخاصة دون أي اكتراث بالشعب وبمصالح أمريكا. ويمكن الاستشهاد على ذلك من

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص.ص: 166-167.

منطوق الخطاب نفسه، حيث قال ترامب: "لكن الشعب لم يحصل على حصة من ثروته.. لكن تركت الأعمال وأغلقت المصانع"¹.

يعني هذا أن الأفعال اللازمة هنا لم تمثل العجز، وإنما مثلت الإدانة للإدارة السابقة؛ فإن كان الفعلان لازمان فإنهما يتهمان الفاعل الاجتماعي وبورطانه. أما عن تمثيل العجز، فهناك ثلاثة أفعال لازمة أخرى:

(5)

د. يتحدثون ولا يفعلون

هـ. يشتكون دائما

فالأفعال الثلاثة (يتحدثون، لا يفعلون، يشتكون) جاءت كلها دون مفاعيل، بمعنى أن الفعل يقف عند الفاعل ولا يتجاوزه، وكذلك المعنى المقصود دلاليا واجتماعيا؛ فالقصد هو أن إدارة ترامب تكثر الحديث والوعود ولكنها لا تحقق أي شيء، ولعله الأمر نفسه الذي أكدته الأفعال المتعدية المسندة إليها، فكلها أفعال تعدت إلى مفاعيل/إنجازات مسببة للشعب الأمريكي. ولذلك فهم كثيرو الشكوى والتعليل للبحث عن مخرج من الأزمات. ويتماشى هذا مع نظرة توين فان دايك إلى بناء الجملة، بحيث يرى أن ما يُسند إلى الفاعل أو ما لا يُسند إليه، هو ما يؤكد خطابيا واجتماعيا مسؤوليته عن الفعل أو عدم مسؤوليته عنه²، سواء أكان الفعل إيجابيا الدلالة أم سلبي الدلالة.

في المثال (5/د) فعلان لازمان في هذا الموضع، ولكنهما يمكن أن يأتيا متعديين في الأصل (يتحدثون عن... / لا يفعلون شيئا). فما سر حذف المفعول هنا وإيرادهما لازمين؟ يجيب عبد القاهر الجرجاني في مثل هذا الحذف بأن الأمر متعلق بـ "وجوب أن تُسقط المفعول لتتوفر العناية على إثبات الفعل لفاعله ولا يدخلها شوب"³. وبالفعل، فإن صاحب

1 مقتطف من خطاب دونالد ترامب في حفل تنصيبه، من موقع تاريخ آخر مراجعة: 2021/8/5:

<https://arabi21.com/story/979594/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B5%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%A7%D9%85%D9%84%D9%84%D8%AE%D8%B7%D8%A7%D8%A8%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D9%85%D8%A8%D8%AE%D9%84%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D9%85%D8%AA%D9%86%D8%B5%D9%8A%D8%A8%D9%87%D8%B1%D8%A6%D9%8A%D8%B3%D8%A7>

2 توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 224.

3 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: علي محمد زينو، مؤسسة الرسالة، ط1، دمشق، 2005، ص: 130.

الخطاب المدروس قد جعل الفعلين (يتحدث/لا يفعل) لازمين لأن غرضه أن يصور مسؤولين الإدارة السابقة مجرد متحدثين وعاجزين، أي يثبت لهم صفة الحديث وصفة عدم القدرة على الفعل.

أما عن المعنى الرابع المتعلق بالتفريط في أمريكا، فقد مثله فعلاَن لازمان آخران هما (تقادم، اختفى):

(5)

و. تقادم البنى التحتية الأمريكية
ز. اختفت ثروة وقوة وثقة بلادنا

فالفعلاَن اللزمان هنا لم يُسندا إلى إدارة ترامب بشكل مباشر، وإنما أُسندا على التوالي إلى البنى التحتية الأمريكية، وثروة البلاد وقوتها وثقتها. ولكن المقصود بشكل غير مباشر هو الإدارة السابقة، لأن صاحب الخطاب يتحدث عن أمريكا خلال فترة حكم أوباما. إذن فاللزوم هنا اتهام بالتفريط في البلاد.

عوض ترامب في خطابه الفاعل الاجتماعي المسمى بالإدارة السابقة بالعبارة (وقت الكلام الفارغ)، بمعنى أن كل ما صدر عنها مجرد كلام لا طائل منه، فدعا إلى ضرورة القطيعة مع هذه المرحلة بفعل لازم هو (انتهى)، والقصد هو أن الإدارة السابقة قد انتهت بصفة مطلقة:

(5) ح. انتهى وقت الكلام الفارغ

بالنسبة إلى الفاعل الاجتماعي الثاني الذي يمثل صاحب الخطاب نفسه، أُسندت إليه ستة أفعال لازمة بنسبة (33%). ولكن اللزوم هنا لا يعني العجز والإدانة كما عناه بالنسبة للإدارة السابقة، إذ دل على معانٍ إيجابية تركي الإنجازات التي تحققت خطابيا مع الأفعال المتعدية. لمزيد من التوضيح يُنظر قائمة الأفعال الآتية:

(6)

أ. لن نفشل.

ب. بلادنا ستتبعش.

ج. تزدهر مرة أخرى.

د. سأكافح من أجلكم بكل قواي

بالنظر إلى الأفعال اللازمة في هذه القائمة، يتأكد أنها منتقاة بدقة لتمثيل كل ما هو إيجابي، وأنها استشرافية تعد بمستقبل أفضل. فثلاثة منها (لن نفضل، سنتنحش، تزدهر) كلها تعد بغد أفضل وأمريكا وإن كانت لازمة؛ ومرد ذلك إلى المداخل المعجمية التي اشتقت منها كلها (ف.ش.ل/ ن.ع.ش/ ز.ه.ر) بالإضافة إلى أداة النفي (لن) التي تمنع وقوع فعل الفشل، وتحمل سمة زمنية حين تدخل على المضارع وهي الاستقبال. ويمكن فهم علاقة المدخل المعجمي بتوجيه دلالة الفعل اللازم من خلال مقارنة هذه الأفعال بالأفعال اللازمة المسندة إلى الإدارة السابقة كما هو مبين أعلاه، فمثلا (انتهى، تقادم، اختفى) وإن كانت لازمة فإن دلالتها المعجمية سلبية بالنسبة إلى ما قدمته إدارة أوباما. كما أن الفعل (ازدهر) أُسند في المثال رقم (1/5) إلى العاصمة فقط حيث توجد الإدارة السابقة، في حين أن الفعل نفسه تعلق بأمريكا بأكملها حين أُسند إلى إدارة ترامب.

الفعل الرابع (سأكافح) لازم ولكنه يعني معجميا ودلاليا النضال والمبادرة والاستماتة من أجل الشعب، زاد من تأكيد ذلك موجهان اثنان (من أجلكم/ بكل قواي). وعلى نقيض ما جاء في المثال (5/ح) حين قال (انتهى وقت الكلام الفارغ)، يأتي ترامب بفعلين لازمين ممتدين في المستقبل ويعدان بالأفضل هما (دقت/نقف):

(6)

هـ. دقت ساعة العمل.

و. نحن نقف عند ولادة ألفية جديدة.

فالفعل (دق) في (6/هـ) لازم ولكنه يعلن انطلاق مرحلة أخرى يعد فيها صاحب الخطاب بالعمل الجاد بدل الكلام الفارغ. كما أن فعل الوقوف في (6/و) يؤرخ لمرحلة سماها بالألفية الجديدة، كما لو أن الألفية الثالثة لم تبدأ إلا معه. لذلك فاللزوم هنا لم يكن علامة على العجز، وإنما دلالة الأفعال معجميا توحى بالقدرة المستقبلية.

أُسند إلى الفاعل الاجتماعي الرابع (أمريكا) فعلا لآزمان، أولهما منفي بلا (يوجد) وثانيهما مثبت (تناضل). على عكس الأفعال اللازمة المسندة إلى الإدارة السابقة، فإنها أفعال لازمة ولكنها مؤثرة:

(7)

أ. لا يوجد تحد يقف أمام قلب وكفاح وروح أمريكا.

ب. طالما أنها تناضل.

بحيث إن الأول ينفي وجود أي حاجز أو معيق في وجه أمريكا ما دامت تحت إمرة ترامب، وثانيهما يمثل شرطا لذلك هو النضال، أي إن أمريكا مع ترامب ستناضل وستتجاوز كل المعوقات والحواجز، كل ذلك على الرغم من أن الفعلين لازمين لا يتعديان إلى أي مفعول. ولعل ما حقق له ذلك مرة أخرى هو النفي في (1/7) والدلالة المعجمية للمدخل (ن.ض.ل) في (7/ب).

أما عن الفاعل الاجتماعي الخامس، فقد أُسند إليه فعل لازم أيضا كما في (8)، لكن النفي قد منع ظهور دلالة اللزوم المتعلقة بالعجز مرة أخرى؛ إذ إن النفي الذي دخل على الفعل (عاد) بات وعدا بالأ يُنسى أي رجل أو امرأة:
(8) إن الرجال والنساء المنسيين في بلادنا لن يعودوا كذلك.

هكذا، يتضح أن صاحب الخطاب - وإن أُسند أفعالا لازمة إلى نفسه أو إلى غيره من الفاعلين الاجتماعيين دون الإدارة السابقة- فإنه يجعلها دلالة على القدرة والإنجاز والقوة والعمل، ذلك من خلال إدخال أدوات النفي على الفعل اللازم، وانتقاء أفعال مشتقة من مداخل معجمية إيجابية وخادمة له ولمرجعه الأيديولوجي.
إن الفعل الوحيد اللازم الذي أُسند إلى الفاعلين الاجتماعيين المتنافسين في هذا الخطاب هو (نجتمع)، ولعل دلالاته لا هي إيجابية ولا هي سلبية لكلا الطرفين؛ لأنه فعل يصف الحدث الرئيس وهو اجتماع المتنافسين لتسليم السلط كما في (4) مع الفعل المتعدي (نقوم)، بحيث كان فعلا محايدا وصفيا إخباريا كما هو الحال مع (نجتمع) في (9).

(9) نجتمع على هذه العتبات.

فائدة:

لم يكن انتقاء الأفعال المتعدية والأخرى اللازمة اعتباطيا أو من محض الصدفة، وإنما هو انتقاء مؤسس على الخلفية الأيديولوجية لصانع الخطاب، ومراميه الخطابية، وأغراضه الخاصة للتأثير في الممارسة الاجتماعية، سواء في الشعب الأمريكي بالإقناع والإغراء والاستمالة، أم في الإدارة السابقة والشركات الأجنبية بالإدانة والتوريط والاتهام.

لقد مثلت الأفعال المتعدية نمطين من الإنجازات، إما الإنجازات الإيجابية لصاحب الخطاب كالقدرة على الفعل والخلق والتطوير والنهوض، أو الإنجازات السلبية التي تركز عجز

منافسيه وسعيهم وراء مصالحهم الخاصة في ظل تناسي حقوق الشعب الأمريكي، وتلك إدانة صريحة للغاية.

ومثلت الأفعال اللازمة نوعين أيضاً من الإنجازات، الأول هو العجز والإدانة بالنسبة إلى منافسي صانع الخطاب، والقدرة على تجاوز كل الصعاب والتحديات بالنسبة إليه شخصياً. إلا أن اللزوم الذي كان في صالح صاحب الخطاب، لم يمثل دلالة العجز، وذلك من خلال انتقاء الأفعال اللازمة من مداخل معجمية مخصوصة لا يمكن أن تفيد السلب والإيذاء، ولا يمكن إدانتها؛ ثم بالاستعانة بأدوات النفي التي تبطل الآثار السلبية.

2. الإحالة وتبرئة الذات بالبناء للمجهول:

البناء للمجهول أو البناء للمفعول خيار أسلوبى ينهجه المتحدثون في سياقات ووضعيات معينة، وتكون من ورائه غايات خطابية لا تُعلم إلا بالاستقصاء والبحث عن القرائن المقرّبة من كشف حقيقة الفاعل. ومن وجهة نظر المقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة، لا يمكن فقط اعتبار استخدام البناء للمجهول لمجرد العناية بالمفعول فقط، مثل: "تحويل بؤرة التركيز من الفاعل الصريح إلى المفعول الذي يصبح مركز الجملة ومحط الاهتمام"¹. وإنما هو وسيلة من وسائل تكريس الغموض لأغراض التلاعب والهيمنة الخطابية.

في هذا الصدد، يؤكد فيركلف في كتابه (الخطاب والتغير الاجتماعى) أن من الإمكانيات التي يتيحها البناء للمجهول حذف الفاعل، وذلك لغايات أهمها: "إما لأن الفاعل مجهول، أو معروف سلفاً، أو لا أهمية له في نظر الكاتب، أو ربما يكون الدافع الحفاظ على غموض الفاعل والمسؤولية عن الفعل تبعاً لذلك"². فإن كان البناء للمجهول يعنى نحويًا إسناد الفعل إلى المفعول ذاته، فيعرب نائباً للفاعل، فما المقصود به خطابياً وفق المقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة؟ وما وظيفته الخطابية؟

تستقي الأطروحة مثالان لدراسة قضية البناء للمجهول خطابياً، أولهما هو بيان كريستالينا غورغيفا المديرية العامة لصندوق النقد الدولي في المؤتمر الدولي لدعم الشعب اللبناني يوم 4 غشت سنة 2021³؛ وهو مقطع مجتزأ من متن البيان:

1 الزليطني محمد لطفي، من تحليل الخطاب إلى التحليل النقدي للخطاب، مجلة الخطاب، 2014، العدد 17، ص: 08.

2 نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعى، ص: 101.

3 نص البيان مأخوذ من موقع صندوق النقد الدولي، آخر مراجعة، 2020/8/8:

(10) بالنسبة للبنان، هذا أمر ليس بالبسيط. فسوف يحصل لبنان من خلال هذا التوزيع على حقوق سحب خاصة تعادل 860 مليون دولار في هذا الوقت العصيب لزيادة احتياطياته التي **(سُنُنُزِفَتْ)** وكذلك للمساعدة في تلبية الاحتياجات العاجلة الكثيرة للشعب اللبناني. ومن الضروري استخدام حقوق السحب الخاصة تلك بصورة مسؤولة وحكيمة. إنه أمر مهم في كل مكان، ولكنه شديد الأهمية في لبنان نظرا للمنعطف الحرج الذي يمر به. إن هذه المخصصات مورد نفيس. ويجب توزيعها بما يحقق الاستفادة القصوى للبلد وشعبه.

يأتي خطاب مديرة صندوق النقد الدولي بعد دعوة من الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون لها من أجل دعم الاقتصاد اللبناني بغية إنعاشه وإخراج الشعب من الأزمة الاقتصادية الخانقة. وقبل المقطع أعلاه، أوضحت المديرة أن مجلس المحافظين في الصندوق قد صرح بالإجماع بتاريخ 2 غشت بإصدار مخصصات جديدة من حقوق السحب الخاصة بقيمة 650 مليار دولار لتوزيعها في غضون أسبوعين وفقا لحصص العضوية؛ وأن لبنان من الدول التي ستستفيد من هذه الحقوق بقيمة 860 مليون دولار.

بالنسبة إلى المقطع أعلاه، يتضمن فعلا واحدا مبنيا للمجهول وهو **(سُنُنُزِفَتْ)** وهو الوحيد في الخطاب بمجمله. ومن الناحية الإعرابية، فإن نائب الفاعل هو الضمير المستتر العائد على احتياطات الشعب اللبناني (احتياطياته). يُفهم سطحيا، وبطريقة ساذجة، أن المقصود بالاستنزاف هنا هو أنها صُرِفَتْ حسب توزيع ميزانية الحكومة اللبنانية. إلا أن التحليل النقدي لهذا الخيار اللساني يبدي معطيات أخرى تقصدها صاحبة الخطاب. فكيف ذلك؟

الفعل "استنزف" مشتق من (نزف)، ومعناه النفاذ والانقطاع كما يقول ابن فارس: "(نزف) النون والزاء والفاء أصل يدل على نفاذ شيءٍ وانقطاع"¹. إلا أن "استنزف" المزيد يعني أيضا (أهلك واستهلك واستنفد). فالاستنزاف يقع بفعل فاعل وليس بطريقة تلقائية. ومنه، فإن القصد هو أن احتياطات لبنان قد استنفدت واستهلكت بفعل فاعل حتى انقطعت.

على صعيد المقطع المدروس، وإن كان نائب الفاعل معلوما (الضمير المستتر) من الناحية الإعرابية، فإن الفاعل الاجتماعي المسؤول عن استنزاف احتياطات لبنان يبقى مجهولا،

<https://www.imf.org/ar/News/Articles/2021/08/04/sp080421-MD-remarks-Lebanon-conference>

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق، دت، ج5، ص: 416.

وهذا أمر طبيعي. إلا أن البناء للمجهول هنا يحيل خطابيا وبطريقة غير مباشرة إلى أطراف معينين هم: رئيس الحكومة اللبنانية ووزير ماليتها؛ ولكن بالاستناد إلى القرائن المحيطة بالفعل. أول معطى يمكن الاستناد إليه في تأكيد أن مسألة الاستنزاف ليس المقصود منها هو الاستهلاك البريء للاحتياطيات في ما يخدم الدولة والشعب، هو أن ملقية الخطاب تشترط أمرا مهما: (ومن الضروري استخدام حقوق السحب الخاصة تلك بصورة مسؤولة وحكيمة)؛ بمعنى أن الاحتياطيات السابقة استنزفت من دون مسؤولية ولا حكمة. فاشتراط المسؤولية في اللحظة الراهنة يفيد بالخلاف أنها لم تتوفر من قبل. يعني أنها تنبئه إلى أن صرف 850 مليون دولار يجب ألا يطالها ما طال الاحتياطيات السابقة. وتضيف أنه: (يجب توزيعها بما يحقق الاستفادة القصوى للبلد وشعبه). مما يعني أن الاستفادة من الاحتياطيات السابقة لم تشمل كل الشعب ولا حتى البلد، ولم تكن قصوى.

إن البناء للمجهول هنا كان منفذا من منافع السلطة الخطابية، بحيث لم تتحمل مديرة صندوق النقد الدولي مسؤولية اتهام أي طرف، سواء رئيس الحكومة أم وزير المالية بصيغة صريحة ومفضوحة، وإنما ظلت هوية الفاعل الحقيقي معلقة نحويا. وإن إخفاء الفاعل في مثل هذه الحالات ممارسة أيديولوجية بوساطة النظم النحوي، وتكون إما للاحتراز الواعي أو للخداع المقصود¹. ولكنها كانت مفضوحة خطابيا، بحيث إن المسؤولين المباشرين عن صرف الاحتياطيات بطريقة مسؤولة أو غير مسؤولة هم رئيس الحكومة ووزير المالية. وبذلك، فإن تركيز المتحدثة -بعد إطلاق الفعل المبني للمجهول(استنزفت)- على طريقة توزيع الدعم المالي الذي سيُقدم، وطريقة توزيع الاحتياطيات السابقة وصرفها، قرينتان خطابيتان اجتماعيتان تحددان هوية الفاعل المجهول على مستوى الاختيار النحوي.

من جهة أخرى، أوردت ملقية الخطاب قبل شروط السحب والفعل المبني للمجهول، غايتين لهذا الدعم المالي، وهما زيادة احتياطيات لبنان، وتلبية الاحتياجات العاجلة الكثيرة للشعب اللبناني. وبذلك فقد أعلنت مواجهة بين الشعب اللبناني والمسؤولين عن صرف هذه الاحتياطيات؛ ويتوسط طرفي المواجهة الفعل المبني للمجهول(استنزفت) بوصفه تحذيرا للمسؤولين من تبديدها، وتبنيها للشعب من أن يسمح باستنزافها مرة أخرى. وبذلك تضافر البناء للمجهول والغايات والشروط المذكورة للإحالة إلى المستنزفين، ثم لتبرئة المتحدثة.

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 169.

يتأكد ذلك من خلال سياق الممارسة الاجتماعية التالية للمؤتمر، أي الحراك الشعبي بالشارع اللبناني انطلاقاً من الخامس من شهر غشت، إذ ركز صوت الاحتجاجات الشعبية على طريقة صرف الاحتياطات المساعدة المقدمة من صندوق النقد الدولي، وتعلت أصوات لمحاسبة وزير المالية المنتمي لحزب الله بخصوص هذه المساعدات، والاحتياطات المستنزفة. كما اتجهت أصابع الاتهام إلى حزب الله تحديداً، بكونه هو المبدد لأموال الدولة بمساعدة عضوه وزير المالية.

لا تقصد الأطروحة أن هذه التطورات كانت بفعل استخدام البناء للمجهول في بيان مديرة صندوق النقد الدولي، وإنما تقصد أن البناء للمجهول كان منفذاً من منافذ سلطة الخطاب الذي سلكته المديرية العامة للإحالة إلى من بدد الاحتياطات السابقة، ولتبرئة نفسها والظهور محايدة. أما ما أوجع الاحتجاجات فهو إعلانها للمواجهة بين الشعب ووزارة المالية، وتشديدها على ضرورة صرف الاحتياطات بطريقة مسؤولة وحكيمة.

إن بيان مديرة صندوق النقد الدولي يسير في الاتجاه نفسه مع كلمة الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون التي أدانت في مستهل المؤتمر المسؤولين السياسيين، ولوحت بضلوعهم في تبديد احتياطات لبنان، وعبرت أيضاً عن انعدام الثقة فيهم؛ إذ قال: "سنتأكد من أن مساعداتنا ستصل مباشرة إلى الشعب اللبناني بشكل شفاف. كما سنعمل على آليات المتابعة بشكل تام وذلك عبر دعم من الأمم المتحدة"¹. غير أن خطابه كان مباشراً، في حين أن خطاب كريستالينا غورغيفا كان موارياً من خلال الاستعانة بالبناء للمجهول.

ورد في خطاب تنصيب الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب أربعة أفعال مبنية للمجهول، ومرة أخرى يتيح خيار البناء للمجهول منفذاً من منافذ السلطة الخطابية الموارية وتبرئة الذات؛ إذ تضمن المثال (1/11) ثلاثة أفعال، الأول مبني للمعلوم، والثاني والثالث مبنيان للمجهول، وبين الجملة البسيطة المتضمنة للفعل المبني للمعلوم والجملة المتضمنة للمبني للمجهول الأول وقف وبعده استئناف بالاستدراك، ثم عطف للمبني للمجهول الثاني على الأول:

(1/11) ازدهر السياسيون، ولكن تُرِكَت الأعمال وأُغْلِقَت المصانع.

(11/ب) لقد انْتَزَعَتْ ثروة مواطني الطبقة الوسطى من منازلهم،

وأُعِيدَ توزيعها على العالم بأكمله.

1 كلمة الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون في مؤتمر دعم الشعب اللبناني، نُشرت بموقع قناة TenTVK على اليوتيوب، آخر

مراجعة في 2021/8/8: <https://www.youtube.com/watch?v=pg9hPR7-GEU>

إذا كان فاعل (ازدهر) في (11/1) معلوماً وهو (السياسيون)، فإن الفاعلين الحقيقيين للفاعلين (تُركتُ و أُغْلقتُ) مجهولان من الناحية النحوية. ولكن، ومن خلال التأمل في العلاقات التركيبية بين عناصر الجملتين، يظهر أن الفاعلين الحقيقيين للفاعلين المبنين للمجهول معاً هو (السياسيون)، وقد يكون اكتشاف هذا الأمر بدهي. إن الأمر الأهم هنا هو كيف تحايل ملقي الخطاب على المتقنين والسياسيين المتهمين حتى برأ نفسه من المتابعة؟

ما يجعل منشئ الخطاب بريئاً من اتهامه المباشر للسياسيين، أمران اثنان: أولهما هو الانقطاع الذي ضمنه الوقف، وثانيهما واو الاستئناف؛ بحيث إن الوقف أخرج السياسيين وازدهارهم مما سيقال بعده، وواو الاستئناف أعلنت كلاماً جديداً لا علاقة له بما قبله، فاستحال الحكم على فاعل الفعل المبني للمعلوم بالحكم الذي أُطلق على نائب الفاعلين للفاعلين المبنين للمجهول. إلا أن ما يجعل السياسيين الفاعلين الحقيقيين لما بعد الوقف، هو أداة الاستدراك (لكن)؛ إذ إن هذه الأداة تعني أن ما بعدها له صلة دلالية وثيقة مع ما قبلها.

هكذا، يكون صاحب الخطاب قد قاد متلقيه كلهم، بمن فيهم السياسيين المقصود وهو إدارة أوباما، إلى إعادة بناء الجمل الثلاثة إدراكياً بطريقة عفوية تلقائية وخصوصاً على المستوى الإدراكي الخاص بكل منهم، على هذا النحو:

(11/ج). ازدهر السياسيون ولكنهم تركوا الأعمال وأغلقوا المصانع.

أما في المثال (11/ب)، يتكون المثال من جملتين، إحداها تتضمن كلاماً مديناً والأخرى تتضمن كلاماً آخر غير مدين. فالجملة الأولى تفيد أن جريمة قد وقعت في حق المواطنين الأمريكيين من الطبقة الوسطى، وهي انتزاع ثروتهم من منازلهم، وهذه جريمة مدانة. أما الثانية، فتفيد بأن الثروة الأمريكية تُوزع على دول العالم كإعانات ومساعدات في مستويات مختلفة. وبتدقيق النظر في الفعل المبني للمجهول الأول (انْتزَعَت)، فيظهر أن من انتزع منهم ثروتهم غير معلوم. ولكن الجملة الثانية تحده، بحيث إن من يتكفل بتوزيع المساعدات هو الحكومة الأمريكية، وإن كان فعلها مبني للمجهول أيضاً (أَعْيَد). ومنه، جملة المبني للمجهول الثانية رفعت الإبهام في جملة المبني للمجهول الأولى.

السؤال المطروح هنا هو: ما الذي جناه ملقي الخطاب من البناء للمجهول؟ أول ناتجة هي أنه برأ نفسه بالتواري خلف الأفعال المبنية للمجهول حتى لا يواجه اتهامات مباشرة تجره

إلى المساءلة، وثاني ناتجة هي استدراج الشعب إلى إدانة إدارة أوباما وتحميلها مسؤولية الوضع الاقتصادي المزري للأفراد، لئلا يُحسب عليه وهو في بداية ولايته السياسية.

فائدة:

يخول البناء للمجهول إمكانات الإحالة إلى المنافسين وإصاق التهم والأحكام المخرجة بهم من خلال التواري والمخاتلة. فعدم تحديد الفاعل الحقيقي على المستوى النحوي يمكن صناع الخطابات من الإحالة إليه على المستوى الخطابي، وذلك من خلال إرفاق قرائن ومعطيات اجتماعية وخطابية بالأفعال المبنية للمجهول، فتستدرج المتلقين إلى إعادة بناء المعنى وفق المرجع الأيديولوجي الذي يرتضيه المتكلم. كما يعطيهم مساحات كافية للمراوغة وتبرئة ذواتهم، حتى لا يتحملوا مسؤولية الكلام المباشر في حالة البناء للمعلوم.

3. التلاعب بالفاعلية النحوية والخطابية:

1.3. إسناد الفعل لغير صاحبه:

تقصد الأطروحة بإسناد الفعل لغير صاحبه أن يُسند منشئ الخطاب الفعل المنجز من قبل فاعل آخر إلى ذاته هو بوصفه فاعلا خطابيا لأن هذا الفعل يخدم مصالحه، أو أن يُسند الفعل الذي أنجزه هو إلى فاعل خطابي غيره لأن هذا الفعل يقف ضده. وبذلك، فالحديث هنا سينصب على الفرق بين الفاعلية النحوية والفاعلية الخطابية، ومتى يسمح صناع الخطابات ب بروز الفاعلية النحوية أو الأخرى الخطابية؟

المثال المقترح الذي يتضمن مثل هذه الحالات من استخدام صفة الفاعل وإسناد الفعل حسب المرجع الأيديولوجي الخاص، هو التقرير السنوي لصندوق النقد الدولي سنة 2020¹، وتحديدًا الفقرة الثانية من المحور الثالث عشر (المسؤولية الاجتماعية المؤسسية). وقد عُنونت هذه الفقرة الثانية على هذا النحو (العطاء معا).

استُهلّت هذه الفقرة بتعريف برنامج (العطاء معا) بأنه: "برنامج الصندوق الخيري الذي يدعمه الموظفون والمتقاعدون وبرنامج العطاء المؤسسي في الصندوق"². أي إن الإدارة

1 يمكن تحميل التقرير بالصيغة العربية المنشور بتاريخ 2020/11/16 من موقع صندوق النقد الدولي من خلال الرابط: <https://www.imf.org/external/pubs/ft/ar/2020/eng/downloads/imf-annual-report-2020-ar.pdf>

آخر مراجعة: 2021/1/4

2 التقرير السنوي لصندوق النقد الدولي، 2020، ص: 56.

الرسمية للصندوق تتبرع بمبالغ مالية للأعمال الخيرية لتخفيف أضرار الكوارث الطبيعية وكوفيد-19، ويشاركها في هذا البرنامج موظفو الصندوق ذاته ومنتقاه من أموالهم الخاصة. ولكن، تضمن التقرير فقرتين تثيران الانتباه وتتضمنان بعض جوانب التلاعب الخطابية بإسناد الفاعلية النحوية والخطابية، أولاهما هي:

(12) "كانت هذه أكبر سنة حتى الآن على مستوى عطاء الصندوق للأعمال الخيرية. فبلغ مجموع التبرعات للمنظمات غير الهادفة للربح حول العالم 4,2 مليون دولار في السنة المالية 2020".¹

إن منطوق الخطاب في هذا الموضوع يفيد بأن عطاء صندوق النقد الدولي في مجال الأعمال الخيرية قد بلغ ذروته سنة 2020، بحيث بلغت التبرعات 4.2 مليون دولار. بمعنى أن الصندوق هو الفاعل الحقيقي لهذه التبرعات، وأن هذا العطاء له فاعل واحد هو الصندوق، من الناحية الوظيفية الخطابية. مع العلم أن عنوان هذه الفقرة هو (العطاء معا)، أي إن هناك شركاء في عطاء الأعمال الخيرية.

الأمر الثاني الذي يثير الانتباه هو أن نص الخطاب قد وُزع في خمس فقرات، والمثال (12) جاء في الفقرة الثانية، إلا أن إدارة صندوق النقد الدولي نسخت الفقرة ذاتها وأعدت كتابتها في مركز النص نفسه بخط عريض وحجم أكبر من حجم باقي الفقرات، وميزت قيمة المبلغ والسنة المالية بلون مغاير، الأزرق وليس الأسود كباقي الفقرات كما توضح الصورة:

العطاء معا (Giving Together)

التضامن للاستجابة لفيروس كورونا التابع لمنظمة الصحة العالمية. وفي المجمل، قام موظفو الصندوق والمتقاعدون بجمع مبلغ قدره 3.6 مليون دولار في هيئة تبرعات ومبالغ مضاهاة التبرعات لدعم القضايا الخيرية وجهود الإغاثة الإنسانية - بحيث تجاوز ما تم جمعه من أموال في العام الماضي بلغ 3 ملايين دولار. وقدم الصندوق كذلك في السنة المالية 2020 منحاً بمبلغ 215 ألف دولار لهيئات خيرية حول العالم، إلى جانب منح استثنائية بمبلغ 300 ألف دولار لمنظمات محلية غير هادفة للربح استجابة لجائحة كوفيد-19. وبالإضافة إلى ذلك، قدمت إدارة الصندوق العليا تبرعات مؤسسية بمبلغ 110 ألف دولار أثناء رحلات السفر في مهام رسمية إلى الاقتصادات النامية لدعم الجمعيات الخيرية الشعبية. ودعم المجتمع المحلي، تطوع موظفو الصندوق لمساعدة منظمات غير هادفة للربح تخدم منطقة واشنطن العاصمة، وذلك بسبل منها تجهيز حزم أدوات معونة الشتاء للمشردين وحزم أدوات النظافة الشخصية للنساء في الملاجئ، وتدريب الثقافة المالية، وتقديم دروس التقوية في اللغة الإنجليزية لطلبة المدارس الثانوية. وصنع أفنعة الوجه للعاملين في قطاع الصحة.

كانت هذه أكبر سنة حتى الآن على مستوى عطاء الصندوق للأعمال الخيرية. فبلغ مجموع التبرعات للمنظمات غير الهادفة للربح حول العالم 4,2 مليون دولار في السنة المالية 2020.

برنامج «العطاء معا» هو برنامج الصندوق الخيري الذي يدعمه الموظفون والمتقاعدون وبرنامج العطاء المؤسسي في الصندوق. كانت هذه أكبر سنة حتى الآن على مستوى عطاء الصندوق للأعمال الخيرية. فقد بلغ مجموع التبرعات للمنظمات غير الهادفة للربح حول العالم 4,2 مليون دولار في السنة المالية 2020. وقد سجلت «حملة العطاء معا» السنوية رقماً قياسياً من حيث القيمة الدورية للتبرعات التي تم جمعها ومشاركات موظفي الصندوق. على السواء للمرة الأولى في تاريخ هذه الحملة. قام الصندوق بتقديم مبالغ تضاهي كل المساهمات المتبرع بها على أساس دولار مقابل كل دولار - بدلاً من مضاهاة 50٪ فقط من المبالغ في السابق. وبالإضافة إلى ذلك، قام برنامج «العطاء معا» بتنظيم حملات جمع التبرعات لشحائها الكوارث الطبيعية في جزر البهاما، وألبانيا، وأستراليا. ومع بدء تفشي جائحة كوفيد-19 في الصين، عقب إعلان الجائحة على المستوى العالمي، أمكن من خلال مناشدة إنسانية جمع مبلغ قدره 288 ألف دولار لصالح «صندوق

صورة رقم (01): نص الفقرة الثانية من المحور

الثالث عشر من تقرير صندوق النقد الدولي 2020

إن الفاعل الخِطابي الذي يُنسب إليه فعل العطاء للأعمال الخيرية حسب الفقرة الوسطى المكتوبة بخط عريض في النص، هو إدارة صندوق النقد الدولي؛ أي إنه عطاء مؤسسي، وليس تبرعا خاصا من الموظفين والمتقاعدين. وبذلك، فقد حُجبت إدارة الصندوق الفاعل الحقيقي الذي تبرع من ماله الخاص، وأسندت الفعل إلى ذاتها. هكذا فقد أسندت الفعل إلى غير صاحبه. ويمكن تفسير النية الصريح لمثل هذا التلاعب المقصود بالفاعلية بالعنوان الكبير للمحور الثالث عشر الذي تشكل هذه الفقرة جزءا منه (المسؤولية الاجتماعية المؤسسية)، إذ إنه يشير إلى أعمال خيرية، ويؤكد أن الصندوق يقوم بمسؤولياته الاجتماعية المؤسسية، أي الصادرة عن المؤسسة وليس عن الأفراد المشتغلين بها بشكل شخصي تطوعي.

تكمن الوسيلة الخِطابي التي حُجبت من خلالها إدارة صندوق النقد الدولي الفاعل الحقيقي، في الجملة الثانية من هذه الفقرة (فبلغ مجموع التبرعات للمنظمات غير الهادفة للربح حول العالم 4,2 مليون دولار في السنة المالية 2020)؛ بحيث إن الفاعل النحوي هنا للفعل (بلغ) هو مجموع التبرعات، وليس الموظفين والمتقاعدين. أما ما يؤكد إلى أن إدارة الصندوق تحيل إلى نفسها بأنها الفاعل الحقيقي نحويا وخطابيا واجتماعيا، فهو أمران:

- أولهما هو نهج تقرير الصندوق لتقنية إلغاء الفاعل، أي عدم ذكره البتة. وتتم هذه التقنية حسب تيو فان لوفين من خلال ثلاثة طرق¹: (1) استخدام أفعال لا إرادية (يحدث، يصل، يبلغ، يقع..)؛ (2) جعل الفعل على أنه موجود بالفعل مثل (أكثر المواقف توترا)؛ (3) تقديم الأفعال وردود الأفعال وكأنها عمليات طبيعية (يتنوع، يتوسع، يتطور، ينمو...). ومن الملاحظ أن الصندوق قد ألغى الفاعل الحقيقي في الجملة الأولى من (12) بالطريقة الثانية أي جعل الفعل على أنه موجود (أكبر سنة حتى الآن على مستوى عطاء الصندوق)، وانه ألغاه في الجملة الثانية باعتماد الطريقة الأولى (فبلغ مجموع التبرعات).

- وثانيهما هو علاقة الإضافة في الجملة الأولى من الفقرة (كانت هذه أكبر سنة حتى الآن على مستوى عطاء الصندوق للأعمال الخيرية)، إذ إن القصد هو العطاء من الصندوق تحديدا، وأن سنة 2020 هي السنة الأعلى من حيث قيمة العطاء التي يقدمها الصندوق، وليس الموظفين والمتقاعدين.

1 تيو فان لوفين، الخطاب باعتباره إعادة تشكيل سياق الممارسة الاجتماعية: دليل إرشادي، ص.ص: 329-330.

هكذا، فإن إضافة ما يدل على الصندوق إلى العطاء جعل منه فاعلا خطابيا واجتماعيا حقيقيا. ويمكن تقديم بديل لهذه الفقرة لا يتضمن أية ممارسة سلطوية تلاعبية من خلال سوء استخدام اللغة، ويعلن المتبرعين بدون تلاعب خطابي، وهو:

(12) "كان عطاء الموظفين والمتقاعدين والصندوق للأعمال الخيرية خلال هذه السنة هو الأكبر حتى الآن، حيث بلغ مجموع تبرعاتهم للمنظمات غير الهادفة للربح حول العالم 4,2 مليون دولار في السنة المالية 2020".

في الخطاب نفسه فقرة أخرى تقصي المتبرعين من الموظفين والمتقاعدين بوصفهم الفاعل الحقيقي بشكل صريح، وتسد الفعل إلى صندوق النقد الدولي وحده، وهي:

(13) وقدم الصندوق كذلك في السنة المالية 2020 منحا بمبلغ 215 ألف دولار لهيئات خيرية حول العالم، إلى جانب منح استثنائية بمبلغ 200 ألف دولار لمنظمات محلية غير هادفة للربح استجابة لجائحة كوفيد-19¹.

في هذه الفقرة، حجب مقصوداً للفاعل الحقيقي، وإسناد واضح للفعل إلى غير صاحبه، بحيث إن هذه المنح تُمنح من مجموع التبرعات؛ وليس الصندوق هو مقدمها كما يدعي التقرير. مما يعني أن الخطاب ألغى الفاعل الحقيقي وأسند الفعل الذي قام به إلى الفاعل غير الحقيقي (الصندوق). وعليه، فإن إسناد الفاعلية على هذا النحو غير الشفاف -أي بإقصاء الفاعل الحقيقي وإسناد فعله إلى صانع الخطاب أو ذوي مناصب القرار- وسيلة لغوية لفرض سلطة الخطاب، وآلية من آليات التلاعب الخطابى بالحقائق والممارسات الاجتماعية.

2.3. استبدال الفاعلية بالإضافة:

ترى الأطروحة أن الفاعلية الخطابية لا تتحقق فقط بالشرط النحوي، أي إن تحديدها لا يخضع بالأساس إلى التطابق مع الحالة الإعرابية؛ وبدلاً من ذلك، فإنها تُحدّد وفقاً للأطراف أو المشاركين في الخطاب من الفاعلين الاجتماعيين الذين أُسند إليهم الفعل بوصفهم فاعلا نحويًا، أو فاعلا خطابياً. إن المقصود بالفاعل الخطابى في هذه الحالة هو من أُسندت إليه مهمة

1 التقرير السنوي لصندوق النقد الدولي، 2020، ص: 56.

إنجاز الحدث، من خلال أي اختيار نحوي، كالمبتدأ، والفاعل، والإضافة، والبناء للمعلوم، والبناء للمجهول، والإضمار، وغيرها.

في ما يلي، مثال آخر يوضح ملمحا من ملامح التلاعب بالفاعلية النحوية والفاعلية الخطابية، وهو جزء آخر من بيان كريستالينا غورغيفا مديرة صندوق النقد الدولي في مؤتمر دعم الشعب اللبناني، والذي اعتمد في ما سبق من هذا الفصل في دراسة الإحالة وتبرئة الذات بالبناء للمجهول. ويقدم هذا المثال حالة واضحة من تأثير التلاعب بالفاعلية باستخدام خيار نحوي غير الفاعلية النحوية، وهو خيار الإضافة:

(14)/أ. وأنا أدعو الشركاء الدوليين والمحليين إلى العمل معنا للمساعدة على ضمان الشفافية والمساءلة في استخدام مخصصات لبنان من حقوق السحب الخاصة الجديدة¹.

سبق أن خلُص نقد البناء للمجهول في البيان ذاته إلى أن صاحبه سعت من خلاله إلى إلقاء تهمة تبديد الاحتياطات المالية للاقتصاد اللبناني على رئيس الحكومة وخصوصا وزير المالية، ولكن دون أن تتحمل تبعات هذا الاتهام؛ إذ أسعفها البناء للمجهول في الإحالة إليهما، وخصوصا وزير المالية والحزب الذي ينتمي إليه (حزب الله)، مع تبرئة ذاتها من الاتهام المباشر. وفي البيان نفسه، وتحديدًا من خلال استخدام علاقة الإضافة نحويًا، تسعى إلى الغاية نفسها خطابيًا؛ أي تعويلا على إسناد الفاعلية الخطابية وليس النحوية.

في المثال (14/أ)، تدعو كريستالينا غورغيفا شركاء صندوق النقد الدولي إلى الانخراط في ضمان الشفافية والحرص على المساءلة بخصوص المخصصات المالية التي سيمنحها الصندوق إلى حكومة لبنان، والكلام على مستوى هذا الجزء مباشر وفاعله النحوي معن صراحة (ضمير المتكلم)، كما أن الأطراف التي وُجه إليها الكلام محددون اجتماعيًا (الشركاء).

ولكن، هناك أسئلة يثيرها المقطع من قبيل: مساءلة من؟ من سيستخدم هذه المخصصات المالية؟ لماذا هذه المساءلة؟ قبل الإجابة عن ذلك، وهي إجابة حاضرة في المقطع ذاته بطريقة التلاعب اللغوي على المستوى التركيبي، لا بد من الوقوف أولاً عند مطلب المساءلة؛ إذ إنها مطلب اقتصادي تشترطه الممارسة الاجتماعية التي يؤطرها خطاب مديرة

1 نص البيان مأخوذ من موقع صندوق النقد الدولي، آخر مراجعة، 2021/8/8:

<https://www.imf.org/ar/News/Articles/sp080421-MD-remarks-Lebanon-conference>

صندوق النقد الدولي. إن مطلب المساءلة يتضمن إدانة بخصوص طريقة استخدام احتياطات لبنان السابقة المستنزفة من جهة، وإحالة ضمنية لانعدام الثقة في من سيستخدم المخصصات الجديدة وبصرفها. ومنه، فإن هذا المطلب اتهام مباشر بسوء استخدام أموال لبنان من قبل المسؤولين السياسيين، وإدانة صريحة وعلنية، في الماضي والمستقبل، كان من كان هذا المستخدم.

الآن، يمكن الإجابة عن السؤالين المثارين أعلاه. في هذا الجزء (استخدام مخصصات لبنان من حقوق السحب الخاصة الجديدة) من المثال (14/1)، لا وجود لأي فاعل نحوي صريح، لأن العلاقة النحوية هي الإضافة (استخدام مخصصات). ولكن، من الناحية الخطابية، هناك فاعل تحجبه الإضافة النحوية، وهو وزير المالية اللبناني تحديداً. تعليل ذلك أن المتحدث تتلاعب باللغة لئلا تلقي بالتهمة على هذا الفاعل بشكل مباشر حتى تبقى في منأى عن أية مؤاخذات أو متابعات أو على الأقل انتقادات. لذلك، فإنها أشارت إلى وزير المالية بوصفه الفاعل المسؤول الأول الذي تجب مساءلته، لأن المساءلة ركزت على الاستخدام، والوزير هو المستخدم الفعلي لكل الاحتياطات والموارد المالية في لبنان.

لقد نهجت مديرة صندوق النقد الدولي في حجب الفاعل هنا طريقة يسميها ثيو فان لوفين بالتوصيف على نحو ساكن، ويقصد منها أنه بدل أن يستخدم المتكلم فعلاً يفيد الحركية والعمل، فإنه يوظف الاسم ليكتفي بالتوصيف المفيد للسكون¹. ولمزيد من التوضيح، فإن استخدام الفعل يشترط فاعلاً وإن كان مستتراً فإنه محال إليه نحويًا، وهكذا يُقدم الحدث على نحو حيوي. وليس الأمر كذلك إذا استخدم الاسم، فإنه يضاف إلى اسم آخر، فلا تشترط الإضافة ظهور الفعل أو الإحالة النصية النحوية إليه.

أضف إلى ذلك أن بيان كريستالينا غورغيفا جاء مؤكداً لموقف رئيس المؤتمر وهو رئيس الجمهورية الفرنسية إيمانويل ماكرون كما تبين في دراسة المبني للمجهول؛ فكلاهما يحيل بالإدانة غير المباشرة، والتحميل الضمني لمسؤولية ما آلت إليه أوضاع لبنان إلى زعماء حزب الله، وعلى رأسهم وزير المالية اللبناني.

هكذا فإن ملقبة الخطاب أشارت إلى الطرف الذي تجب مراقبة شفافيته ومساءلته بالفاعلية الخطابية وليس بالفاعلية النحوية. وقد استندت في ذلك إلى غض الطرف عن تمثيله

1 ثيو فان لوفين، الخطاب باعتباره إعادة تشكيل سياق الممارسة الاجتماعية: دليل إرشادي، ص: 328.

نحويا من خلال علاقة الإضافة. ويمكن الرجوع بهذا الجزء من المثال (14/ا) إلى صيغ أخرى مفترضة تُعتمد فيها الفاعلية النحوية، فيظهر العكس:

(14/ب). وأنا أدعو الشركاء الدوليين والمحليين إلى العمل معنا للمساعدة على ضمان الشفافية ومساءلة من سيستخدم مخصصات لبنان من حقوق السحب الخاصة الجديدة¹.

أو:

(14/ج). وأنا أدعو الشركاء الدوليين والمحليين إلى العمل معنا للمساعدة على ضمان الشفافية ومساءلة وزارة المالية اللبنانية عن استخدام مخصصات لبنان من حقوق السحب الخاصة الجديدة².

أو:

(14/د). وأنا أدعو الشركاء الدوليين والمحليين إلى العمل معنا للمساعدة على ضمان الشفافية ومساءلة المسؤولين عن استخدام مخصصات لبنان من حقوق السحب الخاصة الجديدة³.

في الصيغ المفترضة، هناك فاعلية نحوية صريحة، وتمثلها على التوالي (من) الموصولية في (14/ب)، والمضاف إليه (وزارة المالية اللبنانية) في علاقته بالجار والمجرور الذي بعده (عن استخدام) في (14/ج)، والمضاف إليه (المسؤولين) في علاقته بالجار والمجرور اللذين بعده (عن استخدام) في (14/د). ناهيك عن إعلان الجهات التي تجب مساءلتها بصفاتها الاجتماعية والسياسية، أي إن هناك إفراطا في تحديد الفاعل نحويا ودلاليا وخطابيا. وبذلك فقد رُفِع اللبس، وتطابق الفاعل النحوي مع الفاعل الخطابي؛ أي خلو الكلام من التلاعب اللغوي. إلا أن المثال (14/ا) عرف تقريبا في تحديد هوية الفاعل من الناحية النحوية والدلالية، ولكن الإضافة ميزته خطابيا. وعلى المستوى الخطابي، يقف التأويل، ومدى صدقه أو كذبه، أمام تحديد هويته. وصحيح أنه ولا عنصر واحد من الفواعل النحوية في هذه الصيغ المفترضة

1 نص البيان مأخوذ من موقع صندوق النقد الدولي، آخر مراجعة، 2021/8/8

<https://www.imf.org/ar/News/Articles/2021/08/04/sp080421-MD-remarks-Lebanon-conference>

2 المرجع السابق.

3 المرجع السابق.

يمكن إعرابه فاعلا مرفوعا، بحيث إنه في(14/ب) مبتدأ، وفي(14/ج) و(14/د) مضاف إليه؛ ولكن ما يدعم طرح اعتبارها كلها فواعل نحوية خطابية هو:

- كون الفاعل المضمّر في الفعل(من سيستخدم) قائما بالفعل من الناحية النحوية في(14/ب)، لأنه يعود على الموصولية(من).
- كون المضاف إليه في(14/ج) و (14/د) محددًا بصفته الاجتماعية: وزارة المالية اللبنانية والمسؤولين، على التوالي.

أما في (14/ا)، وإن كانت العلاقة النحوية المؤكّدة للفاعلية الخطابية هي الإضافة شأنها في ذلك شأن(14/ج) و (14/د)، إلا أن فيها انتفاءً للصفة الاجتماعية؛ بحيث اتصل مطلب المساءلة بشكل مباشر بالمضاف والمضاف إليه، والمضاف كان تحديدا هو الاستخدام. وعلى عكس ذلك، فإن بين مطلب المساءلة وفعل الاستخدام في(14/ج) و(14/د) فاصلا ومحددا دلاليا لهوية المضاف إليه.

وقد تضمن البيان ذاته حالة أخرى مشابهة للمثال(14/ا)، تتوب فيها الإضافة عن الفاعلية النحوية، وتؤكد الفاعلية الخطابية، وهو:

(14/هـ). ومن الضروري استخدام حقوق السحب الخاصة

تلك بصورة مسؤولة وحكيمة.

فمرة أخرى لم يكن هناك أي تحديد دلالي أو اجتماعي لهوية الفاعل الحقيقي، واعتمدت الإضافة بدلا من الفاعلية النحوية بالتركيز على حدث الاستخدام؛ ويمكن اقتراح صيغة مفترضة لهذا المثال أيضا تظهر فيه الفاعلية النحوي متطابقة مع الفاعلية الخطابية كما يلي:

(14/و) ومن الضروري أن تستخدم وزارة المالية اللبنانية

حقوق السحب الخاصة تلك بصورة مسؤولة.

ولذلك، يمكن القول إن الإضافة في(14/ا و 14/هـ) قد أفادت الفاعلية الخطابية من خلال التلاعب اللغوي بالخيار النحوي، وعدم تحديد هوية المستخدم اجتماعيا. وإن أهم ما يمكن استنتاجه في هذا الموضوع هو أن الخطابات ذات الأطماع السلطوية تجد في استبدال الفاعلية النحوية بخيارات نحوية أخرى لا تتضمن أي فاعل من أجل تكريس أهداف الهيمنة

والمرامي الأيديولوجية. وتعد علاقة الإضافة واحدة من هذه الخيارات التي تفرض بقوة الفاعلية الخطابية، أي إنها تحدد المسؤولين والمقصودين الفعليين بغير مواقع الفاعل النحوي.

3.3. إنابة الحدث عن الفاعل:

إلى جانب إسناد الفعل لغير صاحبه، واستبدال الفاعلية النحوية بالإضافة، هناك طريقة أخرى للتلاعب اللغوي بالفاعلية النحوية والفاعلية الخطابية، وهي حَجْبُ الفاعل الحقيقي وإنابة الحدث الذي يشكل مركز اهتمام المتكلم والأطراف عنه. في المثال (15) نموذج لهذه الطريقة: (15) ونحن نعرف المجالات التي يتعين التحرك فيها. ونعرف ما يتعين القيام به.

قبل تحليل المثال نحويًا وخطابيًا، لا بد أولاً من الانطلاق من معطى اجتماعي علاقائي. إن العلاقة التي بين مديرة صندوق النقد الدولي والمسؤولين السياسيين في لبنان ليست تراتبية عمودية، بل هي أفقية وتتوسط فيها الأمم المتحدة وفرنسا. لذلك، فإن أي اتهام يجب أن يكون بطريقة غير مباشرة، متوارية، وبعيدة عن الادعاء الصريح. إذ إنها لا يمكن أن توجه إليهم أية أوامر أو تعليمات، لأنها لا صلة سياسية تجمعها بمسؤولي الحكومة اللبنانية.

هناك جزآن في المثال (15)، جزء أول فاعله محدد نحويًا وخطابيًا واجتماعيًا هو ضمير المتكلم المحيل إلى صندوق النقد الدولي (ونحن نعرف المجالات/ونعرف ما..)، وجزء ثانٍ يضم جملتين فاعلهما محدد نحويًا، وهما على التوالي (يتعين التحرك/يتعين القيام)، ولكن التحرك والقيام لا يفيدان في تحديد الصفة الاجتماعية للفاعل الحقيقي والمقصود على المستوى النحوي.

مرة أخرى هناك أسئلة تفرض نفسها عند مباشرة نقد الخيار التركيبي، من قبيل: من المسؤول عن التحرك؟ أو من عليه أن يتحرك؟ ثم من يتعين عليه القيام بالمطلوب؟ إن منطوق الخطاب الصريح لا يسمي أية جهة ولا يتوجه إلى أي طرف واضح، لأنه يشترط حدثين أساسيين: التحرك والقيام، وهما في الآن نفسه فاعلان نحويان وممارستان اجتماعيتان مشروطتان.

إن حدثي التحرك والقيام في (15) ينويان عن الفاعل الاجتماعي المقصود، وهو رئيس الجمهورية اللبنانية ورئيس حكومتها؛ ولكن المتحدثة اتبعت إنابة الحدث عن هذا الفاعل الاجتماعي لأنها تروم إفادة الأوامر والتعليمات بطريقة ضمنية. وتعتبر هذه الطريقة إحدى

طرق تعمية الفاعل الخطابية، ويكون من ورائها دوافع أيديولوجية محضة¹. ذلك لأنها -كما سبقت الإشارة- ليس لها حق إصدار أوامر وتعليمات لمسؤولي لبنان على نحو مباشر، لذا تشترط التحرك والقيام الصائبين وتصدر أوامر غير مباشرة على هذا المنوال. ولعل الغرض من هذا الخيار هو أن تسيجهم وتقيدهم بالإشارة إلى أن صندوق النقد الدولي يعرف مجالات الخصاص والضرر، ويعرف الإجراءات التي يجب القيام بها، وأين ينبغي صرف المخصصات المالية الجديدة. هكذا فإن توظيف الحدث (التحرك/القيام) فاعلا نحويا، ينوب عن سيتحرك، وعن سيقوم.

فائدة:

مما سبق في نقد التلاعب بالفاعلية الخطابية والفاعلية النحوية، يتضح أن الفاعل في الخطابات ذات الطابع السلطوي من خلال التلاعب والهيمنة والتحكم، ليس بالضروري أن يكون فاعلا نحويا بارزا بعلامته الإعرابية، أو بموقعه في ترتيب عناصر الجملة، أو وظيفته الخطية. فالفاعل في هذا النمط من الخطابات هو المقصود بالممارسة السلطوية، وكما يمكن الإشارة إليه بالعلاقة النحوية الصريحة والبارزة، يمكن الإشارة إليه بالإضافة وبالحدث الذي يُنتظر منه القيام به، أو الحدث الذي قام به. كما أن من مظاهر التلاعب بالفاعلية أن صناع الخطابات يُسندون الفعل إلى غير صاحبه، أي يُسندونه إلى ذواتهم ومراجعهم الأيديولوجية إذا كان يخدم مصالحهم، وقد يُسندونه إلى غيرهم أو منافسيهم إذا كان مسيئا إلى مرجعهم الأيديولوجي.

4. حفظ الموقع بنوع الجملة

تُشاع تفسيرات كثيرة لنوع الجملة الاسمية والأخرى الفعلية، ومن أبرزها أن الجملة الاسمية تفيد الثبات والاستقرار، وأن الجملة الفعلية تفيد الحركة والحيوية. لكن، في نمط الخطابات السلطوية، قد تفيدان دلالات أخرى أيديولوجية تتوخى الهيمنة الخطابية على الإدراكات والمواقف الاجتماعية والسياسية والفكرية. وفي هذه الفقرة، تقدم الأطروحة نموذجا لتمثيل أطماع الهيمنة الخطابية باعتماد الجمل الاسمية، ونماذج لنقد ما يمكن أن تمارسه من السيطرة الإدراكية الخطابية.

الخطاب المقترح للتحليل والنقد اللساني لخيار الجملة الاسمية هو خطاب الرئيس العراقي برهم صالح إبان احتجاجات الشعب العراقي على تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية،

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 170.

والذي ألقاه في 31 أكتوبر 2019¹. تفرض طبيعة الخطاب الشفهي جملة من الضوابط في تناول الفئات التحليلية المرشحة للنقد هنا، إذ إنه خطاب يأتي في مقاطع مستقلة عن بعضها البعض وإن كانت لها وحدة موضوعية عموماً - وتختلف من حيث أنواع الجمل الموظفة في كل منها بحسب المرامي الفعلية المضمرة لمنشئ الخطاب. لذلك، لا بد من التركيز في النقد اللساني على الجمل الاسمية الكبرى فقط، على اعتبار أن الجمل الاسمية أو الفعلية الصغرى التي هي جزء منها، وركن يُؤوّل بالمفرد من أركانها، تكون تكملة لمعناها العام؛ أي إنها لا يمكن أن تُحلّل بشكل منعزل.

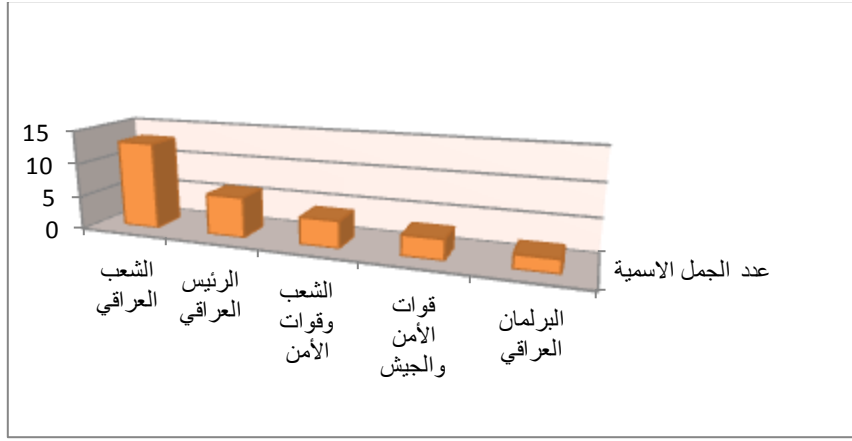
عموماً، يتوق النقد اللساني لخيار الجملة الاسمية إلى بيان الغايات التي لأجلها اعتمد صاحب الخطاب الجمل الاسمية وليس الفعلية، وكشف الغايات الأخرى التي قصدتها في حالات اعتماد الجمل الفعلية؛ بمعنى أن المقارنة بين الخيارين من شأنها أن تفضح الغايات. لذلك لا بد من الانطلاق من وصف إحصائي لأمثلة هذه الفئة التحليلية قبل نقدها لسانياً في (1.4) و (2.4).

بناءً على الاعتبار المعلن أعلاه والمتعلق بالتركيز على الجمل الاسمية الكبرى، فقد حُصرت المقاطع التي استُهلّت بجمل اسمية كبرى، وجُردت عدد الجمل من هذا النمط، وهي 28 جملة، اختلفت الأطراف التي توجهت إليها أو تحدثت عنها كما يلي: 13 جملة وُجّهت إلى الشعب العراقي المحتج، 06 جمل تحدثت إما عن موقف الرئيس العراقي من الشعب أو من الأوضاع التي دفعتهم للاحتجاج، 04 جمل تحدثت عن علاقة الشعب بقوى الأمن والجيش العراقي، 03 جمل تحدثت عن قوى الأمن والجيش العراقي فقط، وجملتان وُجّهتا إلى البرلمان العراقي.

ويظهر أن هناك تفاوتاً ملحوظاً في عدد الجمل وتوزيعها على الأطراف التي مُثّلت في الخطاب؛ ولتبسيط هذا التفاوت يُنظر الرسم البياني رقم (4):

1 نص الخطاب منشور على موقع مباشر بتاريخ: 31 أكتوبر 2019. انظر الرابط:

<https://www.mubasher.info/news/3553724/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B5%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%A7%D9%85%D9%84%D9%84%D9%83%D9%84%D9%85%D8%A9%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%A6%D9%8A%D8%B3%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D9%82%D9%8A%D9%84%D9%84%D8%B4%D8%B9%D8%A8/>



شكل رقم(12): توزيع الجمل الاسمية على أطراف الخطاب

1.4. التحوط والاستمالة بالجملة الاسمية:

بالنسبة إلى الجمل الموجهة إلى الشعب العراقي، فقد جاءت كلها إما وصفية أو خبرية. بيد أنها تُصنّف إلى ثلاثة أنماط من حيث مضمونها وما تهدف إليه، فثمانية منها ركزت على الشعب المحتج، واستغرقت في كيل المديح له، والإعلاء من شأنه، وإظهار الموقف الإيجابي والتضامني مع المطالب والاحتجاجات وهي:

(16/أ) أنتم أيها الشباب الأمل والصحة والضمير والصوت الوطني العالي/
معكم في تظاهراتكم السلمية ومطالباتكم المشروعة/ معكم وأنتم ترفعون
الرايات والأعلام العراقية عالياً/ معكم بسلميتكم/ فشرعية الحكم تأتي من
الشعب/ التاريخ يعلمنا أن صوت الشعب أقوى من أي صوت/ إرادة الشعب
هي الأمضى/ أنا معكم.

في حين أن ثلاثة منها أعربت عن اتفاق الرئيس العراقي مع مواقف الشعب المحتج على الأوضاع العامة المزرية للمجتمع العراقي، كالحيف، والفساد، والظلم، والتهميش، والقمع، والاعتداء:

(16/ب) معكم في رفع الحيف ومحاربة الفساد/ معكم بإنصاف القطاعات
المظلومة والمهمشة من أبناء العراق/ ضد أي قمع واعتداء.

أما الجملتان المتبقيتان، فقد عبرتا عن النية الخالصة والوفاء الدائم من الرئيس إلى دولة العراق بصفة عامة:

(16/ج) العراق يستحق منا الكثير/ مستقبل العراق هو هدفنا جميعاً.

الملاحظ في(16/1) أن الجمل الاسمية قد زاوجت بين الوصف المباشر والإخبار المهادن، بحيث وصفت شباب الشعب العراقي بالأمل والصحة والضمير وصوت الوطن، ووصفت إرادتهم بأنها ستمضي؛ أي إنها هي الغالبة وبأن صوتهم هو الأقوى. كما وصفت احتجاجاتهم بالسلمية ومطالبهم بالشرعية، وبأنهم مصدر شرعيته هو بوصفه قائدا للدولة. من ناحية أخرى، فقد أخبرت بموقف الرئيس العراقي الذي يتفق مع احتجاجاتهم.

إن غاية صاحب الخطاب من الوصف والإخبار باستخدام الجمل الاسمية هي مباركة أفعال الشعب، والقبول المبدئي لاحتجاجات أكتوبر 2019. كل ذلك لأنه ينهج استراتيجية خطابية من خلال الاسمية، وهي الاستمالة. لقد تحوط الرئيس العراقي في خطابه بالجمل الاسمية وأعلنت وقوفه في صف الشعب، وأعفته من أن يظهر ناقدا ورافضا لأشكال الاحتجاجات في الشارع العام لو أنه وصفها بجمل فعلية. وهذا في حد ذاته استمالة صريحة.

إن استخدام الجمل الفعلية في وصف حركة الشعب وسلوكه في الشارع سيكثر من الأفعال على المستوى الأسلوبي، والفعل على صعيد الخطاب يسلط كثيرا من الضوء على الفاعل وهو ينجز أفعاله، ويبرز فعل الاحتجاج إلى حد كبير؛ وهنا ستكون الاحتجاجات مركز الاهتمام في الخطاب وبؤرته، فيظهر المتحدث وكأنه يدحض أفعال الشعب ويدينها، وهذا ما يتوقاه تحديدا.

من جهة أخرى، يحتمي الرئيس العراقي بالجمل الاسمية لأنه وهو يكيل المديح للشعب ويستميله، يحقق غاية أخرى، وهي أنه يضمن حتى رضا الأطراف السياسية والأمنية والعسكرية؛ ذلك لأن استخدام الجمل الاسمية في وصف الشعب والإخبار عنه يُظهر المدلولات المصرح بها مسلمات قديمة، أي إنها قائمة وكائنة بالقوة. وبذلك يبدو أن موقفه ليس جديدا وطارئا واستجابة للاحتجاج.

في(16/ب)، يدين ملقي الخطاب الممارسات العنيفة، ويعترف بالفساد ويهاجمه، كما يعترف بوجود ظلم وتهميش في حق الشعب العراقي. وهي جمل تجمع بين الوصف والإخبار في الآن. لكن هذا الوصف والإخبار يسند الشرعية لاحتجاجات الشعب مرة أخرى، ويؤكد أن هناك أطرافا تسيء إليه، وتمارس الفساد. السؤال هنا هو: ما موقع الرئيس من هذه الإساءة ومن هذا الفساد ما دام هو المسؤول السياسي رقم واحد في البلاد؟

إن الوصف والإخبار بالجمل الاسمية هنا يُخرج الرئيس العراقي من دائرة المتهمين بالفساد والظلم والتهميش، بحيث إن اتفاقه مع الشعب وإدانتته لهذه الممارسات المسيئة له، يؤكد

بأنه يمثل طرفا ثالثا وليس من ضمن من يسيء للشعب، ولكن بحذر شديد. يكمن الحذر في كونه لم يشر إلى أي فاعل نحوي أو خطابي بشكل صريح، لأن الجمل الاسمية في (16/ب) لم تتضمن أي فعل؛ وحيث لا يوجد فعل لا يوجد فاعل من الناحية النحوية. وافترضنا، لو أنه استخدم أفعالا معبرة عن التهميش والظلم والفساد، لأثبت الفواعل المقصودة إما صراحة، أو إضمارا، أو إحالة ضمنية.

إن نمط القول الاسمي يلزم المشاركين في الخطاب بيقينية العبارة الخبرية كما يرى نورمان فيركلف¹، أكثر مما يلزمها بافتراض تحمل الرئيس لمسؤولية الأوضاع المتأزمة. وهو افتراض سيتحقق فقط من خلال القول الفعلي الذي يشير إلى فاعل مسؤول؛ لأن صيغ الجمل تدل على ما يعتقد المتكلم وما يقصده.

بالانتقال إلى (16/ج) يتضح أن الرئيس العراقي ما يزال يسعى إلى التحوط ويحاذر من أجل أن يضمن رضا الطرفين معا، السياسيين والشعب. أولا لأنه غير الطرف المتحدث عنه، فبعد أن ركز على الشعب صراحة، وأدان المسؤولين السياسيين ضمنا، ها هو يتحدث عن العراق بصفة عامة. وثانيا لأنه غير الحديث عن كل طرف على حدة، إذ طفق يتحدث عن جميع الأطراف بمن فيهم هو؛ يتأكد ذلك من خلال توظيفه لضمير المتكلم الجمع في الجملة الأولى من (16/ج): منا، والجملة الثانية كذلك: هذهنا، ناهيك عن توظيفه للحال جميعا ليشمل الكلام الكل.

إن وظيفة الجملتين في (16/ج) هي الاستدراك وإظهار الاتفاق مع الشعب والمسؤولين السياسيين، بحيث يتدارك صاحب الخطاب إدانته للسياسيين، ويستمر في مباركته للاحتجاجات.

في ما يخص الجمل الاسمية الثلاثة التي وُجّهت إلى قوات الأمن والجيش، فالجملتان الأوليان جاءتا وصفيتين، والثالثة تتضمن خبرا صريحا:

(17/أ) القمع مرفوض.

(17/ب) استخدام القوة والعنف مرفوض.

(17/ج) دعم القوات الأمنية مسؤوليتنا جميعا.

1 نورمان فيركلف، تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ص: 306.

تبدو الدالتان اللتان أطلقهما صاحب الخطاب في (17/1) و (17/ب) مبدئين ساميين في كل مجال وكل مكان. ولكن الجملتين تأتيان في سياق القمع الذي يتعرض له المحتجون العراقيون في الشارع، لذلك فهما إدانتان لأعمال العنف التي يقوم بها رجال الأمن والجيش، وإن لم يتجه إليهم بشكل مباشر. إلا أن اعتماد الاسمية هنا أتاح للرئيس العراقي ألا يبدو متناقضا مع ذاته، لأنه هو القائد الأول وصاحب الأمر والنهي، والمسؤول الأول عن أفعال الشرطة والجيش.

تعليل ذلك أن الجملتين الاسميتين مكنتاه من عدم إظهار أي ضمير يحيل إليه أو إلى مؤسسته. ويمكن تصور العكس في حالة استخدام الجمل الفعلية، إذ من الضروري أن يظهر الضمير العائد عليه مثل (نرفض القمع، نرفض استخدام القوة والعنف)؛ ففي هذه الحالة، سيضمن بالفعل رضا الشعب، ولكنه سيعلن الحرب على رجال الشرطة والجيش وعلى نفسه قبل أي أحد. إذن، فالجمل الاسمية خولت له أن يساسس الطرفين معا، وأن يتحوط من الوقوع في التناقض وإدانة الذات ومؤسسة رئاسة الجمهورية.

على نقيض ذلك، تضمنت الجملة الاسمية في المثال (17/ج) ضميرا للمتكلم الجمع يعود على الرئيس، بمعنى الإعلان الصريح للدعم من الرئيس إلى الشرطة والجيش، وهذا نابع من كونه صاحب الأوامر الأول. ولكن، ولكي لا يسقط في تناقض آخر، وهو رفض القمع ودعم القامع، أرفف ضمير المتكلم الجمع في (مسؤوليتنا) بالحال **جميعا**، إشارة إلى نفسه، والشرطة والجيش، والشعب مجتمعين. وقد خول هذا الجمع بين ضمير المتكلم الجمع و(جميعا) للجملة الاسمية أن يبدو الكلام فيها خاصا بالنسبة إلى رجال الشرطة والجيش، وعاما بالنسبة إلى الشعب. فالخصوص يهادن به الشرطة ويعلن موافقته على تدخلاتها، والعموم يُشرك فيه الجميع ليظهر الكلام مطلقا وليس قصرا على احتجاجات الشعب العراقي خلال شهر أكتوبر 2019 فقط.

2.4. حجاج الجملة الاسمية بالعطف والإحالة:

أتاحت الجملة الاسمية كما اتضح لصانع الخطاب أن يستميل الشعب المحتج، وألا يظهر معارضا لأفعال قوات الجيش والأمن في آن واحد. في ما يلي، تأثير آخر لخيار الجملة الاسمية في المثالين (18):

(18/ا) هم أنتم وأنتم هم.

(18/ب) أنتم تعبرون عن مطالبكم وهم يحفظونكم ويحفظون

الأمن والنظام.

لإبراز دور الجملة الاسمية في(18/ا) و (18/ب)، تؤثر الأطروحة الانطلاق من افتراض تأثير مضمونها في حالة الجملة الفعلية؛ إذ إن استخدام الفعل سيفرض على صاحب الخطاب أن يدلي بموقفه صريحا في وجه الشعب ووزارة الداخلية(قوى الأمن والجيش على وجه الخصوص)، فمع الفعل سيظهر الضمير العائد على المتكلم، وحينئذ لن يستطيع إخفاء موقفه من الاحتجاجات أو من الرد عليها بالعنف والقمع.

في الجملتين معا، حذر شديد من الرئيس العراقي، يتجلى في المساواة بين الطرفين المتصارعين في الساحة؛ وقد تحقق ذلك من خلال إيلاء القدر نفسه من الوصف، وحجم الكلام، وعدد عناصر الجملة. إن هدفه الأساس هو أن يحمي موقعه في نظر الطرفين معا، لذلك فقد حاول في(18/ا و 18/ب) أن يلغي أي احتمال لأي إحساس قد يتبادر لأحد الطرفين بخصوص ميله للطرف الآخر ومساندته له؛ وقد تأتي له ذلك بعطف الجملة الموجهة إلى رجال الأمن والجيش على الجملة الموجهة للشعب، بالإضافة إلى المناوبة في تحديد موقع الضميرين المحيلين إلى الطرفين(هم/أنتم)، فكلاهما شغل موقع المبتدأ والخبر من جملة إلى الأخرى.

لقد مكن عطف الجملتين الاسميتين في(18/او18/ب) صاحب الخطاب من أن يتعامل مع الطرفين من موقع واحد، وضمن له أن يقف على المسافة نفسها من كليهما. وبذلك يتأكد أن غايته في هذه الحالة هي أن يحفظ موقعه في خضم الصراعات القائمة في شوارع العراق. اضطرت هذه الغاية المبيتة الرئيس العراقي إلى أن يستند إلى الكذب وتحريف الوقائع على نحو لا يدينه ولا يورطه، إذ طفق في(19) يدعي معطيات منافية للسياق الراهن ولكن بسلاسة الجمل الاسمية:

(19/ا) هذه الأخوة ما بين المتظاهرين وقوى الجيش والأمن هي التي

ساعدت على أن تتحول هذه التظاهرات الكبيرة إلى احتفاليات عظيمة

بالوطنية العراقية وبارتفاع الأعلام الوطنية والنشيد الوطني في الشوارع

والساحات بعزم ملايين الشبان.

(19/ب/) الحل في تعاون الجميع من أجل حفظ الأمن العام ومواجهة

المجرمين.

إن الرئيس العراقي في (19/1) يستमित في بذل كل السبل لخلق وشيجة بين الشعب وقوى الأمن والجيش وإن على مستوى الإدراك، أو على الأقل أن يفهم الطرفان ويتأكد بأنه لا يميل لأي طرف على حساب الآخر. لذلك فهو يدعي أن هناك أخوة، وقد أشار إليها باسم الإشارة المعرب مبتدأً. ويحقق اسم الإشارة أيضا إحالة قبلية إلى ما جاء في (18/1 و 18/ب)، إذ يصف ما أكده العطف بأنه أخوة، وهذا ما لا صلة له بحقيقة العلاقة في ساحة الاحتجاجات؛ حيث سقطت الأرواح وارتفعت أعداد الجرحى والمعتقلين.

من دلائل الكذب والادعاء أن الرئيس حول الصراع في الشارع إلى احتفالية عظيمة في خطابه. ولذلك الغرض، لم يأت الخبر اسما بل جاء جملة فعلية تفيد الانتقال والتحول (ساعدت/تتحول). إن هذه الجملة الاسمية (19/1) تتيح للرئيس العراقي أمرين اثنين: أولهما أن المبتدأ (اسم الإشارة) ربط بين ما جاء في (18) واصفا إياه بالأخوة، والثاني أنه جعل جملي المثال (18) مقدمة أولى، وخبره (ساعدت...) نتيجة لها باعتبار ما قبلها ومقدمة ثانية باعتبار ما بعدها؛ أي (19/ب).

تعتبر الأطروحة الجملة الاسمية في المثال (19/ب) نتيجة للمقدمة الثانية في (19/1) لأن المساواة والتكافؤ في (18) يؤدي إلى الأخوة في (19/1)، والأخوة في (19/1) تؤدي إلى ما تضمنته (19/ب): الحل هو تعاون جميع الأطراف. ويمكن نمذجة هذه العلاقة الحجاجية بين الجمل الاسمية في (18) و (19/1) و (19/ب) كما يلي:

مقدمة 1	←	تجسيد التكافؤ بين الطرفين
<u>نتيجة 1</u>	←	<u>هذه الأخوة</u>
<u>مقدمة 2</u>	←	<u>هذه الأخوة</u>
نتيجة 2	←	تعاون الجميع

شكل رقم (13): العلاقة الحجاجية بين الجمل الاسمية في الأمثلة (18 و 19/1 و 19/ب)

ومن مظاهر اعتماد الرئيس العراقي على الإجراءات الحجاجية القائمة على توالي الجمل الاسمية وتجاورها كذلك، ما جاء في المثالين (20):

(20/1) في هذا الظرف لا بدّ من عمل استثنائي للبرلمان.

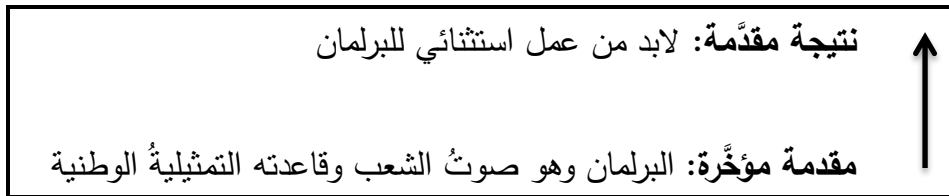
(20/ب) البرلمان وهو صوت الشعب وقاعدته التمثيلية الوطنية ينبغي أن

يكون أول من يتصدى لمطالب المتظاهرين.

ينتقل صاحب الخطاب هنا إلى الحديث عن البرلمان من خلال جملتين اسميتين فقط، ولكنهما تركزان معا على دور البرلمان تحديدا. فبعد أن غازل الشعب وساند قوات الأمن والشرطة، فقد قرر أن يتملص من المسؤولية العامة لما يقع وللأوضاع العامة المتردية اجتماعيا واقتصاديا.

يظهر الإجراء الحجاجي من خلال قلب لترتيب المقدمة والنتيجة الحجاجية، فالجملة في المثال (1/20) هي النتيجة المرجوة، أي أن يقوم البرلمان بعمل استثنائي لتحسين الأوضاع وإيقاف الاحتجاجات. ولكن الجملة الاسمية في المثال (20/ب) تذكر بتعريف البرلمان ومهامه، وهو أنه صوت الشعب وقاعدته التمثيلية. وبذلك فإنه قد قدم النتيجة وأخر المقدمة؛ لأن تعريف البرلمان تذكير للبرلمانيين وللشعب بأن هناك سلطة تشريعية هي التي تتحمل المسؤولية في ما آلت إليه أوضاع الشعب العراقي.

إن سر تقديم النتيجة على المقدمة هو أن الرئيس العراقي يود أن يبرئ ذمته من أسباب الاحتجاجات، ونشوب الصراع بين الشعب وقوات الأمن والجيش؛ بحيث إن المقدمة في (1/20) تضمنت اسم إشارة محيل إلى السياق العام للصراع (في هذا الظرف)، وموجها شرطيا تفيد الوجوب (لا بد..). تلزم البرلمان بحل المشكل. وبعد ذلك أدرج المقدمة متأخرة بوصفها حجة على النتيجة المقدّمة. ويمكن نمذجة هذه العلاقة الحجاجية كما يلي:



شكل رقم (14): العلاقة الحجاجية بين الجملتين الاسميتين في (1/20 و 20/ب)

إن وظيفة الجملة الاسمية في هذا الإجراء الحجاجي هي أنها متخذة وسيلة لتبرئة ذات الخطيب، بحيث ضمننت له سهولة الربط بين البرلمان ومظاهر الصراع في الشارع دون أن يظهر هو في خضم هذه العلاقة المتشنجة. وفي الآن نفسه، قدمت له فرصة لإقناع الشعب وقوات الشرطة والجيش بأن ولا واحد منهما يتحمل مسؤولية ما يقع. ومنه، فقد استهدف أن يركز المحتجون في احتجاجاتهم على البرلمان وليس على الرئيس أو على قوات الشرطة والجيش.

3.4. تمثيل الجملة الفعلية لسلطة الذات والإنجازات:

بلغ عدد الجمل الاسمية التي تترجم موقف الرئيس الصريح من الأزمة التي خلفتها احتجاجات أكتوبر 2019 ستة جمل، خمسة منها لا تتحدث عنه هو نحوا وصراحة، وواحدة فقط تحيل إليها شخصيا ومنفردا. وترجئ الأطروحة الحديث عن هذه الجملة السادسة، وتقدم الجمل الخمسة وفق معيار الانتقال من المشاكل إلى الحلول:

(1/21) يقيناً إن الوضع القائم غير قابلٍ للاستمرار.

(21/ب) الحل في الإصلاح.

(21/ج) نحن فعلا بحاجةٍ إلى تغييراتٍ كبيرةٍ لابدء من الإقدام عليها.

(21/د) المطلوب هو إجراءات سريعة تفتضيها المسؤولية القانونية

لمحاسبة المجرمين والمقصرين في استخدام العنف المفرط أثناء

الاحتجاجات الأخيرة وتقديمهم للعدالة عبر القضاء.

(21/هـ) لا فضل لأحدٍ بهذا الإنصاف، إنه مسؤوليةٌ وأمانة.

تلخص مجموعة الأمثلة (21) الممارسة الاجتماعية موضوع خطاب الرئيس العراقي بشكل مكثف، بحيث يصف في (1/21) الوضع غير المستقر بسبب الاحتجاجات والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية، ويشير إلى الحل المتمثل في الإصلاح في (21/ب)، ثم يعلن بعض إجراءات الإصلاح بدءا بإحداث تغييرات في (21/ج)، ثم محاسبة مستخدمي العنف في (21/د). أما (21/هـ)، فاستعراض لمبدأ دستوري هو المسؤولية والأمانة.

إن اعتماد الاسمية في أمثلة المجموعة (21) يعزز فكرة أيديولوجية يبذل الرئيس قسارى جهده لترسيخها إدراكيا لدى فئات الشعب العراقي، وهي أنه بريء من الأزمة الاقتصادية، ومن ممارسة العنف في الشارع. ذلك لأنه قدم من خلالها أوصافا وأخبارا تدين القمع، وتلقي اللوم على السلطة التشريعية وأجهزة الأمن والجيش من باب طلبه محاسبة المعنّفين ووصفه إياهم بالمجرمين. إلا أن الاسمية تضرر المقصودين الفعليين لأنه لم يوظف أي فعل مسند إليهم في الجمل الخمسة؛ حتى لا يظهر منحازا لأي طرف.

إن الاسمية في المجموعة (21) تلغي الأحداث وتحجب الأفعال والأنشطة الصادرة عن جميع الأطراف، ولكنها تحيط بكل حيثيات الموضوع. والأهم أنها لا تتهم أحدا بشكل مباشر،

ولكنها توقع على الإدانة في الآن نفسه. أما إن استخدم الجمل الفعلية، فإن الأفعال ستمثل أحداثاً وتشير إلى الفاعلين القائمين بها، إيجاباً أو سلباً.

تتضح أهمية استخدام الجمل الاسمية دون الإشارة إلى فاعلين اجتماعيين عند إلقاء نظرة في المثال (22)، حيث إن الرئيس العراقي - وإن في جملة اسمية- أحال إلى نفسه بضمير المتكلم (إنني)، وهذه ثاني جملة اسمية فقط يحيل فيها إلى ذاته بعد جملة (أنا معكم) في مجموعة الأمثلة (1/20):

(22) إنني أوصل شخصياً المشاورات واللقاءات مع مختلف الكتل والقوى والفعاليات الشعبية.

زيادة على ذلك، خبر هذه الجملة الاسمية جملة فعلية تتضمن فعلاً مضارعاً، والفاعل فيه ضمير مستتر يعود على الرئيس نفسه؛ بمعنى أنه وإن استخدم جملة اسمية فقد أحال إلى نفسه بضميرين، ووظف فيها فعلاً لم يوظفه في الجمل (1/21؛ 21/ب؛ 21/ج؛ 21/د؛ 21/هـ). لكن ما السر في هذا الاختيار المعتمد على إظهار الأنا واستخدام الفعل؟

لقد طفق الرئيس العراقي في استعراض القدرات، والوعود، والإجراءات المنسوبة إلى مؤسسة رئاسة الجمهورية. لذلك فإن إبراز ما يمثل ذاته وحركيته وفاعليته تركيبياً بات مطلباً ملحا. وقد أكد ذلك بالحال (شخصياً) التي تحيل إلى شخصه على نحو مباشر. من الدلائل المؤكدة لاستخدامه الأفعال لاستعراض الحلول والإجراءات الخادمة للشعب، أنه وظف تسعة جمل فعلية في خمسة مقاطع كلها تشير إليه بأحد عشر ضميراً صريحاً، ظاهراً أو مستتراً، وبأفعال هو فاعلها؛ ناهيك عن ذكره لاسم المؤسسة التي يرأسها أربع مرات:

(1/23) نؤكد: هنا أنه تمت المباشرة بإحالة ملفات فسادٍ إلى القضاء للبتِّ فيها على وفق القوانين والأحكام السارية.

(23/ب) أشير: إلى أننا في رئاسة الجمهورية باشيرنا فعلاً عملاً متواصلاً من أجل قانون انتخاباتٍ جديد، مقنعٍ للشعب، ويعالج مشكلاتِ القانونِ السابقِ ويسمحُ بانتخاباتٍ أكثر عدلاً وأشدَّ تمثيلاً لمصالح الشعب بما في ذلك حق الترشح للشباب، وبما يحمي أصوات الناخبين ويمنع محاولات التلاعب والتزوير.

(23/ج) نتوقع: في الأسبوع المقبل تقديم مشروع القانون الذي نعلم عليه بالتعاون بين دوائر رئاسة الجمهورية وعددٍ من الخبراء المختصين والمستقلين إضافةً إلى خبراء الأمم المتحدة.

(23/هـ) باشرنا: في دوائر رئاسة الجمهورية برعاية حوارٍ وطني للعمل من أجل معالجة الاختلالات البنوية في منظومة الحكم وفق السياقات الدستورية والديمقراطية.
(23/و) أريد: أن أؤكد أني كرئيس للجمهورية سأوافق على انتخاباتٍ مبكرة باعتماد قانون الانتخابات الجديد والمفوضية الجديدة للانتخابات.

لقد مثلت الأفعال التسعة قدرة الرئيس العراقي برهم صالح على العمل والمشاركة والإحداث، وهو ما لم تمثله الجمل الاسمية في مجموعة الأمثلة رقم (21)؛ بحيث إن المرء عندما يقرر: "التمثيل في النص لعمل أو حدث أو حالة أو علاقة، سواء أكانت أي من هذه حقيقية أم خيالية، فكثيرا ما يتوافر له أن يختار نمطا من الأنماط النحوية المختلفة للعمل والمشاركة، وقد تكون لما يختاره دلالة أيديولوجية"¹. والحقيقة أن اختيار الجمل الاسمية، والجمل الفعلية، نمطان نحويان يؤديان دلالتين أيديولوجيتين، أولاهما هي تحميل الأجهزة الأمنية والعسكرية والحكومة والبرلمان مسؤولية ما يقع، وثانيتها هي أنه ظهر فاعلا ومتحركا ومشاركا في إيجاد الحلول وتلبية مطالب الشعب من خلال الأفعال التسعة.
فائدة:

أسهم خيار الجملة الاسمية في حفظ موقع الرئيس بين النقيضين، ومكنته من الوقوف على المسافة نفسها من جميع الأطراف. كما خول له أن يوارب حتى لا يقدم نفسه معارضا لأي طرف. ذلك لأن الجملة الاسمية تتيح للمتكلم ألا يقصد أحدا بأي ضمير وأي فعل. لذا، فقد أقدرته على التحوط والاستمالة من جهة، ثم على تبرئة الذات حاجيا من جهة ثانية.
أما خيار الجملة الفعلية، فقد منحه فرصة الاستعراض وإبداء الاقتدار وممارسته السلطة، وذلك لأن الأفعال والضمائر كلها أحالت إليه دون غيره في الجمل الفعلية.

5. إقصاء الآخر بالاستدراك والظرف الفجائي

1.5. الإقصاء بالاستدراك:

يعرف الشريف الجرجاني الإضراب في الاصطلاح النحوي بأنه: الإعراض عن شيء بعدما تم الإقبال عليه². ويعرف الاستدراك بأنه رفعٌ للتوهم الذي قد يوحي إليه الكلام السابق³.

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 166.

2 الشريف الجرجاني، التعريفات، ص: 29.

3 المرجع السابق، ص: 21.

وللإضراب أداة تختص به هي (بل)، وقد تفيد في رأي ابن هشام الأنصاري إبطال الحكم الذي قبلها، أو الانتقال من الغرض في الجملة التي قبلها إلى غرض آخر في الجملة التي بعدها، شرط أن تليها جملة¹؛ لأنها إن تلاها المفرد كانت عاطفة².

وللاستدراك في نظر ابن هشام الأنصاري أداتان: (لكنّ) المشددة التي تنسب إلى ما بعدها حكما مخالفا لحكم ما قبلها على وجه التناقض أو التضاد أو الخلاف³. ثم (لكن) المخففة في أصل الوضع، التي إن تلاها كلام تكون حرف ابتداء لمجرد الاستدراك⁴. غير أن له رأيا في (بل)، بحيث يرى أنها: "حرف استدراك وإضراب، فإنها بعد النفي والنهي بمنزلة لكن سواء"⁵؛ وقصده أن بل قد تخرج عن الإضراب لتفيد الاستدراك بعد جملة منفية ونهي.

بالعودة إلى خطاب تنصيب دونالد ترامب، تبرز أربعة أمثلة لاستخدام الاستدراك، وهي المجمعة في مجموعة الأمثلة رقم (24):

(1/24) اليوم لا نقوم بمجرد نقل السلطة من إدارة إلى أخرى، أو من حزب إلى آخر،

[بل] إننا نقل السلطة من واشنطن العاصمة ونعيدها إلى الشعب الأمريكي.

(24/ب) ازدهر السياسيون و[لكن] تركت الأعمال وأغلقت المصانع.

(24/ج) حمت المؤسسة نفسها، [لكنها] لم تحم مواطني بلدنا.

(24/د) لن نقبل بعد الآن سياسيين يتحدثون ولا يفعلون، ويشتكون دائما و[لكن] لا

يفعلون شيئا لعلاج ذلك.

إن المشترك بين جمل مجموعة الأمثلة رقم (24) هو أنها تشترك في تضمينها لحكمين متخالفين تتوسطهما أداة استدراك، إما بل أو لكن. وتجدر الإشارة إلى أن الأداة (بل) في (1/24)، لم تفد الإضراب لأنها جاءت بعد نفي كما أشار ابن هشام الأنصاري؛ وبذلك فهي تنزل منزلة (لكن).

نحويا ودلاليا، تثبت أدوات الاستدراك في جميع الأمثلة الأحكام التي أُطلقت على ما قبلها، ولكنها تتدارك لتثبت أحكاما مخالفة لما قبلها على هذا النحو:

1 ابن هشام الأنصاري، المغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق: مازن المبارك وحمد علي حمد الله، مراجعة سعد الأفغاني، دار الفكر، دمشق، ط1، 1964، ج1، ص119.

2 المرجع السابق، ج1، ص120.

3 المرجع السابق، ج1/ص322.

4 المرجع السابق، ج1/ص324.

5 المرجع السابق، ج1/ص728.

(24/أ) نقل السلطة من إدارة إلى أخرى # نقل السلطة من العاصمة إلى الشعب.

(24/ب) ازدهار السياسيين # ترك الأعمال وإغلاق المصانع.

(24/ج) حماية المؤسسة # عدم حماية المواطنين.

(24/د) سياسيون يشكون # سياسيون لا يعالجون المشاكل.

أما خطابيا، فإن الجمل التي ما قبل أدوات الاستدراك في الأمثلة كلها تمثل إدارة أوباما السابقة، في حين أن ما بعدها يمثل مصالح الشعب الأمريكي عموما. إن الوظيفة الخطابية التي أداها الاستدراك في هذه الأمثلة تتجلى في إذكاء العداء من الشعب إلى الإدارة السابقة، وإظهار ذات المتحدث الملقى للخطاب فاضحا لكل التجاوزات، ومنقذا لعموم المواطنين.

إن الاستدراك في هذه الحالة لم يكن مجرد اختيار أسلوب عفوي أو اعتباطي، وإنما كان خيارا نحويا مقصودا، يتوخى ممارسة استراتيجية سلطوية خطابية هي إقصاء الآخر وتمجيد الذات. يتضح ذلك فقط من خلال متابعة تسجيل هذا الخطاب¹ لمعينة حجم المكاء احتجاجا على الإدارة السابقة، وحجم التصدية والهتاف احتفاءً بصاحب الخطاب.

من ناحية أخرى، ولاسيما من حيث الوظيفة الحجاجية لأداة الاستدراك(لكن)، يمكن اعتبار دلالات الجمل التي قبل(لكن) حججا، ودلالات الجمل التي بعدها نتائج، إذ إن هذه الأداة تعتبر في النظرية الحجاجية اللغوية رابطا حجاجيا يفيد الحجاج والإبطال: ف"كل أداة، أي أن كلا من "بل" و "لكن" يستعمل للحجاج ولالإبطال"². والحق أن "لكن" في مجموعة الأمثلة رقم(24) قد أدت تانك الوظيفتين معا، أي إنها ربطت بين حجج ونتائجها، ثم إنها أبطلت ما قبلها وأكدت ما بعدها³.

1 تسجيل خطاب ترامب في موقع قناة (ABC News) على اليوتيوب: <https://youtu.be/sRBsJNdK1t0>

2 أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، دار العمدة في الطبع، ط1، 2006، ص: 57.

3 في دراسته للرابط الحجاجي(لكن)، قدم الدكتور أبو بكر العزاوي نماذج تحليلية مطبقة على آيات من القرآن الكريم مبينا أن (لكن) قد تفيد أحيانا الوظيفة الحجاجية فقط دون الوظيفة الإبطالية؛ ومن هذا القبيل ما طبقه على الآية 55 من سورة يونس(ألا إن وعد الله حق، ولكن أكثرهم لا يعلمون)، إذ جاء على لسانه: "وإذا عدنا إلى المثال الأول، فنسجد أن (لكن) الواردة في هي (لكن) الحجاجية، فهناك تعارض حجاجي بين ما يتقدم الرابط وما يتلوه، فالقسم الأول من الآية(إن وعد الله حق) يتضمن حجة تخدم نتيجة من قبيل(سيقوم الناس بالواجب) او (سيطيعون ويتقون)، والقسم الثاني من الآية(أكثرهم لا يعلمون) يتضمن حجة تخدم نتيجة مضادة للنتيجة السابقة: (لا-ن)، أي تخدم نتيجة من نمط: (الناس) غافلون) أو (لن يطيعوا ربهم ولن يتقوه. وبما أن الحجة الثانية أقوى من الحجة الأولى، فإنها ستوجه القول بمجمله نحو النتيجة(لا-ن)". انظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص.ص: 58-59.

2.5. الاستدراك بالظرف الفجائي:

استغل دونالد ترامب مقطعا من خطابه تبلغ مدته دقيقة كاملة، خصصها لممارسة استراتيجية إقصاء الآخر وتمجيد الذات من خلال الاستدراك، وذلك بتعزيز أحاسيس العداة لإدارة أوباما وتكريس الإعجاب بملقي الخطاب. والحق أن هذا الأمر لم يتحقق فقط بالاستدراك، وإنما ببناء تركيبى آخر شبيه به؛ أي بالفصل بين الجمل التي تمثل العداة للآخر، والإعجاب بالمتكلم. وقد جاء هذا النمط التركيبى في خمسة جمل:

(ا/25) قدمنا الدعم المالى لجيوش دول أخرى، [بينما] سمحنا بالتدهور المحزن جدا لجيشنا.

(ب/25) ودافعنا عن حدود دول أخرى، [بينما] رفضنا الدفاع عن حدودنا.

(ج/25) وأنفقنا تريليونات وتريليونات الدولارات في الخارج، [بينما] تقادمت البنى التحتية الأمريكية وأصبحت متدهورة وتمداعية.

(د/25) لقد جعلنا دولا أخرى غنية، [بينما] اختفت ثروة بلادنا وقوتها وثقتها.

(هـ/25) لفترة طويلة جنت مجموعة صغيرة في عاصمة بلادنا مكاسب الحكومة، [بينما] تحمل الشعب التكلفة.

وإن كانت (بينما) في مجموعة الأمثلة رقم(24) ظرف زمان فجائى، فإنها لعبت الدور نفسه الذى لعبته أدوات الاستدراك في مجموعة الأمثلة رقم(24)؛ بحيث أفاد ما بعدها خلاف ما قبلها على هذا النحو:

(ا/25) ' دعم جيوش أخرى # تدهور الجيش الأمريكى.

(ب/25) ' الدفاع عن حدود أخرى # رفضنا الدفاع عن حدود أمريكا.

(ج/25) ' إنفاق تريليونات الدولارات في الخارج # تدهور البنى التحتية.

(د/25) ' جعل دول أخرى غنية # اختفاء ثروة أمريكا وقوتها.

(هـ/25) ' اغتناء مجموعة صغيرة # تحمل الشعب التكلفة.

سواء بأدوات الاستدراك أم بالظرف الفجائى، فقد مارس صاحب الخطاب استراتيجية إقصاء الآخر وتمجيد الذات، وذلك من خلال استعراض النقائص؛ أي إسناد أفعال التخريب والاغتناء وتبييد الأموال وخدمة المصلحة الخاصة للآخر، وإسناد صفة المنقذ والفاضح للحقائق إلى الذات. لأن أداة الاستدراك والظرف الفجائى تقيمان علاقة تعارضية أو تقابلية بين محتوى

الجملة التي قبلها والجملة التي بعدها، وكذلك إذا استُبدلت الأداة بأدوات أخرى مفيدة للتعارض والتقابل مثل: بيد أن، رغم، غير أن ومثيلاتها¹.

خلاصة:

استعرض هذا الفصل بعضاً من أوجه الممارسة السلطوية على صعيد الخطاب من خلال الاستخدامات النحوية، وذلك بالتركيز على مسائل اللزوم والتعديّة، والبناء للمجهول، والتلاعب بالفاعل النحوي والفاعل الخطابى، ونوع الجملة، والاستدراك. وقد أظهر تحليل الأمثلة ونقدها لسانياً أن اختيار الاستخدامات اللغوية في هذه الأنماط النحوية -وفي كل الأنماط النحوية غير الواردة في هذا الفصل- ينطلق من المراجع الأيديولوجية والسياقات الاجتماعية؛ كما يستهدف تحقيق أغراض محددة.

وبشكل عام، فقد انتهى الفصل الأول من هذا الباب الثاني إلى النتائج الآتية:

- مثلت التعديّة مجموعة من الدلالات الأيديولوجية:
 - (1) تقديم ذات المتكلم قادرةً على الإنجاز والفعل (2) تمجيد الذات (3) استمالة الجمهور وتسويد صورة الآخر في نظره (4) إدانة الآخر بتهمة خدمة المصلحة الخاصة.
 - غطى اللزوم دلالات أيديولوجية أخرى لكنها خادمة للمتكلم:
 - (1) نفي القدرة على الإنجاز والفعل (2) تسليط الضوء على تحقيق المصالح الخاصة (3) الإدانة والتوريط (4) تقديم الآخر سلماً (5) إثبات الأفعال السلبية للآخر (6) إظهار الذات متفوقة ومتجاوزة للآخر.
 - يزكي استخدام البناء للمجهول فرضية الدلالة الأيديولوجية ويبسر ممارسة الاستراتيجيات السلطوية مثل:
 - (1) حجب الفاعل الحقيقي (2) الإحالة إلى الأطراف المقصودة بالنقد مع تبرئة الذات (3) النفاذ إلى السلطة الخطابية (4) الاحتراز الواعي والخداع المقصود (5) تأليب الجمهور على الآخر (6) تبرئة المتكلم من مسؤولية محتوى الخطاب (7) التلاعب والمخاتلة.
 - يسهم التلاعب بالفاعلية النحوية والفاعلية الخطابية في:

1 روجر فاوولر، النقد اللساني، ص: 155.

1) حجب الفاعل الحقيقي للأفعال الخلاقة (2) تقمص دور الفاعل والاستلاء على إنجازاته
3) إلغاء الفاعل الحقيقي وإقصائه نهائياً (4) تبرئة الذات (5) الإدانة الصريحة مع التواري
6) الإحالة إلى الفاعل بشكل غير صريح من خلال الحدث الذي يحيل إليه.

• لأنواع الجمل مقاصد أيديولوجية كثيرة، اتضح منها في هذا الفصل ما يلي:

1) إخراج الذات من الصراع (2) إظهار الذات عاملة ومشاركة في حالات العمل الإيجابي
والموقف الخادم لأيديولوجيتها (3) التحوط واستمالة الجمهور.

• يكرس الاستدراك بأدواته أو ما ينوب عنها كالظرف الفجائي، مظاهر السلطة الخطابية:

1) تأجيج الصراع وإنكاء العداء بين الآخر والجمهور (2) إبطال كل إنجازات الآخر (3)
إظهار الذات قوية ومتجاوزة للآخر.

الفصل الثالث

التمثيل الدلالي والتداولي والبلاغي للهيئة الخطابية

تمهيد

1. التمثيل المعجمي والدلالي للهيئة

2. تحكم الاستخدامات التداولية في الإدراك

3. سلطة الأساليب البلاغية والإجراءات الحجاجية

خلاصة

تمهيد:

يسير هذا الفصل في المنحى ذاته الذي سار فيه الفصل الأول، أي بيان طرق تمثيل مظاهر السلطة والهيمنة والتحكم في الخطاب بالخيارات اللسانية المقصودة والمنتخبة، وما تؤديه من وظائف حجاجية وسلطوية وأيديولوجية. ولكن بالتركيز -هذه المرة- على مستويات أخرى هي: المستوى المعجمي، والمستوى الدلالي، والمستوى التداولي، والمستوى البلاغي.

كما يسعى إلى توضيح كيفية تحقيق الخيارات اللغوية في هذه المستويات، للاستراتيجيات الخطابية المكرسة لسلطة اللغة، وخصوصاً: تقديم الذات إيجاباً، وتقديم الآخر سلباً، والوصم الخطابى، وإضفاء الشرعية، والتحكم في الإدراك، وإعادة صياغة السياق، والكذب الخطابى، وتبرئة الذات، والاحتماء والتواري.

وبالموازاة مع بيان طرق تمثيل مظاهر السلطة الخطابية على صعيد المستويات اللغوية والبلاغية المذكورة، يقدم هذا الفصل نماذج لكيفية نقدها وكشف توظيفاتها الأيديولوجية. وينتقي الفصل لتحقيق هذه الأغراض، أمثلة عديدة من مجالات مختلفة، وهي: السياسة، والإعلام، والإعلان التجاري، وخطاب المنظمات الحقوقية.

وقد انبنى اختيار هذه الأمثلة على أساس حساسية الموضوعات التي تناقشها وخطورتها الاجتماعية، وأهمها: العداة السياسي بين الدول والأحزاب، والتطرف، والعنصرية، واستغلال المستهلك، والكذب والتدليس في المجال الحقوقي.

1. التمثيل المعجمي والدلالي للهيمنة:

تقترح هذه الأطروحة دراسة المادة المعجمية للخطابات وفق طريقتين اثنتين، أولهما هي تجريد الألفاظ من علاقاتها الدلالية داخل الخطاب، أي دراسة المعجم الخام بغض النظر عن تلازمات اللفظ أو سياقات وروده؛ وثانيتهما هي دراسة الألفاظ الدالة في سياقات ورودها، وفي علاقاتها التلازمية بالفاعلين الاجتماعيين أو الأحداث الاجتماعية. على أن الطريقتين معا مشروطتان بالتركيز على اللفظ واشتقاقاته الاسمية والفعلية وليس كل الكلمات، يعني أنهما تستثيان الحروف وأسماء الأعلام والمصطلحات التقنية التي لا تفيد في الوصول إلى مرامي الخطاب الحقيقية، وهي كثيرة جداً.

سيركز البحث على مثال مهم للغاية من الناحية المعجمية والدلالية، وهو خطاب للرئيس الإيراني السابق روحاني في الجمعية العامة للأمم المتحدة عادة تراجع الإدارة الأمريكية عن الاتفاق النووي¹.

1.1. التمثيل المعجمي:

1.1.1. نقد المعجم الخام:

باستثناء أسماء الأعلام وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وأسماء الاستفهام، والحروف، والكلمات التقنية كالنفط والاقتصاد والسياسة وغيرها، ضم الخطاب 246 لفظا ذا حمولة دلالية خاصة، ومساهمة في بناء المعنى العام للخطاب. ويمكن عرضها من خلال توزيعها في ثلاث خانات تعبر عن حقول معجمية معينة:

ألفاظ ذات دلالات تطرفية استغلالية	ألفاظ ذات دلالات حربية وخلافية	ألفاظ ذات أبعاد خلاقية
التهصبات / المذهبية / الطائفية / التطرف / المظلوم / المستوطنات / إرهاب*4 / إدمان / عقوبات*8 / استغلال / إملاءات / الضغط*2 / الفقر / عراقيل / فتنة /	قضاوا / القصف / يحترق / نار / الحرب*2 / العدوان*2 / الاحتلال*4 / ضحايا / الإبادة*2 / الدمرة / مكافحة / الأزمة*2 / أقصى*3 / تهديد*2 / قرصنة / إساءة / الجرائم*2 / انتهاك / اعتداء*2 / ضربوا / عدو / سلاح*3 / الاضطرابات / الخطر / المساس / الخلافات / القوات*2 / التصعيد / العنف	التحررية*7 / ساعد*2 / عاون*4 / أرسى / الأمن*17 / مبادرة*3 / تسوية*2 / سلام*16 / البناء*5 / تسهيل / اتفاق*9 / صمد*2 / الاستقلال*4 / التنمية*3 / طليعة / التقدم*3 / التفاوض*12 / التزم*3 / عاهد*8 / احترام*4 / الجميل / فاعلة*2 / الوفاء / صبرنا / عززنا / كبرياء / اقتدار / إيجاب*3 / رضيتم / التنمية / أعلى / نمو*3 / الاستقرار*5 / مشاركة / حافظ*2 / الأمل*5 / تحالف*6 / الارتقاء / الرخاء / تشجيع / التفاهم*2 / الودية / الجماعي / المتكافئة / حاور*3 / وحدة / دعم / حق*6 / أهي / الحل / الديمقراطية / جارة*5 / مستقبل / أفضل / الاستثمار*2 / العدالة / القانون

جدول رقم(3): توزيع الألفاظ على الحقول الدلالية في خطاب روحاني

تشكل الألفاظ ذات الأبعاد الخلاقية والإيجابية نسبة 71.95% من 246 لفظا. في حين غطت الألفاظ الدالة على الحرب والخلافات نسبة 17.88%. أما الألفاظ الدالة على التطرف والاستغلال فلم تتجاوز نسبة 10.16%. ما يمكن فهمه من خلال هيمنة الألفاظ ذات الأبعاد الخلاقية والعطاء الإيجابي هو رغبة المتكلم في تقديم الذات والجهة التي تمثلها محترمة للقانون

1 نص الخطاب الكامل الذي ألقاه روحاني في 25/09/2019 موجود على موقع قناة فرانس 24:

<https://youtu.be/fixicnyRBCz8>

الدولي وملتزمة بمجمل الاتفاقيات المعمول بها. وإن متلقي مضمون الخطاب كما يظهر على السطح يفهم أن هناك نوايا حسنة، وانعدام السعي وراء المصالح الخاصة، والدعوة إلى الصالح العام للمنطقة.

بيد أن تحليل المادة المعجمية يعكس معطيات خطابية أخرى خفية، وهي أن صانع الخطاب يستخدم الألفاظ الكفيلة بنهج نوعين من الاستراتيجيات الخطابية: **تجميل الصورة، والتقديم السلبي للآخر.** دليل ذلك أن الألفاظ في الخانة الأولى مثلت كلها أفعالَ إيران أو استعداداتها أو قدراتها أو إنجازاتها، وهي كلها إيجابية وخلاقة. بمعنى أن المعجم الموظف هنا يُسهم في تجميل صورة إيران في المنتظم الدولي.

لقد سبق لفان دايك أن أشار إلى أن اختيار "المفردات المعجمية" يكون لأداء وظيفية خطابية محضة، ولتحقيق غايات اجتماعية معينة، وذلك من خلال: "اختيار الكلمات ذات الطابع السلبي عند(هم) أو الإيجابي عند(نا)، كما في اختيار كلمة(الإرهابية) عندما نصفه(م)، واختيار عبارة (مقاتل من أجل الحرية) عند وصف مجموعت(نا)"¹. مما يعني أن كثافة الألفاظ الخلاقة والإيجابية في الخانة الأولى كانت من ورائها مقاصد خطابية واجتماعية أبرزها إظهار الذات مثالية. ويعني كذلك أن الألفاظ الدالة على الحرب والأخرى الدالة على التطرف هي إسناد خطابي لأوصاف سلبية إلى الآخر كما سيتضح تاليه.

وإذا كان السياق العام لهذا الخطاب هو اجتماع هيئة الأمم المتحدة بخصوص الاتفاق النووي، فإن الممارسة الاجتماعية الآتية التي يفرضها الخطاب ساعة إلقائه هي إظهار إيران ملتزمة، وغير متأثرة بتراجع الولايات المتحدة الأمريكية عن الاتفاق، وعدم الاحتياج إليها، بالإضافة إلى الاعتزاز والافتتار والكبرياء السياسي. لكن، هل هذه هي صورة إيران بالفعل؟

يجيب المقطع الأخير من الخطاب ذاته بأنها ليست كما هي، إذ يقول روحاني: "هذه هي رسالة الشعب الإيراني: تعالوا لنستثمر في بناء مستقبل أفضل بدل الاستثمار في الحرب والعنف. لنعد إلى العدالة لنعد إلى السلام والقانون والعهود. وأخيراً لنعد إلى طاولة المفاوضات"². يتضح من هذا المقطع أن إيران مستعدة للتفاوض مع الولايات المتحدة الأمريكية، وتطلب -صراحة وعلنا- الجلوس إلى طاولة المفاوضات. لكن هذا يتناقض مع الصورة

1 توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 224.

2 من نص الخطاب الكامل الذي ألقاه روحاني في 2019/09/25 موجود على موقع قناة فرانس 24:

<https://youtu.be/fxicnyRBcz8>

المجملة التي بنتها المداخل المعجمية الدالة على العطاء الخلاق والكبرياء السياسي والاعتزاز بالنفس والاقتدار الاقتصادي وتحدي أمريكا.

إذا كانت المواد المعجمية في الخانة الأولى تجمل صورة إيران خطابيا أمام المشاركين في المؤتمر، فإن نظيراتها في الخانتين الثانية والثالثة تتخرطان في تيسير استراتيجية التقديم السلبي للآخر. في الخانة الثانية، تعبر المداخل المعجمية عن معاني العنف والانتهاك والعداء إلى أقصى الحدود. والحق أنها كلها ألفاظ مسندة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة - إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وخصوصا الطرف الأول. وترجم المداخل المعجمية في الخانة الثالثة معانٍ ودلالات مرفوضة دوليا ويجرمها القانون.

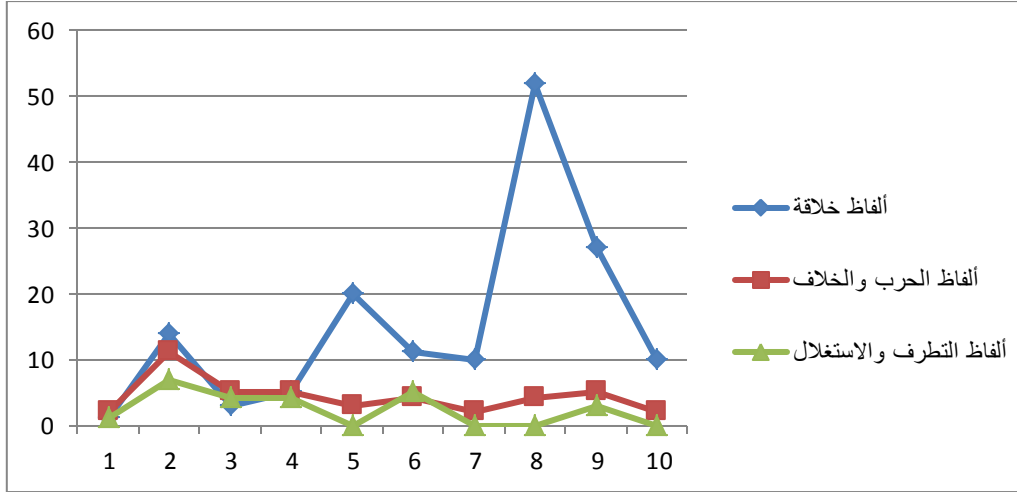
هكذا، فإن المعجم الخام للخطاب يعكس صورتين متافرتين لفاعلين اجتماعيين متناقضين: الصورة الأولى للدولة المسالمة الداعية إلى التفاوض والقادرة على المواجهة السياسية والاقتصادية وغير المتأثرة بكل العقوبات، والصورة الثانية للدولة الضاغطة والمهيمنة التي تتهج العنف والانتهاك على حد تعبير روحاني في خطابه.

إن تركيز المتكلم على تمثيل ذلك الفاعلين نابع من رغبة ملحة في جعل صورتيهما منطقا سليما لدى متلقي الخطاب وترسيخهما أيديولوجيا؛ إذ إن معاني الألفاظ تحتفظ بالحمولة الأيديولوجية وتلصقها بالفاعل الاجتماعي المقصود بها. بحيث إن غزارة الألفاظ الخلاقة المسندة إلى إيران، ودقة اختيار الألفاظ السلبية الواقعة في دائرة الحرب والتطرف، تعززان فرضية المنطق السليم. وفي هذه المسألة يقول نورمان فيركلف: "ونحن ننظر إلى معنى اللفظ باعتباره مسألة حقيقة بسيطة، ولو نشأ أي تساؤل عن الحقائق رجعنا إلى المعجم باعتباره المكان الذي نستطيع التحقق منها فيه. وأما الألفاظ التي نعرفها خير المعرفة، فإنها تعني ما تعنيه وفق المنطق السليم وحسب"¹. ويقصد أن الألفاظ تجعل المعنى حقيقة بسيطة، وأن ما تعنيه يثبت منطقا سليما؛ ولعل ذلك ما سعى إليه خطاب روحاني.

تُظهر المداخل المعجمية في الخانتين الثانية والثالثة الولايات المتحدة الأمريكية دولة حرب وعنف، وزراعةً للتطرف والتعصب، ومستغلة للشعوب ومفقرة إياها من خلال العقوبات الاقتصادية. إلا أن فحوى الخطاب كما نُظم سطحيا وكما ألقى شفويا لم يصل إلى هذا المستوى من المعنى الأيديولوجي. ومن الأدلة على ذلك أن صاحب الخطاب يدعوهم إلى التفاوض في النهاية.

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 130.

من جهة أخرى، يمكن تتبع مواطن البروز القوي أو الضعيف لألفاظ الخانات الثلاثة على امتداد مسار الخطاب الذي جاء مقسما إلى عشرة مقاطع بحسب الموضوعات الجزئية؛ ولتوضيح أكثر يُنظر الرسم البياني الآتي:



شكل رقم (15): توزيع المداخل المعجمية في الخطاب على امتداد المقاطع

يظهر المنحنى الأزرق الذي يمثل الألفاظ ذات الأبعاد الخلاقة والإيجابية، بجلاء، أنها كانت مهيمنة في جميع المقاطع باستثناء المقطع الثالث حيث وصل إلى أدنى مستوياته، وبيان ذلك هو أن صاحب الخطاب في هذا المقطع، لم يجد مجالاً لاستعراض الجوانب الإيجابية والخلاقة وهو يعدد الآثار السلبية للعقوبات الأمريكية على الحكومة والشعب؛ حتى لا يقع في مطب المفارقة: الشكوى والاقتدار.

أما عن ذروة استخدام الألفاظ الخلاقة فقد كانت في المقطعين الثامن والتاسع، وخصوصاً الثامن، حيث كان يقترح مبادرة *أمل للسلام*، ويدعو للتفاوض مع أمريكا مُظهراً حسن نية بلده، ويتفاخر بتحقيق أعلى نمو اقتصادي في ظل العقوبات. أما المقطع الثاني، فقد ارتفع منسوب إيراد ألفاظ الحرب والخلاف (المنحنى الأحمر) لأن الخطاب كان يتهم أمريكا بالإرهاب والحرب والعنف والانتهاك.

هكذا فإن يعكس الرسم البياني في الشكل رقم (15)، إذن، أن نجاح استراتيجية تجميل الصورة (أو تقديم الذات إيجاباً) قد كان هو الهدف الأيديولوجي الأول لدى روحاني، لأن ما دل عليها من الألفاظ الإيجابية والمقبولة والمصادق عليها سياسياً وقانونياً كان مهيمناً وحاضراً في كل المقاطع.

إن المعجم في الخطاب لا يعبر عن كل المضامين والأفكار والأيدولوجيات المقصودة فقط من خلال العلاقات الدلالية والتركييبية التي تتفاعل معها الألفاظ، ولكن تعبيره عنها يظهر أكثر إذا ما استُئل من التركيب وصُنّف حسب الدوائر الدلالية الخام. فصناع الخطابات، وخصوصا الخطابات السياسية، لا يبنون المعاني العامة تركيبيا فقط، وإنما ينتقون المعجم الكفيل بالإسناد الحقيقي للصفات، وتقديم الذوات، وبناء الصور، وتحديد الهويات الاجتماعية، والتحكم في الممارسات الاجتماعية؛ وذلك من خلال السمات المشتركة بين الوحدات المعجمية. ويسمي كالمير ما تقصده الأطروحة بالدوائر الدلالية الخام، سلاسل النظائر¹؛ ويعني أن المداخل المعجمية في نص واحد تشكل شبكة من سلاسل الألفاظ التي تفيد معانٍ متقاربة وتتشترك في أغلب السمات. ويضيف أن لسلاسل النظائر المعجمية علاقة بالمرجعية الواقعية؛ أي إن الوحدات المعجمية التي تشكل سلاسل متناظرة تعبر عن موقف اجتماعي أو ثقافي تنتمي إليه².

2.1.1. نقد التلازم المعجمي:

تكمن أهمية الطريقة الثانية لنقد الاختيارات المعجمية في كونها لا تركز على المادة المعجمية للفظ خارج سياقه التركيبي، وإنما تبحث عن الألفاظ أو المصطلحات أو العبارات والأوصاف التي تلازم التسميات المسندة إلى ما يدل على الفاعلين الاجتماعيين في الخطاب. فالتلازم اللفظي: "هو أن توليفات من الكلمات تنزع إلى الظهور معا في النصوص لأنها ذات صلة بالفكرة ذاته"³. لذلك، لا بد أولا من تحديد أهم الفاعلين الاجتماعيين الحاضرين في خطاب روحاني، والفاعل الاجتماعي هو كل طرف موجود ويفعل داخل الممارسة الاجتماعية، وممثل

1 طرح كالمير مصطلح سلاسل النظائر في الدراسة النصية للمعجم في نموذج المعروف في أوساط اللسانيات النصية *بإسهام النظائر الموسع*، وهو نموذج مطور عن نموذج غريماس المسمى *بإسهام النظائر*. إذ يرى غريماس (1966) أن الوحدة الدلالية للنص مشروطة بالتوافق بين السمات المعجمية التي يتضمنها، والمعنى النصي نتيجة للتكافؤ الدلالي بين الخصائص المعجمية المشتركة (Greimas, A.J, *Sémantique structurale*, Paris, 1966, p: 45). وقد اتفق كالمير مع نموذج غريماس، لكنه تجاوزه باعتبار أن النص لا يتضمن سلسلة واحدة من النظائر (الوحدات المعجمية المتقاربة دلاليا)، وإنما يضم شبكة من السلاسل، ثم ربط هذه السلاسل بالسياق الواقعي والاجتماعي. نقلا عن: فولجانج هاينه وديتر فيهفيتجر (1999).

2 كالمير (1980)، ص: 97، نقلا عن: فولجانج هاينه وديتر فيهفيتجر (1999).

3 روجر فاوولر، النقد اللساني، ترجمة عفاف البطاينة، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2012، ص: 151.

في الخطاب. ومن خلال تدقيق النظر في خطاب روحاني، فقد ظهر أن فيه أربعة فاعلين اجتماعيين أساسيين، وإن كانوا مختلفين من حيث قوة الحضور والمشاركة:

(1) إيران (2) الولايات المتحدة الأمريكية (3) الشعب الإيراني (4) أوروبا

غير أن التسميات التي أطلقت على الثلاثة الأوائل كانت متعددة، في حين أن الفاعل الاجتماعي الرابع ظل يظهر بتسمية واحدة. في ما يلي، جدول موضح للتسميات التي أطلقت على كل فاعل اجتماعي، والعبارات التي لازمتها في سياقات وروده خطائيا:

فاعل اجتماعي رقم 4	فاعل اجتماعي رقم 3	فاعل اجتماعي رقم 2	فاعل اجتماعي رقم 1
أوروبا	الشعب الإيراني	الولايات المتحدة الأمريكية	إيران
التسميات			
أوروبا	شعبنا/ 83 مليون إيراني/ شعبي/ الشعب الإيراني شعب إيران/ الإيرانيين	أمريكا/ الخطط الأمريكية/ الإدارة الأمريكية/ من يدعون هم/ كم/ حوا/ وتم/ القوات الأمريكية/ سئ/ الإملاءات الخارجية	الجمهورية الإيرانية الإسلامية/ بلدي/ إيران/ بلدنا/ وطني/ حكومة/ الاقتصاد الإيراني/ المجتمع الإيراني/ للنتاج المحلي الإيراني/ الميزان التجاري للبلد
التلازمات			
تعهداتها/ الكلام الجميل/ تعجز/ عجزها	كرامة/ معيشة/ صمد/ لن ينسى/ لن يصفح	المدمة/ عقوبات/ تحرم/ قرصنة/ إساءة/ استغلال/ العدوان/ الإبادة الصامتة/ الضغط/ تدير ظهرها/ عدو/ عراقيل/ انتهاك/ اعتداء/ الجرائم/ المجرمين/ أسلحتها/ سلاح/ ضربوا	مساعداً/ تعاون/ الأمن/ الاستقرار/ ملتزمين/ الرفض/ ملتزمة/ السلام/ تعهداتها/ صامداً/ نمو اقتصادي/ أفسى إرهاب اقتصادي/ التنمية/ إيجابيا/ طليعة/ التحررية/ التقدم/ احتراماً

جدول رقم (04): التلازمات اللفظية للفاعلين الاجتماعيين في خطاب روحاني

تجدر الإشارة إلى أن حضور الفاعلين الاجتماعيين رقم (3) و (4) كان أقل بكثير من الفاعلين الاجتماعيين رقم (1) و (2). وفي جميع الحالات، فكلما ظهر مسمى من المسميات المسندة إلى أحد الفاعلين الاجتماعيين الأربعة إلا وظهر معه أحد الألفاظ أو العبارات أو الأوصاف المقابلة له في السطر الأخير من الجدول. ولعل الدلالات الكبرى التي تُستقى من هذه التلازمات اللفظية هي: أن إيران مستقرة سياسياً، قادرة اقتصادية، ملتزمة دولياً، ومتجاوزة للعقوبات الأمريكية. أما أمريكا، فعدو إيران الأول، ضاغطة على الشعوب بقوة السلاح

العسكري، مستغلة للاقتصادات، ومنتهكة لحقوق الشعب الإيراني. في حين أن الشعب الإيراني صامد وكريم ويتوعد أمريكا بدليل العبارتين (لن ينسى/ لن يصفح). أما أوروبا، فعاجزة. إن كشف هذه الدلالات الكبرى لم يحتج إلى تفكيك المستوى المعجمي وتحديد التلازمات اللفظية، بل إن منطوق الخطاب كافٍ لفهمها ببساطة. ولكن، ما الوظيفة الخطابية لهذه التلازمات اللفظية؟

إن اقتران تسميات الفاعلين الاجتماعيين بالألفاظ معينة في كل ظهور لها يؤدي وظيفةً خطابيةً أيديولوجيةً تتمثل في التحكم في الأفكار وبناء الآراء لدى جميع أصناف متلقي الخطاب؛ والهدف المضمّر لهذه الوظيفة هو إنجاح استراتيجية خطابية أخرى تستهدف إقرار الأطماع الأيديولوجية في الممارسة الاجتماعية وجل عناصرها، وهي: الوصم الخطابية. تقصد هذه الأطروحة بالوصم الخطابية إلحاق صفة من الصفات، أو إسناد سمة من السمات، إلى طرف معين لتلزمه ويُعرف بها وتستمر معه خطابياً واجتماعياً.

تعمل استراتيجية الوصم الخطابية من خلال الألفاظ الملازمة للفاعل الاجتماعي على إصاق ما تدل عليه من المعاني القديحة أو المدحية به، وإشاعتها خطابياً واجتماعياً. وبالنظر إلى الخطاب المدروس في هذه المرحلة، فإن ظهور التسميات المسندة إلى الولايات المتحدة الأمريكية كلها كانت قديحة سلبية وعنوانها هو الإدانة؛ من هذا القبيل أن أمريكا مسؤولة عن التدمير، والحرمان، والإساءة، والاستغلال، والإبادة، والعرقلة، والانتهاك، والاعتداء، والجرائم. أما إيران فدولة المساعدات، والتعاون، والسلام، والأمن، والوفاء، والحرية، والتقدم، والاحترام. أما الوصم الذي ألحق بأوروبا فهو العجز أمام أمريكا. في حين أن الشعب الإيراني صامد أمام كل الضغوطات.

في جميع حالات ظهور الفاعل الاجتماعي رقم (2): (و.م.أ)، وبجميع التسميات الواردة في الجدول أعلاه، لم يتجاوز مع أي لفظ ذي طابع سلمي أو إيجابي، أو محايد على الأقل. يؤكد هذا المعطى أن صانع الخطاب حريص على ملاحقته بالوصم السلبي والقديح خطابياً، لبناء تصور أيديولوجي معمم عنه اجتماعياً. بخلاف ذلك، كل ما لازم تسميات الفاعل الاجتماعي رقم (1) كان ذا طابع مدحي وإيجابي إصراراً من المتكلم على بناء تصور راقٍ لدى المتلقي. هكذا، فقد عقدت التلازمات اللفظية مفاضلة بين فاعل اجتماعي مُشْرِق، وآخر عدواني وظالم.

إن التلازم المعجمي والحال هذه، يُسهم في نظم المعنى، بحيث إن اللفظ المفرد يدل على معنى، ولكنه في تلازمه مع غيره في حالات متعددة، يؤدي معنى نصيا آخر، بالزيادة أو النقصان، وبالتوكيد أو الدحض. ولعل نورمان فيركلف قد أشار إلى هذا الأمر حين قال: "بدلاً من النظر إلى مفردات اللغة باعتبارها تتكون من قوائم لا نظام لها من الألفاظ المفردة التي تحمل كل منها معناها الخاص، علينا أن نتبين أنها تتكون من عناقيد من الألفاظ المرتبطة بنظم المعنى"¹. وقصده بالعناقيد هو التلازمات اللفظية التي تظهر مع الفاعل الاجتماعي في معظم مراحل الممارسة الخطابية

2.1. التمثيل الدلالي:

تُسَعَف دراسة التمثيل الدلالي في رصد المقصودات الفعلية للخطاب، ورصد طبيعة العلاقات التي يؤسسها بين سائر الأطراف. يمكن التركيز هنا على كل أنماط العلاقات الدلالية، كالتضمن، والالتزام، والإشارة، والمخالفة، والموافقة، والعموم والخصوص، والإجمال والتفصيل، والسببية، والكل والجزء مثلاً. إلا أن خطاب روحاني عرف حضوراً بارزاً لثلاث علاقات دلالية هي التي ستُدرَس في هذا المحور، وهي: التكرار، والترادف، والتقابل.

1.2.1. دلالة التكرار:

بالاستعانة بالجدول رقم (03)، حيث رُصِدَت الحقول المعجمية الواردة في الخطاب المدروس، يمكن استعراض الألفاظ المتكررة وعدد مرات ورودها:

مرتين	3مرات	4مرات	5مرات	6مرات
مساعدة/ تسوية/ صمد/ فاعلة/ حافظ/ التفاهم/ الاستثمار الحرب/ العدوان/ الإبادة/ الأزمة/ تهديد/ الجرائم/ اعتداء/ القوات/ الضغط	مبادرة/ التنمية/ التقدم/ التزم/ إيجابي/ نمو/ حاور/ أفسى/ سلاح	عاون/ الاستقلال/ احترام/ الاحتلال/ إرهاب	البناء/ الاستقرار/ الأمل/ جارة	تحالف حق
7مرات	8مرات	9مرات	12مرة	16مرة
التحررية	عقوبات/ معاهدات	اتفاق	التفاوض	سلام
				17مرة
				الأمن

جدول رقم (05): حالات تكرار الألفاظ في خطاب روحاني

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 132.

الملاحظ أن عدد الألفاظ التي تكررت مرتين أو ثلاث مرات فقط كان كبيرا مقارنة بباقي الألفاظ. ومن خلال التركيز على دلالاتها يبدو أن أغلبها يدل على السلم والحرب والتنمية. وتكررت الألفاظ الدالة على الاستقلال والإرهاب والأمل والاستقرار ما بين أربع وخمس مرات. في حين أن لفظي التحالف والحق تكررا ست مرات، ولفظ التحرر ثماني مرات. أما ألفاظ العقوبات، والاتفاق، والتفاوض، والسلام، والأمن، فتراوح تكرارها ما بين ثماني مرات وسبع عشرة مرة.

من الملاحظات الأبرز التي يتضمنها جدول التكرار أن الألفاظ التي تكررت ما بين ست مرات وما فوق لم تتعدّ لفظا أو لفظين على الأكثر. ولعل الاستنتاج المرحلي الذي يمكن استخلاصه من هذه الملاحظة هو أن الألفاظ القليلة التي تكررت بمعدل أكبر مقارنة مع الباقي لم يتجاوز عددها سبعة ألفاظ، في حين أن عدد الألفاظ التي كان تكرارها قليلا ما بين مرتين وخمس مرات، كان كبيرا جدا، بحيث وصلت إلى ستة وثلاثين لفظا. مما يعني أن الألفاظ الأكثر ورودا شكلت نسبة 16.27% من مجموع الألفاظ المتكررة، وأن الألفاظ الأقل ورودا مثلت 83.72%.

من الطبيعي أن يتكرر لفظ "سلام" ست عشرة مرة ولفظ "الأمن" سبع عشرة مرة لأنهما يزيكان الدلالات الخلاقة والإيجابية التي تمت الإشارة إليها في دراسة الحقول المعجمية أعلاه. ولكن تكرار ألفاظ "عقوبات ومعاهدات" ثماني مرات، ولفظ "اتفاق" تسع مرات، ولفظ "التفاوض" اثنتي عشرة مرة، له تفسير آخر؛ ذلك لأن صاحب الخطاب يعبر عن قدرة بلاده الاقتصادية والعسكرية وعدم حاجته إلى أمريكا، بل إنه عبر عن الرفض المطلق للتفاوض، وتجاوز الاتفاق النووي جملة وتفصيلا. إلا أن التكرار البارز للألفاظ الدالة على هذه التحديات التي يعلنها، يؤكد في المقابل حقيقة موقفه، وهي أن العقوبات والمعاهدات والتفاوض والاتفاق النووي تشكل أولويات بالنسبة إلى إيران، وأنها جوهر خطابه الذي يلقيه بكل ثقة مع كثير من الإخفاء والإضمار.

إن التكرار البارز تركيز جاد من صاحب الخطاب على الموضوعات التي تمثلها الألفاظ المتكررة بنسبة أكبر. يدل على ذلك أن 83.72% من الألفاظ المتكررة تراوح تكرارها بين مرتين وخمس مرات فقط، وهي تمثل موضوعات إيجابية تستطيع إيران تحقيقها دون حاجة إلى أي اتفاق، أو موضوعات تنتقد من خلالها الإدارة الأمريكية كتهم الإبادة والتهديد والإجرام والإرهاب.

لذلك فإن ما تكرر كثيرا مثلّ المساعي الحقيقية لإيران، وما تكرر قليلا كان إما مدحا لها وإما انتقادا واتهاما لأمريكا.

تؤكد المقاربة الكمية في دراسة التكرار أن التفاوت بين الألفاظ المكررة يعني أن ما تمثله النسبة الأعلى يشكل أهمية قصوى عند المتكلم، وذلك على نقيض النسبة الأقل. فقد: "تفاوتت نظم التصنيف في أنماط الخطاب المختلفة تفاوتاً كمياً بمعنى التعبير عن جوانب معينة من الواقع بصيغ متباينة الدرجات، أي بعدد كبير أو قليل من الألفاظ"¹. وعليه، فإن ما تكرر أكثر يعبر عن المرامي الأيديولوجية لصاحب الخطاب لا محالة.

إن التكرار والحالة هذه لم يكن من محض الصدفة، وإنما هو ترجمة لسانية للأغراض الخفية للمتكلم، وتمثيل لغوي للمقصودات الفعلية التي تشكل بؤراً اهتمام كبير جداً. لذلك فيمكن القول إنه اختيار لساني لتمثيل المقصودات الحقيقية عن عمد، أو مؤشر تحليلي يكشف تعقبه عن الموضوعات التي تشكل أولوية لدى صناع الخطابات. ذلك لأن ما ورد كثيراً يكون أكثر تعبيراً عن الغرض من الكلام، عن قصد أو عن غير قصد.

2.2.1. دلالة الترادف:

يؤكد الترادف محصلات تحليل الحقول المعجمية، والتلازم اللفظي، والتكرار، إلى حد كبير؛ ذلك أن هذه العلاقة الدلالية ترسم صورتين متناقضتين يحاول صانع الخطاب أن يجعلهما نمطيتين على صعيد الممارسة الاجتماعية الآنية. ويمكن النظر في الجدول أدناه للتعرف على الصورتين:

ترادفات الصورة الثانية	ترادفات الصورة الأولى
<ul style="list-style-type: none"> • يحترق=يقصف • المذهبية=الطائفية • التعصبات=التطرف • انتهاك=اعتداء=إساءة • الحرب=عدوان=الإبادة=إرهاب 	<ul style="list-style-type: none"> • مساعدات=تعاون • تعهد=اتفاق=تفاوض=تحاور=تفاهم=احترام= تحالف=مشاركة=مباحثات=مبادرة=تسوية=التزام

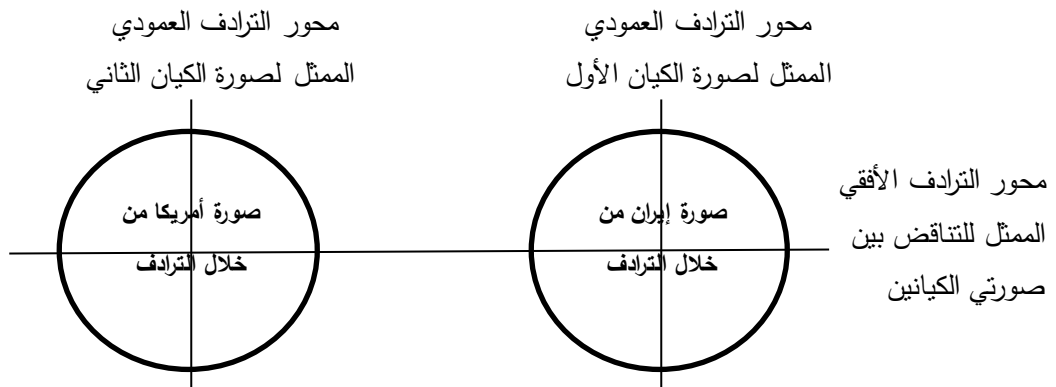
جدول رقم (06): حالات الترادف في خطاب روحاني

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 159.

في الخانة الأولى من الجدول رقم (06) ترادفان، الأول ثنائي، والثاني اثنا عشري. وهما معا يدلان على الاستعداد للتعاون، ومد يد الخير، وبذل الجهود لتسوية الخلافات. أما في الخانة الثانية، فثلاث ترادفات ثنائية، وواحد ثلاثي، وآخر رباعي. وتدل في مجملها على استعداد إجرامي، ونية زرع الفتن والتفرقة.

من خلال الجدول وما تدل عليه الترادفات، يضع الترادف متلقي الخطاب أمام صورتين متناقضتين لكيانين اثنين: كيان متعاون يقدم المساعدات ويسعى إلى تسوية سلمية، وكيان يبذل قصارى الجهد لممارسة الإجرام وخلق الفتن والتفرقة. وبالنظر إلى مواضع هذه الترادفات في الخطاب، فإن الكيان الأول هو الجمهورية الإسلامية الإيرانية التي يمثلها صانع الخطاب، والكيان الثاني هو الولايات المتحدة الأمريكية.

إن جدول الترادف هذا يعكس ثلاثة محاور متقاطعة: محور أول أفقي يمثل التناقض والعداء الكبير الذي يعبر عنه ملقي الخطاب صراحة أو ضمناً، صوب الولايات المتحدة الأمريكية؛ ومحور ثانٍ عمودي يمثل دوائر الترادف التي تبني لإيران صورة إيجابية وعظيمة، ومحور ثالث عمودي أيضاً، ويمثل دوائر ترادفية تبني للولايات المتحدة الأمريكية صورة الدولة المجرمة والمتعطسة:



شكل رقم (16): محاور الترادف في خطاب روحاني

دلالات كهذه لا يمكن الوصول إليها من خلال التلقي المباشر للخطاب، أو حتى القراءة السطحية. وإنما تفكيك علاقة الترادف والمحاور والدوائر الدلالية التي تترجمها، هو ما يوصل إلى حقيقة مواقف المتكلم، وما يسعى إلى التعبير عنه في أعماق خطابه. لذا، فإن الترادف تمثيل لساني دلالي للنيات الحقيقية لصناع الخطابات، ومدخل نقدي جزئي يمكن من كشف علاقات السلطة ونية الهيمنة على الممارسة الاجتماعية ومتلقي الخطاب.

يظهر مع الترادف أيضا الإطناب، أي الزيادة في الذكر والإيراد. ويُسهّم هذا الإطناب في تسليط الضوء على المعاني الأيديولوجية التي يفيدها كل ترادف، سواء أكانت إيجابية أم سلبية. كما أنه يعني: "درجة عالية من درجات الصوغ، وكثيرا ما يتضمن كلمات كثيرة مترادفة وشبه مترادفة. والإطناب يدل على الانشغال بجانب معين من جوانب الواقع، وهو ما قد يشير إلى أنه من مواقع الصراع الأيديولوجي"¹.

3.2.1. دلالة التقابل:

نهج روحاني في خطابه مسلكا دلاليا آخر، وهو علاقة التقابل بين ما يدل على أفعال الطرفين معا؛ خدمةً للصورتين المتناقضتين للكيانين المتنافسين، وزيادةً في تمثيل تفوق إيران على أمريكا وتجاوزها لكل تهديداتها وضغوطاتها. لتوضيح ذلك، يُنظر في الأمثلة الثلاثة القادمة:

(26) إن الخطط المبداءة من قبل أمريكا والصهانية مثل صفقة القرن وإعلان البيت المقدسي عاصمة وضم مرتفعات الجولان إلى غيرها من الأراضي المحتلة هي محكوم عليها بالفشل.. (وخلافا) للخطط الأمريكية المدمرة فإن مساعدات الجمهورية الإيرانية الإسلامية وتعاونها الإقليمي والدولي في مجال إرساء الأمن ومكافحة الإرهاب كانت فاصلة جدا.

يضع هذا المقطع متلقي خطاب روحاني أمام دلالات متعارضة، وحالتين متضاربتين؛ بحيث يقارن بين خطط الولايات المتحدة الأمريكية ومساعدات الجمهورية الإيرانية الإسلامية، ثم يُصدر حكيمين اثنين في حق طرفي المقارنة على التوالي، فخطط أمريكا (محكوم عليها بالفشل)، ومساعدات إيران (كانت فاصلة جدا).

يكرس صانع الخطاب بهذه المقارنة أول أوجه التقابل الدلالي بين أفعال الكيانين، وهو الفشل بالنسبة إلى كل ما تفعله أمريكا، والصواب والإصابة بالنسبة إلى كل ما تقوم به إيران. والملاحظ أنه لم يكتفِ بالدالتين المتقابلتين فقط - وإن كان التعارض بينهما كافيا - بل أكد هذا التقابل برابط منطقي يفيد الخلاف والتباين والتقابل الدلالي، وهو: خلافًا.

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 159.

الفائدة الخطابية التي يجنيها المتكلم بهذا التقابل هي تبرير التصوير الخطابي المغرق في الإدانة بالنسبة إلى أمريكا، والموغل في تلميع صورة إيران، سواء في اختيارات المعجم والتلازم اللفظي، أم في محاور علاقة الترادف كما اتضح أعلاه. ومنه، فإن ما أفاده التقابل الدلالي في هذا المقطع هو توكيد خلاصات الاختيارات المعجمية والدلالية الأخرى، بل توسيعها وإعطائها ظهوراً أوضح.

من مظاهر التقابل الدلالي في خطاب روحاني أيضاً، علاقة التباين في الوفاء بالالتزامات من لدن الطرفين معاً، لبيان ذلك يُنظر المثال الآتي:

(27) (رغم) انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية من الاتفاق النووي ما تزال إيران ملتزمة ولمدة عام بتعهداتها النووية كاملة وفق الاتفاق النووي.

دلالياً وليساً خطأ ورسمياً، تتوسط (رغم) الخلافية بين جملتين اثنتين: انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية، وإيران ملتزمة. يعزز المتكلم بهذا الخلاف الجديد ما جاء في التقابل الدلالي الأول، فعن طريقه يضيف سمة أخرى من سمات المقارنة والمفاضلة، وهي أن إيران تلتزم بالتعهدات المبرمة، وأمريكا تتسحب بدون موجب حق. وينخرط هذا التقابل الدلالي الثاني أيضاً في إنجاح استراتيجيتي تجميل صورة الذات والتقديم السلبي للآخر، بحيث يُظهر أحد الطرفين ملتزماً والآخر غير مبالٍ بالاتفاق النووي.

وتحضر رغم الخلافية أيضاً في موقع آخر من الخطاب، وتؤدي وظيفة التقابل نفسها:

(28) نحن في إيران و(رغم) كل عراقيل الإدارة الأمريكية حافظنا على سيرنا في طريق

التنمية وبناء الاقتصاد والمجتمع الإيراني. الاقتصاد الإيراني حقق خلال عام 2017

أعلى نسبة نمو اقتصادي في العالم إلى جانب خفض متواصل في معدل التضخم.

تتوسط (رغم) الخلافية مرة أخرى بين صفتين متناقضتين، تخص الأولى الإدارة الأمريكية، وتخض الثانية إيران. ويتجلى الخلاف هذه المرة في عقد مقارنة جديدة بين كيان يحاول الإضعاف الاقتصادي بنصب العراقيل، وآخر يحافظ على تطوره ويحقق نسباً عالية من التطور الاقتصادي على حد تعبير روحاني. والقصد بالتناقض والخلاف هنا هو ما أسماه ابن

هشام الأنصاري بالوقوع بين الضدين¹، أي إن غير في مثل هذه الحالات تقع بين المعنى وضده لتبرز دلالة التباين والتعارض.

تتضاف سمة جديدة لسمات الصورتين الخاصتين بالكيانين المتنافرين، فالكيان الأول لا يكف عن العرقلة، والكيان الثاني يتصف بالافتقار والقوة الاقتصادية التي تتجاوز العرقلة. هكذا، ينخرط التقابل الدلالي الثالث في إنجاح استراتيجيتي تقديم الذات إيجابا وتقديم الآخر سلبا.

مما سبق يمكن تلخيص التقابلات الدلالية الثلاثة التي تضمنها خطاب روحاني على هذا المنوال:

(29)

<u>مساعدات إيران فاصلة جدا</u>	(خلافا)	<u>خطط أمريكا فاشلة</u>
<u>إيران ملتزمة بتعهداتها النووية</u>	(رغم)	<u>انسحاب أمريكا</u>
<u>إيران حافظت على بناء اقتصادها</u>	(رغم)	<u>عراقيل الإدارة الأمريكية</u>

ويُستنتج من هذه التقابلات أن صانع الخطاب قد ركز على ثلاثة مستويات حساسة، أولها تعامل الطرفين مع الأزمات الاقتصادية والعسكرية والأمنية بمنطقة الشرق الأوسط، وثانيها الاتفاق النووي، وثالثها القدرة الاقتصادية لإيران. وفي المستويات جميعها، مثل التقابل صورتين أو صفتين اثنتين، الأولى اتصفت بالفشل والانسحاب والعرقلة (أمريكا)، واتصفت الثانية بالالتزام والمساعدة والافتقار.

فائدة:

لقد اتضح في هذا المحور أن الدلالات الفعلية لا تبرز في السطح بوضوح، وإنما من خلال النقد اللساني للخيارات المعجمية والدلالية، أمكن الوصول إلى المقصودات الصريحة لصاحب الخطاب. ذلك لأن المداخل المعجمية والعلاقات الدلالية تعد أجزاء من البنية العامة للخطاب، وحضورها وترتيبها وهندستها آليات تمكن من التمثيل اللغوي لسلطة الخطاب بمختلف مظاهرها. لذا، فإن القراءة السطحية لا تفي بهذا الغرض، وإنما ينبغي الغوص في عمق الخطاب، ومساءلة أجزائه ومستوياته عما تمثله من المقاصد من منظور نقدي لساني.

1 ابن هشام الأنصاري، المغني اللبيب، ج/1، ص: 170.

2. تحكم الاستخدامات التداولية في الإدراك

يحاول هذا المحور نقد التمثيل التداولي للسيطرة على الإدراك من خلال ثلاثة مظاهر للهيمنة الخطابية على إدراك الملتقي: الإغراء، والتلطيف اللغوي، والتحكم. ويركز على ثلاث فئات تحليلية هي: الفعل اللغوي المباشر، والفعل اللغوي غير المباشر، وسلمية الأخبار. كما يأخذ في عين الاعتبار مسألة مهمة للغاية ستوضح أدناه، وهي أن الأفعال اللغوية في نص ما، أو في نصوص متقاطعة أو متجاوزة، تحقق هدفاً أو إنجازاً واحداً عاماً على صعيد الممارسة الاجتماعية.

تنتقي الأطروحة متناً ملائماً لغرضها في هذا المحور، وهو عبارة عن مجموعة نصوص مقتبسة من الموقع الرسمي¹ لإحدى أكبر شركات التبغ على الصعيد العالمي، وهي شركة فيليب موريس. وقد سعت الشركة منذ عام 2008، وبعد التقارير الصحية لخطورة نوعية السجائر التي تروجها في الأسواق، إلى الحفاظ على سمعتها والإبقاء على هوامش الربح التي حققتها من قبل؛ لذلك، فإنها انتقلت إلى مرحلة جديدة سمتها التدخين البديل، حتى تتدارك خسائرها المادية.

1.2. الإغراء بالفعل اللغوي المباشر:

في أعلى الصفحة الرئيسية لموقع الشركة، أي في مستهل الموقع ومدخله، أول ما يواجهه الزائر المهتم هو نص² من ثلاث جمل شرطية؛ أجوبة الشرط فيها مكتوبة بلون أسود عريض، وجمل الشرط فيها مكتوبة بلون أبيض أقل حجماً من خط أجوبة الشرط³:



صورة رقم(02): نص الجمل الشرطية مقتطع من موقع الشركة

1 النص في الصورة المقتطعة من الصفحة الرئيسية لموقع شركة فيليب موريس. آخر مراجعة: 2021/21/12.

<https://www.unsmokeyourworld.com>

2 المرجع السابق.

3 المثال مترجم عن النص الأصلي المأخوذ من المرجع السابق.

ترجع الأطروحة نقد هذا النموذج لسانيا للكشف عن مكامن الممارسة السلطوية في استخدام الفعل اللغوي المباشر باعتماد توجه المقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة في التحليل النقدي للخطاب، لذا تتطرق من ترجمة هذا النص إلى العربية على هذا النحو:

(1/30) إذا كنت لا تدخن، فلا تبدأ.

(30/ب) إذا كنت تدخن، توقف عن التدخين.

(30/ج) إذا لم تقلع، فغير.

جاءت الجمل في مجموعة الأمثلة رقم (30) من الناحية النحوية في صيغة شرطية جميعها، وكان جواب الشرط في (1/30) صيغة نهى، وفي (30/ب) و (30/ج) صيغة أمر. أما من الناحية الدلالية، فإن (1/30) تنتهي غير المدخنين عن التدخين، وتطلب (30/ب) من المدخنين إيقاف "التدخين"، في حين تطلب (30/ج) ممن عجزوا في الإقلاع عن التدخين التغيير. أما تداوليا، فإن الشرط هنا لا يفيد أن خطاب شركة فيليب موريس يشترط شيئا، وإنما أفاد الاحتمال والتوقع. لا بد من الانتباه هنا إلى أن المقصود بالتدخين في (30/ب) حسب مخطط الشركة (التدخين البديل) ليس هو شرب السجارة، وإنما وجود دخان في أثناء شربها. ما يهم البحث في النقد اللساني لأمثلة المجموعة (30) في المقام الأول، هو أجوبة الشرط التي جاءت وفق أسلوبين إنشائيين طلبيين في المستوى البنيوي: النهي والأمر في مناسبتين. من الواضح أن الشركة لا تتجه إلى غير المدخنين في (30/ب) و (30/ج) تحديدا، وأنها تتجه إليهم في (1/30) فقط، ودون غيرهم، نصحا وإرشادا إلى عدم التفكير في التدخين. ومن المؤكد أن الفعل اللغوي في جواب الشرط في الجمل الثلاثة كلها مباشر حسب ما هو ظاهر، بمعنى أن القوة الإنجازية حرفية.

تستحضر الأطروحة في هذا المحور -برمته- مقترح أحمد المتوكل (2005) في دراسته لقضية الاستلزام الحواري في نحو الخطاب الوظيفي، بحيث فصل بين القوة الإنجازية الحرفية والقوة الإنجازية المستلزمة، فدعا إلى تمثيل الأولى في المستوى البنيوي بوصفها عنصرا من عناصر الإطار التركيبي، وتمثيل الثانية في المستوى العلاقي¹. ليس القصد هنا هو أن الجمل المدروسة أسفله سيُمثل لها في بنى مجردة، وإنما ما تستعيره الأطروحة من نحو الخطاب

1 أحمد المتوكل، التركيبات الوظيفية: قضايا ومقاربات، مكتبة دار الأمان، ط1، 2005، الرباط، 2005.

الوظيفي لدى أحمد المتوكل (2005) هو التمييز بين القوة الإنجازية الحرفية والقوة الإنجازية المستلزمة على أساس تداولي مقامي.

بالعودة إلى أمثلة المجموعة (30)، يتضح أن جواب الشرط في (30/ج) لا يخص العاجزين في الإقلاع عن التدخين فحسب، بل هو أمر للجميع، أي غير المدخنين، والمدخنين، والعاجزين عن الإقلاع. تعليل ذلك أن الفعل (غَيَّرَ) في (30/ج) هو الهدف العام من هذه الجمل جميعها وفق تجاوزها وتراتبيتها، فهو وإن كان فعلا لغويا مباشرا يفيد الأمر في المستوى البنوي النحوي، وإن كانت له دلالة مباشرة بالنسبة للمدخنين والعاجزين عن الإقلاع، فإن له كذلك دلالة أخرى غير مباشرة بالنسبة إلى غير المدخنين، وهي الإغراء والاستثارة والاستدراج من حيث القوة الإنجازية المستلزمة؛ ذلك لأن طلب التغيير -تداوليا- يثير فضول المخاطبين الثلاثة، وخصوصا غير المدخنين، لاكتشاف هذا البديل الذي دُعِيَ إليه المدخن والعاجز عن الإقلاع، أي اكتشاف هذا الحل لمشكلة الإدمان على السجائر.

مكمن الممارسة السلطوية على صعيد الخطاب، هو هدم القوة الإنجازية الحرفية لفعل النهي في (30/ا) وفعل الأمر في (30/ب)، واستدراج الجميع إلى النتيجة المرجوة التي هي التغيير في (30/ج). ومنه، فجواب الشرط في (30/ج) فعل لغوي مباشر بالنسبة إلى المخاطبين في (30/ب و 30/ج)، وفعل لغوي غير مباشر يتضمن قوة إنجازية مستلزمة هي الإغراء بالنسبة إلى المخاطب في (30/ا). ويمكن تصوير ذلك وفق علاقة تعاقبية للأفعال الثلاثة:

(31) لا تبدأ ~~توقف عن التدخين~~ ← غير

ويتأكد هذا التركيز على أجوبة الشرط حتى من الناحية السيميائية؛ فحسب الصورة رقم (02) كُتبت جمل الشرط بلون أبيض وبخط أقل حجما من خط أجوبة الشرط التي كُتبت باللون الأسود وبحجم أكبر، كما أن الشركة ميزت جواب الشرط في كل جملة باللون الأصفر الفاقع دون جملة الشرط؛ ذلك لجذب انتباه الزائر إلى أجوبة الشرط وليس إلى جمل الشرط، لأن غرضها الأساس هو أن تصل بالقارئ الزائر إلى عشق التغيير، وما هو إلا التدخين نفسه.

إن التغيير المطلوب يبدو ظاهريا موجها إلى العاجزين عن الإقلاع، ولكنه في الحقيقة موجه إلى الجميع في المجموعة (30) تداوليا. تفسير ذلك من أفعال الشرط في الجمل الثلاثة، فهناك ترابعية تلازمية موازية لعلاقة التعاقب في (31)، بحيث إن هناك انتقالا من الأعلى إلى الأسفل يمكن تبيينه في (32) على هذا النحو:

(32) لا تدخن ← تدخن ← لم تقلع

فسواء الذي لا يدخن أم الذي يدخن أم الذي لم يقلع، الجميع مدعو إلى التغيير وتجريب البديل بعد هدم جوابي الشرط كما هو موضح في (31). والبديل ليس إلا تدخيننا آخر، وهو ما أُشير إليه بشرب السجارة دون دخان. وسيزيد الأمر اتضاحا في الأمثلة القادمة. والمستفاد من ذلك أن الخطاب قد سعى إلى تغيير مواقع الذوات، وبخاصة غير المدخن والمدخن، إذ يستهدف أن يقتادهما من موقعهما إلى موقع الذي لم يقلع. ففي حالة جملة فعل الأمر: "فالمتكلم أو الكاتب يطلب شيئا من المخاطب (أي يطلب قيامه بعمل ما) في حين أن المخاطب يشغل موقع الفاعل الذي يصعد بالأمر مثاليا"¹.

2.2. التلطيف اللغوي في الفعل اللغوي غير المباشر:

تفترض الأطروحة في هذه الفقرة المخصصة للتلطيف اللغوي في الفعل اللغوي غير المباشر، والفقرة التي تليها المتعلقة بسلمية الأخبار، أن الفعل اللغوي المباشر المفيد للإخبار من حيث قوته الإنجازية الحرفية، قد يفيد فعلا لغويا غير مباشر (وإن لم يحتمل دلالة استلزامية) في اتصاله بغيره من الأفعال اللغوية المباشرة الأخرى، سواء في نص واحد أم في نصوص متجاورة أو متعاقبة أو منفصلة شكلا ومترابطة موضوعا. ذلك ما سَتُحقق منه في الفقرتين معا. بعد الصورة الكبرى حيث وُضع النص في المجموعة (30)، تأتي ثلاثة نصوص أخرى متجاورة أفقيا خطيا، مَيَّرت عناوينها باللون الأصفر وكتبت بحجم أكبر:

THE BEST CHOICE

Quitting cigarettes and nicotine altogether is the best choice any smoker can make.

ACCESS AND INFORMATION

Adult smokers who don't quit altogether deserve access to and information about smoke-free alternatives to continued smoking.

RIGHT REGULATION

While science and technology have enabled the development of smoke-free alternatives, regulation can restrict or prevent smokers from getting access to or information about them.

صورة رقم (03) نص أمثلة المجموعة (33) بالإنجليزية

من الصفحة الرئيسية لموقع شركة فيليب موريس²

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 173.

2 الصور الثلاثة مقتطعة من موقع شركة فيليب موريس، 2021/01/15: <https://www.unsmokeyourworld.com>

وتقدم الأطروحة ترجمة عربية لهذه النصوص¹ بغية تحليل الأفعال اللغوية التي تضمنتها نقدياً لسانياً:

الخيار الأفضل

(1/33) الإقلاع عن السجائر والنيكوتين كلياً هو أفضل خيار يمكن لأي مدخن اتخاذه.

الوصول والمعلومات

(33/ب) المدخنون البالغون الذين لا يقلعون عن التدخين تماماً يستحقون الحصول على معلومات حول البدائل الخالية من الدخان للتدخين المستمر.

نظام الحقوق

(33/ج) في حين أن العلم والتكنولوجيا قد مكّنا من تطوير بدائل خالية من التدخين، فإن القانون يمكن أن يقيد أو يمنع المدخنين من الوصول إليها أو الحصول على معلومات عنها.

تتضمن الجملة في (1/33) فعلاً لغوياً مباشراً يفيد قوة إنجازية حرفية هي الإخبار فقط، ومفاده أن الخيار المثالي هو الإقلاع عن التدخين كلياً. وتعكس الشركة من هذا الجانب اعتقادها بأن صحة الإنسان أفضل من أي شيء آخر. وهي بذلك تخفي الغاية الأساسية التي هي ترويج السجائر البديلة وتحقيق مزيد من الأرباح. إلا أن هذا الفعل اللغوي المباشر، يُضمر تناقضا يتمثل في كون هذه الشركة تتصح وترشد، لكنها تروج للتدخين في الآن نفسه. يعبر الإخبار في (1/33) عن حسن نية الشركة، وعن معرفة يقينية بأن التدخين بصفة عامة مضر بالصحة. إلا أن الانتقال إلى النص المجاور من اليسار إلى اليمين، يفيد العكس؛ إذ تضمنت الجملة في (33/ب) فعلاً لغوياً آخر مباشراً يفيد بدوره قوة إنجازية حرفية هي الإخبار، ومؤداه أن العاجزين عن الإقلاع بإمكانهم التعرف على بدائل جديدة للتدخين. بيد أن هذا الإخبار يتضمن فعلاً لغوياً غير مباشر يفيد قوة إنجازية مستلزمة هي الأمر؛ أي لا تتوقفوا عن التدخين في جميع الحالات. تحليل ذلك أن الشركة تراهن على هامش العجز عن الإقلاع، لتظهر مخلصاً من معضلة التدخين، ومقدمّة لبدائل صحية وسليمة على حد

1 الأمثلة مترجمة عن النصوص الأصلية باللغة الإنجليزية من موقع شركة فيليب مورسي، آخر مراجعة: 2021/01/15:

<https://www.unsmokeyourworld.com>

تعبيرها. وبذلك فهي لا تستهدف إقناع المدخنين بالإقلاع، وإنما تطمح إلى اقتيادهم نحو المنتجات التبغية الجديدة التي تطرحها في السوق، ومنه إلى عدم التفكير في التخلص من شرب السجائر العادية أو البديلة في جميع الأحوال.

بالانتقال من النصح في (1/33) إلى اقتياد المستهدفين إلى تدخين آخر في (33/ب)، تُخرج الشركة المدخنين العاجزين عن الإقلاع من دائرة المنصوحين وتحاول إقناعهم بمواصلة التدخين بدليل استخدامها لعبارة (للتدخين المستمر) في (33/ب)؛ إلا أنها تخفي نيتها الحقيقية بنهج استراتيجية التلطيف اللغوي في العبارتين (يستحقون/البدائل الخالية من الدخان). إن التلطيف اللغوي هنا ليس جزءا من الفعل اللغوي المباشر، ولا علاقة له بالقوة الإنجازية الحرفية (الإخبار) بل هو جزء من الفعل اللغوي غير المباشر أي القوة الإنجازية المستلزمة (الأمر: واصلوا التدخين). وتكمن وظيفته في حجب النية المبيتة للشركة، حتى لا تظهر طموحها في اقتياد كل المدخنين - وحتى غيرهم - إلى استهلاك منتجاتها، سواء القديمة أو الجديدة البديلة.

تضمن النص في المثال (33/ج) فعلا لغويا مباشرا يؤدي قوة إنجازية حرفية هي الإخبار أيضا. ومحتواه هو أن هناك بدائل للتدخين تتبني على أسس علمية لكن القانون قد يقيد استهلاكها. إن غاية شركة فيليب موريس من هذا الفعل اللغوي المباشر هي أن تُضفي الشرعية والمصادقية على تدخين البدائل الجديدة، بدليل أنها اعتبرت ابتكارا لخلاصات البحث العلمي والتكنولوجي. وفي الآن نفسه، تسعى إلى إقناع المدخنين بتجاوز القيود القانونية المفروضة عليها. ومنه، فإن الفعل اللغوي تجاوز القوة الإنجازية الحرفية (الإخبار)، وأفاد قوة إنجازية مستلزمة هي التشجيع، والتحفيز، والتحريض.

تتجلى الممارسة السلطوية في التلاعب بالمخاطبين، بحيث إن القوة الإنجازية الحرفية للخطاب تظهر واصفةً لمنتج التبغ ومذكرة بالقيود القانونية على استهلاكه؛ ولكن القوة الإنجازية المستلزمة في الحقيقة تسعى إلى إقناعهم بأحقيتهم في استخدامها ما دامت منتجاتها ابتكرت على أساس علمي وتكنولوجي. وقد أسهمت في نجاح التلاعب أيضا استراتيجية التلطيف اللغوي بوسيلتين: أولهما هي عبارة (خالية من التدخين)، وثانيتهما هي استخدام الاحتمال في إمكانية تقييد القانون للمدخنين (يمكن أن يقيد المدخنين)؛ بمعنى أن القانون يمكن أن يقيد ويمكن ألا يقيد، فتكون الشركة قد راهنت على هامش جديد، وهو إمكانية عدم تقييد القانون للمدخنين، أي تجاوزهم له.

من الناحية الشكلية التنظيمية لعرض النصوص الثلاثة، يبدو أن هناك قصدا متواريا خلف ترتيبها؛ إذ إن تجاورها وترتيبها من اليسار إلى اليمين حسب الصورة رقم(03) يشكل متوالية خطابية تفيد ثلاثة ملفوظات تصب -مجتمعة- في مصلحة الشركة تداوليا: (1) الخيار الأفضل هو الإقلاع، (2) هناك بدائل جديدة غير مضرّة، (3) العلم والتكنولوجيا أصدق من القانون. ولعل هذه الملفوظات الثلاثة هي الخلاصة الأكثر ترجيحاً لأمثلة المجموعة(33).

هنا، تتأكد الفرضية المرشحة أعلاه، أي إن الأفعال اللغوية في متوالية نصية أو في نصوص متوالية، وإن كانت كل أفعالها اللغوية مباشرة، أو بعضها فقط، فإنها تشكل سلسلة من الأفعال التي تفيد فعلا لغويا غير مباشر. لتأكيد ذلك، تستحضر الأطروحة طرعا لغويا لأحد المتخصصين في لسانيات النص، وهو اللغوي موتش؛ بحيث أكد أن النصوص مركبات من الأحداث تتألف على نحو بنائي من أفعال لغوية في علاقات هرمية¹. ويقصد أن الملفوظات التي تفيد أفعالا لغوية تتأزر في ما بينها لتبني نسا متماسكا ينجز فعلا لغويا عاما. ولعل الفعل اللغوي العام الذي تبنيه الأفعال اللغوية في مجموعة الأمثلة رقم(33) هو: الترغيب في استهلاك منتجات فيليب موريس.

3.2. سلمية الأخبار والتحكم في الإدراك:

في أسفل الصفحة الرئيسية لموقع شركة فيليب موريس، هناك خيارات عديدة تصطف بشكل منظم ومعدّة خصيصا لاستدراج الزوار إلى اكتشاف أكبر لمنتجات الشركة. من بين هذه الخيارات عنوان فرعي(روابط سريعة)، وتحت خمسة عناوين صغرى هي في الأصل روابط يقود كل منها إلى صفحة فرعية، وهي: (تحوّلنا، مبادراتنا، علّمنا، حياة خالية من التدخين، الاستدامة، وظائف).

كان أكثر هذه العناوين إغراء هو العنوان الثالث(علّمنا). يقود رابط هذا العنوان إلى صفحة فرعية تستعرض فيها الشركة أبرز ابتكاراتها، وفرق الخبراء لديها، وأبحاثها العلمية في مجال التدخين، وملخصات لاختباراتها. وهذه أبرز عناوين الموضوعات التي تطرحها في هذه الصفحة الفرعية: (علّمنا(مكرر))، المشكلة في الاحتراق، القصة التفاعلية لتحولنا، دور النيكوتين، أحدث الأبحاث والتكنولوجيات...).

ينتقي البحث في هذه المرحلة عينات من النصوص الموزعة على الصفحة الفرعية المعنونة ب(علّمنا)، وتحديدًا من نافذتين فرعيتين متعاقبتين من حيث عرضهما، عنونت الأولى

1 موتش(1986)، ص226: نقلا عن فولفجانج هاينه وديتر فيهفيتر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص66.

بـ(عِلْمًا) مكرراً، وُعُوتُ الثانية بـ(المشكلة في الاحتراق)، ويصبو إلى تحليلها تداولياً بالتركيز على طبيعة سلسلة الأفعال اللغوية وما تؤديه من القوى الإنجازية مجتمعة:

(1/34) منذ عام 2008، استثمرنا هنا في شركة فيليب موريس إنترناشونال أكثر من 8.1 مليار دولار أمريكي في العلوم والبحوث الخاصة بتطوير منتجات خالية من الدخان، ونوظف أكثر من 430 عالماً ومهندساً وفتياً على مستوى عالمي لمساعدتنا.

(34/ب) نظراً لأن حرق التبغ ينتج الكثير من المواد الكيميائية الضارة، فقد طلبنا من علمائنا ومهندسينا إيجاد طرق مرضية أخرى لتقديم النكهة والنيكوتين للمدخنين الحاليين.

(34/ج) نظراً لعدم حرق أي من هذه المنتجات للتبغ، فإنها لا تصل إلى درجات الحرارة المرتفعة، التي تزيد عن 600°C اللازمة لاحتراق المواد وإنتاج الدخان. وبدلاً من ذلك، وجدنا عدة طرق لإنتاج بخاخ لذيذ يحتوي على النيكوتين يمكن للمستهلك أن يستنشقه، ولكن يحتوي على مستويات أقل بكثير من المواد الكيميائية الضارة مقارنة بالسجائر.

يتضمن المثال (1/34) فعلاً لغوياً مباشراً يفيد الإخبار، ومعناه أن الشركة تستثمر أموالها وتعتمد على الخبراء والتقنيات المتطورة لتقديم سجائر خالية من الدخان. إلا أن القصد الذي يتوخاه الإخبار هنا هو أن الشركة لا تقدم منتجات بأطباع اقتصادية دون أن تأخذ في عين الاعتبار صحة زبائنها في المقام الأول، وأنها تعتمد تجارب واختبارات وتصرف أموالاً طائلة في التحقق من منتجاتها قبل طرحها في الأسواق. فالقوة الإنجازية الحرفية هنا وإن كانت تفيد الإخبار فهي تتوخى جذب الزبناء بإيلائها الأهمية القصوى للجانب العلمي؛ وبذلك فإن الإخبار هنا استهدف الاستثارة والإقناع وتحسيس الزبون بالاطمئنان. وكل هذه الأهداف تدخل مجتمعة في استراتيجية إضفاء الشرعية والمصدقية العلمية والصحية للسجائر البديلة التي تسميت الشركة في الحث على التعاطي لها.

غير أن هذه القوة الإنجازية الحرفية في (1/34) تمثل في علاقتها مع (34/ب و 34/ج) متغيراً من معادلة حاجية كبرى، بحيث إن هذا الاحتفاء بالقدرات العلمية والخوف على صحة المستهلكين، ما هو إلا استهلال لما سيأتي أسفل هذا النص في الصفحة الفرعية ذاتها؛ بحيث إن هناك ترابطاً موضوعياً يستهدف إدراكات الزوار، فكل نافذة أو رابط أو عنوان يوضع بجوار آخر أو آخرين أفقياً أو عمودياً، فتنتج علاقة تحاورية بين الموضوعات المنثورة والمنسقة والموزعة على مساحة الصفحة بحسابات دقيقة، تستهدف استدراج الزوار إلى الاستزادة بمزيد من المعلومات.

لقد مثلت القوة الإنجازية التي أفادت الإخبار في (1/34) إعلاننا من الشركة لتوجيهها العلمي في إنتاج التبغ، وتمثل القوة الإنجازية في (34/ب) و (34/ج) دلائل على هذا التوجه العلمي؛ بحيث إنهما معا يتحدثان عن عملية احتراق التبغ في أثناء شرب السجارة.

إن القوة الإنجازية في (34/ب) و (34/ج) معا حرفية كذلك، ففي (34/ب) تخبر الشركة بأنها خلصت إلى أن ما هو مضر في التدخين هو المواد الكيميائية التي تنتج عن احتراق التبغ، وأنها أوجدت طرقا أخرى للاستمرار في الاستمتاع بالنيكوتين دون هذه المواد. كما أفادت في (34/ج) أن المنتجات البديلة لا تصل درجة حرارتها إلى الحد الذي تُنتج معه المواد الكيميائية المضرة.

استنادا إلى القوة الإنجازية الحرفية في أمثلة المجموعة (34) كلها، فإن المستهلك الزائر لموقع الشركة في الصفحة المعنونة بـ(عِلْمًا) يكون أول ما يرى ويستكشف هو ثلاثة أخبار مرتبة ترتيبا عموديا، يفضي كل منها إلى الآخر في علاقة حاجية تحاورية، ويمكن صياغتها هكذا:

(1/34) الشركة تعتمد على البحث العلمي في ابتكار منتجاتها.

(34/ب) احتراق التبغ ينتج مواد كيميائية مضرة.

(34/ج) الشركة ابتكرت بدائل للاستمتاع بالنيكوتين دون حرق التبغ.

بالتأمل في هذه الأخبار الثلاثة، يبدو أن بينها تآزرا دلاليا، وتعالقا على مستوى الموضوع. وقد أفرز هذا التآزر والتعالق سلمية حاجية بين سلسلة الأفعال اللغوية الثلاثة، فالخبر في (1/34) مقدمة أولى، والخبر في (34/ب) نتيجة للمقدمة الأولى ومقدمة ثانية باعتبار ما بعدها، أما الخبر في (34/ج) فنتيجة للمقدمة الثانية في (34/ب). بمعنى أن الأبحاث العلمية التي تقوم بها الشركة، وتخصص لها مبالغة باهظة، قد اكتشفت علة الضرر في شرب السجائر، وهذا الاكتشاف دفعها إلى أن تبتكر بدائل لا تسمح باحتراق التبغ من أجل صحة الزبناء.

لذلك، فإن الخطاب الإعلاني لموقع الشركة لا يعتمد نصوصا أو جملا تكون فيها القوة الإنجازية أخبارا مستقلة أو منعزلة، بل إنها أخبار يدعم بعضها البعض الآخر مشكلةً سلسلة حديثة، وتتوخى الهدف ذاته. ولإضمار هذا القصد، فإن عرض النصوص والجمل والمقالات يُنسق في روابط ونوافذ وعناوين منفصلة، ولكنها متجاوزة مكانا، ومتواشجة موضوعا.

هكذا، فإن سلمية الأخبار تستهدف التحكم في إدراكات المتلقي الزائر، وهدم الإدراكات السابقة عن التدخين وأضراره.

استحضارا لفرضية موتش المشار إليها أعلاه في فقرة التلطيف اللغوي في الفعل اللغوي غير المباشر، تتأكد نتيجة تحليل مجموعة الأمثلة رقم(34) والأخبار الثلاثة المصاغة في(34)؛ بحيث يرى أن تتابع الأفعال اللغوية التي يتضمن كل منها فعلا لغويا واحدا، يُنتج هرمية من الإنجازات أو الأهداف، ولأن النص مركب من أفعال لغوية، فهو إذن يحقق إنجازا أو هدافا واحدا عاما¹. ولعل الهدف العام لشركة فيليب موريس في الصفحة الفرعية المعنونة بـ(عِلْمًا)، هو استمرار المدخنين في شراء السجائر العادية أو انتقالهم إلى السجائر البديلة، ولكن من خلال أفعال لغوية في نصوص منفصلة ومتجاورة.

وفي التحليل النقدي للخطاب، يؤكد نورمان فيركلف أن المعنى النصي العام يُبنى لدى المتلقي عن طريق الاستنباط؛ وذلك من خلال استخراج المعاني المقصودة من خلال استدعاء الافتراضات المسبقة والترابط الدلالي بين المعاني الجزئية. ولعل ذلك ما يتأكد في مجموعة الأمثلة(34) والأخبار المصاغة في المجموعة(34).

فائدة:

من الناحية التداولية، تُسعف طبيعة الأفعال اللغوية وما تعبر عنه من الدلالات المستلزمة، صناع الخطابات في إضمار المقاصد الأيديولوجية الفعلية مع الإبقاء على المؤشرات والقرائن السياقية والسيميائية التي تضمن لها إيصالها إلى إدراك المتلقين بكيفيات مجردة ومخاتلة. كما تمكن من تحقيق المرامي الخطابية العامة من خلال ممارسة استراتيجيات التلطيف اللغوي، وإضفاء الشرعية والمصادقية، والتحكم في الإدراكات، والإغراء. وقد اتضح أن نجاح هذه الاستراتيجيات لا يتوقف فقط على الانتقال من القوة الإنجازية الحرفية إلى القوة الإنجازية المستلزمة، وإنما يتحقق أيضا من خلال هيكله الأفعال اللغوية في الخطاب تداوليا وحديثا، بحيث إن الأفعال اللغوية تتضافر قواها الحرفية أو المستلزمة لتبني قوة إنجازية واحدة، سواء في نص واحد، أم في نصوص متفرقة ولكنها مترابطة من حيث المحتوى والسياق.

1 نقلا عن فولفجانج هاينه وديتر فيهفيتجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص: 68.

3. سلطة الأساليب البلاغية والإجراءات الحجاجية

1.3. عنصرية المشابهة:

يمكن لعلاقة المشابهة أن تكون مطية لممارسة أي مظهر من مظاهر السلطة الخطابية، بحيث يتيح هامش التأويل الذي يرافق التشبيه مساحات خطابية للتلاعب والمخاتلة وإضمار المواقف الحقيقية. ومن مظاهر الممارسات السلطوية التي يمكن تكريسها من خلال المشابهة، الانحياز، والتحكم، والتفرقة، والتضليل، والاضطهاد، والعنصرية على صعيد الخطاب.

تستدعي الأطروحة لمناقشة هذه المسألة إحدى أكثر الوقائع المثيرة للجدل السياسي والاجتماعي والحقوقى والقضائي في إسبانيا خلال سنة 2020، وهي واقعة منظرية كان الموقع عليها صحفي إسباني بصحيفة (ABC) الإسبانية الذائعة الصيت. فقد كتب في 22 أكتوبر من سنة 2020 تقريراً نُشر بعموده الخاصة بالصحيفة، عن إحدى مباريات فريق برشلونة التي جرت في اليوم ذاته. إلا أن مقطعاً من ستة أسطر أثار فوضى إعلامية تسببت في مظاهرات منددة واحتجاجات ضد الصحفي المذكور. وقد وُصف هذا المقطع بالمتطرف والعنصري ضد لاعب فريق برشلونة أنسو فاتي ذي الأصول الإفريقية الزنجية. كما عُرضت الواقعة على المحكمة الجنائية الإسبانية التي غرمت صاحب التقرير.

في ما يلي، مناقشة لمسألة التمثيل البلاغي لسلطة الخطاب المكرسة للعنصرية، وذلك من خلال النقد البلاغي الحجاجي للمقطع المذكور¹:

(35) كاد أنسو أن يسجل من خلال حركة مثالية يقوم بها الرقم 9، حيث أدار جسده تماماً. هناك شيء يشبه الغزال في أنسو عندما يركض، مثل بائع متجول أسود صغير جداً قد تراه فجأة يهرول في زقاق غراسيا عندما يصرخ أحدهم "ماء، ماء!" للإعلان عن وصول الحرس المدني. مشاهد برية في قلب المدينة.

يتضمن المقطع في المثال (35) ثلاث جمل، اثنتان مركبتان وواحدة بسيطة. ويُفهم من الجملة المركبة الأولى (كاد أنسو أن يسجل من خلال لقطة مثالية يقوم بها الرقم 9، حيث أدار جسده تماماً) أن الصحفي يصف حركة اللاعب بكل إيجابية؛ بحيث يمدحه بشكل واضح. الكلام حقيقي لم يعتمد فيه أيًا من الأساليب الممثلة لعلاقة المشابهة أو المجاز. إلا أن الجملة

1 المثال (10) مأخوذ من الموقع الإسباني لقناة Bein Sports، آخر مراجعة في 2020/10/23، انظر الرابط:

<https://www.beinsports.com/us-es/laliga/v%C3%ADdeos/ansu-fati-victima-de-insultos-racistas-griezmn/1568559>

الكبرى الثانية(هناك شيء .. الحرس المدني) تضمنت تشبيهين اثنين، والجملة الصغرى الأخيرة(مشاهد برية في قلب المدينة) تضمنت تشبيها واحدا فقط.

السؤال المطروح الآن هو كيف مارس صاحب العمود العنصرية من خلال علاقة المشابهة؟ في التشبيه الأول(هناك شيء يشبه الغزال في أنسو عندما يركض)، يظهر الركن الثاني من طرفي التشبيه(المشبه به: الغزال) معلوما ومحددا ومميزا، لكن المشبه(شيء) وإن كان طرفا حاضرا لغويا وبلاغيا، فإنه غير معلوم وغير محدد دلاليا، وقد يكون حسيا أو مجردا، وإن كان التجريد أكثر ترجيحا. وعموما، فقد تُرك هذا المشبه للتأويل من لدن المتلقين، وقد سمى عبد القاهر الجرجاني هذا النوع من التشبيه بالشبه الذي يحصل بضرب من التأويل¹ ووصفه بأنه: "يدقُّ ويغمض حتى يُحتاج في استخراجِه إلى فضل روية ولطف فكرة"².

وبذلك، فإن صاحب الخطاب يتلاعب بصفة المشبه، إذ يتحدث عن جزء من أجزائه بشكل عام، قد يكون عضواً أو حركة أو لونا أو أي شيء. ومادام المشبه غير محدد، فإن الصحفي أراد هنا أن يفتح المجال أمام متلقيه ليؤولوا المشبه، وينتقي أي شيء من الغزال وينسبه إلى الإنسان(اللاعب) ما دام هذا الشيء/الجزء المشبه مجهولا. إذن، فإن مظهر الممارسة السلطوية يتجلى في إسناد صفة حيوانية غير محددة وغير مميزة إلى إنسان؛ بحيث إن الهدف الأساس هو نعت اللاعب بالحيوانية.

حسب فان لوفين كما سبقت الإشارة في الفصل الثالث من الباب الأول، يُعد عدم التحديد والتمييز للأطراف المشاركين في الممارسة الاجتماعية على مستوى الشكل/الخطاب، طريقة تمثيلية لاستراتيجية إعادة صياغة السياق؛ بحيث إن المرسل يدرج في خطابه عنصرا عائنا من حيث هويته وتعريفه، ويعول على المستوى الإدراكي للمرسل إليهم لتحديده بحسب سياقهم الاجتماعي³. ولعل هذا ما سعى إليه الصحفي من خلال عدم تحديد المشبه. علاوة على ذلك، تحدث فان لوفين أيضا عن طريقة تمثيلية أخرى هي التعميم، وعدها من طرق إعادة صياغة السياق أيضا⁴. وهذه طريقة تمثيلية حاضرة في المثال رقم(35)، إذ إن ادعاء صاحب الخطاب لشيء ما في اللاعب يشبه الغزال، جاء معمّما، ولم يكن خاصا.

1 عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط1، القاهرة، د.ت، ص: 92.

2 المرجع السابق، ص93.

3 Theo van Leeuwen, The representation of social actors, p: 39.

4 Ibid, p: 35.

في التشبيه الثاني(مثل بائع متجول أسود صغير جدًا)، كلا الطرفين معلوم ومحدد ومُدرَك، فالمشبه هو اللاعب والمشبه به هو البائع المتجول الأسود الصغير جدا. لا تكمن الممارسة العنصرية هنا في صفة المشبه ولا حتى في النعتين التابعين للمشبه به(الأسود الصغير)، لأن المشبه في الحقيقة من أصول إفريقية وما يزال فتى صغير السن؛ وإنما تكمن في المشبه به(بائع متجول)، وفي وجه الشبه(قد تراه فجأة يهرول في زقاق غراسيا عندما يصرخ أحدهم "ماء، ماء!") .

أولاً، لأن الباعة المتجولين في مدينة برشلونة مستضعفون، ويعيشون أوضاعا اجتماعية وإنسانية مزرية، ومحرومون من حقوق كثيرة، ويُنظر إليهم بنظرة دونية. وبالتالي فصاحب الخطاب ينظر من خلال عموده إلى اللاعب بمنظار اجتماعي شعبي، هنا يلتقط الصحفي سمة اجتماعية من السياق الشعبي في برشلونة، وتحديدًا من شارع غراسيا المعروف بكثرة الباعة المتجولين الأفارقة، ويُسندها إلى شخص آخر في سياق مغاير تماما، بل أفضل بكثير. وقد سبقت الإشارة في الفصل الثاني من الباب الأول، إلى أن نقل عنصر من عناصر السياق الاجتماعي إلى سياق خطابي يندرج ضمن استراتيجية إعادة صياغة السياق حسب فانلوفين؛ إذ اعتقد أن تمثيل المشاركين يعني عملية نقل أو تحويل للممارسة من الواقع الاجتماعي إلى واقع الشكل الخطابى. ويقصد أن الخطابات لا تنتقل للممارسات أو عناصرها بشفافية دائما، بل قد يتم تجاهل بعضها أو إقحام عناصر غريبة عنها لتصبح منها -بالإكراه- على مستوى الخطاب¹، ولعل صاحب الخطاب قد أقحم عنصرا غريبا هو سمة الدونية في خطابه، وأسندها إلى اللاعب الصغير الذي يعيش وضعًا أفضل من الباعة المتجولين، بل إنه مدلل من مدلي مدينة برشلونة.

وثانياً، لأن وجه الشبه(قد تراه فجأة يهرول في زقاق غراسيا عندما يصرخ أحدهم "ماء، ماء!") يجعل من لاعب نجم وشهير فارا من الحرس المدني الإسباني، أي خارجا عن القانون يعيش في وضعية غير شرعية، ومطلوب لدى الأمن. إن وجه الشبه يضع طريقة ركض اللاعب بإزاء هرولة الباعة المتجولين فارين من الحرس المدني، ويُظهره فتى لا يجب أن يكون في إسبانيا، كما هو الحال بالنسبة إلى الباعة حسب اعتقاده. وهذا مظهر آخر من مظاهر العنصرية في هذا الخطاب.

1 تيو فان لوفين، الخطاب باعتباره إعادة تشكيل سياق الممارسة الاجتماعية: دليل إرشادي، ص: 308.

في الجملة البسيطة (مشاهد برية في قلب المدينة)، تشبيه ثالث. غير أنه لا يشبه مفردا بمفرد، كما أن المشبه غير مذكور وكأنه استعارة. وأما المشبه به فمذكور، ولكنه كلام مؤلف. بناء على هذا الوصف البنيوي، واستحضارا لرأي عبد القاهر الجرجاني، فإن هذا التشبيه تمثيلي؛ إذ إن التشبيه التمثيلي حسب الجرجاني في دلائل الإعجاز، يأتي على حد الاستعارة¹؛ أي قريبا من الاستعارة ويكاد يكون هي. وبضيف أن عدم ذكر ما يدل على لفظ المشبه اختصاراً للكلام²، بمعنى أن الاكتفاء بما يدل على المشبه به لا يعني الانتقال من التشبيه إلى الاستعارة، وإنما الاحتفاظ بالتشبيه وإحالة المشبه به المذكور إلى المشبه غير الوارد. فما هو هذا المشبه غير المذكور حتى تكتمل الصورة؟

إن المشبه في المثال رقم (35) مركب من عناصر متعددة، وهي حركة اللاعب المثالية، وشبهه للغزال في الركض، وشبهه للبائع المتجول الأسود الفار من الحرس المدني. ومنه، فإن كل هذه العناصر في نظر الصحفي صاحب العمود، تشبه المشاهد البرية، أي حركات الحيوانات وفرارها من بعضها البعض في الغاب فجأة. بناء على هذا تتعزز فرضية الممارسة العنصرية، بحيث يثبت أن الخطاب يصف اللاعب بالحيوان البري بما لا يدع مجالاً للشك. هكذا، تكون علاقة المشابهة في التشبيهات الثلاثة الواردة في (35) قد مثلت مظهرا متطرفا من مظاهر السلطة على مستوى الخطاب. وقد استعان الصحفي الإسباني في ذلك بطريقتين من طرق التمثيل المعتمدة عادة - حسب فان لوفين- في استراتيجية إعادة صياغة السياق. بحيث إن إدراك المتلقي وُضع أمام ممارستين اجتماعيتين، أولهما هي حركة رياضية مثالية، وثانيتها هي الوضع الشاذ المأزوم للأفارقة الفارين من رجال الأمن على الدوام بإسبانيا. كما أنه اضطرَّ إلى أن يستحضر مشهد فرار الحيوانات من بعضها البعض في البراري.

2.3. الاحتماء بالمجاز:

يتيح نقل الكلمة أو الجملة مما وُضعتا له إلى ما لم توضع له في أصل اللغة، للمتكلم أو الكاتب، أمرين اثنين: أولهما القصد إلى عدم إثبات الفعل إلى فاعله الأصلي بنيويًا، والثاني هو دفع المتلقي إلى التأوُّل حتى يعلم أن الفعل لا يثبت إلا لمن يستطيعه منطقيا. لذلك قال عبد القاهر الجرجاني عن الأمر الأول: 'فإما أن يكون الشيء الذي أُثبت له الفعل مما لا

1 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: علي محمد زينو، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، دمشق، 2005، ص: 67.

2 المرجع السابق، ص: 67.

يدعي أحد من المحقّين والمبطلين أنه مما يصح أن يكون له تأثير في وجود المعنى الذي أثبت له¹، وقال عن الأمر الثاني: "وإما أنه يكون قد عُلم من اعتقاد المتكلم أنه لا يُثبِتُ الفعل إلا للقادر"².

وبتّيح الأمران معا لذوي الأطماع السلطوية في الممارسات الخطّابية، الاختباء خلف نقل الكلمات والجمل من أصل الوضع اللغوي. فالإسناد المجازي لغير الفاعل الحقيقي في المجاز العقلي³، والجواز بالكلمة إلى غير أصلها اللغوي تشبيها في الاستعارة، والجواز بها لعلاقة بين المنقول منه والمنقول إليه في المجاز المرسل، كلها استخدامات بلاغية ولغوية يستطيع المتكلم من خلالها إما مواراة الفاعل الحقيقي المقصود باتهاماته أو التقديح فيه أو الإساءة إليه. كما أنه يستطيع من خلالها الاحتماء بنفسه عند هجوماته المباشرة على منافسيه أو أعدائه. إلا أن المتكلم، وحتى يضمن تأويل المتلقين للمعنى الحقيقي المقصود، يترك القرائن حتى يلاحظوا الأصل كما يقول الجرجاني: "ثم اعلم بعد أن في إطلاق المجاز على اللفظ المنقول عن أصله شرطا، وهو أن يقع النقل على وجه لا يعرى معه من ملاحظة الأصل"⁴.

يُنَاقش البحث هذه الاستخدامات البلاغية الثلاث من منظور النقد اللساني والبلاغي للخطاب، بغية التعرف على قدرة المجاز على تكريس سلطة الخطاب من خلال التواري والتلاعب، والاحتماء خصوصا. الأمثلة المقدمة للتحليل هنا مقتبسة مرة أخرى من خطاب الرئيس الأمريكي السابق، دونالد ترامب، في مراسيم تنصيبه. وقد اتضح على العموم، من الناحية التركيبية والدلالية في الفصل الثاني من الباب الثاني، أن هذا الخطاب يحاول أقصى جهده أن يثبت للشعب الأمريكي انتهازية الإدارة السابقة واستغلالها له، وإساءتها إليه وإلى البلد بصفة عامة. وهنا، تحاول الأطروحة أن توضح كيف أن الاستخدامات المجازية أسعفته في أن

1 عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص206.

2 المرجع السابق، ص: 206.

3 انظر في تقسيم المجاز اللغوي والمجاز العقلي، وتقسيم المجاز اللغوي إلى مجاز مرسل واستعارة، كما قدمه الجرجاني في أسرار البلاغة إذ يقول: "واعلم أن المجاز على ضربين: مجاز من طريق اللغة، ومجاز من طريق المعنى والمعقول. فإذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة كقولنا(اليد مجاز في النعمة) و(الأسد مجاز في الإنسان وكل ما ليس في السبع المعروف)، كان حكما أجريناه على ما يجري عليه من طريق اللغة؛ وأوقعها على غير ذلك، إما تشبيها، وإما لصلة وملابسة بين ما نقل إليه وما نقل عنه. ومتى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام، كان مجازا من طريق المعقول دون اللغة، وذلك أن الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هي جمل، لا يصح ردها إلى اللغة، ولا وجه لنسبتها إلى واضعها؛ لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم، أو اسم إلى اسم، وذلك شيء يحصل بقصد المتكلم...". عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص.ص: 216-217.

4 عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 209.

يتوارى بنفسه، كما فعل في الاستخدامات التركيبية، كالتعدية واللزوم، والبناء للمجهول، والاستدراك، والظرف الفجائي¹.

جاءت في خطاب ترامب عند تنصيبه² الاستخدامات المجازية الآتية:

(ا/36) ازدهرت واشنطن.

(ب/36) حمت المؤسسة نفسها.

(ج/36) الجريمة والعصابات والمخدرات التي سُرقت حياة العديدين

وحرمت بلادنا من الكثير من المقدرات غير المستغلة.

(د/36) من هذا اليوم فصاعدا ستحكم رؤية جديدة لبلادنا.

في (ا/36)، استعارة في (ازدهرت)، ومجاز عقلي في الجملة بأكملها. فالفعل ازدهر مزيد من الفعل (زَهَرَ) الذي معناه في العربية الحُسْن والضياء والصفاء كما ورد في مقاييس اللغة لابن فارس، ومنه سطوع النور وتفتح الزهر ونمو النبات³. لكن الكلمة نُقلت عن هذا المعنى الذي وُضع لها في أصل اللغة، فأصبحت تفيد معنى التطور والتقدم. وعلى الرغم من أن هذه الاستعارة لا تتضمن أي مظهر من مظاهر السلطة الخطابية، ولكنها ستفيد في دراسة المجاز العقلي الذي أفادته الجملة.

المفهوم من هذه الاستعارة أن مدينة واشنطن قد ازدهرت، ولكن القصد الحقيقي لصاحب الخطاب هو أن العاصمة ازدهرت؛ وهذا المعنى الثاني يقود إلى معنى ثالث هو أن السياسيين الحكام في العاصمة واشنطن قد ازدهروا أو ازدهرت أوضاعهم. فكيف ذلك؟ إن الفاعل الحقيقي الذي يُسند إليه فعل الازدهار هو السياسيون في العاصمة، أي أعضاء الحزب الحاكم بزعامة

1 انظر الفصل الثاني من هذا الباب.

2 الأمثلة مقتبسة من خطاب ترامب المنشور على الرابط:

<https://arabi21.com/story/979594/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B5%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%A7%D9%85%D9%84%D9%84%D8%AE%D8%B7%D8%A7%D8%A8%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D9%85%D8%A8%D8%AE%D9%84%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D9%85%D8%AA%D9%86%D8%B5%D9%8A%D8%A8%D9%87%D8%B1%D8%A6%D9%8A%D8%B3%D8%A7>

3 ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (زهر)، ج3، ص: 31. حيث يقول ابن فارس في (زهر): " (زهر) الزاء والهاء والراء أصل واحد يدل على حسن وضياء وصفاء. من ذلك الزهرة؛ النجم، ومنه الزهر وهو نور كل نبات؛ ويقال أزهر النبات".

باراك أوباما، إلا أن المتكلم أسند الفعل إلى غير صاحبه؛ فالإسناد المجازي في الجملة كان إلى المكان، ومنه فإنه مجاز عقلي علاقته المكانية.

يكتسي اتهام أوباما وحزبه بالازدهار المالي والاقتصادي خطورة كبيرة أمام القانون، لذلك، فإن المتكلم عمد إلى المجاز العقلي لئلا يذكر المقصودين الحقيقيين بالتهمة، وذلك حتى يحمي نفسه من أية متابعة أو من المطالبة بالدليل. لقد نقل صاحب الخطاب فعل الازدهار من أفرادٍ معلومين في المجتمع الأمريكي أن مقرهم هو إدارة الجمهورية في العاصمة واشنطن، ثم أسنده إلى مدينة واشنطن نفسها بوصفها مكانا؛ وفي ذلك فرار من مسؤولية نعتهم بتحقيق مكاسب مالية أدت إلى ازدهارهم. ومنه، فإنه قد احتذى بالمجاز العقلي لتبرئة ذاته من كل التهم.

يستمر هذا الاحتماء وهذا التواري حتى في (36/ب)، ولكن بنوع آخر من المجاز هو المجاز المرسل. فهناك نقل للفعل (حمى) من أصله اللغوي إلى استخدام مجازي، لأن المؤسسة لا تفعل ولا تتحرك ولا تعي. كما أن نقل الحماية إليها لم يكن على وجه المشابهة، وإنما لوجود صلة وملابسة بين المنقول منه (المسؤولون السياسيون في مؤسسة رئاسة الجمهورية)، إلى المنقول إليه (المؤسسة)، أي من الجزء إلى الكل، وهي علاقة كلية.

مع هذا الاختيار، يصعب تحديد هوية المنقول منه بنويًا نحويا، ولكن القرينة السياقية تيسر أمر ملاحظة الأصل؛ أي معرفة المنقول منه الحقيقي (الرئيس أوباما ومن معه). ولكن بوساطة التأويل الموجّه لا من طريق التصريح الصريح والاستعمال الحقيقي للجملة. هكذا، يحمي المتكلم نفسه من أن يظهر مدعيا رسميا للتهمة المذكورة، لكنه يمكن المتلقين من أن يصلوا إلى المقصود الفعلي، والمتهمين الحقيقيين بحماية أنفسهم على حساب الدولة والشعب.

هناك في (36/د) مجاز مرسل آخر يؤدي الوظيفة الخطابية ذاتها، وهو الواقع في الفعل (ستحكم)؛ بحيث إن الرؤية الجديدة شيء مجرد لا حركة ولا فعل له، وإنما تعود إلى طرف آخر نُقلت منه، وهو الرائي، أي الحاكم الجديد ترامب آنذاك. إلا أن علاقة المشابهة بين الرؤية والحاكم هنا مستحيلة التحقق، وإنما الحاكم سبب والرؤية نتيجة، لتكون علاقة المجاز المرسل مُسَبَّبِيَّة. لقد استعاض المتكلم عن ذكر السبب الذي يكون هو في الأصل والحقيقة، وذكر الرؤية التي هي النتيجة، احترازا واحتماءً.

بنية المثال (36/ج) معقدة مقارنة مع سابقتها في مجموعة الأمثلة رقم (36)، إذ إن عطف العصابات على الجريمة، وعطف المخدرات على العصابات، يُسند الحكيم (سُرقت

وحرمت) إلى الجميع. إلا أن طبيعة الألفاظ الثلاثة(الجريمة/ العصابات/ المخدرات) في علاقتها بالدلالة العامة للجملة المركبة تعطي ثلاثة أصناف من الاستخدامات بعد تفكيك علاقات العطف:

(36/ج') العصابات سرقت وحرمت.

(36/ج") الجريمة سرقت وحرمت.

(36/ج"'') المخدرات سرقت وحرمت.

تمثل(36/ج') الإسناد الحقيقي للعصابات المعطوفة على الجريمة، بحيث إن العصابات بالفعل تسرق وتحرم في الواقع. وهذا استخدام لا مجاز فيه. ولكن في(36/ج")، الجريمة لا تسرق ولا تحرم، وإنما هي فعل ينجزه فاعل. معنى ذلك أن الذي سرق وحرم هو المجرم، أي إنه قد عوض الفاعل بالمصدر، فتكون العلاقة مصدرية. أما في(36/ج"'')، فهناك استعارة نظرا لوقوع علاقة المشابهة بين السارق والمخدرات.

لقد توارى صاحب الخطاب هذه المرة خلف المجاز المرسل في(11/ج")، وخلف الاستعارة في(36/ج"'')؛ بحيث إنه يتهم -في المعنى الحقيقي المقصود التالي للمعنى المجازي الأول- إدارة أوباما بتهاونها في محاربة الجريمة والمخدرات. ولكي لا يصرح بهذا الاتهام الحرج بكل وضوح، فقد أسند فعلي السرقة والحرمان إلى المصدر بدلا من الفاعل، ونقل فعلي السرقة والحرمان من الإنسان المروج للمخدرات إلى المخدرات نفسها. كل ذلك يؤدي وظيفتين خطابيتين، أولاهما أنه يلقي اللوم على الإدارة المسؤولة عن محاربة الجريمة والمخدرات، وثانيتها هي الاحتماء خلف المجاز كما هو الحال في جميع الأمثلة المجازية المذكورة أعلاه.

بعد تحليل الأمثلة في المجموعة(36) وتفكيك علاقات العطف في(36/ج)، يتضح أن الفواعل المضمرة في أنواع المجاز الثلاثة، المجاز العقلي والمجاز المرسل والاستعارة، كلهم أحياء. وقد سبق لنورمان فيركلف أن تحدث عن الفواعل في العلاقات المجازية المضمرة، فأكد أن الفواعل الحقيقية في الخطاب دائما ما تكون من الأحياء. ولعل ذلك ما أشار إليه الجرجاني عليه بلفظ: القادر¹.

هكذا، يبدو أن المجاز بنوعيه، العقلي واللغوي، وأن المجاز بنوعه، المرسل والاستعارة، استخدامات بلاغية قد هيأت للمتكلم المساحات الخطابية الكافية والكفيلة بإلقاء التهم على

1 عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 206.

المنافسين، ووقاية شخصه من المتابعات القانونية، خصوصا وأنه يتحدث في مناسبة رسمية علنا.

3.3. التلاعب بالتضمينات:

المقصود بالتضمين في هذه الفقرة هو معناه البلاغي، أي استجلاب كلام وإحاطة بالخطاب مع التنبيه إليه. ولعل الغاية المعلومة لدى البلاغيين من التضمين هي تعزيز المتكلم لكلامه برأي الغير، وهي ما أكده ضياء الدين بن الأثير حين عرف التضمين بأنه جعل كلام آخر في كلام المتكلم قاصدا الاستعانة على تأكيد المعنى المقصود¹.

لدراسة تمثيل التضمين للتلاعب وشتى أنواع الممارسات السلطوية في الخطابات، تركز الأطروحة على التقرير السنوي لمنظمة هيومن رايتس ووتش² بخصوص الوضع الحقوقي بالمغرب لسنة 2021، والذي أصدرته خلال السنة نفسها وشمل النصف الثاني من سنة 2020 والنصف الأول من سنة 2021. وتركز الأطروحة على ثلاث فقرات من أصل ثمانية جاءت في التقرير، وهي المعنونة بالصحراء الغربية* (تقصد الصحراء المغربية)، وحقوق النساء والفتيات والعاملات المنزليات.

إن سبب اختيار هذا النموذج ليكون متنا لنقد التضمين بلاغيا، هو أن منظمة هيومن رايتس ووتش قد اعتمدت في هذه الفقرات الثلاث على كم كافٍ من التضمينات التي خدمت الأطماع السلطوية الخطابية. لذلك فإن التحليل والنقد سيركز على إيراد تصريحات الأطراف المذكورة في التقرير، والمستشهد بها من لدن المنظمة. والحق أن التأمل في طريقة إيراد التصريحات في شكل تضمينات، يُجلي أن منظمة هيومن رايتس ووتش تنتشر المغالطات والتلاعبات وكثير من أوجه التضليل والكذب الخطابية. ذلك ما سيتأكد من خلال قائمة التضمينات أسفله:

(1/37) قال أحدهم لهيومن رايتس ووتش في 5 أكتوبر/تشرين الأول إن سيارات الشرطة

كانت تلاحقهم كلما غادر أحدهم منزله لأي سبب كان، ومنعت الضيوف من الزيارة.

(37/ب) اعتمدت كلتا المحكمتين بشكل شبه كامل على اعترافاتهم للشرطة لإدانتهم، دون

التحقيق بجدية في مزاعم أن المتهمين وقعوا على اعترافاتهم تحت التعذيب.

1 انظر: ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ط2، 1995، ج2، ص: 326.

2 التقرير منشور باللغة العربية على موقع منظمة هيومن رايتس ووتش . آخر مراجعة: 2021/08/21.

ترجم منظمة هيومن رايتس ووتش في الفقرة المعنونة بالصحراء الغربية* (تقصد الصحراء المغربية) مجموعة من الادعاءات الكاذبة التي تتحاز فيها إلى البوليساريو، وهي منع تجمعات وعرقلة عمل بعض المنظمات الحقوقية غير الحكومية، وضرب من أسمتهم ببعض الصحفيين، واعتقال من أطلقت عليهم بعض النشطاء وتطويق منازلهم. إلا أن النقد البلاغي الحجاجي لهذا الخطاب يُظهر أن منظمة هيومن رايتس ووتش تتهج استراتيجياً خطابية هي التلاعب بالاقتراسات وتضمينها لإعطاء المصادقية لفحوى التقرير. فكيف ذلك؟

يلاحظ أن التقرير حين يُشير إلى تصريحات المؤسسات والمسؤولين القضائيين والأمنيين والسياسيين التابعين للحكومة المغربية، يعتمد التضمين بطريقة سليمة؛ بحيث إنه يُسند التصريح إلى الجهة التي أصدرته منها إليها، ومشيروا إلى اسمها أو إلى منصب المسؤول الذي أدلى بالتصريح. ومن قبيل ذلك هذه التنبهات التي تحيل إلى الطرف المدلي بالتصريح بكل موثوقية: "نشر وكيل الملك في العيون.. / قالت السلطات لهيومن رايتس ووتش/ رغم أن السلطات قالت لهيومن رايتس ووتش/ فيما وصفه وزير العدل آنذاك محمد أوجار/ بينما لاحظت السلطات...". يتبين إذن أن الإحالة إلى أصحاب التصريحات المغربية المضمّنة في الفقرة المقصودة من التقرير، كانت واضحة ولا تشوبها أية مغالطة أو تلاعب. إلا أن التضمين حين يكون خادماً لهدف المنظمة المتمثل في الكذب والانحياز، يُدرج بطريقة تعسفية ومخاتلة، تستهدف التضليل وتزوير الحقائق. ومن هذا القبيل ما جاء في (1/37) و(37/ب)، حيث ضمّنت المنظمة في هذا الجزء من تقريرها السنوي أن الشرطة المغربية كانت تلاحق النشطاء، وأنها عذبت بعضهم لانتزاع اعترافات معينة.

الآن، يمكن مقارنة الإحالة إلى ذوي هذه التصريحات المضمّنة، بالإحالة إلى ذوي التصريحات التي تخص المسؤولين والمؤسسات المغربية؛ فيتضح أن التقرير حين تحدث عن المسؤولين والمؤسسات المغربية كان يوثق تصريحاتهم، ويحيل إليهم بكل وضوح؛ بل يضع التضمينات بين علامتي تنصيص أيضاً. لكنه حين أحال إلى من سماهم بالنشطاء، لم ينتهج درجة الحرص والتوثيق نفسها للتصريحات، بل أحال إلى ذويها بعبارات تعكس النية المبيتة للتدليس والكذب والتزوير، ودليل ذلك في (1/37) هو (قال أحدهم)، وفي (37/ب) هو (مزاعم). يتأكد إذن أن الإحالة في التضمينات لم تكن على قدم المساواة، بل لم تتل الدرجة نفسها من الحرص على التوثيق؛ وهذا مكن الممارسة السلطوية الخطابية المتمثلة في الانحياز والتلاعب والكذب.

من ناحية أخرى، كانت هيومن رايتس ووتش حريصة على أن تردف تضمينات التصريحات المغربية بتعليق يحاول التكذيب والتوجيه، وذلك من قبيل ما جاء في هذا الجزء: (لم تتمكن هيومن رايتس ووتش من التحقق من هذه المعلومات بشكل مستقل)؛ بحيث حاولت التشكيك في تصريح السلطات المغربية بخصوص فتحها لتحقيق حول نشر مقطع فيديو يصور حالة تعنيف بالصحراء المغربية على اليوتيوب. مما يعني أن نية التشكيك في الموقف المغربي مبيتة لدى منظمة هيومن رايتس ووتش، وما يؤكد ذلك أكثر هو أن التقرير لم يعلق على التضمينات المساندة للبوليساريو أبداً.

من أدلة تمثيل التضمين للتلاعب الخطابى والكذب والتدليس كذلك، هذان النموذجان اللذان وردا في الفقرة الثانية المعنونة بحقوق النساء والفتيات، والفقرة الثالثة المعنونة بالعاملات المنزليات على التوالي:

(37/ج) حذرت مجموعات حقوق المرأة من مخاطر حالات العنف الأسري

المتزايدة خلال قيود الإغلاق المتصلة بفيروس كورونا وطالبت بخطة عاجلة من السلطات للاستجابة لها بشكل فعال.

(37/د) خلال الإغلاق بسبب فيروس كورونا، علقت بعض العاملات المنزليات

في منازل أصحاب العمل، وكن مثقلات بالعمل، وغير قادرات على العودة إلى عائلاتهن، وفقا لتقارير إعلامية.

على الرغم من تغيير السياق، ومعه الموضوع؛ بحيث تحدث التقرير في الفقرة الثانية عن حقوق النساء والفتيات، وفي الفقرة الثالثة عن العاملات المنزليات، فإن نية هيومن رايتس ووتش في نقل الوضع الحقوقي في المغرب لا تخلو من الشك والتوجس، وتتم عن قصد صارخ للتلاعب والتضليل. ففي (37/ج)، يعكس التضمين خطرا كبيرا يهدد الأسر المغربية (حسب ادعاء هيومن رايتس ووتش) من خلال ارتفاع وتيرة العنف داخل الأسرة على حد تعبير التقرير، وفي (37/د) يُظهر العاملات مستضعفات. لكن، لمن يعود هذان التصريحان الخطيران؟

عزمت منظمة هيومن رايتس ووتش على التنبيه إلى ذي التصريح الخطير بطريقة لا تُحدد هويته في (37/ج و 37/د)، وتحجب عن نفسها المساعلة القانونية بخصوص صدق الادعاءات. ودليل ذلك هو اكتفاؤها بالإحالة إلى أصحاب التصريح بعبارتي (مجموعات حقوق المرأة/ بعض العاملات المنزليات). فماذا تكون هذه المجموعات؟ وكم عددها؟ وما أسماؤها؟ ومن هم رؤساؤها أو الناطقون باسمها؟ ومن هن هؤلاء العاملات؟ وكيف وصل صوتهن إلى

المنظمة؟ كل هذه أسئلة لا يجيب عنها التقرير أبداً، ولا وجود لأية قرينة تقرب من الإجابة عنها. مما يؤكد مرة أخرى أن التضمين والإحالة إلى ذوي التصريحات مطية للتلاعب الخطابى.

4.3. عنصرية الحجاج بالمقارنة:

تدخل المقارنة في الإجراءات الاستدلالية التي تقوي حجاجية الخطاب، وقد تركز مجموعة من مظاهر الهيمنة الخطابية، كالانحياز، وعدم المساواة، والتهكم، والإقصاء، والمغالطة، والعنصرية. وبالنسبة إلى العنصرية، تبقى المقارنة الطريقة الحجاجية المثلى لتكريسها على صعيد الخطابات؛ بحيث تمكن ذوي النوايا المتطرفة والعنصرية من إظهار أحد الطرفين ضعيفا لصالح الطرف الآخر.

يتميز النموذج المقترح لدراسة هذه القضية بممارسة متطرفة أكثر دهاء في تمثيل العنصرية من خلال المقارنة، وهو عبارة عن تدوينة على موقع تويتر لحزب إسباني معارض ومتطرف، وله تاريخ في الممارسات العنصرية ضد غير الإسبان وغير المسيحيين، وهو حزب فوكس¹. والجدير بالذكر في هذا الحدث أن إدارة موقع تويتر قد حذفت التدوينة قبل انقضاء ساعتين كاملتين على نشرها، إلا أن جهات إعلامية كثيرة استطاعت نسخها واقتطاع صورة كاملة لها، موثقة ومؤرخة، ومن بينها صحيفة ألبايس الإسبانية التي أعادت نشرها، وهذه صورة التدوينة باللغة الإسبانية قبل حذفها:



صورة رقم (04): تدوينة حزب فوكس العنصرية على تويتر قبل حذفها

1 نُشرت التدوينة العنصرية على صفحة حزب فوكس بالتويتر بتاريخ 2021/01/22، ونقلتها صحيفة الباييس الإسبانية في اليوم نفسه بعد أن حُذفت بعد أقل من ساعتين على ظهورها. تاريخ آخر مراجعة لموقع الصحيفة: 2021/03/42:

<https://elpais.com/espana/2021-01-28/twitter-cierra-la-cuenta-de-vox-por-incitar-al-odio-contra-los-musulmanes.html>

يمكن الآن مباشرة النقد البلاغي الحجاجي للمقارنة المكرسة للعنصرية في تدوينة حزب فوكس المتطرف، تطبيقاً على الترجمة العربية لها:

(38) إنهم يمثلون حوالي 0.2% من السكان وهم مسؤولون عن 93% من الشكايات. معظمهم من المغرب العربي. إنه الميراث الذي يتركه التراخي والإجماع مع الجريمة المستوردة. تبقى فوكس فقط! "أوقفوا الأسلمة".

أول ما ينبغي الانتباه إليه هو أن هذا الخطاب لم يأت في سياق أية مناسبة، بمعنى أنه لم يُؤطر ضمن أية ممارسة اجتماعية سابقة. لذلك، فهو خطاب وفي الآن نفسه يعطي انطلاقة ممارسة اجتماعية آنية، أي إنه هو ممارسة اجتماعية في حد ذاته.

جاءت المقارنة في الجملة الأولى من التدوينة في السطر الأول حسب المثال رقم (38) بين نسبتين مؤويتين، طرفها الأول هو نسبة المحال إليهم بضمير الغائب الجمع (إنهم) من مجموع سكان إسبانيا، وطرفها الثاني هو نسبة الشكايات المقدمة ضد من يمثلون النسبة في الطرف الأول. لحد الآن لم يُعلم من هو هذا الطرف الذي يمثل نسبة (0.2%) من السكان. لكن، بعد المقارنة، يبدأ تحديدهم بالتركيز على العرق (معظمهم من المغرب العربي)، ثم على الدين (أوقفوا الأسلمة).

بالتأمل في المقارنة، يظهر أنها تحاول أن تمثل المفارقة والتهويل حجاجياً، فالمفارقة تتجلى في عدد ضئيل من سكان إسبانيا يُقدّم في حقه عدد ضخم من الشكايات، أي إن نسبة (99.98%) من السكان - وهم غير العرب والمسلمين - تُقدّم في حق بعضهم (7%) فقط من مجموع الشكايات؛ وهذا هو مناط تكريس المفارقة بالمقارنة. أما التهويل فيتجلى في محاولة زرع الخوف في المجتمع الإسباني من العرب والمسلمين، وفي أن وجودهم يهدد غيرهم من السكان، بمعنى أن نسبة (0.2%) تشكل خطراً على نسبة (99.98%) من السكان.

تنتفي في التدوينة حسب تحليل هذه المقارنة قاعدة العدل والمساواة على صعيد الخطاب كما يرى بيرلمان، وهي التي: "تقتضي بأن نعامل الكائنات التي تنتمي إلى النوع نفسه معاملة واحدة"¹ بلاغياً وخطابياً.

1 نقلا عن: فيليب بروطون، الحجاج في التواصل، ص: 97.

Perlman Chaïm, l'Empire Rhétorique, vrin, Paris, 1998, p80.

وانظر أيضاً:

تمتد مظاهر الممارسة العنصرية حتى في محيط المقارنة، إذ وصف حزب فوكس العرب والمسلمين بالمجرمين القادمين من خارج إسبانيا(الجريمة المستوردة)، ثم إنه يلوم الحكومة الإسبانية على قبول ولوجهم إلى داخل البلاد. إضافة إلى ذلك، هناك في آخر التدوينة فعل لغوي مباشر يفيد الأمر(أوقفوا الأسلمة)، لكنه يتجاوز القوة الإنجازية الحرفية، إلى قوة إنجازية مستلزمة، وهي التحريض؛ بمعنى أن حزب فوكس يسعى إلى خلق ردود أفعال شعبية وحكومية ضد العرب والمسلمين. ومنه، يظهر أن الغاية من التدوينة هي العنصرية واستئصال العرب والمسلمين من المجتمع الإسباني.

لقد شكلت المقارنة إجراء حجاجيا يقدم الدليل بالأرقام بغية تعليل ما سيأتي في الجمل المتضمنة للنزعة العنصرية، أي إن المقارنة حجة مادية يستند إليها في ما سيأتي بعدها من مظاهر العنصرية. والحق أن حذف التدوينة بعد أقل من ساعتين على نشرها، يؤكد نتيجة هذا التحليل. أما في إسبانيا، وعلى الرغم من حذف التدوينة، فإن إعادة نشرها في منابر إعلامية عديدة قد خلف بعضا من أهداف حزب فوكس؛ بحيث تنامت الآراء العنصرية ضد العرب والمسلمين على مواقع التواصل الاجتماعية طيلة الأسبوع، وخصوصا على موقع تويتر، بل كثرت المؤاخذات على إدارة تويتر بسبب حذفها للتدوينة.

خلاصة:

قدم هذا الفصل نماذج تطبيقية لأبرز حالات التمثيل اللساني لمظاهر السلطة الخطابية، كالهيمنة، والتلاعب، والتضليل، والكذب الخطابي، والعنصرية، والاحتماء باللغة، وعدم المساواة، والبقاء التهم، وغيرها. كما بين أن الاختيارات المعجمية، والدلالية، والتداولية، والبلاغية، والحجاجية، ليست من محض الصدفة في الخطاب ذي الطابع السلطوي، وإنما هي منتخبة وفق المرجعيات والأهداف الأيديولوجية للخطيب أو الكاتب.

وعموما، ترد في هذه الخلاصة أبرز النتائج:

- لا يمكن حصر المعاني الأيديولوجية فقط من خلال العلاقات التركيبية التي يرد فيها اللفظ، وإنما من خلال جرد المداخل المعجمية وتصنيفها في حقول معجمية، والكشف عن الفاعلين الاجتماعيين المقصودين بدلالاتها العامة.
- اقتران ما يدل على الفاعل الاجتماعي بألفاظ معينة في حالات عديدة ومتنوعة يؤدي وظائف خطابية أبرزها: ترسيخ الأيديولوجية، التحكم في الأفكار، والتدخل في بناء الآراء

عن الآخرين، وإسناد الصفات الإيجابية والسلبية وتعميمها في إطار استراتيجية الوصم الخطابية.

- وإن سكت صاحب الخطاب عن أغراضه الأيديولوجية الفعلية، فإن كم الألفاظ المتكررة بشكل كبير، ينطق بها في العمق الدلالي.
- يعكس الإطناب الذي ينشأ مع الترادف الدلالي، عن المعاني الأيديولوجية، ويبني صورة الخطيب ومن يمثلهم، وصورة الآخر في نظر الجمهور.
- يعقد التقابل الدلالي الذي تؤديه الروابط والأدوات الخلفية مفاضلة بين الخطيب ومنافسيه، وينتصر لمراجعته الأيديولوجية.
- الأفعال اللغوية وإن كانت مباشرة، فإنها تفيد باجتماعها في نص واحد، أو في تجاورها وتعالقها المضموني في نصوص متعددة، فعلا لغويا غير مباشر يبني الهدف الأيديولوجي العام؛ خصوصا إذا قصدت الأفعال الإغراء، والتلطيف اللغوي، وإضفاء الشرعية، والتحكم في الإدراك.
- الأساليب البلاغية والحجاجية تكرر الهيمنة الخطابية من خلال الممارسة العنصرية، واستراتيجيات: الاحتماء باللغة، وتبرئة الذات، والتواري، والكذب في إيراد التصريحات في شكل تضمينات زائفة، والمقارنة بالمفاضلة.

الباب الثالث

نحو مقارنة لسانية حجاجية في التحليل النقدي للخطاب
(تطبيقا على خطاب سياسي معاصر)

الفصل الأول

الأسس النظرية والتصور المنهجي
للمقارنة اللسانية الحجاجية

الفصل الثاني

الآثار السلطوية للنحو والمعجم

الفصل الثالث

الهيمنة الخطابية بالتداول والتفاعل والتنغيم

تقديم:

يستند هذا الباب إلى خلاصات المناقشة النظرية للمرجعيات اللسانية والاجتماعية، والمناقشة المنهجية لإجراءات التحليل في مناهج التحليل النقدي للخطاب، وإعادة قراءة آراء البلاغيين العرب وعلماء أصول النحو وأصول الفقه في الحجاج الجدلي، لتأسيس الإطار النظري والرؤية المنهجية للمقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة في هذه الأطروحة. وعليه، فإن الفصل الأول يستجمع أبرز الأفكار الملائمة من كل ما تقدم لصياغة الأسس النظرية (اللسانية والاجتماعية والبلاغية)، والتصور المنهجي، والجهاز المفهومي، والمبادئ العامة للمقاربة المقترحة. في حين يُخصص الفصل الثاني والثالث لتطبيقها على الخطاب الثاني للرئيس الفرنسي الحالي (إيمانويل ماكرون) خلال أزمة السترات الصفراء بتاريخ 2018/12/10.

الفصل الأول

الأسس النظرية والتصوير المنهجي للمقارنة اللسانية الحجاجية

تمهيد

1. الخلفية النظرية

2. الإجراءات المنهجية

3. الجهاز المفهومي

4. مبادئ عامة

خلاصة

تمهيد:

استحضارا لكل المراحل السابقة من هذه الأطروحة، وبناء على الخلاصات المذيلة لكل فصل في البابين السابقين، يسعى هذا الفصل الأول من الباب الثالث إلى استثمار نتائج التأطير النظري اللساني والبلاغي والاجتماعي لبناء الأسس النظرية والتصور المنهجي للمقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة في التحليل النقدي للخطاب.

تلتقي في هذا الفصل الأفكار والمفاهيم والمبادئ والإجراءات المستفادة من القراءة النقدية للمداخل اللسانية التي تقاطعت مع التحليل النقدي للخطاب في بعض خصائصه، والنماذج الاجتماعية التي اعتمدت في مناهجه، والآراء العلمية العربية بخصوص التفاعل الخطابي. وعليه، فإنه محاولة لصياغة المقاربة اللسانية الحجاجية التي تقترحها الأطروحة، على أن تُطبَّق على نموذج خطابي واحد في الفصلين القادمين.

ويوضح هذا الفصل الخلفية النظرية للمقاربة المقترحة، بالتركيز على الأساس اللساني المتمثل في اللسانيات النقدية والنحو الوظيفي النسقي، ثم الأساس البلاغي المتمثل في بلاغة الجدل في العلوم العربية، فالأساس الاجتماعي المتمثل في سوسولوجيا الهيمنة. كما يقدم المنهج المعتمد في المقاربة، وهو المنهج الوصفي التحليلي القائم على النقد؛ بالإضافة إلى الإجراءات المتبعة في تنزيله، والمفاهيم اللسانية والاجتماعية الرئيسية. وفي الأخير، يلخص المبادئ العامة التي تتبناها هذه المقاربة.

1. الخلفية النظرية

1.1. الأساس اللساني:

تتخذ المقاربة اللسانية الحجاجية اللسانيات النقدية لفاولر وزملائه¹، والنحو الوظيفي النسقي لمايكل هالبيدي² أساسا لسانيا لها، بحيث يؤطران الإجراءات النقدية والتعاطي مع المادة

1 ظهر فرع اللسانيات النقدية أول مرة خلال السبعينيات من القرن العشرين، وذلك بعد صدور كتاب جماعي بعنوان (اللغة والتحكم)، وكان ذلك على يد لغويين اشتغلوا بشكل جماعي لعقود بجامعة إيست أنجليا، وهم: روجر فاولر (Roger Fowler) ويوب هودج (Bob Hodge) وغانتر كريس (Gunther Kress) وتوني تريو (Tony Trew). للمزيد انظر المدخل من هذا البحث، وانظر أيضا: Fowler, Roger, On critical linguistics, p: 03.

Fairclough, Norman, Discours and Social Change, p: 25.

2 هالبيدي (1966، 1978، 1979: مراجع سابقة).

اللغوية في الخطابات ذات الطابع السلطوي، والطامحة إلى الهيمنة والتحكم الاجتماعيين، في سياقات محدودة أو موسعة.

1.1.1. النحو الوظيفي النسقي:

ما تتبناه المقاربة اللسانية الحجاجية من نظرية النحو الوظيفي النسقي، هو توجه هاليداي اللغوي الذي يرى أن وصف اللغة يجب أن يركز على وصف الاختيارات القائمة على قرائن سياقية وغرضية، تتدخل فيها الخبرة الإنسانية الاجتماعية، والقصدية، والثقافة¹. وبذلك فإن المقاربة المقترحة هي ذات منظور وظيفي اجتماعي، أي البدء بالوصف البنوي، وتفسيره من خلال الوظائف الاجتماعية التي تؤديها البنية اللغوية.

يتجلى المنظور الوظيفي الاجتماعي للمقاربة اللسانية الحجاجية في اعتبارها الاختيارات اللغوية على المستوى التركيبي، والمعجمي، والدلالي، والتداولي، وحتى الصرفي والصوتي، مسهمةً في ترميز المعاني المشكلة للممارسات الاجتماعية، والأنساق الثقافية، والدلالات الأيديولوجية. ولعل المقاربة المقترحة تتقاطع مع نحو هاليداي في هذا المنظور، خصوصاً عند تشديده على ضرورة تحليل اللغة من منظور اجتماعي ارتباطاً بالسياق، أي في تفاعلها بين أفراد الجماعة البشرية²؛ وكذلك في تصوره لكون أنماط السلوك تجسيدا للنحو³. بهذا المعنى، يكون نظام اللغة تحديداً ثقافياً⁴، ونطاقاً دلالياً للمعاني الممكنة، كما أنه مورد لصناعة المعاني الاجتماعية والأيديولوجية على صعيد الخطاب.

تؤدي اللغة حسب هاليداي -وكما أُشير في المدخل- ثلاث وظائف: الوظيفة الشخصية، والوظيفة النصية، والوظيفة الفكرية⁵. وتأخذ المقاربة اللسانية الحجاجية في التحليل النقدي للخطاب هذه الوظائف الثلاث في عين الاعتبار، كما ترى أن الاختيارات اللغوية على صعيد الخطاب ليست عشوائية أو تلقائية، وإنما تُتَّخَذُ بحسب الوظائف المراد أدائها، والمعاني الناتجة عنها.

ومن الأمثلة على انتقاء الاستخدام اللغوي لأداء وظائف اجتماعية وسلطوية مخصوصة على صعيد الخطاب، ما نوقش في الفصل الثاني من الباب الثاني؛ إذ كشف التحليل النقدي

1 Halliday, M.A.K, Deep Grammar: System as Semantic Choice, In Kress, p: 08.

2 محمود أحمد نحلة، علم اللغة النظامي: مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، ص: 149.

3 Halliday, M.A.K, Language in social perspective, p64.

4 Ibid, p: 64.

5 محمود أحمد نحلة، علم اللغة النظامي: مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، ص.ص: 137-140.

للخيارات النحوية في خطاب ترامب أن نسبة الأفعال المتعدية المسندة إلى المتكلم كانت جد مرتفعة وتكاد تبلغ نصف الأفعال الواردة في الخطاب¹، في حين أنه أسند إلى إدارة أوباما السابقة قرابة النصف من الأفعال اللازمة². وقد أشير في هذه النقطة إلى أن هذا الاستخدام المتعلق بالزوم والتعدية قد أسند إلى ترامب القدرة والقوة، في حين أسند إلى أوباما العجز والضعف. فالتعدية أدت وظيفة سلطوية تتجلى في إظهار المتكلم قادرا قويا، والزلوم أظهر الآخر ضعيفا عاجزا.

ويمكن تلمس هذه العلاقة الوظيفية بين الاستخدام اللغوي المنتخب والمظهر السلطوي الذي يؤديه أيضا في دراسة البناء للمجهول³، فقد أظهر تحليل بيان مديرة صندوق النقد الدولي في مؤتمر دعم الشعب اللبناني (المثال رقم 14)، أن استخدام البناء للمجهول⁴ كان لأغراض سلطوية تتجلى في عدم ذكر أسماء الفاعلين الحقيقيين، وذلك لتبرئة ذات المتكلم من كل متابعة قانونية. بالإضافة إلى ذلك، خول البناء للمجهول للمتكلم أن توجه اتهامات تبدو غير مباشرة ولكنها معيّنة للأطراف المقصودة من خلال القرائن الاجتماعية والسياقية والنصية.

مما يعني أن هذين الاستخدامين - وغيرهما - ليسا اعتباطيين أو تلقائيين، وإنما هما مقصودان لعدة وقصد سلطويين، وفيهما تجتمع الوظيفة الشخصية والنصية والفكرية.

2.1.1. اللسانيات النقدية:

ركزت اللسانيات النقدية على دراسة اللغة في سياق استخدامها الاجتماعي، مستحضرة معطى أساسيا يتجلى في كون بنية أي استخدام لغوي مرشحة لأن تكتسي أهمية أيديولوجية⁵. وتستند هي نفسها إلى النحو الوظيفي النسقي لهاليداي، بحيث تتعامل مع الخطابات من منظور وظيفي يراعي الوظائف الشخصية والنصية والفكرية؛ ومعنى ذلك أن الأجهزة المعجمية والنحوية تؤدي وظائف تتجه في مجملها نحو ترميز المعنى الاجتماعي وتبطينه⁶.

1 انظر الشكل رقم(10).

2 انظر الصفحة رقم (173) من هذا البحث. والشكل رقم(11).

3 انظر الصفحة رقم(178) من هذا البحث.

4 انظر تحليل المثال رقم(10) في الصفحة 179 من هذا البحث.

5 Fowler, Roger, Language in the News: Discourse and Ideology in the Press, p: 67.

6 Ibid, p: 67.

وانظر أيضا: روجر فاوولر، النقد اللساني، ص: 137.

إن وظائف اللغة حسب اللسانيات النقدية، لا تقتصر على تجسيد الوقائع فقط، بل تبنيتها أيديولوجيا واجتماعيا¹؛ بمعنى أن الأشكال اللغوية تمثل الأيديولوجيات كلاميا. ومنه، فإن تحليل الخطاب في هذا الفرع اللساني يتوق إلى فك الرموز اللغوية المجسدة للأيديولوجيا المتوارية خلف الاستخدامات اللغوية التي تفرضها في سياقات اجتماعية². وإن كانت اللسانيات النقدية قد اقتصرت على وصف التمثيل اللغوي للدلالات الأيديولوجية في السياقات الاجتماعية والثقافية والسياسية والإعلامية، فإنها لم تعن بمظاهر السلطة الخطابية كما في التحليل النقدي للخطاب.

يرى روجر فاوولر رائد اللسانيات النقدية الأول أن النشاط اللغوي يعيد إنتاج سيرورات المعنى في مستويات أوسع في التنظيم الاجتماعي³. وقد قدم أمثلة للإعلانات التجارية، والتقارير الإخبارية، والتصريحات الحكومية، وتقارير الشركات، على أنها أفعال لغوية؛ ولكنها في الآن نفسه ممارسات لغوية تتدخل في التنظيم الاجتماعي⁴.

تستند المقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة في هذا الباب الثالث، إلى اللسانيات النقدية، وخصوصا ما تعلق بقدرة الهياكل اللغوية على إضمار الدلالات الأيديولوجية، ثم قدرة الأجهزة المعجمية والنحوية على ترميز المعاني الاجتماعية وتبطينها، ناهيك عن إعادة إنتاج الممارسة اللغوية لسيرورات المعنى على نطاق واسع في النظام الاجتماعي. بالإضافة إلى ذلك، تتبنى المقاربة المقترحة فكرة روجر فاوولر عن تناول اللغة بوصفها خطابا، إذ يرى أن دراستها يجب أن تتم في سياقاتها الاجتماعية والتاريخية، وتكيفها مع السياق الذي استعملت فيه⁵.

من النماذج الموضحة لقدرة الهياكل اللغوية على إضمار الأيديولوجيا، والواردة في الفصل الثالث من الباب السابق، التلازم المعجمي؛ بحيث أظهر النقد اللساني لهذه الفئة التحليلية أن صاحب الخطاب (الرئيس الإيراني السابق روحاني)⁶ قد ربط تسميات الفاعلين الاجتماعيين المذكورين في خطابه (أمريكا على وجه الخصوص)، بألفاظ معينة تفيد معاني قذحية من قبيل (المدمة، قرصنة، إساءة، استغلال، العدوان، الإبادة، عدو، انتهاك، اعتداء،

1 Fowler, Roger, Language in the News: Discourse and Ideology in the Press, p: 67.

2 Fowler, Roger, On critical linguistics, p: 03.

3 روجر فاوولر، النقد اللساني، ص: 100.

4 المرجع السابق، ص: 163.

5 المرجع السابق، ص: 163.

6 انظر الصفحة رقم (215) من هذا البحث.

الجرائم، المجرمين، ضربوا..¹. وقد أدى هذا التلازم وظيفة أيديولوجية وهي الوصم الخطابى للآخر بالمجرم والمعتدى والمبيد.

ومن هذه النماذج أيضا، ما أسفر عنه تحليل تكرار الألفاظ في خطاب روحاني²؛ بحيث توصل النقد اللساني لهذه الفئة التحليلية إلى أن الألفاظ الأكثر تكرارا كانت تخص جمهورية إيران الإسلامية، وهي كلها ألفاظ مادحة ومجودة ومجملّة لصورتها. وقد دل ذلك على أن تكرار ألفاظ من قبيل (التحرر، السلام، التفاوض، الأمن..)³ بكثرة، قد أضمر مرامي أيديولوجية تتمثل في إظهار إيران دولة سلم وأمن، بالإضافة إلى أن ما تكرر بنسبة أكبر شكل أولوية بالنسبة إلى المتكلم، وهو الدعوة إلى التفاوض من جديد بعد تخلي الولايات المتحدة الأمريكية عن الاتفاق النووي.

ومنه، فإن التحليل النقدي لأي خطاب وفق المقاربة اللسانية الحجاجية يقتضي التعامل مع لغته في سياق إنتاجها الاجتماعي والتاريخي، ومساءلة الهياكل اللغوية عن المعاني الأيديولوجية التي تضمهرها، والأخذ في عين الاعتبار وظيفة الترميز الأيديولوجي التي تضطلع بها الأجهزة المعجمية والنحوية.

2.1. الأساس البلاغي:

تعتمد المقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة في التحليل النقدي للخطاب في الشق المتعلق بنقد التفاعل في الخطابات الشفهية، مرجعيةً بلاغيةً عربية خالصة، وهي بلاغة الجدل عند العرب. وقد أظهر استقراء آراء أشهر العلماء عنايةً بالغة بالجانب التفاعلي الحجاجي في الفصل الثالث من الباب الأول، وأسفر عن نتائج جد مهمة في هذا المستوى، وبين ملامح التحليل النقدي للتواصل غير اللفظي في البيئات العلمية العربية المذكورة. عموما، تتبنى المقاربة المقترحة الأفكار المستخرجة من آراء العلماء العرب -على اختلاف مشاربهم- في الجدل، بحيث أظهرت أن للتفاعل منافذ سلطوية خطابية⁴؛ هذه الأفكار هي المرتبة أسفله على هذا النحو:

1 انظر الجدول رقم(04) بالصفحة(216) من هذا البحث.

2 انظر الصفحة رقم(218) من هذا البحث.

3 انظر الجدول رقم(05) من الصفحة رقم(218) من هذا البحث.

4 لمراجعة هؤلاء العلماء ينظر الفصل الثالث من الباب الأول.

- يعد منفا سلطويا كل خرق لمبدأ المناوبة في المناظرة والمجادلة وأية عملية تواصلية¹. ذلك لأنه يكتسي طابعا تعسفيا ويتوخى الاستئثار بدورة الكلام، كما يطمح إلى التحكم في الموضوع والسيطرة على الأحداث التواصلية.
- يُعتبر التقديم الإيجابي² للذات ممارسةً سلطوية، تستهدف التحكم في الإدراك، وتحقق العلو على الخصم.
- للإيماءات³ -على اختلاف أنماطها السلوكية- تأثير سلبي وعواقب وخيمة، مما يجعلها منفا آخر من منافذ السلطة؛ بحيث تستهدف حدة النظر، وجهارة الصوت ومستوياته، وقسمات الوجه المتسلطة، الإرباك والزعزعة والتمكن من زمام المخاطب والجمهور، والتهويل، وتوريث الاقتدار على الآخر، والتهكم، والسيطرة بغير الطريق الصحيح.
- من منافذ سلطة التفاعل كذلك، التحكم في عواطف عناصر بنية الجمهور أو عاطفة المخاطب الفرد؛ وذلك من خلال فعل الاحتيال المؤسس على التلاعب العاطفي بالتقرب والاستمالة، والتودد، وإظهار حسن النية، والإشعار بالهدنة⁴. وكذلك من خلال فعلي الإقصاء والانتهاك المؤسسين على الاستصغار، والاستحقار، وعدم الاكتراث⁵.
- الاستدراج إجراء إقناعي⁶ يكرس تأثيرا قسريا على المخاطب، ومنفذ سلطوي للسيطرة الإدراكية.

1 ورد هذا الرأي عند الجويني في كتابه(الكافية في الجدل)، ويؤكد أن الأطراف المشاركة متساوية في حق الكلام كل في دوره. إلا أنه اعتبر خرق مبدأ المناوبة قطعاً للحق، ويعكس هذا الاسم معنى الانتهاك والتعسف، وهما من مظاهر السلطة الخطابية. انظر: الكافية في الجدل، ص: 111.

2 أشار الجاحظ إلى أن تقديم الذات قوية يؤثر في المخاطب والسامعين، وسمى هذا الأمر بثبات الجنان. انظر: (الجاحظ، البيان والتبيين، 17/1). كما يسميها الباجي بقصد المباهاة والمفاخرة. انظر: (الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، ص: 09).

3 من الآراء الثاقبة في ما يخص تأثير الإيماء، ما ورد عن ابن تيمية حين اعتبر الإشارة قادرة على استمالة الناظرين وإقناع المتناظرين لما تشتمل عليه من أدلة، إذ رأى أنها تكسو البراهين بـ: " ما يحليها عند الناظرين، وينفقها عند المتناظرين، مع ما اشتملت عليه من الأدلة". انظر: (ابن تيمية، تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل، ص: 05).

4 يعتبر التقرب والاستمالة، والتودد، وإظهار حسن النية، والإشعار بالهدنة من آداب الجدل الضرورية، إلا أنها قد تتحول إلى مسالك للتلاعب العاطفي بالمخاطب، بحيث تزين صاحبها في نظر مناظره على حد تعبير الجويني. انظر: (الجويني، الكافية في الجدل، ص: 538).

5 أوصى أبو الوليد الباجي بعدم الثقة في قوة الذات، أو الفرح بضعف الخصم، مشيراً إلى أن ذلك قد يكون مطبا للسقوط. وفي ذلك إشارة خفية إلى أن تصغير قيمة المخاطب قد يكون ذا تأثير سلطوي. انظر: (المنهاج في ترتيب الحجاج، ص: 10).

6 حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 56.

- السبر والتقسيم¹ إجراء إقناعي يقوم على الاستقصاء والاختيار توالياً، بحيث يستعرض على المخاطب كل الافتراضات المضرة والمسبقة، فيُبطّل ما يعارض المتكلم، ويقر ما يخدم مصلحته². وهو ممارسة احتوائية صرفة.
- الإقرار والإلزام³ إجراءان إقناعيان متلازمان، يطمح المتكلم من خلالهما إلى إخضاع المخاطب وفرض أفكاره وأيديولوجيته أمراً واقعاً عليه، ودفعه إلى الاتباع. إن من شأن هذه الأفكار أن تسد الفراغ المشار إليه في الفصل الثالث من الباب الأول، والمتعلق بعدم إيلاء رواد التحليل النقدي للخطاب أهمية مستحقة وجدية بالغة في تعاملهم مع الخطابات التفاعلية. بحيث تمكن هذه الإجراءات النقدية من رصد الممارسات السلطوية أداءً وحجاجاً؛ بحيث إن: "لا تواصل من غير حجاج، ولا حجاج بغير تواصل"⁴ كما يقول أبو بكر العزاوي. كما أن الحجاج يرتبط بكل أشكال التواصل⁵. وتبقى قائمة هذه الأفكار مفتوحة في وجه أية أداءات تفاعلية أو إجراءات حجاجية كفيلة بنقد سلطة التفاعل على صعيد الخطاب.

3.1. الأساس الاجتماعي:

تستند كل مناهج التحليل النقدي للخطاب إلى إحدى المرجعيات الاجتماعية بالضرورة. وقد حُصرت هذه المرجعيات في الفصل الثاني من الباب الأول في أربعة: نظرية الفعل التواصلية لهايرماس، وسوسيولوجيا الهيمنة لبيير بورديو، ونظرية السلطة والمعرفة لميشال فوكو، والتمثيل الاجتماعي لموسكوفيتشي. كما أُشير إلى كل منهج يعتمد إحدى هذه المرجعيات بالأدلة الممكنة.

ولما كانت المقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة في هذه الأطروحة تفرّغاً من البرنامج العام للتحليل النقدي للخطاب، فلا بد لها من أساس نظري اجتماعي؛ وهو ضرورة تفرضها طبيعة العلاقة بين اللغة والمجتمع في إطار التصور المنهجي، ونظراً لكون التحليل النقدي

1 ابن جني، الخصائص، 67/3.

2 نقلاً عن: السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، ص: 317.

3 الجويني، الكافية في الجدل، ص: 543.

4 أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص: 106.

5 المرجع السابق، ص: 106.

يبحث في فرضيات التأثير الاجتماعي للأشكال اللغوية. لذا، فإن المقاربة المقترحة ترى في نظرية سوسولوجيا الهيمنة أساساً نظرياً اجتماعياً ملائماً لأهدافها.

إن الهيمنة حسب بيير بورديو تعني أن موازين القوى في الممارسات الاجتماعية (بما فيها الممارسة اللغوية)، تُحسم بحسب تفاوت الأطراف في الاستعدادات السابقة والرأسمال النوعي¹. وهذان بالنسبة إليه قانونان أساسيان وحاسمان في سوسولوجيا الهيمنة. وإن كل ممارسة اجتماعية حسبها، هي فعل يُجزه فاعل يمتلك القدرة على صنع الاختلاف، والتأثير، والتحكم؛ وهذه القدرة هي ما سماه بالرأسمال النوعي². فالخطاب مثلاً ممارسة لغوية تقع في سياق اجتماعي معين، تلتقي فيه الخبرة الذاتية لملقيه والشروط الموضوعية لهذا السياق، كسائر الممارسات الاجتماعية الأخرى³؛ لكن الكلمة الفصل تعود إلى استعدادات هذا المتلقي ورأسماله النوعي اللغوي، والفكري، والاجتماعي، والعقدي، والمعرفي.

ما تفيده المقاربة اللسانية الحجاجية من سوسولوجيا الهيمنة، هو ما قصده بورديو من إطلاقه لمفهوم السوق اللغوية⁴؛ أي السياق الاجتماعي المحدد زماناً ومكاناً، والمحتضن لعملية تواصلية من خلال اللغة. وتكون فيه الممارسة اللغوية -كسائر الممارسات الاجتماعية- خاضعة إلى قانوني سوسولوجيا الهيمنة، أي الاستعدادات السابقة والرأسمال النوعي⁵. فالهيمنة على هذه السوق اللغوية تتم من خلال القدرات اللغوية، والمواقع، والتراتبية الاجتماعية، والانتماءات الطبقية، والمستويات العلمية والفكرية.

1 للمزيد عن علاقة الرأسمال النوعي والمجال والاستعدادات الدائمة بالهيمنة الاجتماعية يُنظر: بيير بورديو، العنف الرمزي: بحث في أصول علم الاجتماع التربوي، ترجمة نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص.ص: 48-50.
2 المرجع السابق.

3 بيير بورديو، وجون كلود باسرون، إعادة الإنتاج، ترجمة ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007، ص.ص: 33-34.

4 بيير بورديو، السوق اللغوية، ترجمة حسن أحجيج، مجلة فكر ونقد، العدد 20، المغرب، 1999. وانظر أيضاً:
Bourdieu P, Ce que parler veut dire. L'économie des échanges linguistiques. Paris, Éditions Fayard, 1982, pp: 14-77.

Pierre Bourdieu (préf. John B. Thompson), Langage et pouvoir symbolique, Paris, Seuil, coll. « Points essais » (no 431), 2001.

5 Bourdieu P, Ce que parler veut dire. L'économie des échanges linguistiques, pp: 14-77.

من قبيل الأمثلة التي توضح التأثير البالغ للرأسمال النوعي والاستعدادات السابقة في فرض الهيمنة الاجتماعية، ما ورد في الفصل الثالث من الباب السابق، وتحديدًا في المحور المتعلق بالإغراء بالفعل اللغوي المباشر¹؛ بحيث اتضح أن صانع الخطاب (شركة فيليب موريس للسجائر) قد وظف قدرته اللغوية المتمثلة في صياغة نص من ثلاث جمل شرطية تقود كلها إلى جواب الشرط في الجملة الشرطية الثالثة (غير) داعيًا كل الأطراف المذكورة إلى استهلاك منتجاتها. وقد أظهر التحليل أن بناء النص يعكس خبرة لغوية وإخراجًا سيميائيًا محكمين، كما أن المعلومات المرافقة للنص كانت علمية ومقنعة إلى حد كبير. وذلك دليل على أن الرأسمال اللغوي والمعرفي ينجحان مسعى الهيمنة الاجتماعية.

بهذا المعنى، فإن القدرات اللغوية للمتكلم، وجودة كلامه، تنتزعان المقبولية الاجتماعية والرضا من لدن المتلقين. وبتعبير آخر، فإن المتاح من الاستعدادات والرأسمال النوعي، يربحان صاحبهما رهان علاقات القوة في الممارسة اللغوية².

تتبنى المقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة في التحليل النقدي للخطاب هذا الطرح، وتبني على أساسه فكرة محورية هي: إن الخطاب بوصفه استخدامًا فعليًا للغة، مساقًا للتهافت على الهيمنة الاجتماعية، وصناع الخطابات يوظفون كل ما أُتيح لهم من القدرات اللغوية، والمهارات الأدائية التفاعلية، والخيارات الاستراتيجية، والاستعدادات الفكرية والاجتماعية، لكسب رهان علاقات السلطة. وكما في الهيمنة الاجتماعية، فإن الهيمنة الخطابية تقتضي توفر رأسمال نوعي وملائم لطبيعة الأغراض، وطبيعة الجمهور، وكذا السياق الاجتماعي، وهو تحديدًا الرأسمال اللغوي.

2. الإجراءات المنهجية

عُرِضَ التصور المنهجي للبرنامج العام للتحليل النقدي للخطاب بشكل مفصل في مدخل هذه الأطروحة، واتضح أن جل المناهج تفصل بين النص والخطاب والممارسة الاجتماعية³؛ إذ لا يتعاطى اللغويون في معظمها مع المادة اللغوية بالتوفيق بين وصف الخيارات اللسانية

1 انظر الصفحة رقم (225) من هذا البحث.

2 بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع: حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي، ص: 199.

3 انظر المدخل من هذه الأطروحة، وتحديدًا المحور 2.1.3. التصور المنهجي. ويمكن الاطلاع عليه أيضًا في: روث فوداك وميشيل ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص.ص: 17-78.

واستراتيجيات الخطاب وما تحمله من الدلالات المرتبطة بالممارسة الاجتماعية في آن واحد. ولضمان تحليل متماسك والوصول إلى المعاني الأيديولوجية وسيرورات تمثيل الدلالة الاجتماعية، لابد من التعامل مع النص والخطاب والممارسة الاجتماعية بشكل متفاعل، بحيث تُوصف الأشكال اللغوية، وتحلل الممارسة الخطابية بالموازاة، لإظهار مدى التأثير الاجتماعي الفعلي أو المستقبلي الناجم عن الاستخدامات اللسانية.

من ناحية أخرى، أبانت القراءة النقدية لعلاقة الشكل بالممارسة الاجتماعية في الفصل الأول من الباب الثاني، عن اختلافات كبيرة بين المناهج الستة في التحليل النقدي للخطاب؛ بحيث يدعي فيركلف وجود علاقة تأثير وتأثر جدلية ومتبادلة بين الشكل والممارسة¹، ويرى فان دايك أن الإدراك الاجتماعي (أعراف السياق الاجتماعي ونظم الحياة الاجتماعية اليومية) يتوسط بين الشكل والممارسة وهو مسلك الممارسة السلطوية²، واعتنى فان لوفين بطرق نقل عناصر الممارسة الاجتماعية إلى الخطاب مؤكداً أن التحليل يبدأ من الممارسة إلى كشف الاستخدامات اللغوية التي أدت وأثرت فيها³، في حين ذهبت كل من فوداك وريزيغل إلى أن الشكل نتيجة للتناص الخطابية⁴، أما ياغر وماير فقد اعتبرا الواقع شكلاً ناجماً عن الخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية⁵، بينما عد ماوتتر الشكل مصدراً لتفسير الممارسة الاجتماعية لسانياً آلياً⁶.

بالنسبة إلى المقاربة اللسانية الحجاجية في هذه الأطروحة، فإنها تتجاوز الفصل بين وصف النص وتحليل الخطاب ونقد الممارسة الاجتماعية، كما تقدم تصوراً مغايراً لعلاقة الشكل بالممارسة، سعياً إلى تحقيق ثلاثة أهداف منهجية سبق أن أعلنت في الفصول السابقة، وهي:

- إيلاء إجراءات النقد اللساني والحجاجي الأهمية القصوى، واعتبارها مفتاح الوصول إلى الدلالات الأيديولوجية ومظاهر الممارسة السلطوية.
- اعتبار تأثير الشكل (النص والخطاب) في الممارسة الاجتماعية مباشراً ودون أية وساطة إدراكية أو تاريخية أو اجتماعية، وعدم تأثره بأي عنصر من عناصرها، وإنما الشكل هو المتحكم فيها.

1 انظر المحور رقم 1. العلاقة الجدلية بين الأبنية والممارسات، في الفصل الأول من الباب الثاني في هذه الأطروحة.

2 انظر المحور رقم 2. جسر الإدراك الاجتماعي، في الفصل الأول من الباب الثاني في هذه الأطروحة.

3 انظر المحور رقم 4. الشكل إعادة صياغة للممارسة الاجتماعية، في الفصل الأول من الباب الثاني في هذه الأطروحة.

4 انظر المحور رقم 5. الشكل تناص تاريخي للخطابات، في الفصل الأول من الباب الثاني في هذه الأطروحة.

5 انظر المحور رقم 3. الممارسة وسيلة لإنتاج الشكل، في الفصل الأول من الباب الثاني في هذه الأطروحة.

6 انظر المحور رقم 6. الشكل مصدر التفسير، في الفصل الأول من الباب الثاني في هذه الأطروحة.

- اعتماد منهج وصفي تحليلي نقدي، أي الجمع بين هذه الإجراءات الثلاث لفضح سلطة اللغة في الخطاب بشكل متزامن.

وعليه، فإن المقاربة المقترحة توزع إجراءات المنهج المعلن أعلاه في اثنين: نقد الممارسة اللسانية الحجاجية وتقصد بها وصف النص وتحليل الخطاب، ثم نقد الممارسة الاجتماعية وتعني صياغة خلاصة للآثار الاجتماعية الفعلية والمحتملة للاختيارات المنقودة. على أن هذا التمييز لا يعني الفصل بين الإجراءين، وإنما هي إجراءات تتم بالموازاة في عملية وصفية تحليلية نقدية للاستخدامات اللسانية. ولعل الهدف من هذا التمييز -هنا في هذا الفصل- هو توضيح كيفية البناء على النقد اللساني الحجاجي لأي استخدام لغوي بغية تقديم نقد اجتماعي للخطاب؛ بمعنى أن تبسيط الإجراءات المنهجية نظرياً يقتضي تمييزها عن بعضها، ولكن تنزيلها تطبيقاً على نموذج خطابي يقتضي التوفيق بين كل الإجراءات كما سيتم في الفصلين الأخيرين. وفي ما يلي، إجراءات النقد حسب المنهج المعلن وتصور العلاقة بين الشكل والممارسة:

1.2. نقد الممارسة اللسانية الحجاجية:

لا ترى المقاربة اللسانية الحجاجية في التحليل النقدي للخطاب جدوى في الفصل بين وصف النص وتحليل الخطاب، لذلك فإن الرهان الأول هو الجمع والتوفيق بينهما (وبينهما وبين تفسير الممارسة الاجتماعية) عند مباشرة النقد. ولهذا الغرض تُسمى هذا الإجراء بنقد الممارسة اللسانية الحجاجية. وقد نحا التحليل النقدي لكل الأمثلة المدروسة في الفصلين الثاني والثالث من الباب السابق هذا التوجه، بحيث تم التوفيق بين دراسة النص والخطاب واستنتاج مظاهر السلطة في الممارسة الاجتماعية.

يقتضي إنجاز الرهان الأول رسم معالم إجراء نقد الممارسة اللسانية الحجاجية من خلال اتباع خطوات محددة ومرتابة على التوالي، وهي:

1. خطوات إعداد المتن المدروس:

- **الخطوة 1:** انتقاء خطاب أو خطابات يتوفر فيها شرط الملاءمة، أي أن تكون خطابات حاملة لأطماع السلطة والهيمنة والتحكم والتلاعب والتضليل.

- **الخطوة 2:** قراءة الخطاب المدروس قراءة فاحصة وتحديد المضمون السطحي العام، مع تكثيفه.
- **الخطوة 3:** تحديد المجال الذي ينتمي إليه الخطاب المدروس.
- **الخطوة 4:** تحديد الحدث الرئيس لموضوع الخطاب، وتأطيره ضمن سياقه الاجتماعي والموضوعي العام.

ب. خطوات العملية النقدية:

- **الخطوة 5:** رصد مقاطع الخطاب التي تكتسي طابعا سلطويا.
- **الخطوة 6:** الفرز الدقيق لنماذج الاستخدامات اللغوية والبلاغية المكرسة للسلطة والمرسخة للدلالات الأيديولوجية.
- **الخطوة 7:** استخراج الفئات التحليلية اللسانية والبلاغية التي تتضمنها المقاطع ذات الطابع السلطوي.
- **الخطوة 8:** تحديد طرق الأداء والحوار المنافية لأعراف التفاعل.
- **الخطوة 9:** نقد الأساليب والأنماط والاستخدامات اللسانية والبلاغية وفق المنظور الوظيفي الاجتماعي، أي باستحضار ما تفيده من الدلالة الاجتماعية؛ ونقد مظاهر خرق أعراف التفاعل.

ملحوظة هامة: لا بد وأن تتصل كل خطوة من خطوات العملية النقدية بالخطوة العاشرة المتعلقة بنقد الممارسة الاجتماعية¹؛ بحيث إن النقد الاجتماعي هو خلاصة النقد اللساني والحاجي لكل فئة تحليلية، مع ضرورة تحصيل مستنتجات نقد كل فئة تحليلية تحت عنوان خلاصة النقد اللساني، أي حصر الآثار الاجتماعية للاستخدام اللغوي المنقود. وذلك ما سيتضح أسفله.

2.2. نقد الممارسة الاجتماعية:

تقترح المقاربة اللسانية الحاجية لهذا الإجراء تسميته بالخلاصة الاجتماعية للنقد اللساني. وهو يمثل الخطوة الأخيرة من خطوات المنهج الوصفي التحليلي النقدي. ولعل الرهان

1 يمكن التأكد من تواشج هذه الخطوات في تحليل كل مثال على حدة في الباب الثاني.

الثاني هو جعل مستنتجات النقد اللساني الحجاجي دلائل لغوية على مقاصد صناع الخطابات في استهدافهم للممارسات الاجتماعية:

• **الخطوة 10:** استخلاص الآثار الاجتماعية المفترضة للاستخدامات اللغوية والبلاغية والتفاعلية المنقودة.

تُستخلص الآثار الاجتماعية لاستخدام اللغة وفق المنظور الوظيفي الاجتماعي في مرحلتين متميزتين، تكون أولاهما في نهاية نقد كل استخدام لغوية أو بلاغي أو أداء تفاعلي، فتكون الخلاصة جزئية أو مرحلية، تستنتج مظهر السلطة في البناء للمجهول أو التعدية مثلا، أو في أية فئة تحليلية. وعلى التحليل الناقد هنا أن يجعل الخطوات التسعة السابقة في نقد الممارسة اللسانية قرائن ودلائل وبراهين لتبرير مستنتجاته الاجتماعية، بحيث يلتزم بالمبدأ المتعلق بعلاقة الشكل بالممارسة، أي إن الشكل هو الذي يؤثر في الممارسة تأثيرا مباشرا وعموديا. أما ثانيتهما، فهي الخلاصة الكلية (أو العامة) لنقد كل الاستخدامات والفئات التحليلية، بحيث تصاغ خلاصة شاملة لمظاهر السلطة وجوانبها الخفية التي تحجبها اللغة. وبتعبير أدق، فإن هذه الخلاصة الشاملة تجمع بين كل المظاهر السلطوية لإيضاح المقصودات الفعلية التي واراها صاحب الخطاب بتوظيفات مشبوهة للغة.

3. الجهاز المفهومي

كون التحليل النقدي للخطاب تخصصا لسانيا يجمع بين الخلفية النظرية اللغوية والخلفية النظرية الاجتماعية، فإن المفاهيم المعتمدة فيه -في جميع المناهج- ذات مرجعيتين، الأولى لسانية والثانية اجتماعية. ولما كانت المقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة تستند إلى النقد اللساني والنحو الوظيفي النسقي، بالإضافة إلى سوسولوجيا الهيمنة، فإنها تعتمد مفاهيم لسانية وأخرى اجتماعية.

لهذا الاعتبار، وجب التمييز بين مفاهيم النقد اللساني الحجاجي، ومفاهيم النقد الاجتماعي. وتجدر الإشارة إلى أن قائمة المفاهيم الواردة أدناه، تضم مصطلحات مستعارة من أحد التخصصات الثلاثة المذكورة دون تعديل، وأخرى مستعارة مع تعديلها أو تطويرها، وثالثة مقترحة. وعموما، ستم الإشارة إلى كل مصطلح بحسب هذا التنوع في محله.

1.3. مفاهيم النقد اللساني الحجاجي:

• **النقد اللساني:** ادعى روجر فاوئر مبكراً أن النقد لا يعني إصدار حكم على القيم الجمالية لخطاب ما، ودعا إلى توسيعه ليشمل حتى الأعمال غير الفنية¹. ورأى أن: "النقد قد يطال أياً من منتجات المجتمع ذات المعنى، والتي تلعب دوراً ضمن السيرورات أو الممارسات التي تضبط المجتمع. وهذا يكاد لا يستثني أي موضوع يمكننا التفكير فيه"². وهو بذلك لا يعتبر النقد عملية تمييزية بين الجيد والرديء في الخطاب، وإنما هو التشكيك الفضولي المجدي؛ أي مساءلة الخطاب عن تمثيل ظروف المعرفة الاجتماعية، والقيود المفروضة، وطرق إنتاج المعاني ومضامين أنظمتها المؤثرة في الأفراد³.

إن النقد اللساني حسب تصور روجر فاوئر لمفهوم النقد مشروع تقني⁴، وهو نشاط مصاحب لاستعمال اللغة في المجتمع؛ أي إنه يعني بفضح وظائف اللغة غير البريئة؛ بحيث إن وظائفها لا تقتصر على إنتاج المعرفة، وإعانة الفكر، وتيسير الإدراكات، والتواصل، والتعبير عن الأغراض وقضائها، وإنما قد تتجاوزها إلى وظائف أخرى، كتشفير السلطة والأيدولوجيا، وخدمة احتياجات ذوي السلطة من السياسيين والاقتصاديين وغيرهم⁵. بمعنى أن دور النقد اللساني هو: "تحدي هالة القدسية التي تحيط بممارسة ما، أي توضيح الممارسات التي تُستعمل اللغة فيها لتقديم مفاهيم منحازة ومنزاحة لتبدو وكأنها بريئة وطبيعية"⁶.

لذا، فإن مهمة النقد اللساني هي فضح مثيلات هذه الوظائف، والمساعدة على مقاومتها⁷. وكل ذلك من خلال القراءة النقدية للخيارات اللسانية المستخدمة في الخطاب. وتتبنى الأطروحة هذا المفهوم الموسع للنقد اللساني، وترى أنه بالفعل يمكن للغة أن تمارس وظائف غير بريئة وسلطوية، تطمح إلى الهيمنة والتحكم في الأفراد

1 روجر فاوئر، النقد اللساني، ص: 90.

2 المرجع السابق، ص: 90.

3 المرجع السابق، ص: 90.

4 المرجع السابق، ص: 90.

5 المرجع السابق، ص: 89.

6 المرجع السابق، ص: 93.

7 المرجع السابق، ص: 89.

والمجتمعات، وتعتبر عن الأيديولوجيات بطريقة غير شفافة. إلا أنها تدرج في النقد اللساني كل تمثيل خطابي للسلطة والأيديولوجيا، سواء أكان لسانيا أم بلاغيا أم سيميائيا أم استراتيجيا.

● **اللغة والنص والخطاب:** سبقت الإشارة في المدخل إلى أن مفهوم اللغة لا يختلف عن مفهوم الخطاب في كل مناهج التحليل النقدي للخطاب. إذ تعتبر اللغة ممارسة اجتماعية تتحكم فيها الشروط الاجتماعية¹، أي إنها نوع من أنواع الممارسات الاجتماعية². وينطبق هذا التعريف حتى على الخطاب، فما دامت اللغة ممارسة اجتماعية فإن الحديث هنا عن استعمالها، وما الخطاب إلا استعمال اللغة كما رأى نورمان فيركلف³، أو هو توظيفها في النظام الاجتماعي كما رأى فان دايك⁴. تتبنى الأطروحة هذا المفهوم كما في التحليل النقدي للخطاب، إلا أنها لا تعتبر الخطاب بوصفه شكلا لغويا متأثرا بالشروط أو الممارسات الاجتماعية؛ بل ترى أن أنه مؤثر فيها، وأن علاقته بالممارسات الاجتماعية تتجلى في بنائه حسب ما يخدم مقاصد السلطة والأيديولوجيا.

من ناحية أخرى، يجد هذا الطرح المعتمد في هذه المقاربة ما يؤزره في اللسانيات النقدية، فهذا روجر فاوولر يرى أن الخطاب سيرورة معقدة من التفاعلات اللغوية، وأن دراسة اللغة بوصفها خطابا تقتضي العناية بالبناء(الشكل) الذي ترتبط خصائصه بأطراف عمليات التواصل، وما تقوم بها من أدوار وأفعال، والسياقات التي يستهدفها الخطاب⁵.

أما النص، فهو البناء اللغوي بالطبع، ولكن قبل انخراطه في التفاعل وقبل أن يصير خطابا، وهو قائم على أساس اختيارات لغوية ذات أغراض محددة مسبقا لا تتحقق إلا

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 35.

2 المرجع السابق، ص: 38.

3 المرجع السابق، ص: 41.

4 فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 78.

5 روجر فاوولر، النقد اللساني، ص: 190.

من خلال التفاعل الخطابى. ويمكن اعتباره وسيطا للخطاب كما يرى روجر فاوئر¹، أي الوسيلة التي تمكن الخطاب من ترسيخ الأيديولوجيا.

● **الشكل:** توسع الأطروحة مفهوم الشكل لكي لا يقتصر على النص، بل هو الخطاب (أي النص بعد تفاعله في سياق تواصل اجتماعي). وبذلك فإن المقصود هو البناء الكلي للخطاب، ومكوناته المتعددة، فهو المادة اللسانية، والأساليب البلاغية، والاستراتيجيات الخطابية، وأساليب الأداء التفاعلية، والعلامات السيميائية. وهي كلها تخضع للنقد اللساني.

● **التمثيل اللساني للسلطة:** هو كل تجسيد لساني لمظاهر السلطة، كالهيمنة، والتحكم، والتلاعب، والتضليل، وتجويد الصورة، وغيرها. وبمعنى أدق، ومن صلب اللسانيات النقدية، فإن التمثيل اللساني للسلطة هو تفسير الأيديولوجيا بالاستخدامات اللغوية²؛ أي ممارستها بواسطة اللغة ووصولها إلى المرامي غير البريئة التي تستهدفها، على الرغم من أن الدلالات التي تحيل إليها مضمرة ومحجوبة خلف الخيارات اللغوية.

وإذا كان نيو فان لوفين يعتقد أن التمثيل اللساني هو عملية نقل أو تحويل للممارسة من الواقع الاجتماعي إلى الواقع الخطابى³، فإن المقاربة اللسانية الحجاجية ترى أن التمثيل اللساني هو انتقاء الاستخدامات اللسانية الكفيلة بإضمار أطماع السلطة بالمواربة والإخفاء.

● **الفاعلية الخطابية:** خلاصة هذا المفهوم أن تحديد الفاعل في الخطاب يمكن أن يتطابق مع تحديد الفاعل النحوي ويمكن ألا يتطابق معه؛ بمعنى أن الفاعل الخطابى قد يكون فاعلا نحويا من الناحية الإعرابية، وقد لا يكون كذلك. والمعيار الأساس في تحديد الفاعل الخطابى هو الوظيفية الدلالية الاجتماعية، أي تحديد مَنْ مِنَ الأطراف ينجز الحدث، أو يُسند إليه، أو يُحال إليه بوصفه قائما به. والفاعلية النحوية لا تقتصر حسب المقاربة اللسانية الحجاجية على موقع الفاعل نحويا، وإنما يمكن أن يحال إليه بالإضافة، أو الحدث نفسه، أو الابتداء، أو البناء للمجهول، أو الإضمار، وغيرها من

1 روجر فاوئر، النقد اللساني، ص: 190.

2 المرجع السابق، ص: 89.

3 روث فوداك وميشيل مايبير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص: 308.

الخيارات النحوية. وبأدق تعبير، فإن الفاعل الخِطاب هو التمثيل اللساني للفاعل الاجتماعي.

في الحقيقة، مفهوم الفاعلية النحوية هو تعديل وتطوير لمفهوم الفاعل الاجتماعي المعتمد كثيرا في التحليل النقدي للخطاب، والمقصود به حسب تيو فان لوفين هو كل مشارك في الخطاب أو الممارسة الاجتماعية، على أن يكون له دور فعلي وتأثير في الحدث والمشاركين الآخرين¹.

ترى الأطروحة أن الفاعلية الخِطابية لا تتحقق فقط بالشرط النحوي، أي إن تحديدها لا يخضع بالأساس إلى التطابق مع الحالة الإعرابية وموقع الكلمة في الجملة؛ وبدلا من ذلك، فإنها تحدّد وفقا للأطراف أو المشاركين في الخطاب من الفاعلين الاجتماعيين الذين أُسند إليهم الفعل بوصفهم فاعلا نحويا، أو فاعلا خِطابيا. إن المقصود بالفاعل الخِطابي في هذه الحالة هو من أُسندت إليه مهمة إنجاز الحدث، من خلال أي اختيار نحوي، كالمبتدأ، والفاعل، والإضافة، والبناء للمعلوم، والبناء للمجهول، والإضمار، وغيرها.

● **هرمية الأحداث:** هذا المصطلح هو إعادة صياغة وتوسيع لمفهوم **العلاقات الهرمية** للأفعال اللغوية داخل النص الواحد، وهو طرح للساني موتش في مجال اللسانيات النصية. ويذهب موتش إلى أن النصوص مركبات من الأحداث في علاقات هرمية، تتضافر كلها للدلالة على فعل لغوي واحد². إلا أن المقاربة اللسانية الحجاجية، توسع هذا المفهوم ليشمل -ليس فقط مجموعة أفعال لغوية في نص واحد- حتى مجموعات الأفعال اللغوية في أكثر من نص؛ بحيث إن نصوصا متجاوزة سياقيا، أو متتابعة مكانيا، أو متطابقة من حيث الموضوع، قد تتآزر الأفعال اللغوية فيها لتبني فعلا لغويا واحدا وعاما.

● **سلطة التفاعل:** لا تقتصر الممارسة السلطوية بكل مظاهرها، حسب المقاربة اللسانية الحجاجية، على استخدام اللغة؛ وإنما يمكن أن تبرز أفعال الهيمنة والتحكم والتلاعب حتى من خلال الأداء في نمط الخطابات التفاعلية (الحوارية)، سواء في التخاطب أم

1 Theo van Leeuwen, Discourse and practice, p: 23.

2 موتش (1986)، ص: 226: نقلا عن فولفجانج هاينه وديتر فيهفيتجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص: 66.

الخطاب. وقد قدم الفصل الثالث من الباب الأول عدة تحليلية نقدية مستتبطة من آراء علماء أصول النحو، والفقه، والبلاغة، وأصول الفقه، وكلها تتأطر ضمن التوجه التنظيري والتعليمي لأدبيات الجدل¹. ولكن الأطروحة حاولت أن تستخرج من هذه الآراء بعض الإجراءات والأساليب الممكن استثمارها في كشف مظاهر السلطة غير اللغوية. وعليه، فإن المقصود بنقد سلطة التفاعل هو اختبار المبادئ الأساسية والضرورية المفروض مراعاتها واحترامها، واعتبار أن خرقها أو تجاوزها هو في أصله فعل سلطوي مقصود؛ من ذلك خرق مبدأ التناوب، والإفراط في تقديم الذات، والإيماء، واستهداف العواطف، والاستدراج، والسبر والتقسيم، والإقرار والإلزام. وتتراوح هذه المبادئ بين أعراف التفاعل المعمول بها، والإجراءات الإقناعية غير اللغوية بل الاستراتيجية. إن مهمة النقد اللساني الحجاجي في هذا النمط من الدوال غير اللغوية، تكمن في رصد تكريسها لأطماع الهيمنة من خلال وظائف الأداء الحركي والسلوكي والإقناعي، وتنظيم أطوار المحاور أو الخطبة، وما يستهدف عواطف المتلقين وإدراكاتهم بالسيطرة. وقد سبق لروجر فاوولر أن درس قواعد المحادثة وما ينجم عن عدم الالتزام بها من التسلط في فصل سماه (بعض جوانب الحوار) في كتابه "النقد اللساني"²؛ وفيه أشار إلى ما تدعيه المقاربة اللسانية الحجاجية بسلطة التفاعل ولكن بتسمية مغايرة، لكنها غير دقيقة ومطوّلة، وهي: (العدول عن الانصياع لقواعد المحادثة)، بالإضافة إلى أنه ركز على مقارنة هذا العدول من وجهة نظر تداولية، خصوصا بالاستناد إلى مبادئ غرابيس في الاستلزام الحوارية.

والفرق بين تصور روجر فاوولر لمفهوم العدول عن الانصياع لقواعد المحادثة والمفهوم الذي تقترحه المقاربة اللسانية الحجاجية (سلطة التفاعل)، فهو أنه ركز فقط على مبادئ التعاون، في حين أن هذه المقاربة قد أسست لهذا المفهوم في الباب الأول نظريا من خلال استقراء علماء بلاغة الجدل العرب، وأخذت من آرائهم كل الجوانب المعتمدة والمؤثرة في العملية التواصلية بمختلف أبعادها، وليست التداولية فقط.

1 انظر الفصل الثالث من الباب الأول في هذه الأطروحة.

2 روجر فاوولر، النقد اللساني، ص.ص: 219-262.

2.3. مفاهيم النقد الاجتماعية:

• **الهيمنة الاجتماعية:** السلطة قد تكون مشروعة وغير مشروعة، فالتراتبية الإدارية مثلا، أو تسيير الأستاذ لمحاضراته في الجامعة، أو تحكم الوالدين في زمام بيتها وأسرتها، ممارسات اجتماعية تتسم بممارسة السلطة المشروعة. ولكن، التوجيه المقصود من الخطيب الإعلامي في البرامج الحوارية لضيوفه مثلا، وتحكمه في الموضوعات التي يناقشونها، واعتراضه على حججه ودلائله، وتغييره لمسار النقاش متى شاء، ممارسة اجتماعية تعرف توظيفا غير مشروع للسلطة؛ وهذا النمط غير المشروع من السلطة هو ما تعنى به المقاربة اللسانية الحجاجية في هذه الأطروحة، وهو عينه ما تسميه بالهيمنة الخطابية.

أما الهيمنة الاجتماعية، فمفهوم طرحه بيير بورديو في نظرية سوسيولوجيا الهيمنة، وأكد أنها تقوم على شرطين أساسيين كما سبقت الإشارة أعلاه، وهما: الرأسمال النوعي، والاستعدادات السابقة وهما يتحكمان في سائر الأبنية الاجتماعية¹. بالنسبة إلى الهيمنة الاجتماعية القائمة على اللغة في الخطاب، فيذهب بورديو إلى أن الممارسات التواصلية بواسطة اللغة تمثل سوقا لغوية يهيمن فيها من يمتلك رأسمال لغوي واجتماعي نوعي، ومن له استعدادات فكرية وتاريخية وثقافية ومعرفية وأيديولوجية. فتوظيف هذه القدرات النوعية في السياقات التخاطبية والخطابية يُريح المتكلم رهان الممارسة الاجتماعية، ويهيمن على هذه السوق اللغوية².

تُفيد المقاربة اللسانية الحجاجية من هذا التصور الاجتماعي للهيمنة، وترى أنه صالح لنقد الهيمنة الخطابية بوساطة اللغة؛ إلا أنها تعتقد أن استعمال اللغة في أي سياق، لا يمكن أن يُبرر بمسألة السلطة المشروعة، إذ إن كل توظيف لطاقت اللغة بغرض التسلط والتحكم يُعتبر هيمنة خطابية لا بد من نقدها.

• **الممارسة الاجتماعية:** بصفة عامة، الممارسة الاجتماعية في تحليل النقدي للخطاب طرق منظمة اجتماعيا وفق أعراف وإجراءات محددة تاريخيا وثقافيا للقيام بالأشياء

1 بيير بورديو، العنف الرمزي: بحث في أصول علم الاجتماع التربوي، ص.ص: 48-50.

2 بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع: حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي، ص.ص 142-143. وانظر أيضا: بيير بورديو، السوق اللغوية، ترجمة حسن أحجيج، مجلة فكر ونقد، العدد 20، المغرب، 1999.

والأفعال والأنشطة¹؛ وتضم مجموعة عناصر معينة: الأحداث، والأطراف، والزمن والمكان، والموضوع، والأعراف². بيان ذلك أنها حالة من التواصل اليومي بين أطراف (أفراد أو مؤسسات). إلا أن ما يميز الممارسات الاجتماعية بواسطة اللغة هو أنها تعرف ميولا لصنع الاختلاف والسيطرة على الصراع³.

تتبنى المقاربة اللسانية الحجاجية في التحليل النقدي للخطاب هذا المفهوم، إلا أنها لا تركز فقط على الممارسة الاجتماعية بالتواصل الشفهي، وإنما قد تكون الممارسة الاجتماعية عبر خطاب مكتوب ومنشور على نطاق واسع أو ضيق، وقد تكون ممارسة قائمة على نمط آخر من الرموز غير اللسانية، كطرق الأداء في التفاعل الحواري، والعلامات السيميائية السمعية والمرئية.

● **الإدراك الاجتماعي:** مفهوم الإدراك الاجتماعي مأخوذ من المنهج الاجتماعي الإدراكي لفان دايك، ويقصد به مجمل المعتقدات والمعارف والأعراف والطقوس والنظم والأيدولوجيات المشتركة بين أفراد المجتمع الواحد⁴، والتي تتحكم في الأذواق والتوجهات والعقائد. والإدراك الاجتماعي حسب فان دايك يحدد السياق الخاص بالممارسة الاجتماعية والخطاب⁵.

إن الهيمنة على الإدراك الاجتماعي حسب هذا التصور هي السيطرة على عقول الناس، وإخضاع أفكارهم رمزيا وأيدولوجيا من خلال الاستخدام المشبوه للغة، والتصرف فيها بالتعديل أو الهدم أو حتى التثبيت⁶. وهذا التصرف في الأفكار هو ما يسميه فان دايك بالتلاعب الإدراكي بالأفكار المؤدي إلى التلاعب بالأفعال⁷.

● **الأسما النوعي:** الأسما النوعي حسب بيير بورديو هو مجمل القدرات التي يمتلكها الفرد، والأمر لا يقتصر على القدرات الاجتماعية فقط، بل حتى رمزيته، ومكانته

1 روث فوداك وميشيل مايير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص.ص: 314-317.

2 المرجع السابق، ص.ص: 314-317.

3 بيير بورديو، بعبارة أخرى: محاولات باتجاه سوسولوجيا انعكاسية، ص: 33.

4 توين فان دايك، دراسات الخطاب النقدي: المقاربة المعرفية الاجتماعية، ص: 142.

5 المرجع السابق، ص: 143.

6 توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 88.

7 المرجع السابق، ص: 440.

الاعتبارية، وموقعه المؤسسي، وخبرته الثقافية والاقتصادية، واللغوية¹. تكمن أهمية الرأسمال النوعي في قدرته على حسم الصراعات الاجتماعية التي تفرضها شتى أنواع الممارسات وفرض الهيمنة².

● **الاستعدادات السابقة:** هي حسب بيير بورديو نسق الاستعدادات الدائمة، أي الخبرات السابقة المتراكمة والمدمجة عبر سيرورة تاريخية، وهي متطورة ومتحولة وقابلة للتعديل مع حركة التاريخ³. كما أنها طاقة توليدية قابلة لإعادة التشكل من خلال مواكبة التطور التاريخي والاجتماعي⁴.

4. المبادئ العامة:

بناء على صياغة الأسس النظرية (اللسانية والبلاغية والاجتماعية) والإجراءات المنهجية والجهاز المفهومي في هذا الفصل، واستحضارا للقراءة النقدية لعلاقة الشكل بالممارسة الاجتماعية في الفصل الأول من الباب الثاني، تتبنى المقاربة اللسانية الحجاجية مجموعة مبادئ موجّهة ومقيدة أحيانا للإجراءات النقدية. ويمكن إجمالها كما يلي:

- اللغة أكثر من وسيلة لتحقيق المصالح الشخصية، بل هي وسيلة لممارسة الهيمنة الاجتماعية.
- دراسة اللغة في الخطاب لا تقتصر على مجرد وصف الهياكل، بل تحتاج إلى تفاعل بين اللسانيات والأطر النظرية الاجتماعية الملائمة للموضوع والأهداف.
- المتكلم بوصفه فاعلا اجتماعيا يتدخل في بناء الممارسة الاجتماعية والتأثير في البنية الاجتماعية التي تحتضنها.
- النص بناء لغوي قائم على أساس اختيارات لغوية ذات أغراض محددة مسبقا لا تتحقق إلا من خلال التفاعل الخطابى الشفهي أو المكتوب.
- الخطاب استخدام فعلي للنص في سياق اجتماعي لأداء وظائف سلطوية.

1 بيير بورديو، العنف الرمزي: بحث في أصول علم الاجتماع التربوي، ص.ص: 48-50.

2 المرجع السابق، ص.ص: 48-50.

3 بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع: حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي، ص: 199.

4 المرجع السابق، ص: 199.

- العلامات السيميائية على اختلاف أنماطها لا تدخل في النص، وإنما هي جزء من التفاعل التخاطبي والخطابي.
- لا وجود لأية علاقة جدلية بين الخطاب والمجتمع، وإنما يؤثر الخطاب في الممارسة الاجتماعية وفق علاقة تأثير عمودية (من الخطاب إلى المجتمع).
- لا وجود لممارسات غير خطابية، بل كل ما يأتي في التفاعل الخطابي هو عنصر من الخطاب وإن لم يكن لغويا.
- انتقاء الاستخدامات اللغوية المخصصة في الخطابات ذات الطابع السلطوي ينطلق دائما من المراجع الأيديولوجية وأطماع الهيمنة والتحكم والتلاعب في السياقات الاجتماعية.
- الاختيارات اللغوية والبلاغية هي التي تبني استراتيجيات الخطاب المؤدية للوظائف السلطوية وليس العكس.
- المقاربة اللسانية الحجاجية ذات منظور وظيفي اجتماعي، أي التوفيق بين الوصف البنيوي، وتفسيره من خلال الوظائف الاجتماعية التي تؤديها البنية اللغوية.
- بنية أي استخدام لغوي مرشحة لأن تكتسي أهمية أيديولوجية.
- خرق أعراف التفاعل، ونيات التأثير العاطفي والحركي والإدراكي، منافذ للسلطة في التفاعل، وكل مظهر من هذه المظاهر هو سلوك تعسفي يتوق إلى الهيمنة الخطابية.
- تأثير الشكل في الممارسة الاجتماعية مباشر دون أية وساطة إدراكية أو تاريخية أو اجتماعية، والشكل غير متأثر بأي عنصر من العناصر الاجتماعية، بل هو المتحكم فيها.

خلاصة:

حاول هذا الفصل تقديم صياغة ميسرة وواضحة نسبيا للمقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة في التحليل النقدي للخطاب، مستعرضا أسسها اللسانية والبلاغية والاجتماعية، وميسرا الإجراءات المنهجية لتطبيقها، ومحددا المفاهيم الأساسية التي تقوم عليها، ومبادئها العامة. ولعل الهدف العام والأهم الذي حرصت هذه المقاربة على ضمان تحقيقه، هو بذل عناية أكبر بالجوانب اللسانية والتفاعلية مقارنة مع مناهج التحليل النقدي للخطاب السابقة؛ بحيث إن بعضها -كما سبقت الإشارة- يعتني أكثر بالاستراتيجيات الخطابية المكرسة للسلطة،

وتعتبر الخيارات اللسانية وسائل لتحقيقها، في حين أن المقاربة المقترحة ترى العكس، أي إن الاستخدامات اللسانية هي التي تمارس السلطة وما الاستراتيجيات الخطابية إلى صياغات ناتجة عن استخدام اللغة.

كما أن هذه المقاربة تسلط ضوءاً أكثر على الجوانب المغفلة في نقد التفاعل التخاطبي والخطابي من لدن جل مناهج التحليل النقدي للخطاب السابقة.

وعموماً، يعد الفصلان الثاني والثالث من هذا الباب الثالث، بتنزيل هذه المقاربة اللسانية الحجاجية عملياً على نموذج خطابي تفاعلي، بغية اختبارها وتقويم بعض جوانبها الناقصة. وتجدر الإشارة مرة أخرى إلى أن نمط الخطاب وخصائصه ومجاله، واستخداماته اللغوية، وموضوعه، وسياقه، هي الشروط التي توجه إلى رصد مواطن الممارسة السلطوية؛ بحيث لا يمكن تحديد الفئات التحليلية سلفاً، وإنما فحص الخطاب المدروس هو ما يقود إليها.

الفصل الثاني

الآثار السلطوية للمعالم النحوية والمعجمية

تمهيد

1. التلاعب بالعائد والعائد إليه

2. التلاعب بالفاعلية

3. تجويد صورة الخطيب بالاستدراك

4. القيمة الأيدولوجية للألفاظ

تمهيد:

هذا الفصل والفصل الذي يليه محاولة أولى لتطبيق المقاربة اللسانية الحجاجية في التحليل النقدي للخطاب. وتجد الأطروحة في الخطاب الثاني للرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون خلال أزمة السترات الصفراء في العاشر من شهر دجنبر سنة 2018¹ متنا ملائما لهذا التنزيل العملي للمقاربة المقترحة. يُخصّص هذا الفصل لبيان آثار الممارسة السلطوية من خلال الاختيارات النحوية والمعجمية، بينما يسعى الفصل الذي يليه إلى كشف مظاهر الهيمنة من خلال التداول والإيماء والتنغيم الصوتي، ثم يُختتم الفصلان معا بخلاصة اجتماعية حسب التصور المنهجي الموصوف في الفصل الأول من هذا الباب.

إن ما يرشح هذا الخطاب متنا لتطبيق المقاربة اللسانية الحجاجية هو كونه حاملا لأطماع السلطة والهيمنة والتلاعب من خلال اللغة والأداء التفاعلي، بحيث إنه يستهدف إقناع متظاهري السترات الصفراء بالتراجع عن أعمال العنف والثقة في رئيس البلاد. وقد ناقش هذا الخطاب تدني الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للشعب الفرنسي، وأعلن فيه الرئيس الفرنسي عن مجموعة إجراءات إصلاحية، داعيا الشعب إلى تغليب مصلحة الجمهورية الفرنسية.

أما عن تحديد مجال الخطاب، فإنه ينتمي إلى الخطاب السياسي المعاصر بفرنسا. ويأتي في سياق ظهور حركة احتجاجية فرنسية أُطلق عليها اسم حركة السترات الصفراء، والتي نشأت في ظل رفض الشعب الفرنسي الزيادة في ضرائب المحروقات في نهاية سنة 2018. إلا أن لهذا الحدث علاقة وطيدة بمشروع فرنسي أوروبي ضخم يتمثل في الانتقال الطاقوي؛ بحيث إن الغرض من رفع قيمة ضرائب المحروقات له صلة برغبة الجمهورية الفرنسية في إيقاف استخدام الفحم الحجري والنفط والغاز، والاقتصار على الطاقات المتجددة المستخرجة بمساعدة المياه والرياح والمحطات النووية.

لابد أولا من الإشارة إلى علاقة هذا المتن المدروس بخطاب آخر ألقاه الرئيس الفرنسي قبله بحوالي أربعة عشر يوما وفي الأسابيع الأولى من الأزمة، وتحديدا في السابع والعشرين نونبر سنة 2018²، ووفق فيه بين موضوعين: الأول هو مشروع الانتقال الطاقوي المذكور، والثاني هو التعليق على احتجاجات السترات الصفراء. إلا أن هذا الخطاب الأول خلف تصاعدا

1 انظر الملحق ورايط الخطاب على اليوتيوب: <https://youtu.be/CZOjVhvrAU>. آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

2 انظر رايط الخطاب على موقع اليوتيوب: <https://youtu.be/cX1vk5pws1g>. آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

مهولا لوتيرة الاحتجاجات، وارتفاع عدد المحتجين، واتساع رقعة المظاهرات لتشمل عددا كبيرا من المدن الفرنسية. ولعل السبب في ذلك هو أن الرئيس الفرنسي لم يولِ فيه الأهمية المرجوة لمطالب المحتجين، وإنما رفضها متحديا إياهم؛ كما أنه لم يخصص لموضوعهم الوقت الكافي مقارنة مع موضوع الانتقال الطاقى. لذلك فإن الخطاب الثانى (2018/12/10) كان رد فعل وتجاوبا من الرئيس مع هذه المطالب بعد احتدام الصراع بين المتظاهرين وأجهزة الأمن، واللجوء إلى أعمال العنف والتخريب.

إن المتن الرئيس لهذا الفصل والفصل الذى يليه هو الخطاب الثانى الملقى بتاريخ (2018/12/10)، وذلك لسببين: أولهما أنه يسجل تغييرا جذريا فى موقف الرئيس الفرنسى، وثانيهما هو أن الممارسة السلطوية فيه خفية ومضمرة، وليست كالممارسة السلطوية البارزة والجريئة والعلنية فى الخطاب الأول (2018/12/27). إلا أن إيضاح الانتقال من السلطة فى الخطاب الأول إلى السلطة فى الخطاب الثانى هو من أهداف البحث، لذلك، يحتاج التطبيق على الخطاب الثانى عقد مقارنة بينه وبين الخطاب الأول عند تحليل بعض الفئات التحليلية وليس كلها، ذلك لبيان طبيعة الممارسة السلطوية التى جسدتها الاختيارات اللغوية والحجاجية والتفاعلية على نحو مخالف للخطاب الأول.

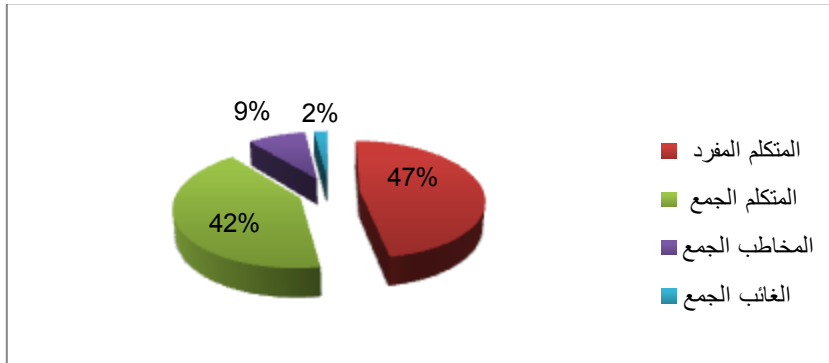
ويبدو ظاهريا، ومن خلال التلقى الأفقى والبسيط للخطاب الثانى، أن الرئيس الفرنسى تنازل عن كبريائه وتعنته فى الخطاب الأول، وأنه رضخ أخيرا لمطالب الشعب. إلا أن الملفوظات المنثورة فى كثير من مقاطع خطابه تثبت أنه -حتى وهو فى سياق الاستجابة- ما يزال يمارس كثيرا من مظاهر السلطة على صعيد الخطاب. فقد تُعلل استجابته ورضوخه فقط من خلال مضمون الخطاب، ولكن ما يعلل عدم تنازله ودفاعه عن نفسه كامن خلف الاختيارات اللغوية والبناء الحجاجى والأداء التفاعلى. وفى هذه الاختيارات وهذا البناء ما يلائم تطبيق المقاربة اللسانية الحجاجية.

1. التلاعب بالعائد والعائد إليه:

استخدم الرئيس الفرنسى فى الخطاب الثانى 146 ضميرا¹، منها 130 ضميرا للمتكلم، وثلاثة عشر ضميرا للمخاطب الجمع، وثلاثة ضمائر فقط للغائب. وقد توزع ضمير المتكلم بين

1 الضمائر المحصية هنا هي فقط الضمائر المحيلة إلى الفاعلين الاجتماعيين الخمس المستحضرين فى الخطاب، وهم المحددين أسفله.

61 ضميرا للمتكلم الجمع، و 69 ضميرا للمتكلم المفرد. في حين أن ضمائر الغياب كان اثنان منها للجمع المذكر، والثالث للجمع المؤنث. وفي ما يلي رسم بياني يوضح التمايز البين والشاسع في توزيع الضمائر:



شكل رقم (17): نسب حضور أنواع الضمائر المستخدمة في خطاب ماكرون الثاني

يلاحظ إذن أن ضمير المتكلم قد كان مهيمنا بشكل كبير على الخطاب الثاني، بحيث بلغت نسبة استخدامه 89% من مجموع الضمائر المستخدمة. في حين أن ضمير المخاطب بلغ نسبة 09% فقط، أما ضمير الغائب فلم يتعدَّ نسبة 2% فقط (01% للجمع الغائب المذكر، و 01% للجمع الغائب المؤنث). من جهة أخرى، ومن مجموع ضمائر الكلام، حاز ضمير المتكلم المفرد على نسبة 47%، في حين حاز ضمير المتكلم الجمع على نسبة حضور بلغت 42%. مما يعني أن ضمير المتكلم المفرد كان أكثر حضورا في الخطاب الثاني.

هنا تطفو إلى السطح مجموعة أسئلة تفرض نفسها: ما سبب هيمنة ضمير المتكلم على الخطاب؟ ولماذا استخدم ضمير المتكلم المفرد أكثر من ضمير المتكلم الجمع؟ ما السر من وراء قلة ضمير المخاطب الجمع؟ وما علة ندرة ضمير الغائب؟

للإجابة عن هذه الأسئلة، لابد أولاً من الرجوع إلى الفاعلين الاجتماعيين الواردين في الخطاب؛ فيلاحظ أن الرئيس الفرنسي قد استحضر في خطابه الثاني خمسة فاعلين اجتماعيين: الرئيس الفرنسي نفسه، والمسؤولين السياسيين الحاليين، والسياسيين الانتهازيين غير المسؤولين، والمسؤولين السياسيين السابقين، والمحتجين.

1.1. إحالة ضمير المتكلم إلى الغائب:

إن القراءة المتفحصة لهذا الخطاب تبين أن 130 ضميرا للمتكلم المستخدمة قد أحالت كلها إلى الفاعل الاجتماعي الأول الذي هو الرئيس الفرنسي، أحالت نسبة 47% منها إليه بمفرده، ونسبة 42% منها أحالت إليه وإلى المحتجين والمسؤولين السياسيين الحاليين

والسياسيين السابقين، بما مجموعه 61 ضميرا موزعا كما يلي: 48 ضميرا أحالت إليه وإلى المحتجين، سبعة ضمائر أحالت إليه وإلى السياسيين الحاليين، ستة ضمائر فقط أحالت إليه وإلى المسؤولين السابقين. وفي ما يلي جدول موضح لتوزيع ضمير المتكلم الجمع على الفاعلين الاجتماعيين في الخطاب معززا بأمثلة:

السياسيون السابقون	السياسيون الحاليون	الرئيس الفرنسي والمحتجون
نريد، ذهبنا، لكننا، عشنا، اعتدنا، نستطيع، نتمكن.	سنفعل، وسعنا، سنلغي، علينا، سنستجيب، نجتمع، نعالج.	نحن (5 مرات)، يمكننا، بلدنا (5 مرات)، مستقبلنا، رأينا (مرتان)، حريتنا، منا، فرصتنا، نرى، رسالتنا، أنفسنا، لنا، نريد، نبنى، أطفالنا، منا، عملنا (مرتان)، أمتنا، علينا (مرتان)، مقاولاتنا، مواطنينا، ستضعفنا، نجدد، نتحمل، كلنا، واجباتنا، نتمكن، ديننا، نجح، لدينا، حياتنا (مرتان)، أمتنا، نستأنف، نفهم، سننجح، معركتنا.

جدول رقم (07): توزيع ضمير المتكلم الجمع على الفاعلين الاجتماعيين الخطاب الثاني للرئيس الفرنسي

في إحالة الرئيس الفرنسي إلى نفسه وإلى المسؤولين السياسيين الحاليين (الحكومة والبرلمان) بضمير المتكلم الجمع، فإنه يستعرض على الفئات المحتجة من الشعب حزمة من الإجراءات الإصلاحية والتصحيحية التي يتوخى منها تهدئة الأوضاع وإظهار حسن نيته. وهذا استخدام طبيعي للضمير (نحن) ليس فيه أي مظهر من مظاهر الممارسة السلطوية؛ بحيث إنه يأتي في سياق الاستجابة لبعض المطالب المرفوعة في الشارع، وتسمه الصراحة والاعتراف.

وإن أحال كذلك بضمير المتكلم الجمع إلى نفسه وإلى السياسيين السابقين، فهذا لا يعني أنه ينفق معهم أو يتحمل مسؤولياتهم، وإنما ضمير المتكلم الجمع هنا لا يحيل إليه تداوليا ووظيفيا؛ بحيث إن استخدام هذا الضمير هنا لم يُجَلَّ إلى المتكلم، وإنما أحال إلى صناع القرار السابقين بإدانة واستنكار وتحميل للمسؤولية على هذا النحو:

(39/أ) هل نريد فرنسا حيث يمكننا العيش بكرامة من عملنا؟ في هذه النقطة، ذهبنا ببطء شديد. أريد أن أتدخل بسرعة وبشكل ملموس في هذا الموضوع.

(39/ب) أعلم أن البعض يود في هذا السياق أن أعود لإصلاح ضريبة الثروة، لكنها موجودة منذ ما يقرب من 40 عامًا؛ هل عشنا حياة أفضل خلال هذه الفترة؟ لقد رحل الأغنياء وضعفت بلادنا.

(39/ج) إن محنتهم ليست جديدة، لكننا اعتدنا عليها بجن، وبات الأمر في الأساس كما لو كانوا منسيين ومطموسين.

تتضمن أمثلة المجموعة (39) كل الضمائر المحيلة إلى الرئيس الفرنسي والسياسيين السابقين كما أُشير إليها في الجدول أعلاه، وقد جاءت متصلة بصيغ فعلية أو اسمية. إلا أنها كلها لا تحيل إليه بصفته رئيساً، وإنما بصفته مواطناً فرنسياً قبل انتخابه، كما أن ضمير المتكلم الجمع في هذه المواضع يحيل تحديداً إلى الرؤساء وصناع القرار السابقين له. ويمكن تعليل ذلك ببعض القرائن اللغوية والاجتماعية والتاريخية؛ ففي (1/39) مثلاً، يتساءل إن كان هو وجمع ما يريدون حقيقة أن يتوفروا على عمل يخول لهم العيش بكرامة. بطبيعة الحال السؤال هنا ليس مطروحاً على الشعب لأن أفرادهم كلهم يودون ذلك، كما أنه لا يطرحه على نفسه بناء على ثلاثة أدلة.

أول هذه الأدلة هو أنه جاء بجملة بعد السؤال هي (في هذه النقطة، ذهبنا ببطء شديد)، وهي تشير إلى مسؤولية قديمة من خلال استخدامه للزمن الماضي (ذهبنا) حين لم يكن رئيساً للدولة. وثاني هذه الأدلة هو أن الجملة في (1/39) جاءت بعد أن حمل مسؤولية وضع المحتجين المزري لمن سبقوه خلال أربعين سنة بشكل ضمني كما يقول (عادت أربعون سنة من القلق إلى الظهور) في الفقرتين السابقتين للمثال (1/39)، وبعد تأكيده أيضاً أن سبب الغضب الذي يشعر به الشعب الفرنسي قديم جداً (هذا يأتي من بعيد جداً، لكنه الآن هنا). وثالث الأدلة هو أنه أردف الجملة المتضمنة لثلاثة ضمائر للمتكلم الجمع بجملة أخرى تتضمن ضميرين للمتكلم المفرد يحيلان إليه صراحة بوصفه الرئيس المنقذ الذي سيعوض الشعب عن حرمانه من العيش بكرامة كما في (1/39) دائماً (أريد أن أتدخل بسرعة وبشكل ملموس في هذا الموضوع). ولكن، لماذا الإشارة إلى صناع القرار السابقين بضمير المتكلم الجمع وهو ليس منهم وهم غائبون؟

لقد وجد الرئيس الفرنسي نفسه في الخطاب الثاني أمام تحديين، أولهما هو أن يقنع المحتجين بضرورة إيقاف أحداث العنف والتخريب التي تسبب خطابه الأول في الرفع من وتيرتها. وثانيهما هو أن يتخلص من مسؤولية ما يحتجون ضده، مع عدم السقوط في الاتهام المباشر لمن سبقوه بأسمائهم وصفاتهم أو فترات حكمهم بشكل دقيق، أو حتى بضمير للغائب يعينهم. لذلك، فإن توظيف الضمير (نحن/نا) اكتسب دلالة الضمير (هم)، وما شحنه بهذه الدلالة هو البعد التاريخي المتمثل في الأربعين سنة التي مضت، خصوصاً وأنه لم يتقلد مسؤولية رئاسة الجمهورية الفرنسية حتى 14 ماي 2017 أي قبل قرابة سنة فقط؛ فمن

المستحيل أن يحمل نفسه مسؤولية هذه الفترة الطويلة حيث لم يكن المسؤول الأول عن البلاد، فقط لأنه استخدم ضمير المتكلم الجمع.

إن الهدف الرئيس من إكساب ضمير المتكلم دلالة ضمير الغائب هو تبرئة ذات الرئيس من مسؤولية الأوضاع المزرية التي هي سبب اشتعال الشارع الفرنسي، وتوجيه الرأي العام إلى أن هذه المشاكل الاجتماعية والاقتصادية هي تراكم لأربعة عقود، وبسبب عدد الرؤساء والحكومات التي توالى على الحكم قبله. ومن جهة أخرى، هناك هدف آخر، وهو أنه -كما برأ نفسه من هذه المسؤوليات- يبرئ نفسه أيضا من التبعات القانونية والإعلامية للاتهام المباشر لمن حكموا خلال الأربعين سنة التي مضت.

يتأكد معطى اكتساب ضمير المتكلم دلالة ضمير الغائب والهدف منه أيضا بالانتقال إلى (39/ب)، إذ إن ضمير المتكلم الجمع (نا) الواقع فاعلا للفعل عاش في قوله (عشنا)، لم يُحِلْ إلى الرئيس الفرنسي وشعبه فقط، وإنما أحال أيضا إلى من فرضوا ضريبة الثروة، أي السياسيين السابقين. فأما إحالته إلى الرئيس والشعب فجاءت في سؤال يخرج عن دلالة الاستفهام إلى دلالة النفي والإنكار (هل عشنا حياة أفضل خلال هذه الفترة؟)؛ بمعنى أن الفرنسيين لم يعيشوا أفضل خلال الفترة التي يتحدث عنها. وأما إحالته إلى السياسيين السابقين فتتمت من خلال توجيه دلالي تخدمه قرينة تاريخية هي القائمة في الجملة (لكنها موجودة منذ ما يقرب من أربعين سنة).

هكذا، فإن القرينة التاريخية تجعل من الضمير (نا) عائدا على من سن ضريبة الثروة، أما الضمير نفسه بعد أداة الاستفهام ومن دون النظر إلى القرينة التاريخية فهو عائد على المتكلم والشعب الذي تضرر من الضريبة.

إن مكن الممارسة السلطوية المتعلق بهذا الضمير على صعيد الخطاب هو التلاعب بالعائد والعائد إليه للهيمنة على الممارسة الاجتماعية التي يتجه إليها الخطاب؛ بحيث إن صاحب الخطاب جاور ضمير الجمع المتكلم بقرائن تاريخية (فترة الأربعين سنة في 39/أ و 39/ب) ولغوية (الفعل الماضي والانتقال من الجمع إلى المفرد في 39/أ، وخروج السؤال إلى دلالة النفي في 39/ب) واجتماعية (انعدام الكرامة وعدم التمتع بحياة أفضل في 39/أ و 39/ب على التوالي). وعليه، فإن ما سعى صاحب الخطاب إلى تحصيله من هذا التلاعب بالضمير هو: أولا أن يشعر المحتجين بأنه واحد منهم يتفق معهم ومع احتجاجاتهم، وثانيا أن يحمل

صناع القرار السابقين له كامل المسؤولية دونه هو، وثالثها أن يقدم نفسه بوصفه الرئيس المنقذ ابن الشعب والحامل لهمومه والمستعد لتصحيح أوضاعه.

من هنا يكون التلاعب بالعائد والعائد إليه قد أسعفه في ممارسة بعض استراتيجيات الهيمنة الاجتماعية من خلال الخطاب، وألاها تبرئة الذات، وثانيتها إدانة الآخر، وثالثتها استمالة الجمهور. وتتأكد مساعي الهيمنة الاجتماعية من خلال خدمة التلاعب بالعائد والعائد إليه لممارسة هذه الاستراتيجيات في (39/ج) كذلك.

فبالنظر إلى (39/ج)، يظهر أن الخطيب قد وظف ضميرين للمتكلم الجمع، متصل أحدهما بأداة الاستدراك (لكن)، والآخر بالفعل (اعتاد). ويركز الحديث في هذا المثال على المواطنين ذوي الاحتياجات الخاصة، ويصفهم بأنهم أكثر هشاشة. مرة أخرى، هل يحيل الرئيس الفرنسي بضمير المتكلم الجمع (نا) إلى نفسه أيضا؟

إن الرئيس الفرنسي هنا لا يحيل أبدا إلى نفسه أو إلى السياسيين الحاليين أو إلى الشعب الفرنسي، بحيث إن فعل الاعتقاد جاء موضَّح الحال بشكل سلبي (بجبن)، أي إن هذا الاعتقاد صادر عن جبناء. ومنه، فإنه لا يمكن أن يصف نفسه أو حكومته بالجبن، ومستحيل أن يصف الشعب كذلك بهذا الوصف القدحي في الوقت الذي يهادنه. إن الفاعل الاجتماعي الذي يحيل إليه ضمير المتكلم الجمع مرة أخرى هو السياسيون السابقون، وذلك بدليل الجملة الاسمية التي تصدر حكما متعاطفا على من سماهم بذوي الإعاقات (إن محنتهم ليست جديدة)؛ فيما أن محنتهم قديمة، فإن الفاعل الاجتماعي الجبان الذي كان سببا رئيسا فيها هو من كان يحكم قديما وليس الحاكم الحالي. ناهيك عن إدراج فعل الحكاية المصرَّف في زمن الماضي (كانوا)، والذي يفيد بأنهم عانوا من النسيان والطمس منذ القدم، وما وصلوا إليه الآن ليس إلا تراكما.

إن غاية الفاعل الاجتماعي الأول من هذا التوظيف المواردب لضمير المتكلم الجمع الذي يحيل ضمنيا إلى الغائبين، هي تبرئة الذات وإدانة الآخر كما في (39/ا) و (39/ب). وذلك من خلال تحميل ضمير المتكلم دلالة ضمير الغائب؛ وهذا المقصود بالتلاعب بالعائد والعائد إليه.

2.1. هيمنة ضمير المتكلم:

ينصب الحديث هنا على ضمير المتكلم المحيل فعليا إلى الرئيس الفرنسي. وقد بلغ عدد ضمائر الكلام بصفة عامة 130 ضميرا، فحسب الجدول رقم (07)، يظهر أن عدد ضمائر

المتكلم الجمع قد بلغ 61 ضميرا بنسبة 42%، في حين بلغ عدد ضمائر المتكلم المفرد 69 ضميرا بنسبة 47%، وهي الواردة في الجدول رقم(08):

ضمائر المتكلم المفرد
أريد(15مرة)، أقول، أعطيت(مرتان)، أني(5 مرات)، استنكرت، أشعر، رأيت، أتحمّل، نصيبي، لدي، أعلم(مرتان)، أسأت، تعليقاتي، أكون، جاهدت، أو من(مرتان)، أحبه، أنا(4مرات)، أستمد(مرتان)، شرعيتي، لكنني، قدمت، نفسي(3 مرات)، أنسى، أعلن، أوكد، أتدخل، أدعو(مرتان)، أتناول، سأطلب، أتخذ، أسمع، أطرح(مرتان)، أتلقى، آخذ، سألتقي، سأعود، لأتحدث، همي، معركتي.

جدول رقم(07): إحصاء ضمائر المفرد المسندة إلى ذات الرئيس الفرنسي

استنادا إلى الجدول رقم(07)، وبالتركيز على خانة ضمير المتكلم الجمع المحيل إلى الرئيس الفرنسي والمحتجين في آن، يظهر أن 48 ضميرا منها قد أحالت إليه بشكل إيجابي. واستنادا إلى الجدول رقم(08)، يتضح أن 69 ضميرا للمتكلم المفرد كلها أحالت إليه أيضا بشكل إيجابي. والمحصل من ذلك أن 117 ضميرا للمتكلم(مفردا وجمعا)، أحالت إليه على نحو مُجَوِّد ومعزز لمكانته، أي ما يمثل نسبة 90% من مجموع ضمائر الكلام التي بلغت 130 ضميرا. فأين تتجلى هذه القيمة الإيجابية المَجَوِّدة؟

بالنسبة إلى ضمائر المتكلم الجمع المحيلة إلى الرئيس الفرنسي والمحتجين(48 ضميرا)، فالملاحظ أنها إما اتصلت -في حالة الضمير المتصل- أو أسندت -في حالة الضمير المنفصل- إلى ما يعبر عن إيمانه واقتناعه بالمطالب الموصوفة بالمشروعة وضرورة تلبيتها الفورية، وإما إلى ما يعبر عن نيته المبيتة لإشعار الجمهور بأنه واحد منهم وفي صفهم، وإما إلى ما يؤكد عزمه على إصاق التهمة لمنافسيه أو سالفيه السياسيين. ولهذه المستويات الدلالية الثلاث، ما يدل عليها في استخدام هذا النوع من الضمير وما يؤكد من الأمثلة، وهي كثيرة يمكن فقط استحضار الأبرز منها.

فأما ما يخص التعبير عن إيمانه بالمطالب المرفوعة واستعداده لتلبيتها، فمنه مثلا:

(40/أ) أو من بشدة أنه يمكننا إيجاد طريقة للخروج منها معا.

(40/ب) لكي ننجح، يجب أن نجتمع معا ونعالج جميع الأسئلة الأساسية للأمة.

(40/ج) أدعو الحكومة والبرلمان إلى القيام بما هو ضروري حتى نتمكن من كسب

عيش أفضل من عملنا.

وأما ما تعلق بنيته في أن يُشعر الجمهور بأنه واحد منهم، فمنه على سبيل المثال:
(41/أ) ها نحن معا في موعد بلدنا ومستقبلنا.
(41/ب) أو من يبلدنا أكثر من أي شيء.
(41/ج) معركتنا الوحيدة هي من أجل فرنسا.

وأما ما يرتبط بتحميله المسؤولية لمنافسيه وسالفه السياسيين، فمنه:
(42/أ) عادت أربعون سنة من القلق إلى الظهور: قلق الذين لم يعودوا يجدون أنفسهم هناك، قلق الأقاليم والقرى كما الأحياء، حيث نرى الخدمات العامة تنقلص وتختفي البيئة المعيشية.
(42/ب) إن العودة إلى الوراء ستضعفنا حتى ونحن في طور إعادة خلق الوظائف في جميع القطاعات.

لا يهتم البحث مضمون هذه الأمثلة في المجموعات الثلاث (40 و 41 و 42)، بقدر ما يهتمه الاستخدام النحوي لضمير المتكلم الجمع وغرضه الخطابى؛ بحيث إن استخدامه في كل هذه الجمل يرسم دائرة توطن الخطيب والجمهور المحتج جنباً إلى جنب، يتوق من خلالها إلى تمرير أيديولوجية خاصة، وهي أنه وحده مع الشعب، وخصوصاً فئاته المحتجة. يتضح ذلك من خلال الفاعلية النحوية، أو المفعولية، أو الإضافة، أو الابتداء.

فبالنظر إلى علاقة الفاعلية، فتحضر في 40/ب (ننجح، نجتمع، نعالج)، و40/ج (نتمكن)، و42/أ (نرى). أما المفعولية، فتحضر في 40/أ (يمكننا)، و42/ب (ستضعفنا). وأما الإضافة ففي 40/ج (عملنا) و41/ج (معركتنا) و41/ب (بلدنا). في حين أن الابتداء يحضر في 41/أ (نحن) و42/ب (نحن).

إن المسعى الأيديولوجي الفعلي للخطيب في هذه الأمثلة وأشباهاها، هو تماهي ذاته مع ذات الجمهور المحتج، بحيث يهدف إلى الهيمنة على إدراك المحتجين ليبنى في نماذجهم الإدراكية فكرة أساسية هي: خلق ذات جديدة توحد بينه وبينهم، ترى ضعف الخدمات والتراجع على الحقوق، ويمكنها النجاح ومعالجة القضايا الحرجة والحصول على عمل يضمن العيش الأفضل. كما بإمكانها إيجاد طريقة للخروج من الوضع المزري، ومؤمنة بفرنسا أكثر من أي شيء آخر، ومرشحة للضعف إذا فكرت في الماضي، ولا تخوض أية معارك إلا من أجل فرنسا ومستقبلها، وتجتهد لخلق مناصب عمل جديدة في كل القطاعات.

إن هيمنة الضمير (نا/نحن) نحويةً خطابية، لكنها من وراء الخطاب هيمنة إدراكية أيديولوجية؛ بحيث بات ما هو من اختصاص رئيس الدولة مخولا للجمهور المحتج، وباتت مطالب الجمهور المحتج مطالبَ ذات أولوية للرئيس. تلك هي الذات التي تنمأى فيها ذات الخطيب مع ذات الجمهور. هكذا فقد أدى الخيار النحوي وظيفة اجتماعية أيديولوجية، وهي تعديل الآراء التي تطفو إلى سطح الممارسة الاجتماعية المتمثلة في أزمة الستارت الصفراء.

بالانتقال إلى ضمير المتكلم المفرد المحيل إلى الرئيس الفرنسي، يظهر أنه قد مثل نسبة 47% من مجموع ضمائر الكلام كما سبقت الإشارة في الجدول رقم (08). ويصعب إلى حد كبير تحليل كل حالات ورود ضمير المتكلم المفرد التسعة والستين، ولكن يمكن الاقتصار على بعضها، ولعلها كافية لبيان المظهر السلطوي الذي تؤديه:

(43/أ) هذا الغضب أعمق وأشعر أنه عادل من نواح كثيرة.

(43/ب) أنا أتحمّل نصيبى من هذه المسؤولية.

(43/ج) أعلم أيضا أنني أسأت إلى بعضكم بتعليقاتي.

(43/د) أريد أن أعلن اليوم حالة الطوارئ الاقتصادية والاجتماعية.

(43/هـ) همى الوحيد هو أنتم.

يمكن تبرير هيمنة ذات الخطيب فقط من خلال النتائج الإحصائية كما أُشير إلى ذلك أعلاه، وإن كان يبدو على سطح الخطاب مهادنا ومنتازلا. ولكن السؤال المطروح والأهم هو لماذا هذه الهيمنة والكثرة؟ وليس كافيا أن تُعلل كثرة استخدام ضمير المتكلم المفرد بكون الخطيب يبرز ذاته في خطابه ما دام رئيسا للدولة فقط. ولكن، ما الوظيفة الأيديولوجية والاجتماعية التي أدتها هذه الكثرة؟

إن الجواب عن هذين السؤالين يتلخص في ثلاث وظائف: أولاها هي أن سبب هذه الكثرة هو أنه يصدر مواقف جديدة من الممارسة الاجتماعية (احتجاجات الستارت الصفراء) يتوخى منها تصحيح أخطائه في الخطاب الأول. وثانيتها أنه سعى إلى الاستحواذ والانفراد بتقديم الحلول. وثالثتها أنه يطمح إلى تعزيز مكانته السياسية والشعبية. وهذه وظائف لن تظهر إلا من خلال مقارنة الأمثلة المقترحة في المجموعة (43) من الخطاب الثاني بالخطاب الأول. لقد عرف خطاب ماكرون الثاني تحولات جذرية في مواقفه التي أدلى بها في خطابه الأول. وتأتي أمثلة المجموعة (43) وأشباهها حيث يحضر ضمير المتكلم المفرد بكثرة، بوصفها

دلائل على المواقف الجديدة. ومن هذه المواقف الجديدة ما جاء في الأمثلة: اعترافه بعدالة غضب الفرنسيين (43/ا)، والاعتراف بإساءته لهم في خطابه الأول (43/ج)، وتحمله بعض المسؤولية (43/ب). يأتي ذلك بعد أن وصف الاحتجاجات في الخطاب الأول بالأعمال غير المقبولة: "لا أخط بين هذه الأعمال غير المقبولة والمظاهرات"، وبعد أن رفض التنازل أمام المحتجين الذين نعتهم بالمخربين الباحثين عن انعدام النظام: "لن أتنازل أمام أولئك الذين يهدفون إلى التخريب وانعدام الفوضى".

إن مكن الممارسة السلطوي المتمثل في التلاعب بالضمير هو الانتقال من الظهور القليل لضمير المتكلم المفرد مع وصف المحتجين بأبشع الأوصاف ورفض التنازل عن ضريبة المحروقات، إلى ظهوره البارز والصريح مع الاعتراف بشرعيتها وعدالتها. وهو بذلك يستدرك أخطاءه في الخطاب الأول. لقد سعى من خلال الاستخدام المفرط لضمير المتكلم المفرد إلى البروز القوي في الخطاب، ولكن هذه المرة مع ما يعيد الاعتبار للمحتجين، وإلى محو أحكامه السابقة التي هاجمتهم وقللت من شأن احتجاجاتهم.

استنادا إلى مظاهر الانتقال من الاستخدام المحدود لضمير المتكلم المفرد إلى استخدامه المفرط، يظهر التراجع عن رفضه لحالة الطوارئ الاقتصادية والاجتماعية؛ فبعد أن صرح في الخطاب الأول بما نصه: "أنا أرفض ذلك"، فما هو في (43/د) يعلن بشكل مباشر إقرارها من دون أية قيود.

هكذا، فإن سبب كثرة ضمير المتكلم المفرد هو هذا الانتقال من المواجهة الصريحة للمحتجين إلى مؤازرتهم والاعتراف بمطالبهم. لكن هذه الكثرة خدمت استراتيجية خطابية ذات مظهر سلطوي، وهي هدم صورة الرئيس الفرنسي في الخطاب الأول، وإعادة بنائها في الخطاب الثاني، إلى درجة أنه قصر كل همومه على المتظاهرين كما في (43/ه).

2. التلاعب بالفاعلية:

حُدِّد مفهوم الفاعلية الخطابية ومُيِّز بينه وبين الفاعلية النحوية في الفصل السابق. وتلخيصه هو أن الفاعل الخطابية قد يكون هو عينه الفاعل النحوي، وقد لا يكون؛ أي إن الفاعل الخطابية قد يكون فاعلا نحويا من الناحية الإعرابية، وقد لا يحتل موقعه في الكلام. وإن الأساس الذي يُحدِّد به الفاعل الخطابية في هذه المقاربة اللسانية الحجاجية هو وظيفته الدلالية الاجتماعية، بمعنى السؤال عن أنجز أو أحدث الحدث. وقد يُحال إلى من أنجز

الحدث بعلاقة الإضافة، أو بالحدث نفسه، أو بموقع المبتدأ، أو بنائب الفاعل، أو بالضمائر، أو بالزمن، أو بالمكان. وغيرها من الخيارات النحوية. وفي هذه الحالات كلها، فإن الفاعل الخطابى يمثل الفاعل الاجتماعى المقصود فى الخطاب لسانيا.

فى الخطاب الثانى للرئيس الفرنسى الحالى، أُشير إلى الفواعل الخطابية بثلاث صلات نحوية: بالضمير غير المفسر، وبالحدث، وبالزمن. ولذلك غايات خطابية، ونوايا أيديولوجية. وفى جميع الحالات، فإن هذه الاستخدامات الثلاث مبنية على وظائف دلالية اجتماعية وفق المنظور الوظيفى النسقى الذى تتبعه المقاربة المقترحة. وفى ما يلى أمثلة معبرة عن هذه الاستخدامات.

1.2. حذف مفسر الضمير الفاعل:

استهل الرئيس الفرنسى خطابه الثانى بالتوجه المباشر إلى كل الفرنسيين والفرنسيات، ولم يؤخر موضوع احتجاجات السترات الصفراء كما فعل فى الخطاب الأول، وإنما باشره منذ البداية بقوله (ها نحن معاً فى موعد بلدنا ومستقبلنا. أثارت الأحداث التى وقعت فى الأسابيع الأخيرة فى فرنسا وفى الخارج قلقاً عميقاً للأمة)¹، بل كان الموضوع الوحيد فى الخطاب. وقد خصص المقطعين الأول والثانى من الخطاب للحديث فقط عن مظاهر العنف ومستغليه ممن ساهم بالسياسيين الانتهازيين.

فى هذين المقطعين، ترد حالتان من الاستخدام المشبوه للضمير المحيل إلى الفاعل النحوى، أولاهما هي (مزجوا) فى (1/44)، وثانيتها هي (تضليلهم) فى (44/ب):
(1/44) مزجوا المطالب المشروعة بسلسلة غير مقبولة من العنف.
(44/ب) لقد رأينا جميعاً لعبة الانتهازيين الذين حاولوا استغلال الغضب الصادق لتضليلهم.

إن ما يثير الاهتمام هنا، وما يحتمل وجود مظهر ما من مظاهر الممارسة السلطوية فى الخطاب، هو الفاعل النحوى المضمرة فى (مزجوا)، والمضاف إليه (المفعول فى الفرنسية) فى (تضليلهم). فتبرز أسئلة من قبيل: من مزج المطالب المشروعة بالعنف؟ هل الضمير

1 من رابط الخطاب الثانى للرئيس الفرنسى إيمانويل ماكرون؛ تاريخ آخر مراجعة: 2021/12/5

هم (ils) يعود على العاقل أم على غير العاقل؟ وإذا كان عائداً على العاقل، فمن هو من بين ما ذكر قبل هذا العائد؟ وإذا كان عائداً على غير العاقل، فهل يُعقل أنه يتهم غير العاقل بالعنف غير المقبول؟

تقتضي الإجابة عن هذه الأسئلة استحضار المقطع الذي ورد فيه المثالان في المجموعة (44)، بحيث قال الرئيس الفرنسي: "أيتها الفرنسيات، أيها الفرنسيون، ها نحن معا في موعد بلدنا ومستقبلنا. أثارت الأحداث التي وقعت في الأسابيع الأخيرة قلقاً عميقاً للأمة في فرنسا وما وراء البحار. لقد مزجوا المطالب المشروعة بسلسلة غير مقبولة من العنف. وأريد أن أقول لكم على الفور: هذا العنف لن يحظى بأي تساهل"¹.

بالنظر إلى ما قبل الجملة في المثال (1/44)، يظهر أن صاحب الخطاب يخاطب كافة الشعب الفرنسي منبهاً إلى سياق خطابه (موعد بلدنا ومستقبلنا)، وأنه قد تحدث عن المظاهرات الاحتجاجية بتسميتها بالأحداث. إذن، هناك فاعلان قبل جملة (مزجوا..): هما: فاعل اجتماعي (الفرنسيات والفرنسيون)، وفاعل نحوي هو (الأحداث). أما ما بعدها ففاعل نحوي خطابي اجتماعي واحد هو الرئيس المتحدث. فعلى من يعود ضمير الجمع الغائب الذي أُسند إليه الفعل (مزج)؟

منطقياً وواقعياً، لا يحيل هذا الضمير إلى الفرنسيين والفرنسيات الذين خاطبهم الرئيس. ومن المحتمل أن الفاعل النحوي غير العاقل (الأحداث) للفعل (أثار) لا يقدر على هذا المزج المذكور للعنف بالمطالب المشروعة. وإذا كان هذا الضمير يعود حقيقة على (الأحداث)، فربما من اللائق ترجمة الجملة على هذا النحو: (مزجت المطالب المشروعة بسلسلة غير مقبولة من العنف). هكذا باتت الجملة تحتل فاعلين، إما الضمير المستتر المقدر (هي) العائد على غير العاقل، وإما الضمير الظاهر المتصل (واو الجامعة) في الترجمة العربية (ils في الفرنسية)، مع العلم أن الضمير (ils) في اللغة الأصل يحتمل أن يعود على الأحداث أو على جمع مذكر للعاقل.

لابد إذن من اعتبار الاحتمالين في التحليل. في الاحتمال الأول، أي في حالة ما إذا عاد الضمير الواقع فاعلاً لـ (مزج) على الأحداث، فإن إحالته إليها تمتع، ذلك لأن "الحدث" في

1 من رابط الخطاب الثاني للرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون؛ تاريخ آخر مراجعة: 2021/12/5

هذه الحالة غير عاقل، ولا يمكن أن يمزج بين التظاهر والعنف. أما في الاحتمال الثاني، أي في حالة ما إذا أحال هذا الضمير إلى الجمع المذكر العاقل، ينعلم تماماً أي مفسر له (المحال إليه) قبله، وحتى بعده. هكذا فإن الاحتمال الصحيح هو الثاني، بمعنى أن الفاعل النحوي للفعل (مزج) هو الجمع المذكر العاقل؛ ولكنه غير مذكور نهائياً. فما وظيفة عدم الذكر وعدم التفسير؟ وأية غاية تحققت للخطيب من خلال هذا الاستخدام النحوي؟

تتسم الممارسة الاجتماعية التي يتوجه إليها هذا الخطاب بحساسية وحرص مفرطين. مع العلم أن الرئيس الفرنسي يسعى من خلاله إلى تهدئة الأوضاع وإقناع المحتجين بالتراجع عن الاحتجاج. كما أن الفعل الذي ركزت عليه الجملة في (1/44) خروج عن القانون، ويكتسي طابعاً إجرامياً. لذلك، حرص الخطيب على عدم إسناده إلى من يسعى إلى إقناعهم، فلم يحل إليهم بضمير يعود عليهم بصراحة، أو لم يُسند إليهم فعل المزج بين التظاهر والعنف.

هكذا، بقي الفاعل الخطابى الحقيقي المتسبب في العنف معلقاً، وذلك من خلال عدم تحديد مفسر الضمير، والسكوت عن الفاعل الاجتماعى المعلوم مسبقاً بأنه المتسبب في العنف. ومن وجهة نظر تركيبية دلالية، يرى عبد القادر الفاسي الفهري في مناقشته لمسألة التفكيك (نقل المقولات الاسمية إلى اليمين أو اليسار)، أن ضرورة وجود ما يفسر الضمير قيد من قيود تقديم الأسماء وتأخيرها بصفة عام، بحيث لا يُسمح بالإضمار إلا إذا عُرف مفسرُه وكان متقدماً عليه في الكلام، أو كان مؤوَّلاً دلالياً وحتى تداولياً¹، وهذا قيد يصدق حتى على اللغة الفرنسية. وإن كان المثال (1/44) لا علاقة له بالاشتغال والتقديم والتأخير، إلا أن ما يهتم البحث من رأي عبد القادر الفاسي الفهري هو ضرورة وجود مفسر للضمير. ذلك ما لم يتوفر في المثال المدروس، لا قبل ضمير الجمع (ils) ولا بعده.

لقد أدى هذا الخيار وظيفية سلطوية أيديولوجية تتمثل في أن الرئيس الفرنسي جمع بين شجب عنف الاحتجاجات، وعدم الدخول في مواجهة مباشرة مع المحتجين كما فعل في خطابه الأول. بمعنى آخر، إن حذف مفسر الضمير كان وسيلة لغوية للتوفيق بين ما يقتضيه موقع رئيس الدولة في هذا السياق، وعدم السقوط في أخطاء الخطاب الأول، أي عدم مهاجمة المحتجين بوصفهم مخربين.

1 الفاسي الفهري، عبد القادر، اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 1985، ص: 130.

يتكرر هذا النمط من الاستخدام اللساني للضمير ومفسره حتى في المثال رقم(44/ب)، بحيث إن المفعول الذي وقع عليه فعل التضليل في قوله(لتضليله: Pour les dévoyer)، هو الضمير(هم : Les)، ومرة أخرى ينتفي في الجملة وما قبلها ما يُفسر هذا الضمير. والملاحظ أن صاحب الخطاب قد أشار إلى من حاول استغلال الغضب بلفظ ظاهر، إلا أنه جاء وصفا دون الموصوف؛ أي إنه أطلق لفظا معمما لم يحدد الجهة التي يقصدها بدقة. كما أنه أضرر المحتجين الذين وقع عليهم -حسبه- فعل الاستغلال؛ غير أن هذا الضمير لا يمكن تفسيره بأي عنصر نحوي أو صرفي أو معجمي.

نعم، مفسر الضمير معلوم اجتماعيا ولكن انعدامه نحويا يقي المتكلم مما يتوقاه، وهو عدم الاستهانة بالمحتجين أو التقليل من قدرهم مرة أخرى. ب، فإن حذف مفسر الضمير كان مسلكا نحويا، سلطويا وأيديولوجيا، للتلاعب بالفاعل والمفعول.

2.2. إبهام الفاعل النحوي:

مسعى البحث في هذه الفقرة هو بيان بعض أوجه التلاعب بالفاعلية النحوية كما في الفقرة السابقة، ولكن بالتركيز هذه المرة على استخدام لغوي آخر يتمثل في حذف الفاعل الحقيقي، وتعويضه بالحدث الذي أنجزه. بتعبير آخر، لقد استمر الخطاب الثاني للرئيس الفرنسي في خدمة غايته الأيديولوجية المشار إليها أعلاه، وهي: استنكار أعمال العنف والتخريب من موقعه الرئاسي، مع عدم الزج بنفسه في صراع مباشر مع الفرنسيين حفاظا على مكانته الشعبية. لبيان هذا المظهر السلطوي الخادم للأيديولوجيا من خلال حذف الفاعل الحقيقي، نقترح الأطروحة تحليل المثالين أسفله:

(1/45) ليس هناك غضب يبرر الهجوم على شرطي أو دركي، أو تحطيم محل

تجاري أو مبانٍ عمومية.

(45/ب) هذا العنف لن يحظى بأي تساهل.

تحتل الجملة الأصل المترجمة من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية ثلاث ترجمات، فبالإضافة إلى ترجمتها كما في المثال(1/45)، هناك ترجمتنا أخرى:

(1/45) ليس هناك غضب يبرر أن نهاجم شرطيا أو دركيا، أو أن نحطم محلا تجاريا

أو مباني عمومية.

(1/45) ليس هناك غضب يبرر أن يهاجم شرطيا أو دركيا، أو أن يحطم محلا تجاريا

أو مبانٍ عمومية.

ما يرشح هذه الترجمات الثلاث هو طبيعة الضمير (On) في اللغة الفرنسية، فمن معانيه -حسب سياق وروده- أنه يحيل إلى الغائب المفرد (il)، أو إلى المتكلم الجمع (Nous)، أو أن يُؤول بالاسم المشتق من الفعل المسند إليه كما في 1/45 (الهجوم/تحطيم). لذلك لا بد من استحضار الاحتمالات الثلاث للمقصود من هذا المنطوق.

في الاحتمال (1/45) مثلا، ينفى الرئيس الفرنسي انعدام أي مبرر للاعتداء على رجل أمن وتحطيم الممتلكات الخاصة والعمومية، ولكنه -ومن المنطقي- لن يُقحم نفسه ضمن قائمة المهاجمين والمحطمين باستخدام ضمير المتكلم (نهاجم)؛ لذلك فهو احتمال جد مستبعد. أما في الاحتمال (1/45)، فالمتهم بالهجوم والتحطيم سيكون فردا واحدا وهذا ما لا صلة له بواقع الممارسة الاجتماعية موضوع الخطاب؛ لذلك فهو احتمال مستحيل أيضا. ولكن الاحتمال الوارد في المثال (1/45) جد مرجح، لأن إطلاق الاسم المشتق من الفعل (S'attaquer) المسند إلى الضمير (On) لا يحتمل إطلاق الحكم على الناطق، ولا يتهم فردا واحدا؛ وإنما يعبر بالفعل عن واقع الممارسة الاجتماعية المتمثلة في الاحتجاج الجماعي المرفق بالهجوم والتحطيم.

بناء على هذا الترجيح، وحتى في الاحتمالين الملبغين، يُطرح سؤال مهم: من الذي هاجم رجل الأمن؟ ومن حطم المحلات التجارية والمباني العمومية؟ الجواب هنا يسير وسهل وفق رؤية واقعية ساذجة. ولكن هذا الفاعل غير محدد وفق رؤية لغوية خطابية؛ بحيث إن فعلَي الهجوم والتحطيم لم يُسندا إلى فاعل معلوم، وإنما هو مبهم وغير محدد. ففي الاحتمال (1/45)، وبافتراض أن الرئيس الفرنسي يقصد بالضمير (On) ضمير الجمع المتكلم، فإنه ينزل منزل الواعظ والناصح لجماعة الهاجمين والمحطمين، فتتنفي المؤاخذة والشجب والإدانة. وكذلك في الاحتمال (1/45)، أي بافتراض أنه يقصد بالضمير (On) مفردا غائبا، فإن ما شوهد على أرض الواقع منافيا له، لأن ما وقع صدر عن جماعة وليس فردا واحدا.

يبقى إذن الاحتمال المرجح في (1/45)، أي أن تؤول الجملة البسيطة (Qu'on s'attaque) بالهجوم؛ وهنا الفاعل ليس مبهما فقط، بل ينعدم كليا. إن إبهام الفاعل أو انعدامه خيار لساني نحوي يشكل مظهرا من مظاهر سلطة الخطاب، بحيث إن الرئيس الفرنسي يتلاعب بالفاعلية النحوية والفاعلية الخطابية لتحقيق غايتين أيديولوجيتين: أولاهما هي الإدانة والشجب والرفض، وهذا ما يفرضه عليه موقعه السياسي والاعتباري؛ والثانية هي استئطاف مجموع المحتجين الذين باتوا يطالبون بتتحيه عن رئاسة الجمهورية بعد ساعات فقط من إلقائه لخطابه الأول.

إن الفاعل الاجتماعي المسؤول عن الهجوم والتحطيم ساعة إلقاء الخطاب الثاني كان معلوماً، ولكن الرئيس الفرنسي سكت عنه ولم يأتِ على سيرته؛ وذلك من خلال إبهام الفاعل النحوي، وإيراد فاعل خطابي مضمّر وضمني في الحدين: الهجوم والتحطيم. معنى هذا أنه ركز على الحدث واستلطف المُحدث.

يتأكد هذا الاستخدام السلطوي لإبهام الفاعل النحوي أيضاً في المثال (45/ب). إن موقع رئيس الجمهورية يقتضي رفض مظاهر العنف أمام الرأي العام الفرنسي والدولي، لذلك يُفهم معنى الجملة في (45/ب) على أنه وعيد وتهديد. لكن هذا الوعيد والتهديد كان سلساً وملطفاً، ثم إن الطرف الذي وُجّه إليه غير معنن لغويًا، ولكنه معلوم اجتماعياً وخطابياً.

في نحو اللغة الفرنسية، الفاعل النحوي في الجملة (هذا العنف لن يحظى بأي تساهل) هو (العنف). ولكن، نفي التساهل مع هذا الفاعل يعني إما أنه سيواجه بعنف آخر مشروع، وإما بتطبيق القانون. ولكي لا يسمح الرئيس الفرنسي بأن يفهم المحتجون بأنه يتوعددهم بالعنف المشروع أو بالعقاب القضائي، فإنه استبدل الفاعل النحوي الحقيقي الذي هو (المحتجون) بفاعل خطابي الذي هو الحدث (العنف). هكذا فقد أبهم الفاعل النحوي وركز على الفاعل الخطابي حماية لمكانته الاعتبارية، ووقاية لطموح تصحيح أخطاء الخطاب الأول، والتزاماً بما يقتضيه منصبه الرئاسي بالأب لا يقبل مظاهر العنف وأن يعبر عن موقفه الرسمي اتجاهه. إذن، ومرة أخرى، فالفاعل النحوي مبهم، والفاعل الاجتماعي مسكوت عنه، والفاعل الخطابي هو الحدث.

3.2. الاستدلال بإحلال الزمن فاعلاً:

يرتبط الحديث في هذه الفقرة بإحلال "الزمن" محلّ الفاعل الاجتماعي المقصود بالخطاب أو بجزء من أجزائه، وقد يقع العنصر الحالّ (الزمن) موقع الفاعل النحوي أو لا؛ ولكنه يقع حتماً موقع الفاعل الخطابي الذي يحيل لا محالة إلى الفاعل الاجتماعي. وتستحق هذه العلاقة المعقدة النظر في مثالي المجموعة (46):

(46/أ) عادت أربعون سنة من القلق إلى الظهور.

(46/ب) لكنها موجودة منذ ما يقرب من أربعين عاماً.

هل عشنا حياة أفضل خلال هذه الفترة؟

بعد أن ركز الرئيس الفرنسي في المقاطع الثلاثة الأولى من خطابه على مظاهر العنف، انتقل إلى تعليقه وتبريره استلطافاً واستمالةً للمحتجين؛ بحيث أعاد صياغة أشكال العنف بأنها غضب وسخط قائلاً: "لكن في بداية الأمر كله، لا أنسى أن هناك غضباً وسخطاً، وهذا

السخط، يمكن أن يتقاسمه الكثير منا وكثير من الفرنسيين، وهذا ما لا أريد اختزاله في السلوك غير المقبول الذي استنكرته للتو¹. إذن، فعلى الرغم من أنه أشار سابقا إلى أن الدولة لن تتساهل مع أشكال العنف، فإنه في هذا المقطع لا يختزلها (أشكال العنف) في السلوك غير المقبول والمستنكر. ولذلك فقد عدها غضبا وسخطا.

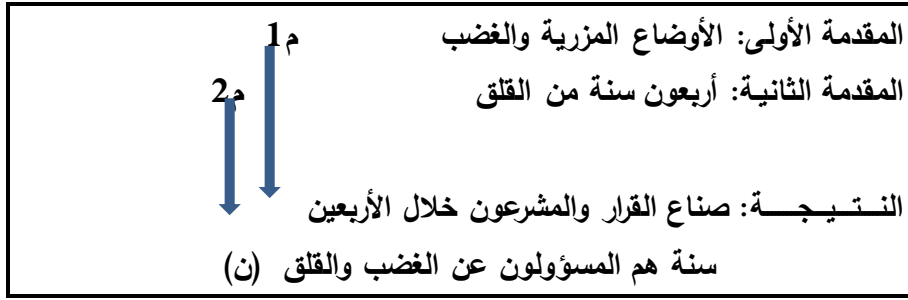
وحتى يوجه الرأي العام إلى أن هذا الغضب في حقيقته ليس ضده هو، فقد عمد إلى استظهار بعض أسباب الغضب من ناحية، ثم أسند مسؤوليتها إلى غيره من ناحية أخرى. فكيف ذلك؟

من جملة أسباب العنف الذي وصفه الرئيس الفرنسي بالغضب، ما أورده كما يلي: الزوجان الأجيران اللذان لا يكفيهما الراتب لإكمال الشهر، والأم العازبة والمطلقة التي لم تجد سبلا لرعاية أبنائها، والمتقاعدون المتواضعون الذين لا يكفيهم معاشهم، والأشخاص ذوو الإعاقات المتخلى عنهم. ويظهر أن الرئيس الفرنسي هنا يلتمس العذر للمحتجين بعاملين: أولهما أنه سمي العنف بالغضب المشروع، وثانيهما أنه أظهر تعاطفه مع هذه الفئات الاجتماعية التي وصفها بالتواضع والهشاشة والنسيان والعجز عن إكمال نفقات الشهر.

ولكن، من المسؤول عن الهشاشة والتواضع والنسيان والعجز؟ لم يصرح الرئيس الفرنسي بما يحيل إلى المسؤولين عن هذه الأوضاع المبررة للغضب والعنف، لا اسما ولا لقبا سياسيا، وإنما أحال إليه بعامل الزمن كما في (1/46 و 46/ب). فكيف ذلك؟

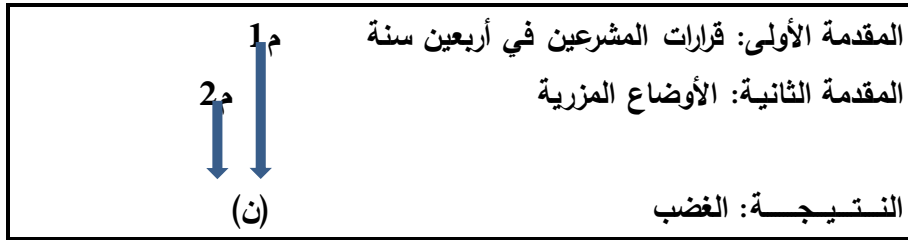
في المثال رقم (1/46)، وبعد أن استظهر عذابات الفئات المذكورة أعلاه في هذه الفقرة، لخص النتيجة الاجتماعية والنفسية لأوضاعها المزرية في "القلق"؛ وبأنه قلق قديم عاد إلى الظهور. وفي هذا المثال، يظهر أن الفاعل النحوي مذكور وهو (أربعون سنة من القلق)، إلا أنه عبارة عن فترة زمنية، أو مرحلة سياسية؛ ومن البدهي أنه لا يحمل المسؤولية للفترة في حد ذاتها، وإنما إلى المسؤولين السياسيين وصناع القرار الذي حكموا وشرعوا القوانين خلالها. وبذلك فإنه قد نهج مسارا حجاجيا يتمثل في عرض مقدمتين اثنتين، وترك تأويل نتيجتهما للمتلقي، وخصوصا المحتجين:

1 من رابط الخطاب الثاني للرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون؛ تاريخ آخر مراجعة: 2021/12/5



شكل رقم(18): المسار الأول للاستدلال بالزمن في(1/21)

حجاجيا، وكما هو مبين في الشكل رقم(18)، تبدو الأوضاع المزرية مقدمة أولى، ويبدو أن الفاعل النحوي الذي هو عبارة عن فترة زمنية مقدمة ثانية، والنتيجة التي يود صاحب الخطاب أن يصل إليها الجمهور هي الفاعل الاجتماعي الحقيقي الذي عوضه بالفاعل النحوي(الزمن). أما منطقيا، فإن ترتيب عناصر الاستدلال ينعكس، بحيث إن المقدمة الأولى هي قرارات المشرعين في الأربعين سنة الماضية، والمقدمة الثانية هي الأوضاع المزرية، والنتيجة هي الغضب في الحاضر:



شكل رقم(19): المسار الثاني للاستدلال بالزمن في(1/46)

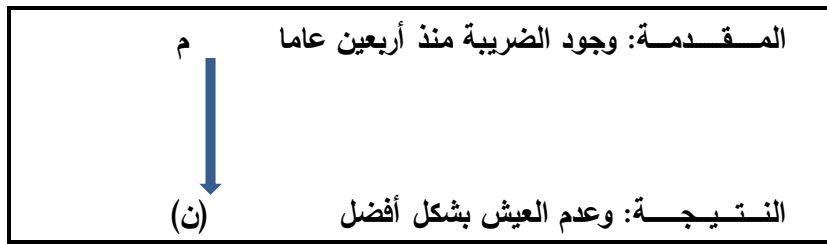
هكذا، يظهر أن حذف الفاعل الحقيقي في المثال(1/46) وتعويضه بالزمن الدال عليه قد أسعف صاحب الخطاب في بناء استدلال حجاجي ذي مسارين معكوسين ولكنهما يبرئانه في جميع الحالات؛ فالغضب والقلق قادا الاستدلال إلى إلقاء المسؤولية على صناع القرارات خلال الأربعين سنة الماضية، سواء بحسب الاستدلال في الشكل رقم(18) أم في الشكل رقم(19).

يحضر الاستدلال بإحلال الزمن فاعلا في موضع آخر، وهو المشار إليها بالمثال رقم(46/ب). ففي سياق تبرئة الرئيس الفرنسي لنفسه من أسباب القلق الاجتماعي والغضب والعنف، استحضر أحد الشعارات المرفوعة من لدن المحتجين الفرنسيين، وهو إعادة النظر في ضريبة الثروة وقيمتها؛ حيث قال: "أعلم أن البعض يود في هذا السياق أن أعود لإصلاح ضريبة الثروة"¹. ولكي يزيل عن نفسه مسؤولية هذه الضريبة، وحتى لا ينطق بأسماء الجهات

1 من رابط الخطاب الثاني لماكرون؛ تاريخ آخر مراجعة: 2021/12/5 : <https://youtu.be/CZOhJvhrvAU>

المسؤولة عن التساهل مع الأثرياء بسن ضريبة مخففة عليهم، فقد حذف ما يدل عليهم بصفاتهم الفاعل النحوي الحقيقي، و عوضهم بفاعل خطابي يقع نحوياً موقع المضاف إلى الظرف "منذ"، وهو (ما يقرب من أربعين عاماً).

لقد أتاح الاختيار النحوي في (46/ب) للرئيس الفرنسي إمكانييتين، أولهما هي حجب الفاعل النحوي الذي يحيل إلى الفاعل الاجتماعي الحقيقي، والإحالة إليه ضمناً من خلال الاستدلال مرة أخرى؛ إذ إن وجود الضريبة منذ أربعين عاماً -حسب المنطوق- مقدمة، وعدم العيش بشكل أفضل نتيجة:



شكل رقم (20): الاستدلال بالزمن الحال محل الفاعل النحوي الحقيقي في (46/ب)

إن حلول الزمن محل الفاعل، مع كون ما يدل على الزمن في الشكل (20) مقدمة، يؤكد أن صاحب الخطاب يجعل الحكام وصناع القرارات خلال الأربعين عاماً المذكورة العامل الأساس لانعدام العيش الأفضل، وتردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والنفسية للمحتجين. وقد خول هذا الاختيار النحوي الحجاجي للمتكلم أمرين مهمين: أولهما هو تبرئة ذاته ووقوفه موقف المنفذ، وثانيهما هو تحميل السياسيين السابقين له كامل المسؤولية في تخفيف ضريبة الثروة على الأثرياء.

ولعل ما يؤكد هذا المعطى هو الاستفهام المتضمن لنتيجة الاستدلال (هل عشنا حياة أفضل خلال هذه الفترة؟)، إذ إنه لا يتوخى جواباً، وإنما هو استفهام يفيد النفي والاستغراب؛ بحيث يضع المتلقي أمام حقيقة أن الأوضاع المزرية في الحاضر لا تعني أن المواطنين المحتجين كانوا يعيشون حياة أفضل خلال السنوات الأربعين الماضية قبل تقلده منصب رئاسة الجمهورية.

بناء على تحليل المثالين في المجموعة (46)، يتضح أن وقوع الزمن موقع الفاعل النحوي المحيل إلى الفاعل الاجتماعي الحقيقي والمسؤول، قد انخرط في بناء الاستدلال الحجاجي الذي أثمر استراتيجيتين اثنتين تهيمنان على الخطاب ككل: أولهما هي تبرئة الذات والتخلص من المسؤولية، وثانيتهما هي إدانة الآخر ضمناً.

3. التوظيف السلطوي للاستدراك

1.3. تجويد صورة الخطيب بالاستدراك:

قام الخطاب الثاني للرئيس الفرنسي على ثنائيات تضادية كثيرة، كالعنف والنظام العام، الغنى والفقر، الاحتجاجات والاستجابة، ضريبة الأثرياء المخففة وضرائب الفقراء المرتفعة، العيش السيء والعيش الأفضل، الغلاء وتحسين الظروف الاجتماعية، وإدانة المسؤولين السابقين وتبرئة الرئيس الحالي؛ وغيرها.

غير أن الرئيس الفرنسي استغل بعض هذه الثنائيات لممارسة استراتيجية خطابية إقناعية سلطوية، وهي تجويد صورة المتكلم. وتظهر هذه الاستراتيجية أكثر حضورا وتمثيلا في الخيارات النحوية القائمة على أسلوب الاستدراك. من ذلك مثلا ما تتضمنه مجموعة الأمثلة رقم(47):

(47/أ) **لكن** في بداية الأمر كله لا أنسى أن هناك غضبا وسخطا.

(47/ب) كان الغضب بسبب ضريبة واستجاب رئيس الوزراء بإلغاء جميع

الزيادات المخطط لها في أوائل العام المقبل وإزالتها، **لكن** هذا الغضب أعمق

وأشعر أنه عادل من نواحٍ كثيرة.

(47/ج) تمر العديد من البلدان الأخرى بهذه الحياة السيئة التي نعيشها،

لكنني أو من بشدة أنه يمكننا إيجاد طريقة للخروج منها معا.

استهل الرئيس الفرنسي خطابه -كما سبقت الإشارة إلى ذلك- بثلاثة مقاطع استتكر فيها مظاهر العنف التي سجّلت في شوارع المدن الفرنسية، وأدان من سماهم بالسياسيين الانتهازيين الذين يودون زعزعة أمن فرنسا. ثم أردفها مباشرة بجملة متضمنة لأسلوب الاستدراك، وهي المستعرضة في المثال(47/أ). وتتوسط بين الاستتكار والإدانة والجملة المذكورة أداة الاستدراك(لكن).

فعلى الرغم من الاستتكار والإدانة إلا أنه عاد ليستدرك معترفا بأن مصدر هذا العنف هو أن الشعب الفرنسي يشعر بالغضب والسخط بسبب أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والنفسية المزرية. والحق أن هذا الاستدراك يأتي بوصفه تصحيحا لأخطائه في الخطاب الأول حيث تجاهل الاحتجاجات ولم يركز عليها كما أُشير إلى ذلك في بداية هذا الفصل؛ وهو أيضا توجيه للمحتجين -على الرغم من موقف الإدانة والاستتكار- بأنه معهم وفي صفهم.

تعليلاً ذلك من الجملة التي تلت حرف الاستدراك (لكن)، بحيث إنه ينفي نسيانه أن العنف كان نتيجة للغضب والسخط (في بداية الأمر كله لا أنسى أن هناك غضبا وسخطا). إن السور الكلي (كله) والنفي (لا أنسى) يلغيان كل ما يمكن أن يفهمه المحتجون بأنه إدانة لهم واستتكار لأفعالهم، فالرئيس الفرنسي يلغي بالاستدراك كل ما صدر منه في حق المحتجين من أوصاف سلبية أو نسبة للأفعال التخريبية. ويعني هذا أنه ينطلق من جديد في تعاطيه مع ما صدر عنهم، أي إنه يستتكر ويدين ويتراجع مُبدياً تعاطفه واتفاقه مع العنف بدعوى أنه غضب طبيعي.

إن الأداة (لكن) هنا قد قامت مقام الرابط التداولي الذي يمكن أن يربط بين قولين، أو بين قول وحدث، أو بين سلوك أو حركة وقول؛ ولقد سبق لأبي بكر العزاوي أن تحدث عن بعض خصائص (لكن) التداولية، ومنها الخاصية الواردة في المثال (47/1)، أي الربط بين أحداث العنف والغضب والقول، إذ يقول: "يمكن أن يربط الرابط التداولي بين قول وحدث خارج لغوي، أي بين قول المتكلم وسلوك صدر من المخاطب، أو بين قول وظاهرة طبيعية، أو بين قول وحدث ما"¹.

ويتكرر نهج الإلغاء لما سبق باستخدام الاستدراك أيضا في المثال (47/ب)، فبعد أن صرح الرئيس الفرنسي بأن الحكومة قد استجابت للغضب بإلغاء جميع الزيادات، فقد استمر في تمجيد الغضب حتى وصفه بالعمق، وأضاف أنه يشعر بعدالته. معنى هذا أنه حتى وهو في حالة الاستجابة للمطالب يستمر في الاعتراف بشرعية الغضب وعدالته. فالاستدراك هنا قد أدى وظيفة خطابية تتمثل في تجويد صورة ذات المتكلم بالإغراق في الاعتراف والتمجيد. وقد تأتي له ذلك من خلال إلغاء قيمة ما قبل (لكن) بقيمة أكبر وأعلى في ما بعدها.

يمكن قول الشيء نفسه عن المثال (47/ج)، بحيث ذكر في ما قبل (لكن) بأن الوصول إلى حياة سيئة مسألة طبيعية في كل بلدان العالم، ولكنه في ما بعدها يستدرك ويطمئن المحتجين بأنه مؤمن بقدرة فرنسا على تجاوز هذه الحياة الصعبة وتهيئة ظروف ملائمة للعيش الأفضل. والملاحظ هنا أنه وإن كان يطمح في تهوين ما يقع في فرنسا من تراجع مستويات العيش والاستقرار الاجتماعي، فإنه يحاذر من أن يفهم المحتجون وقوفه ضدهم ورفضه لاحتجاجاتهم ومطالبهم.

1 العزاوي، أبو بكر، اللغة والمنطق، مطبعة طوب بريس، ط1، الرباط، 2014، ص54.

وعليه، يمكن صياغة ثلاث علاقات تضادية يفيدها الاستدراك في مجموعة الأمثلة رقم(47) كما يلي:

ع1: إدانة العنف	#	اعتراف الرئيس بمشروعية الغضب
ع2: الاستجابة	#	شعور الرئيس بعدالة الغضب
ع3: الحياة السيئة طبيعية	#	إيمان الرئيس بالقدرة على تحسينها

شكل رقم(21): العلاقات التضادية في الجمل الاستدراكية بمجموعة الأمثلة(47)

يظهر إذن أن ما بعد الاستدراك في الأمثلة الثلاثة ليس من أجل تهدئة الأوضاع أو إقناع المحتجين بالتراجع عن الاحتجاجات، ولكن من أجل إظهاره لذاته مقتتعة بهم ومساندة لهم؛ وقد يكون من أجل تهدئة الأوضاع، ولكنه حسب هذه الصياغة من أجل تجويد صورة الرئيس قبل كل شيء.

2.3. الاستدراك استراتيجية لتوريط الآخر:

كما جود الاستدراك صورة الخطيب، فإنه قد سعى إلى توريط الآخر وإقحامه في دائرة الصراع. وتعتبر الأمثلة (1/48) و (48/ب) و (49) و (50) أنطق دليل على ذلك؛ بل تؤكد أن الخطيب يسعى إلى إشراك غيره في تحمل المسؤولية أكثر مما يسعى إلى تهدئة الأوضاع. ولكن من الضروري البدء بمثالي المجموعة(48) انسجاما مع ترتيب أمثلة الاستدراك في الخطاب الثاني:

(1/48) هذا يأتي من بعيد جدا لكنه الآن هنا.

(48/ب) أعلم أن البعض يود في هذا السياق أن أعود لإصلاح ضريبة

الثروة، لكنها موجودة منذ ما يقرب أربعين عاما.

لقد لخص الرئيس الفرنسي في المقطع السادس الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المزرية لفئات الشعب الفرنسي في قوله (أربعين سنة من القلق)، ثم أسرف في تهويله بوصف مظاهره بأبشع الصور: قلق العمال الذين لم يعودوا يجدون أنفسهم، قلق الأقاليم والقرى والأحياء، تقلص الخدمات العامة، اختفاء البيئة المعيشية، الشعور بالضييق الديمقراطي، الشعور بانعدام الإصغاء، انعدام الارتياح، مواجهة العلمانية المعطلة، والحوازر والمسافات في أنماط الحياة.

إن السامع -كما هي الحال بالنسبة إلى القارئ- لهذه الأوصاف قد يستغرب سردها من لدن الرئيس الفرنسي الذي يحاول تهدئة غضب المحتجين، إلا أنه لم يسردها ليحمل نفسه المسؤولية، وإنما ليرمي مسؤوليتها على عاتق من سبقوه خلال أربعين عاما من الحكم. بيان ذلك هنا هو ما جاء في المثال (1/48)، بحيث إن اسم الإشارة (هذا) يحيل إلى كل هذه المظاهر البشعة من الحياة الاجتماعية السيئة، ولكن الفعل (يأتي) والظرف (من بعيد) يحيلان إلى مراحل الحكم التي سبقت توليه لرئاسة الجمهورية الفرنسية. فما دور حرف الاستدراك (لكن)؟

ينطق الاستدراك في المثال (1/48) بأن كل ما يعيشه الشعب الفرنسي من الأوضاع السيئة التي تبرر غضبه قادم من زمن آخر، أي إنه تراكم للسياسات السابقة. كما يفيد أن هذا التراكم قد وصل ذروته ليظهر وينفجر في مرحلته هو؛ أي إنه غير مسؤول عما سبق ولكنه مضطر لمواجهة الآن، فقله (لكنه الآن هنا)، يعني أن ما يحتج لأجله الشعب نتيجة لممارسات سياسية قديمة، لكنه فرض نفسه في بداية ولايته الرئاسية.

الأمر نفسه يتكرر في المثال (48/ب)، فقد برأ نفسه من ضريبة الثروة المخففة على الأغنياء، والتي هي أحد أهم مطالب الشعب الفرنسي المحتج، محيلا بالاستدراك إلى أنها مفروضة عليهم منذ حوالي أربعين عاما (لكنها موجودة منذ ما يقرب أربعين عاما). إن ما بعد (لكن) في (48/ب) كما في (1/48) حكم مستدرك لا لشيء إلا لخدمة ذات الخطيب، لأنه يستमित في إدانة صناع القرار السابقين له، ولكنه يصرح في المقابل باستعداده للتصدي لها.

يمكن إذن إعادة صياغة علاقتي تضاد أخريين من المجموعة (48) على هذا النحو:

4ع: أسباب القلق قديمة # الاحتجاجات في غير زمانها

5ع: إصلاح ضريبة الثروة الآن # ضريبة الثروة قديمة

شكل رقم (22): علاقنا التضاد في الجملتين الاستدراكتين بمجموعة الأمثلة (48)

لقد أسعف الاستدراك الرئيس الفرنسي في تبرير تحميله للسياسيين السابقين مسؤولية الأوضاع المتدهورة التي يعيشها الفرنسيون، وفي تجويد صورته لديهم. وفي المثال الموالي، يُسعفه أيضا في إظهار حسن النية وإشراك فاعلين اجتماعيين آخرين في مسؤولية الإصلاح الفوري. يقول في المقطع الثالث عشر:

(49) بالنسبة لأولئك الذين يتلقون أقل من 2000 يورو شهرياً، في عام 2019، سنلغي الزيادة في ضريبة CSG التي عانوا منها هذا العام؛ كان الجهد المطلوب منهم كثيراً ولم يكن عادلاً. ابتداء من يوم غد سيقدم رئيس الوزراء كل هذه القرارات للبرلمانيين **لكن** ليس علينا التوقف عند هذا الحد، أنا بحاجة لمقاولاتنا الكبرى وأكثر مواطنينا ثراء.

يفيد منطوق الرئيس الفرنسي في(49) أن الجمهورية الفرنسية قد ألغت الزيادة في ضريبة القيمة المضافة على المتقاعدين، تقديراً منها للجهد الذي بذلوه طوال حياتهم في العمل، وأن هذا القرار سيُعرض على البرلمان الفرنسي في اليوم الموالي لإلقاء الخطاب الرئاسي الثاني. إلا أنه في الجملة التي أتت بعد حرف الاستدراك(لكن)، ينتقل من استخدام ضمير المتكلم الجمع إلى ضمير المتكلم المفرد، فتبرز أنه بوضوح.

إن الاستدراك في هذا الموضع يفيد بأن الرئيس الفرنسي قد طفق فعلاً في اتخاذ الإجراءات الإصلاحية، ولكنه يورط أيضاً أثرياء فرنسا ومقاولاتها الكبرى؛ بحيث إنه أبدى حسن نيته بإلغاء الزيادة في الضريبة، ولكنه يلقي بباقي المسؤولية على الشركات والأغنياء. ولعله يقصد من الاستدراك أن يؤكد أن المتقاعدين يستحقون أكثر مما تقدمه لهم الدولة، وفي ذلك توريث لأصحاب المقاولات التي وصفها بالكبرى وللأغنياء الذين وصفهم بأثرياء فرنسا. إن الخلاصة الواضحة هنا هي أنه يريد أن يوجه مطالب المحتجين بعيداً عن الدولة، وأن تردي أوضاع المتقاعدين ليس بسببها هي فقط، بل أيضاً بسبب المشغلين.

هكذا فقد أسعفته الدلالة الناتجة عن الاستدراك في إشراك آخرين في تحمل المسؤولية. ويمكن هنا أيضاً إعادة صياغة العلاقة التضادية بين طرفي الاستدراك على هذه الشاكلة:

ع6: الرئيس ألغى الزيادة في ضريبة التقاعد # ... المشغلون يتحملون المسؤولية أيضاً

شكل رقم(23): علاقة التضاد في الجملة الاستدراكية في المثال(49)

أفاد الاستدراكُ الرئيسَ الفرنسي أيضاً في الإبقاء على فكرة مشروعه المتعلق بالطاقة المتجددة، والمسمى بالانتقال الطاقى الذي استمات في الدفاع عنه في الخطاب الأول، لكنه في الخطاب الثاني لم يتجرأ على مناقشته أو الدفاع عنه. يتضح ذلك من خلال المثال(50):

(50) نريد قواعد أكثر إنصافاً وبساطة ووضوحاً تكافئ أولئك الذين يعملون **ولكن** اليوم أيضاً مع مشروعنا الجماعي يجب أن نجدد لفرنسا وأوروبا.

لا يمكن الحكم على العلاقة الدلالية التي بين ما قبل حرف الاستدراك (لكن) وما بعده في (50) بأنها علاقة تضاد، ذلك لانعدام أي تقابل دلالي بين الضفتين. ولكن، ومن خلال توكيد الرئيس الفرنسي على ضرورة إرساء قوانين منصفة وبسيطة وواضحة لصالح العمال، يظهر أنه يمهد لما بعد حرف الاستدراك، وما بعده ليس إلا تذكيراً بالمشروع الطاقى الذي كان أساس برنامجه الانتخابي بطريقة سلسة وضمنية وحذرة إلى حد كبير؛ معنى هذا أنه لم يرد أن يسكت أو يغفل أو يعتقد المحتجون بأنه قد تراجع عن مشروع الانتقال الطاقى، ولم يشأ أيضاً أن يثيره بطريقة تعسفية كما في الخطاب الأول، وإنما أثاره بلباقة وحذر شديد من خلال الانتقال بين الإنصاف والتجديد لفرنسا وأوروبا، وهذا أمر تأتى له بالاستدراك. فقد اقتصر هنا على التلميح إليه في سياق الوعد بالإصلاحات والاستجابة للمطالب، وكأنه يساوم المحتجين، أو يوحي إليهم بأنه كما تمت الاستجابة لما تطلبون عليكم أن تقبلوا بالمشروع الطاقى، وإن ضمناً؛ وهذا مظهر آخر لتوريث الآخر بالاستدراك.

أمكن إذن استخلاص أن الجمل التي بعد حرف الاستدراك (لكن) في (1/47) و (47/ب) و (47/ج) و (1/48) و (48/ب) و (49) كلها تتخرط في تجويد صورة الخطيب وتعزيز مكانته لدى المحتجين بعد تغيير وجهات نظرهم فيه بعيد خطابه الأول رداً على حركة السترات الصفراء، مع توريث الآخر في المسؤولية. بحيث إنه يعترف بمشروعية الغضب، ويقر بعدالته، ويؤمن بالقدرة على تحسين الأوضاع، ويبرئ ذمته من الإجراءات الضريبية القديمة. كل ذلك مع أن ما قبل حرف الاستدراك (لكن) كان إما إدانة أو استجابة أو تعليلاً. فكان تقديم الذات إيجاباً في خضم سياق مسرح ومأزق اجتماعي للدولة الفرنسية. أما في (50)، فإنه يقرب الإصلاح والتصحيح بالمشروع الانتقال الطاقى، ويمكن القول هنا: إن الرئيس الفرنسي يداهم ويغازل الشعب ولكنه ما يزال يناور من أجل تلميع صورته وإنجاح مخططه الأول.

4. القيمة الأيديولوجية للألفاظ

1.4. تجسيد الألفاظ للأيديولوجيا:

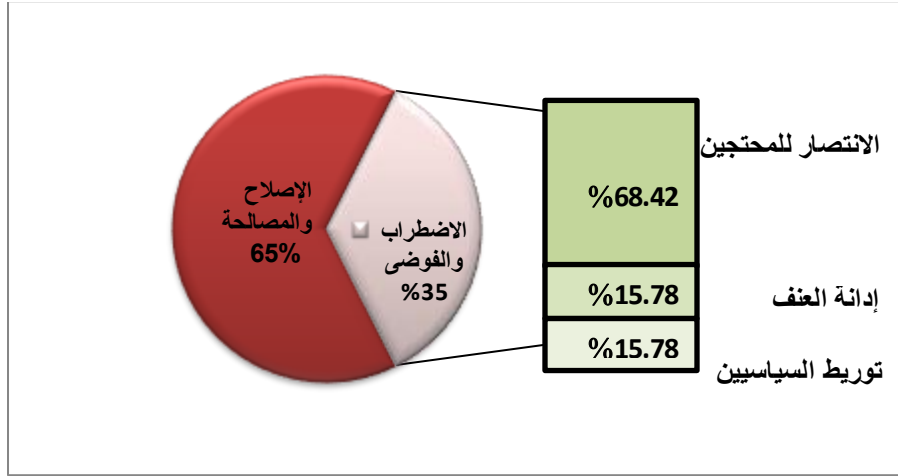
تتنازع في الخطاب الثاني دالتان كبيرتان هما: التعليق على الاضطراب والفوضى التي أحدثها المحتجون في شوارع المدن الفرنسية، ثم طمأنة الجماهير المحتجة بعزم الجمهورية على الإصلاح والدعوة إلى المصالحة. وبذلك فإن الألفاظ ذات الحمولة المعبرة عن موقف الرئيس الفرنسي قد توزعت في هاتين الخانتين المعجميتين: خانة الألفاظ الدالة على الاضطراب

والفوضى، وخانة الألفاظ الدالة على الإصلاح والمصالحة. ويحصر الجدول أدناه هذه الألفاظ مصنفة حسب الدالتين المذكورتين:

ألفاظ الاضطراب والفوضى	ألفاظ الإصلاح والمصالحة
القلق*4، الغضب*8، تضليل، زعزعة*2، الاضطراب، الفوضى، الهجوم، الضرر، الخلافات، يندلع، العنف*3، تتوقف، مخاوف، يخاف، محتته، السخط*2، غير مقبول*2، المحنة، هشاشة، جبن، منسيين، مطموسين، تنقلص، تخنقي، الضيق، انعدام الإصغاء، انعدام الارتياح، المعطلة، الحواجز، المسافات، النفاق، السيئة، تنقسم، الخراب، بطء شديد، عانوا، لم يكن عادلا، ضعفت، ستضعفنا، غير المبررة، التهرب، أزمات.	المشروعة، الصادق*2، الحرية*2، الهدوء، النظام، صرامة، إزالتها، أعمق، عادل*2، تحسين*2، الأمل، يساعدون، الأعراف، استجاب، فرصتنا، سنفل، استجابة، المسؤولية، أو من*2، أحبه، عيش أفضل، التدريب*2، استشعار، توحد، جاهدت، الاعتراف، النساء الشجاعا، الاستثمار، شرعيتي، الالتزامات، جزء ثمين، سنلغي، بدون ضرائب، الصداقة، أشعر، المصالحة، الالتزام*2، الضرورة، نبي، الجدارة، نتحمل، التغيير، مراعاة، بساطة، تحولات، بسيطة، سنستجيب، إجراءات قوية، الأفضل، الحر*2، كرامة، سيرتفع، المقبولة، على الفور، مكافأة*2، تميز، مساعدة الأمة، النجاح، خلق وظائف، يتحاور، روابط، صلات، النقاش*4، التغييرات، مشتركاً، يسمح، الحلول، المشورة، عدالة*2، تستجيب، نجمع، تخفيضات، طموح، إصلاح، إعانات، إنصاف*2، وضوح، تكافئ، تنجح، نعالج*2، السماح، كفاءة، اتفاق، الحي، الحوار، الاحترام، بناء، سننجح.

جدول رقم(09): الألفاظ الدالة على الاضطراب والفوضى، والدالة على الإصلاح والمصالحة

يعرض الجدول رقم(09) 162 من الألفاظ الواردة في الخطاب الثاني في منطوقات يعبر فيها الرئيس الفرنسي عن موقفه من أشكال العنف واستعداده للإصلاح والتصالح مع المحتجين. ويبدو أن الألفاظ الدالة على الإصلاح والمصالحة(65%) قد هيمنت بشكل كبير مقارنة مع الألفاظ الدالة على الاضطراب والفوضى(35%). كما أن الألفاظ السبعة والخمسين الدالة على الاضطراب والفوضى قد توزعت إلى ثلاث دلالات فرعية: 39 لفظا يعبر عن انتصاره للمحتجين، وتسعة ألفاظ تعبر عن إدانة العنف، وتسعة ألفاظ أخرى تعبر عن توريطه للسياسيين السابقين له في المسؤولية. ولتوضيح أكثر، يُنظر الشكل أدناه:



شكل رقم(24): نسب الألفاظ الدالة على الإصلاح والمصالحة وتوزيع الدلالات الفرعية لألفاظ الاضطراب والفوضى

من خلال هذه القراءة الوصفية لمجموع الألفاظ الواردة في المنطوقات المعبرة عن موقف الرئيس الفرنسي، وتوزيعها بحسب الدلالات الفرعية، يظهر أن هدفه الأساس الذي ركز عليه هو تجسير الهوة التي باتت تفصل بينه وبين محتجي السترات الصفراء، لاسيما بعد خطابه الأول الذي تجاهلهم فيه وكال لهم كثيرا من التعليقات المسيئة على حد تعبيره.

وحتى في الألفاظ الواردة في سياقات إدانته للعنف والفوضى والاضطراب، لم تكن كلها منتقدة للمحتجين لائمة لهم، فبحسب الشكل رقم(24) يظهر أن 68.42% منها كانت تنتصر لهم وتقدم مظاهر العنف على نحو مهادن ومخفف للآثار السلبية، وهي: (القلق×4، الغضب×8، الخلافات، مخاوف، يخاف، محنته، السخط×2، المحنة، هشاشة، منسيين، مطموسين، تتقلص، تختفي، الضيق، انعدام الإصغاء، انعدام الارتياح، المعطلة، الحواجز، المسافات، السيئة، بطء شديد، عانوا، لم يكن عادلا، ضعفت، ستضعفنا، الاضطراب، تتوقف، أزمت).

تنطق هذه الألفاظ مجتمعةً بدلالة التماس العذر، وتبرير العنف أكثر مما تدينه؛ ذلك لأنها كلها - وإن كانت تتدرج ضمن خانة الفوضى والاضطراب- تعزو العنف إلى عوامل يُظهرها المتكلم شبه منطقية. من ذلك مثلا هشاشة الفئات المحتجة، والقلق الذي تشعر به، والمخاوف والشعور بالضيق، وغير ذلك. إن الاضطراب الذي تعبر عنه هذه الألفاظ المنتصرة للمحتجين هو اضطراب وضعيتهم الاجتماعية والاقتصادية التي تبرر الأعمال العنيفة التي

وقَّعوا عليها، ولا تعني أنه يعبر عن استيائه مما أحدثوه من اضطراب للنظام العام الذي عاشته الدولة خلال عدة أسابيع.

أما الدلالة الفرعية الثانية في خانة الاضطراب والفوضى، فإنها قائمة على تسعة ألفاظ تمثل نسبة (15.78%) منها، وهي: (تضليل، زعزعة×2، الفوضى، جبن، النفاق، تنقسم، الخراب، التهرب). وهي ألفاظ صريحة في تعبيرها على الاضطراب والفوضى والعنف والانتهازية، خصوصا بمقارنتها مع الألفاظ الدالة على الانتصار للمحتجين، فالأولى مخففة وساكنة على الأضرار، والثانية تكتسي طابع الاتهام والإدانة والتجريم.

وبالانتقال إلى الدلالة الفرعية الثالثة، يتضح أنها تسعة كذلك وتمثل نسبة (15.78%) من مجموع ألفاظ خانة الاضطراب والفوضى أيضا؛ وهي: (الهجوم، الضرر، يندلع، العنف×3، غير مقبول×2، غير المبررة). والملاحظ أن هذه الألفاظ بدورها صريحة من حيث الإدانة، بحيث إنها تأتي في سياق الحديث عما أحدثه المحتجون من عنف في الشوارع الفرنسية. إلا أن تفسير هذا المعطى يحتاج إلى استحضار الضمير المحال به إلى من وُجّهت إليهم هذه الألفاظ المُدنية، وهو ضمير الجمع الغائب (هم: ils) الذي ليس له أي مفسر قبله كما أشير إلى ذلك في الفقرة (1.2). حذف مفسر الضمير الفاعل؛ بحيث إن هذه الإدانة بنسبة (15.78%) من الألفاظ الدالة على الاضطراب لم يُعلم إلى من وُجّهت، نظرا لغياب مفسر ضمير الجمع الغائب.

استنادا إلى هذه المعطيات، يمكن استخلاص أن توزيع الألفاظ في الخطاب المدروس لم يكن اعتباطيا ولا عشوائيا، وإنما كان خاضعا لمقصد المتكلم. وما المقصد إلا خلفيته الأيديولوجية، أي إنه أكثر من الألفاظ التي تدعو إلى المصالحة وتعد بالإصلاح، وقلل من الألفاظ الدالة على الاضطراب، وخص النسبة العظمى منها لتبرير عنف السترات الصفراء، وجزءا منها لإدانة أسلافه السياسيين لغرض أيديولوجي هو: استرجاع العلاقة الجيدة مع المحتجين، وتلميع صورته الاجتماعية في المجتمع الفرنسي، ثم تحميل كامل المسؤولية لغيره، وخصوصا منافسيه السياسيين الحاليين، وسابقه خلال أربعين سنة مضت.

إن الألفاظ على هذا النحو، وإن كانت قراءتها تقتطعها دون مراعاة تضامها التركيبي، تبني طاقة دلالية ترسخ الفعل الأيديولوجي، وتوزَّع بحسب مواقف الخطيب من الفاعلين الاجتماعيين الذين هم أطراف في الممارسة الاجتماعية، وترسم ملامح علاقاته مع كل فاعل اجتماعي بحسب نواياه ومقاصده الخاصة.

2.4. تعديل المواقف بالأوصاف:

أشيرَ في بداية الفصل الأول من هذا الباب إلى الفاعلين الاجتماعيين الممثلين في الخطاب الثاني والحاضرين في الممارسة الاجتماعية التي يتجه إليها، وهم أربعة: متظاهرو السترات الصفراء، والرئيس الفرنسي، وحكومة الجمهورية الفرنسية، والسياسيين المنافسين للرئيس الحالي. والهدف في هذه الفقرة هو بيان التمثيل الأيديولوجي والسلطوي لمواقف الخطيب من كل هؤلاء الفاعلين من خلال الاستخدام اللغوي، وخصوصا أسلوب الوصف.

إن للوصف دلالات جزئية متناثرة في مجموع الخطاب، ولكنها تجسد مجتمعة مواقف صريحة؛ فبالأوصاف المتعددة تطفو إلى السطح الدلالات الفعلية التي يقصدها الخطيب، وهي التي لا تظهر بتباعد الأوصاف وانتشارها على صعيد مقاطع الخطاب المتتالية. لذلك، ستحاول هذه الفقرة أن تجيب عن أسئلة من قبيل: كيف يُوصف الفاعلون الاجتماعيون في الخطاب؟ وكيف تُوصف أفعالهم أو مطالبهم أو وجهات نظرهم؟ ما القيمة الدلالية للوصف؟ وما مظاهر الأيديولوجيا في اختلاف نمط الوصف بحسب كل فاعل؟

تهتدي الإجابة عن هذه الأسئلة برصد أبرز الأوصاف التي أُطلقت على الفاعلين الاجتماعيين الأربعة المذكورين، أو على كل ما يخصهم. لذلك، سيُستهل التحليل هنا بالتركيز على الأوصاف التي حُصَّ بها الفاعل الاجتماعي الأول، أي متظاهري السترات الصفراء. ومن خلال التأمل في طبيعتها ودلالاتها، يتضح أنها تنقسم إلى صنفين: صنف أول يعبر عموما عن اعتراف الرئيس الفرنسي بالأزمة التي يعيشها المتظاهرون، وصنف ثانٍ يعبر عن استعداده لتحقيق ما يستحقونه. ولمزيد من التفصيل يُنظر الجدول رقم (10):

الفاعل الاجتماعي I: متظاهرو السترات الصفراء	
الاعتراف بأزماته	ما يستحقه
قلقا عميقا، المطالب المشروعة، الغضب الصادق، هذا الغضب أعمق، الزوجين الأجيرين، الأم العازبة الأرملة أو المطلقة، النساء الشجاعات، المتقاعدین المتواضعين، الأشخاص ذوي الإعاقات، الضيق الديموقراطي، العولمة المعطلة، الحياة السيئة، غضب الأكثر هشاشة، منسيين مطموسين، بطء شديد، جزء ثمين من أمتنا، أزمتا مماثلة، لحظة تاريخية، النبض الحي.	أفضل مدرسة، العيش الحر، التدريب غير المسبوق، العمل الإضافي المقبول، دخلا إضافيا، عدالة بسيطة، تخفيضات ضريبية أسرع، قواعد أكثر إنصافا وبساطة ووضوحا، مواطننا حرا، تحسينا حقيقيا، حياة أفضل، إصلاح عميق، بشكل أفضل، قانون انتخابي أكثر إنصافا، الحلول الصحيحة، فكرة صحيحة، التغييرات العميقة، المسار الطبيعي،

جدول رقم (10): أوصاف المحتجين في الخطاب الثاني

يتأرجح وصف الفاعل الاجتماعي الأول (متظاهرو السترات الصفراء) بين الاعتراف بالأزمة التي يعيشونها والأوضاع العادلة التي ينبغي أن يحظو بها ويستحقونها. فأما الاعتراف فتحققه أوصاف تبريرية للغضب والعنف والقلق والفقر، وتشخيص صادق وواقعي لأحوال بعض الفئات كالمقاعدنين، والأجراء، وذوي الاحتياجات الخاصة، والأرامل، والمطلقات. وتبدو القيمة الدلالية لهذه الأوصاف من خلال حملتها التي تتم عن تعاطف ومساندة صريحين، من قبيل: العمق، والمشروعية، والصدق، والشجاعة، والتواضع، والتعطيل، والحيوية، والنسيان، والطمس، والهشاشة، والقيمة الثمينة.

أما الأوصاف المحيلة إلى الوضع الأحسن الذي يستحقه المتظاهرون، فكلها تنحو في اتجاه الاستمالة، ومن قبيل ذلك: الأفضلية، والحرية، والسبق، والإنصاف، والوضوح، والحقيقة، والأحقية، والصحة، والعمق. وفي كلتا الحالتين، فقد وصف الخطيب الفاعل الاجتماعي الأول إيجابيا تفضيلا، بحيث إن الأوصاف كانت إما تشخيصا صريحا من حاكم البلاد لما دفعهم للاحتجاج، وإما استهواءً للمتظاهرين بمزايا مستقبلية. لقد وظف الخطيب الوصف على هاتين الشاكلتين لتحقيق غرضين اثنين: إظهار تعاطفه مع المتظاهرين، ثم استمالتهم بتحقيق ما يستهويهم في المستقبل، فأظهر الوصف هذه الوعود بأنها حقوق مغيبة وليست مجرد مقابل لإيقاف الاحتجاجات.

أما بخصوص الفاعل الاجتماعي الثاني، أي الرئيس الفرنسي الحالي وصاحب الخطاب المدروس، فإن الأوصاف التي أطلقها على نفسه أو على أفعاله تبدو قليلة كما توضح الخانة الأولى من الجدول أسفله:

الفاعل الاجتماعي 2: الرئيس الفرنسي	الفاعل الاجتماعي 3: حكومة الجمهورية	الفاعل الاجتماعي 4: المنافسين السياسيين
مركتي الوحيدة، همي الوحيد، معركتنا الوحيدة، أنتحل بسرعة ويشكل لموس، أعطيت أكثر التعليمات صرامة.	استجابة سريعة وقوية، إجراءات قوية، مشروعنا الجماعي، ديننا البيئي، الأسئلة الأساسية للأمة، هويتها العميقة، تفكيرا عميقا ومشتركا، نقاشا غير مسبوق، عقد أمتنا الجديد، تحكم أفضل في الإنفاق.	سلسلة غير مبررة من العنف، السياسيين غير المسؤولين، السلوك غير المقبول، الانتهازيين، المزايا غير المبررة، التهرب الضريبي.

جدول رقم (11): أوصاف الفاعلين الاجتماعيين (2-3-4) في الخطاب الثاني

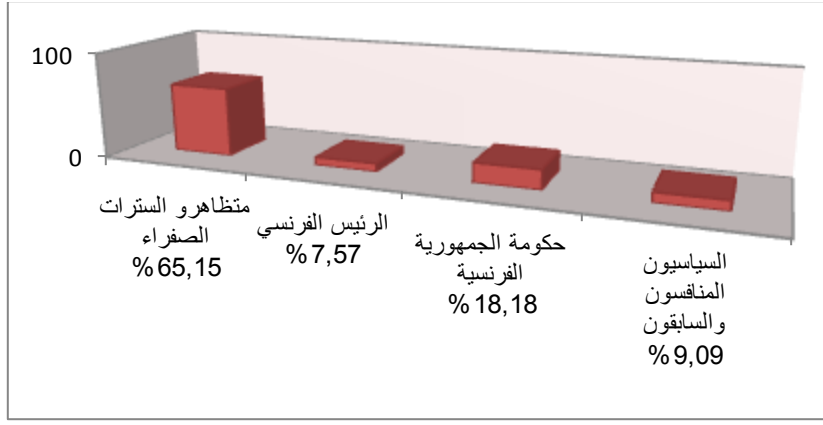
إن الأوصاف القليلة المسندة إلى الخطيب تعلن -على قلتها- استعداده لتلبية مطالب المحتجين وتضامنه معهم وقيامه لقضاء مصالحهم. فبالنظر إلى الخانة الأولى من الجدول رقم(11)، يظهر أنه يعلن نفسه محاربا من أجل صالح متظاهري السترات الصفراء بعد أن تحادهم ورفض مطالبهم في الخطاب الأول، فوصف ما يعدم بتحقيقه بمعركته الوحيدة، بل عدها معركته ومعركتهم الوحيدة، وأنهم هم همّة الوحيد؛ بمعنى أن ما يتظاهرون من أجله هو أيضا يستमित في تحقيقه. وفي ذلك إشارة ضمنية إلى أنه سيقف في صفهم ضد من أوصلوهم إلى هذا الوضع المزري، محاولةً منه لتصحيح اتهاماتهم ومواقفهم اتجاهه.

بالإضافة إلى ذلك، وصف تدخله بالملموس، ووصف التعليمات التي قدمها لصالحهم بالصارمة. هكذا تلتقي أوصاف الوحدة والملموس والصرامة لتظهر الخطيب قائدا منقذا ومنصاعا ومتفقا، وهذا في حد ذاته ينأى به عن كل السب والشتائم والقذح الذي كالموه له بعيد إلقائه للخطاب الأول، ويقدمه للعلن بوصفه داعما للاحتجاجات.

بالانتقال إلى الخانة الثانية من الجدول رقم(11)، يتضح أن الأوصاف المسندة إلى الفاعل الاجتماعي الثالث، أي حكومة الجمهورية الفرنسية، هي أيضا تعبر عن الدعم والاستجابة والجدية في التعامل مع مطالب المحتجين؛ إذ إنه وصف الاستجابة نفسها والقرارات والإجراءات بالسرعة والقوة والعمق والأفضلية، وأظهر الحكومة مستعدة للعمل الجماعي والتشاركي باحترام آراء السترات الصفراء.

أما الخانة الثالثة، فتضم أوصافا قذحية مقرّعة؛ بحيث وصف المنافسين السياسيين بالانتهازية وانعدام المسؤولية، ووصف سلوكهم بغير المقبول، ووصف العنف الذي ادعى أنهم شجعوا عليه بانعدام المبررات. فيظهر إذن أن الفاعل الاجتماعي الوحيد الذي نال أوصافا سلبية هو السياسيون المنافسون والسابقون؛ ولا غرابة في ذلك إذا كان يبذل قصارى الجهد لإصاق تهمة الغضب الشعبي وهشاشة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بهم.

يتأكد معطى انخراط الوصف في خدمة المقاصد الأيديولوجية للخطيب من خلال إجراء مقارنة بين عدد الأوصاف الإيجابية والأوصاف السلبية، أو بالأحرى بين الأوصاف المسندة إلى الفاعلين الاجتماعيين الثلاثة الأوائل من جهة والفاعل الاجتماعي الرابع من جهة أخرى، ذلك ما يوضحه الشكل رقم(25) أدناه:



شكل رقم (25): توزيع الأوصاف على الفاعلين الاجتماعيين في الخطاب الأول

يُظهر الرسم البياني أن الأوصاف المسندة إلى الفاعل الاجتماعي الأول بلغت (65.15%)، و (7.57%) بالنسبة إلى الفاعل الاجتماعي الثاني، و (18.18%) للفاعل الاجتماعي الثالث؛ بينما بلغت نسبة الأوصاف المسندة للفاعل الاجتماعي الرابع (9.09%). مما يعني أن الأوصاف الإيجابية (أي التي أُسندت للفاعلين الاجتماعيين الأول والثاني والثالث) قد بلغت نسبة (90.09%)، في حين أن نسبة الأوصاف السلبية لم تتعد (9.09%)، ولكنها كلها مسندة إلى منافسي الخطيب وأسلافه السياسيين؛ وفي ذلك أبلغ دليل على أن الوصف قام لأجل هدفين أيديولوجيين: توجيه موقف المتظاهرين المندد إلى منافسي الخطيب، ثم هدم صورته السلبية وإعادة بناء صورة مغايرة إيجابية.

3.4. التلطيف اللغوي:

عُرف الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون منذ تنصيبه رئيساً للجمهورية الفرنسية بخطاباته ذات الطابع الصارم والنبرة الحادة لفظاً ومعنى؛ وخير دليل على ذلك خطابه الأول خلال أزمة السترات الصفراء، إذ تضمن عبارات أكثر شدة وتحدياً، من قبيل (سأقول لكم وسأكون واضحاً، لن أكون ضعيفاً أمام أولئك الذين يتلاعبون ويضفون الطابع المؤسسي أو بشكل من الأشكال يبحثون عن العنف / بالنسبة لمن يعتقد أن إجراء واحداً أو خطاباً واحداً يحل المشكل، هذا خطأ. أنا لا أؤمن بذلك وهذا أمر مستحيل..)¹. كما وظف ألفاظاً جريئة في إحالته إلى أفعال المحتجين، مثل (التخريب، المخربين، الحاققات، الحاقدون، تسمم، هذه السموم..)².

1 رابط الخطاب الأول للرئيس الفرنسي ماكرون خلال أزمة السترات الصفراء على اليوتيوب، آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05 <https://youtu.be/cX1vk5pws1g>

2 المرجع السابق.

بيد أن الخطاب الثاني لم يشهد أمثال هذه الألفاظ المقرعة، والعبارات التي تتجاوز مطالب المتظاهرين وتتحداهم. وإنما نهج الخطيب أسلوباً لغوياً جديداً غير معهود في جل خطاباته السابقة، وهو **التلطيف اللغوي**. ومعنى التلطيف اللغوي أن المتكلم، وإن أراد أن يعبر عن معانٍ ذات قسوة وتحذٍ وتجاوزٍ بنبرة شديدة أو مُدنية، فإنه يعوض ما يفيدها من العبارات والألفاظ بأخرى أقل صرامة، وأكثر تودداً، أو على الأقل محايدة. وأسلوب التلطيف اللغوي رائج في الخطابات السياسية والإعلامية بحسب علاقة الخطباء بالأطراف المذكورة في الخطابات؛ فمثلاً، قد يُعبر عن الحرب بالنزاع، وعن الهزيمة بالنكبة، وعن القتل بالدفاع عن النفس، وعن الدمار الشامل بالخسائر المادية، وعن القمع بالنظام العام.

في الخطاب الثاني للرئيس الفرنسي، يحضر التلطيف اللغوي في مواضع عديدة، منها ستة تبدو نماذج كافية وكفيلة ببيان التلاعب والهيمنة الخطابية بالاستخدام اللساني، وهي:

(1/51) الغضب والسخط (51/ب) أثارت الأحداث (51/ج) الضيق الديمقراطي
(51/د) انعدام الارتياح (51/هـ) انعدام الإصغاء (51-و) المسافات والحواجز

بالنسبة إلى المثال (1/51)، يأتي اللفظان (غضب/سخط) بدليلين اللفظي (التخريب) و(العنف)؛ بيان ذلك أن لفظ العنف ظهر ثلاث مرات في الخطاب بأكمله، وتحديدًا مرتين في المقطع الأول ومرة في المقطع الثالث، ولا حضور له في باقي المقاطع. ولعل الغاية الخفية من استخدامه إلى حدود المقطع الثالث، تكمن في أن المقاطع الثلاثة الأولى -كما أشير إلى ذلك سابقاً- تضمنت حديثاً عن أشكال العنف دون الإحالة الصريحة إلى مسببها بانعدام مفسر الضمير في الجملة (مزجوا المطالب المشروعة بسلسلة غير مقبولة من العنف)، ثم لأن الخطيب قد وجه تهمة صريحة لمن سماهم بالسياسيين غير المسؤولين والانتهازيين (لقد رأينا جميعاً لعبة الانتهازيين/ لقد رأينا جميعاً السياسيين غير المسؤولين).

معنى ذلك أن الخطيب وهو يتحدث عن العنف ويوظف اللفظ الدال عليه بوضوح، ينزه الجمهور من جهة، ولا يتحاشى اتهام السياسيين بإثارته. أما بعد المقاطع الثلاثة الأولى، فقد باشر مخاطبة المتظاهرين بصريح العبارة، أو بضمائر تحيل إليهم. لذلك، فقد استعاض عن توظيف لفظ العنف بلفظين آخرين هما الغضب والسخط؛ تيسير ذلك أن الغضب والسخط ليسا جرمين، أما العنف فجرم يعاقب عليه القانون، ولكن الخطيب يشير بهذين اللفظين إلى العنف تحديداً، ولكنه ضمناً. إلا أنها إشارة ملطّفة وخفيفة الوقع.

في المثال(51/ب) الوارد في المقطع الأول، استبدل الخطيب لفظ(الأحداث) بلفظ آخر هو المظاهرات أو الاحتجاجات. فقوله(الأحداث) في حد ذاته قصدٌ منه لئلا يسمي ما وقع بما يسميه المتظاهرون والإعلاميون؛ إذ إن تسميته بالمظاهرات والاحتجاجات يُسقط غايته الكبرى التي هي توجيه الحراك ضد غيره من السياسيين. والدليل على ذلك أنه في المقطع ذاته قد أشار إلى الأحداث بأنها مزج للمطالب المشروعة بالعنف، فحتى هنا لم يسمِّ الاحتجاجات وإنما جمع بين المطالب المشروعة والعنف لتتنفي صفة الاحتجاج وتتجاوزها إلى صفة التعنيف.

إن مظهر التلطيف اللغوي هنا هو إطلاق لفظ الأحداث لإخراج ذات الخطيب من زمرة المحتج والمتظاهر ضدهم حسب استراتيجيته الخطابية الرامية إلى تبرئة نفسه، ونزوع إلى وصف المظاهرات بلفظ محايد لا يحمل دلالة المواجهة المباشرة مع الرئيس الفرنسي؛ فالأحداث أحداث، وإن كانت على أرض الواقع احتجاجا وعنفا، فإنها على صعيد الخطاب تبقى أحداثا. ويمكن تقديم دليل آخر حتى من خطابه الأول، إذ إنه لم يعتمد فيه على التلطيف، بحيث استخدم العبارات التي لطفها في الخطاب الثاني بكلمة الأحداث(حركة احتجاجية، اندلاع مظاهرات، أعمال عنف)؛ ذلك لأنه كان عازما على المواجهة والتجاوز.

ويظهر التلطيف اللغوي بوضوح أكبر في الأمثلة (51/ج/د/ه/و)، فالضيق بديل للظلم، وانعدام الارتياح بديل للعذاب أو الضنك، وانعدام الإصغاء بديل للتهميش والاستبعاد واللامبالاة، والمسافات والحواجز بديلان للتمييز والتفريق واللامساواة. إن هذه البدائل الأربعة تُضعف حدة معاني الألفاظ المستبدلة التي لا يمكن لأي حاكم أن ينطقها معبرا عن وضع أو حالة قائمة على الأرض التي يحكمها؛ بمعنى أنها تلطيف لحقائق قائمة على أرض الواقع بإمكانات اللغة.

يمكن استشعار مدى خطورة الألفاظ المستبدلة باستحضارها في السياقات الكلامية التي وردت فيها بدائلها على هذا النحو:

(52/أ) الشعور بالضيق الديمقراطي الذي يتطور فيه الشعور بانعدام الإصغاء؛ انعدام

الارتياح في مواجهة التغيرات في مجتمعنا، وفي مواجهة العلمانية المعطلة وأنماط الحياة التي تخلق الحواجز والمسافة.

(52/ب) الشعور بالظلم الديمقراطي الذي يتطور فيه الشعور بالتهميش؛ العذاب في

مواجهة التغيرات في مجتمعنا، وفي مواجهة العلمانية المعطلة وأنماط الحياة التي تخلق التمييز واللامساواة.

لقد ارتفع منسوب الحدة والتهويل في التعبير عما يشعر به متظاهرو السترات الصفراء من خلال إدراج الألفاظ المستبدلة في (52/ب) أو باقي مرادفاتها، وانتفى التلطيف الذي خدمته بدائلها في (52/أ). فالظلم والتهميش والعذاب والتمييز واللامساواة كلها ألفاظ تشخص الوضع الحقيقي على الأراضي الفرنسية، ولكن الرئيس الفرنسي استعاض عنها بالضيق وانعدام الإصغاء وانعدام الارتياح والحواجز والمسافات ليخفف من هذا الوقع المقرع خطابيا. ومنه، فإن وظيفة التلطيف اللغوي الخطابية هنا هي تكسير حدة الأوضاع المزرية التي دفعت المتظاهرين إلى الاحتجاج، مع الحرص على الاعتراف بها تخفيفا ومهادنة. وتلك وظيفة سلطوية خطابية تقوم على التلاعب بالألفاظ، ووقاية ذات الخطيب مع إشعار المتلقي بالمساندة والدعم والتضامن.

الفصل الثالث

الهيمنة الخطابية بالتداول والتفاعل والتنغيم

تمهيد

1. الهيمنة بالاستدلال والفعل اللغوي

2. مظاهر سلطة التفاعل

3. تأثير التنغيم الصوتي

الخلاصة الاجتماعية للنقد اللساني الحجاجي

تمهيد:

يركز هذا الفصل على فضح الهيمنة على الممارسة الاجتماعية من خلال ثلاثة مداخل: الأول هو المدخل التداولي بالتركيز على الاستدلال والفعل اللغوي، والثاني هو مدخل الأداء التفاعلي من خلال التحكم في الموضوعات والإيماءات، والمدخل الثالث صوتي تطريزي بالتركيز على التنعيم. وإن الهدف الأساس -كما هو الحال في الفصل السابق- هو إبراز قدرة المعالم الشكلية (التداولية والتفاعلية والصوتية) على تحقيق أطماع السلطة الخطابية.

تجدر الإشارة إلى أن مسألة المقارنة بين الخطاب الثاني (بوصفه متنا رئيساً) بالخطاب الأول باتت مطلباً ملحا في هذا الفصل، لأن الخطابين معا يتجهان إلى الممارسة الاجتماعية نفسها، والخطيب فيهما واحد، والموضوع واحد مع فرق دقيق سيأتي الحديث عنه. لذا، فإن البحث سيستدعي نماذج للمقارنة من الخطاب الأول كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

1. الهيمنة بالاستدلال والفعل اللغوي

1.1. الهيمنة بالاستدلال:

ثبت في ما تقدم من التحليل في الفصل السابق أن الرئيس الفرنسي في خطابه الثاني قد سعى إلى غايات أيديولوجية استنادا إلى سلطة الاختيارات اللسانية، وهنا في هذه الفقرة مظهر آخر لهذا النهج، ولكن هذه المرة من خلال ما يقدمه الاستدلال من إمكانات إقناعية. وفي خطابه المدروس، تحضر ثلاثة نماذج استدلالية هي:

(1/53) هذا الغضب أعمق وأشعر أنه عادل من نواحٍ كثيرة.. إنه غضب الزوجين الأجيرين..

إنه غضب الأم العازبة، الأرملة والمطلقة.. إنه غضب المتقاعدين المتواضعين.. إنه غضب الأكثر هشاشة، الأشخاص ذوي الإعاقة..

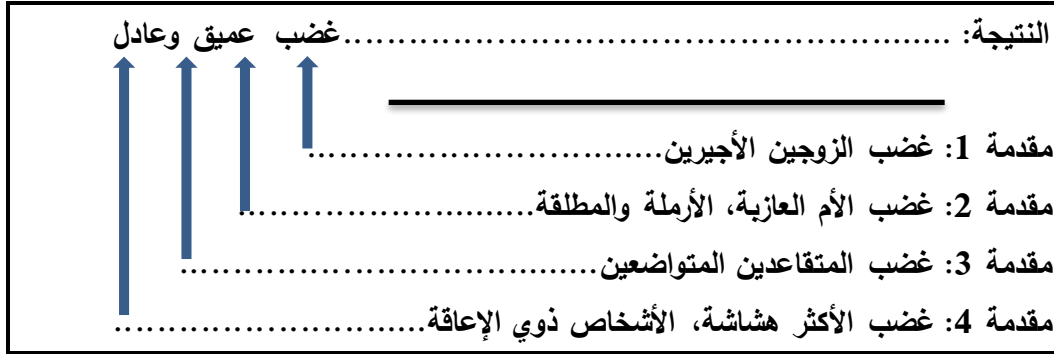
(53/ب) الشعب الذي ينقسم إلى هذا الحد والذي لم يعد يحترم قوانينه والصدقة التي يجب أن توحدته هو شعب يركض إلى الخراب.

(53/ج) همي الوحيد أنتم، معركتي الوحيدة من أجلكم، معركتنا الوحيدة من أجل فرنسا.

ظهر في ما سبق أن الخطيب لم يتجرأ على نعت أفعال المتظاهرين بالعنف، وحتى في المواضع القليلة جدا (المقطع الأول والثالث) التي ذكر فيها لفظ العنف، فإنه لم ينسبه إليهم، وإنما ظل ضمير الجمع الغائب من غير تفسير قبلي أو بعدي، كما أنه أحال بشكل مباشر إلى منافسيه وأسلافه السياسيين. وفي المثال (1/53)، مظهر جديد من مظاهر نفي العنف عن

السترات الصفراء، ليس تزويرا للحقيقة الواقعية، وإنما هو تبرير مقصود لما أقدموا عليه من رئيس البلاد نفسه.

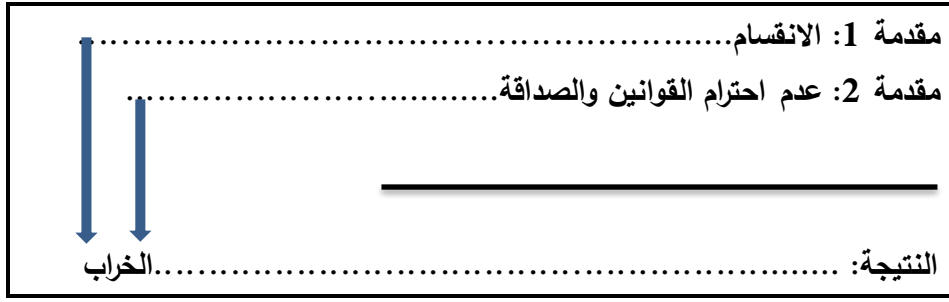
يجد القارئ لهذا المثال حكما أصدره الرئيس الفرنسي عن العنف المرتكب، بأنه غضب عميق وعادل؛ غير أنه لم يكتفِ بذلك، بل استمر في تقديم نماذج للغضب ممثلة لأكثر الفئات الشعبية تضررا. لذلك، يأتي حكم (غضب عميق وعادل) نتيجة، وأوجهه الأربعة المذكورة بعده مقدمات؛ ليكون هذا الاستدلال مقلوبا كما يوضح الشكل الآتي:



شكل رقم(26): الاستدلال في المثال(1/53)

ما السر، إذن، في قلب هذا الاستدلال؟ إن تقديم الخطيب لنتيجة الاستدلال كان اضطرارا، لأن الحكم الذي تتضمنه (غضب عميق وعادل) هو في الأساس تحويل للممارسات العنيفة التي تحدث عنها في المقاطع الثلاثة الأولى، من فعل محرّم ومجرّم إلى فعل ملطّف ومبرّر (غضب). وبعد إيراد النتيجة، فإن المقدمات التي يستدل بها عليها، هي في الحقيقة المضمرّة استدلالا لتبرير العنف الملطّف؛ معنى ذلك أنه أثر إسقاط المعنى المحرم للعنف أولا، ثم تبريره بمقدمات بعد أن بات معنى ملطفاً ثانياً.

من غايات الخطيب كذلك في خطابه الثاني، أنه يستमित في محاولة ثني المحتجين عن مواصلة الاحتجاجات. وفي هذا الخطاب استدلال آخر يتوخى الهيمنة الإدراكية والعاطفية على الجمهور، وهو الوارد في المثال(53/ب). لقد أورد الرئيس الفرنسي في هذا المثال مقدمتين اثنتين: الانقسام، ثم عدم احترام القوانين والصدّاقة؛ بعد ذلك خلص إلى نتيجة هي: الخراب. ويمكن تبسيط هذا الاستدلال في هذا الشكل:



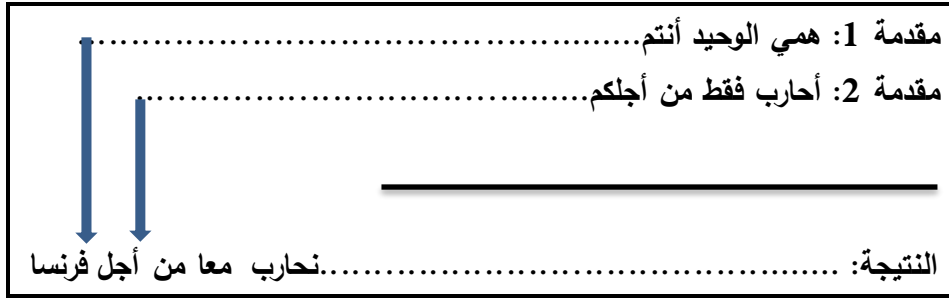
شكل رقم(27): الاستدلال في المثال(53/ب)

أولاً، وفي المقدمة الأولى، إن حديثه عن الانقسام يوحي بأن المحتجين لا يمثلون الشعب الفرنسي كله، وكما أن هناك محتجين فهناك آخرون لا يشاطرونهم توجههم وأفعالهم. ثانياً، وفي المقدمة الثانية، إحالة إلى مخالفة المحتجين لأحد مبادئ الجمهورية الفرنسية المتمثل في الأخوة بقوله (عدم احترام الصدقة). إن هاتين المقدمتين تبدوان أكثر عبارات الرئيس الفرنسي جرأة في خطابه الثاني حول احتجاجات السترات الصفراء، ولعل ما يبررها هو أنه يهدف في هذا الموضوع إلى التهويل والتخويف من خاتمة مسار المظاهرات، أي الخراب. وقد ربط بين المقدمتين والنتيجة بالفعل (يركض)، والذي يفيد السرعة في التحرك نحو الهلاك.

ومنه، فإن هذا الاستدلال الثاني يهدف إلى زعزعة عواطف المحتجين، وتهويل النتائج الاجتماعية المرشحة، وإشعارهم بقدر من الخوف. وهذا في حد ذاته ما يمكن تسميته بالهيمنة الإدراكية والعاطفية من خلال سلطة الخيار اللساني، وخصوصاً الاستدلال اللغوي، وهذا حجاج مقدماته ونتيجته ظاهرة ومضمرة في الآن نفسه، لأن: "الحجج والنتائج في الخطاب الطبيعي: قد تكون ظاهرة أو مضمرة"¹ كما يرى أبو بكر العزاوي.

هناك استدلال آخر في آخر مقطع للرئيس الفرنسي في خطابه الثاني، وهو ما يتضمنه المثال (53/ج). وفيه يستمر في تحريك الجانب الوجداني للمحتجين، ولكن هذه المرة ليس من باب التهويل والتخويف، وإنما من باب إحياء الحس الوطني، والاقتران بأن الرئيس جاهز لخدمة المحتجين وتحقيق مطالبهم. فبالنظر إلى هذا المثال، فإنه بُني على مقدمتين: همي الوحيد أنتم، ثم معركتي الوحيدة من أجلكم؛ أما النتيجة فهي: معركتنا الوحيدة من أجل فرنسا. ويمكن توضيحه على هذه الشاكلة:

1 العزاوي، أبو بكر، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2010، ص105.



شكل رقم(28): الاستدلال في المثال(53/ج)

يُلاحظ بداية أن مسار الانتقال من المقدمة الأولى إلى الثانية وحتى إلى النتيجة، هو انتقال من الأصغر إلى ما هو أكبر منه ثم إلى ما هو أكبر منهما معا؛ أي من ذات الخطيب إلى ذات الجماعة (الخطيب والجمهور) إلى ذات الأمة (فرنسا). في هذه النقطة بالذات إقصاء لغير الرئيس من الوزراء والبرلمانيين والنقابيين وعمداء المدن ورؤساء البلديات وكل المنتخبين؛ فالرئيس الفرنسي هنا يلخص فرنسا في ذاتين: ذاته هو وذات المتظاهرين. ولعل ذلك دليل آخر على أن ما يهمه وما يعنيه في ثني المحتجين هو إعادة بناء مكانته الاعتبارية اجتماعيا وشعبيا، خصوصا بعد أن هدمها في خطابه الأول.

الملاحظة الثانية هي أن المعركتين المعلنتين في (53/ج) تجعله من ضمن المحتجين، ولكن على من؟ بالتأكيد من ضمن المحتجين على السياسيين الذين أسماهم بالانتهازيين وغير المسؤولين والسابقين. هنا إذن، ما يزال ينفي عن نفسه تهمة الضلوع في تدهور حياة الفرنسيين، وينزهها من كل فعل ضد مصالحهم.

وعليه، يسهم هذا الاستدلال كذلك في الهيمنة على إدراك الجمهور وعواطفهم، من خلال خلق حيز خطابي يتحد فيه الخطيب مع المحتجين، ما دام قد أسهم خطابه الأول في توسيع الهوية بينهما.

2.1. الهيمنة بالفعل اللغوي غير المباشر:

في الخطاب الثاني للرئيس الفرنسي استفهامان اثنان، يسأل في الأول عن إمكانية عيش الفرنسيين بكرامة من خلال عمله، ويسأل في الثاني عن مستوى العيش خلال الأربعين سنة التي سبقت توليه لرئاسة الجمهورية الفرنسية. السؤالان هما:

(/54) هل نريد فرنسا حيث يمكننا العيش بكرامة من عملنا؟

(54/ب) هل عشنا حياة أفضل خلال هذه الفترة؟

(54/ج) لقد رحل الأغنياء وضعفت بلادنا.

السؤالان معا يطلبان أحد جوابين، إما نعم وإما لا، لأن حرف الاستفهام(هل) يفيد التصديق فقط. كما أن الاستفهام الذي يُجاب عنه إما بالإثبات أو النفي يعد سؤال منع أو حجر¹. إذن، فإما أن يكون الجواب عن الاستفهام في(1/54) بنعم نريد العيش بكرامة أو بلا نحن لا نريد العيش بكرامة. كما أن الجواب عن الاستفهام في(54/ب) إما أن يكون بنعم عشنا أفضل، أو بلا لم نعش أفضل.

لا يمكن تصور وجود مواطن فرنسي واحد يجيب بأنه لا يريد العيش بشكل أفضل من عمله، لذلك فإن الخطيب لا ينتظر أي جواب للاستفهام في(1/54)؛ بل إنه خرج عن دلالة السؤال إلى دلالة الدعوة والإغراء. إن ما يدعو إليه الخطيب من خلال هذا الاستفهام هو أن يتمسك المحتجون بوعوده، وما أغراهم به هو أنه سيمكنهم من عيش كريم من خلال وظائفهم في المستقبل.

ومنه، فإن الاستفهام كان قوة إنجازية حرفية لا يُقصد بها المنطوق الفعلي للخطاب، ولكنه أفاد قوة إنجازية مستلزمة هي المقصودة والمخطّط لها. وبذلك فإن الفعل اللغوي هنا كان غير مباشر، ويطمح بدوره إلى هيمنة إدراكية ووجدانية من خلال الدعوة والإغراء.

أما الاستفهام في المثال(54/ب)، فقد سبق تحليله نوحيا لا تداوليا في المحور المتعلق بالتلاعب بالضمائر، وتحديدًا في الفقرة الخاصة بإحالة ضمير المتكلم إلى الغائب؛ واتضح حينها أن الاستفهام هنا يخرج أيضا عن دلالة السؤال إلى دلالة النفي والإنكار. ويعني هذا أن القوة الإنجازية الحرفية غير مقصودة، بل هي القوة الإنجازية المستلزمة التي تفيد أن الخطيب لا يسأل وإنما ينفي وينكر أن يكون الفرنسيون قد عاشوا بشكل أفضل في الأربعين سنة الماضية، وذلك بدليل الفعل (عاش) المصرف في زمن الماضي.

إن المقصود الفعلي لهذه القوة الإنجازية المستلزمة هي أن يعدل الخطيب تصورات النماذج الإدراكية للمتظاهرين، بحيث إنه يعقد لهم مقارنة بين المرحلة التي عاشوها قبل وصوله للحكم والفترة التي يحتجون فيها، وذلك لغرض واحد هو أن يوصلهم إلى أن من تسبب في

1 يرى الجويني أن السؤال إذا حصر الجواب في اختيارات محدودة متضمنة في السؤال نفسه فإنه تقييد للمُجيب بأن يجيب بأحد هذه الاختيارات. الجويني، الكافية في الجدل، ص: 80. وقد عرف البغدادي سؤال الحجر قائلا: "متى وقع السؤال عن إثبات صفة ونفيها، فهو سؤال حجر، وجوابه جزء منه، وكذلك السؤال عن إثبات أحد الضدين لا واسطة بينهما في الموصوف بهما فجوابه المطابق له جزء منه". أبو منصور البغدادي، عيار النظر في علم الجدل، تحقيق: أحمد محمد عرّوبي، أسفار لنشر نفيس الكتب والرسائل العلمية، ط1، الكويت، 2019، ص: 486.

تعاستهم وفقهم وتدهور أوضاعهم هم صناع القرارات السابقون خلال أربعة عقود وليس هو، والدليل على ذلك هو أنه أُرِدِف الاستفهام في(54/ب) بجواب عنه هو الخبر المؤكد في(54/ج): (لقد رحل الأغنياء وضعفت بلادنا).

إن الخبر المؤكد في(54/ج) نفسه يتجاوز القوة الإنجازية الحرفية التي تفيد الإخبار، إلى قوة إنجازية مستلزمة تفيد النفي؛ بمعنى أن ما نفاه الاستفهام في(54/ب) يزداد نفيًا وإنكارًا في(54/ج)، أي إن الفرنسيين لم يعيشوا بشكل أفضل خلال الأربعين سنة الماضية بسبب السياسيين الذي رحلوا بعد أن أصبحوا أغنياء.

إن الأفعال اللغوية الواردة في مجموعة الأمثلة(54) كلها غير مباشرة، لأنها تتعدى قواها الإنجازية الحرفية لتدل على قواها الإنجازية المستلزمة. بمعنى أن الرئيس الفرنسي يدعو ويغري بالعيش الكريم، وينفيه وينكره عن الفرنسيين قبل مجيئه، ويلصق التهمة بمن سبقه من الساسة. وفي هذه النماذج الثلاثة مظهر صارخ للممارسة السلطوية بالخيار التداولي، وهي تسخير الدلالة المتأرجحة بين الفعل اللغوي المباشر والآخر غير المباشر للهيمنة على الإدراك والعواطف بغية تعديل مواقف الجمهور.

2. مظاهر سلطة التفاعل

1.2. التحكم في الموضوعات:

سبقت الإشارة في الفصل الثالث من الباب الأول إلى أهمية مبادئ التأدب في الخطابة والتخاطب عند العرب، باعتبارها أبرز أعراف التفاعل الخطابي والتخاطبي. وقد بُيِّنَت أيضا المستويات التي يُنْتَقَد فيها الخطباء لعدم التزامهم بهذه المبادئ؛ وهي: حق المناوبة في الكلام، ثم التحكم في الموضوعات، أو ما سماه فان دايك بالسيطرة على الأحداث التواصلية. ونظرا لنمط التفاعل المعتمد في الخطابين الأول والثاني للرئيس الفرنسي، أي الخطبة، فإن البحث لن يُعْنَى بعُرف حق المناوبة؛ ذلك لأن منطق الخطابة يقتضي أن الخطيب يستأثر بالحديث من بدايتها إلى نهايته. وإن كانت منطوقاته إجابات عن أسئلة أو مقاطعات مفترضة قد يستشعرها أو يحتملها لدى الجمهور المخاطب.

لذلك، وحسب نمط الخطابين المذكورين، فإن العرف الممكن مناقشته من مبادئ التأدب هو: التحكم في الموضوعات. وسعيا إلى إظهار التأثير السلطوي للتعامل مع هذا المبدأ عند

الرئيس الفرنسي الحالي، فلابد من مقارنة تقيده بموضوع الخطاب أو تحكمه فيه بتغيير الموضوعات أو إيلاء الأهمية إلى موضوع دون الموضوعات الأخرى، في الخطابين الأول والثاني.

في بداية الخطاب الأول، أعلن الرئيس الفرنسي أنه سيركز على موضوعين اثنين أساسيين، أولهما هو مشروع الانتقال الطاقوي من استخدام المحروقات إلى الطاقات النظيفة، وثانيهما هو أزمة السترات الصفراء. غير أن القراءة الفاحصة لهذا الخطاب، والتميز بين المقاطع الخطابية التي خصصها للموضوعين معاً، اتضح إحصائياً وبجلاء تركيزه المفرط على موضوع الانتقال الطاقوي، مع مناقشات ضئيلة جداً لمسألة السترات الصفراء.

بيان ذلك أن الخطاب الأول ضم حوالي 5942 كلمة، شكلت 4300 كلمة منها مجموع المقاطع والملفوظات التي ناقشت مشروع الانتقال الطاقوي، في حين أن 1642 منها فقط شكلت مجموع الملفوظات المخصصة للرد على متظاهري السترات الصفراء. مما يعني أن الموضوع الأول استأثر بنسبة 74% من مجموع الخطاب الأول، في حين لم ينل الموضوع الثاني سوى نسبة 26% من الاهتمام.

من الأسئلة المطروحة هنا بإلحاح: ما سياق ورود الخطاب الأول؟ ما الحدث الأبرز والأخطر في زمن إلقاء هذا الخطاب؟ ما غاية الرئيس الفرنسي من تخصيص ربع واحد فقط من مضمون خطابه الأول للسترات الصفراء؟ وثلاثة أرباع لمشروع الانتقال الطاقوي؟

أما في خطابه الثاني، فقد حدث العكس، إذ إن المقاطع الخطابية المخصصة لموضوع السترات الصفراء ضمت أزيد من 1700 كلمة، في حين أن مجموع الكلمات التي ضمتها المنطوقات النادرة المتعلقة بموضوع الانتقال الطاقوي لم تتعدّ 40 كلمة. يعني ذلك أن موضوع الاحتجاجات قد شغل نسبة أزيد من 97% من الخطاب، وأن موضوع الطاقة النظيفة شغل فقط نسبة أقل من 3%.

الأسئلة الجديدة التي يجب طرحها في هذا الصدد هي: ما سياق ورود الخطاب الثاني؟ كم من الوقت يفصل بين زمن إلقاء الخطابين معاً؟ ما أسباب هذا التغيير في التركيز على الموضوعات المهمة لفرنسا خلال هذه الفترة؟

من المعلوم أن المدة الفاصلة بين إلقاء الخطابين لا تتعدّى أربعة عشر يوماً، وأن سياق إلقاءها هو ظهور حركة شعبية تتظاهر على الرفع من ضريبة المحروقات وأسعارها. غير أن

الخطاب الأول جاء قبل قيام هذه الحركة بأحداث عنف وتخريب للمؤسسات العمومية والبنائيات والمحلات الخاصة. لكن بعد إلقائه بتاريخ (2021/11/27)، ارتفعت وتيرة الاحتجاجات وازداد عدد المحتجين الفرنسيين وبدأ العنف وظهر حتى الاعتداء على رجال الأمن وعربات الدرك والشرطة.

إن غاية الرئيس الفرنسي من التركيز المفرط على موضوع الانتقال الطاقى في خطابه الأول كانت هي عدم إشعار حركة السترات الصفراء بقلق الدولة وتخوفها من المظاهرات، ونزع الثقة من المحتجين، وإظهار الشخصية القوية للدولة، وإعلان انعدام أية نية للتراجع على الرفع من ضرائب المحروقات وأسعارها. دليل ذلك أن الرئيس الفرنسي لم يكتفِ بتخصيص 26% فقط من خطابه الأول لهذا الموضوع، بل إنه حتى في هذه النسبة الضئيلة لم يتوقف عن المواجهة المباشرة والتجاوز والتأكيد على أحقية الرفع من الأسعار والضرائب على المحروقات. ومن أمثلة ذلك:

(55) "لن أتنازل/ لا ينبغي لنا أن نتنازل عن الوجهة/ وبالإضافة إلى حقيقة هذه الزيادة هناك أمر آخر حدث وهو ارتفاع سعر النفط والبتترول على المستوى العالمي/ لن أكون ضعيفا، هذا الأمر مستحيل/ ضرائبنا ورسومنا هي لقاء شيء معين/ لا نستطيع أن نطلب بطريقة واحدة في اللافتة نفسها والشعار نفسه: خفضوا الضرائب، واخلقوا لنا المزيد من دور الحضارة والمزيد من المدارس والمزيد من الحقوق والمزيد من الخدمات العمومية/ لا ينبغي أن نعلن حالة الطوارئ الاقتصادية والاجتماعية...".

هكذا فإن الخطيب لم يكتفِ بتغليب موضوع الانتقال الطاقى فقط، وإنما حتى المقاطع المحدودة التي تحدث فيها عن مصالح المحتجين كان رافضا لمطالبهم. أضف إلى ذلك أنه لم يخاطبهم في خطابه الأول كاملا بشكل مباشر، وإنما كانت ضمائر الخطاب كلها موجهة إلى السياسيين والنقابيين والبرلمانيين وعمداء المدن ورؤساء البلديات. وبذلك فقد كان خطابه إلى حركة السترات الصفراء غير مباشر، بل أحيانا كان يطلب من هؤلاء الممثلين أن يشرحوا لهم الهدف من الزيادات (يجب أن تشرحوا للمواطنين ما هو المقابل المقدم لقاء أموالهم)؛ علاوة على أنه لم يخصص للاحتجاجات جزءا متصلا يكون فيه الكلام متضاما، بل إنه ناقشها في المقطع الثاني في حدود 127 كلمة، وأخر باقي المقاطع حتى نهاية خطابه.

أما في خطابه الثاني، فكما اتضح في دراسة الضمائر، فقد وظف ضمير المخاطب، وأكثر من ضمير المتكلم الجمع الذي يشملهم وإياهم. زد على ذلك أنه تحدث عن موضوع السترات الصفراء فقط، وتراجع عن كل التصريحات الراضية والمتحدية لهم؛ ومن قبيل ذلك: (إلغاء جميع الزيادات المخطط لها/ أعطيتكم الشعور أنه لم يكن من اهتماماتي/ أعلم أنني أسأت إلى بعضكم بتعليقاتي/ أعلن اليوم حالة الطوارئ الاقتصادية والاجتماعي/ سيرتفع راتب الأجير/ سنلغي الزيادة في ضريبة CSG...).

إن الممارسة السلطوية المتعلقة بأعراف التفاعل حاضرة في الخطابين، وأول مظاهرها هو التحكم في موضوعات الخطابين معاً؛ وإن حضر التحكم في الخطاب من خلال التركيز المفرط على ما لا يهم المحتجين، فإنه حاضر حتى في الخطاب الثاني وإن ركز على ما يعينهم ويهمهم؛ فالتحكم في موضوعات الخطاب الأول كان من أجل تفسير عزيمة السترات الصفراء، والتحكم في موضوع الخطاب الثاني كان من أجل استئناف علاقة جديدة معهم، وتهدئتهم وثيبتهم عن الأفعال التخريبية حتى لا يستمر حراكهم لأنه بعد الخطاب الأول أخذت دائرة الاحتجاجات تتسع وتشمل معظم المدن الفرنسية.

2.2. التأثير العاطفي والإدراكي للإيماءات:

بين الفصل الثالث من الباب الأول التأثير الدلالي للإيماء والصوت، واتضح فيه أن لهما دوراً في الممارسة السلطوية القائمة على دوال غير لفظية؛ لذلك فإنهما -بمختلف أنواعهما- يُعدان منفذاً من منافذ السلطة. وتسعى هذه الفقرة إلى تحليل التمثيل السلطوي غير اللفظي (أو المرئي) لخطاب الرئيس الفرنسي الثاني، تركيزاً على حركات الجسد والرأس وإشاراتها، والنظر، وقسمات الوجه.

في هذا الصدد، ومن صلب المقاربة الجدلية العلائقية في التحليل النقدي للخطاب، أشار نورمان فيركلف إلى التأثير البالغ لهذه العناصر الخطابية، وسماها بالمظاهر البصرية؛ إذ يقول: "المظاهر البصرية يمكن أن تصاحب الحديث وتساعد على تحديد معناه"¹. أما في البلاغة العربية القديمة، فقد عُدت الإيماءات والإشارات عوناً للفظ والخط كما يقول الجاحظ مثلاً: "والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما

1 نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 48.

تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط"¹. " ومنه، فإن العلامات المرئية قد تغني عن النطق بالكلام أو كتابته، وتدل على ما يدل عليه، وهي عناصر لا يمكن أن يسكت عنها في التحليل. إذا كان التحليل قد كشف عن اختلاف بين الخطاب الأول والخطاب الثاني للرئيس الفرنسي من حيث الجرأة وبروز الممارسة السلطوية أو خفاؤها، وإذا كانت سلطة الخيارات اللسانية والحجاجية قد اتجهت في الخطاب الثاني نحو الاستمالة والتلاعب وتبرئة الذات من المسؤولية؛ فإن النواحي التفاعلية، وخاصة الإشارية والصوتية، تعكس عدم التكافؤ هذا بين الخطابين.

يتضح عدم التكافؤ المشار إليه بين الخطابين أولاً من خلال مقارنة بين الإيماءات الموظفة فيهما، بحيث إن هناك تحولاً عنيفاً على مستوى الاختيارات غير اللفظية. ويترجم هذا التحول الدلالات نفسها التي توصل إليها نقد الخيارات اللسانية. فكيف ذلك؟

في الخطاب الأول، يظهر أن الرئيس الفرنسي قد اختار وضعية الوقوف غير الثابتة؛ إذ كان كثير الحركة وجد متفاعل مع مضامين منطوقاته. أضف إلى ذلك أنه أطلق العنان لذراعيه ويديه للتحرك في وضعيات مختلفة دون تقيد أو تراجع، وخصوصاً في اتجاه الأعلى والجمهور. من جهة أخرى، ظهرت على وجه الرئيس الفرنسي بعض القسمات المعبرة عن دلالات الصرامة والجدية والإصرار والسخرية، كحركة الفم والحاجبين والعينين. وعموماً، فقد عكست كل أصناف إشاراته وحركاته حضوراً قوياً ومتعالياً، وقدم نفسه وموقفه على درجة عالية من الاعتداد والثقة المفرطة في النفس والرأي.

أما في الخطاب الثاني، وعلى عكس الخطاب الأول، اختار الرئيس الفرنسي وضعية الجلوس الثابتة، بحيث استقر على وضع واحد منذ بداية الخطاب إلى نهايته، بل إنه ظل كذلك حتى انقطاع البث التلفزيوني. علاوة على ذلك، انعدمت أية حركات للذراعين والمنكبين والكتفين، إذ اكتفى بتحريك يديه وأصابعه وهي ملتصقة بسطح المكتب في حالات نادرة جداً. كما أن حركة اليدين كانت محتشمة في موضعها في اتجاه أفقي فقط، دون رفع أو تلويح. أما عن قسمات الوجه، فقد اتخذت وضعاً واحداً ومحايداً، مع بعض الحركات القليلة جداً للحاجبين والعينين، ولكن بطريقة مخصوصة منسجمة مع مقاصد منطوقاته اللغوية.

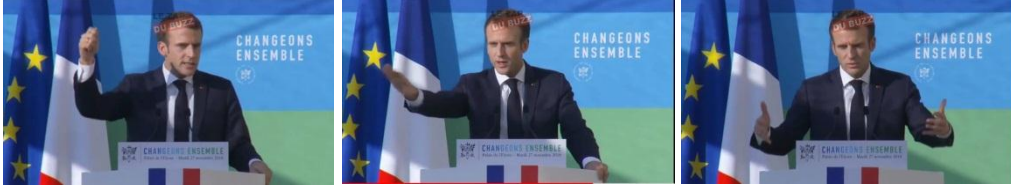
1 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 78.

للقوف عند الوظائف الخطابية لهذه الخيارات المرئية والأدائية، لابد من انتقاء نماذج معبرة، ولكنها ستكون محدودة. من هذا القبيل مثلا، اللقطات الآتية المأخوذة من الخطاب الأول:

صورة رقم 37

صورة رقم 26

صورة رقم 15



صورة رقم 10

صورة رقم 9

صورة رقم 48



تظهر هذه الصور ستة نماذج من حركات اليدين في وضعيات واتجاهات مختلفة، وإن اقتصر البحث على هذا العدد القليل منها إلا أنها معبرة. ذلك ما سيتضح من خلال ربطها بمضامين المنطوقات اللغوية التي رافقتها. وتجدر الإشارة إلى أن مباشرته لمناقشة احتجاجات السترات الصفراء قد جاءت متأخرة في نهاية خطابه الذي بلغ قرابة ساعة من الزمن:

- الصورة 5: جاءت هذه اللقطة في سياق تهديدي من الرئيس الفرنسي للمحتجين في الشوارع الفرنسية، وإن كان لم يذكرهم بشكل مباشر، فإنه وجه كلامه إلى أطراف غير محددتين متهما إياهم بزرع الفتنة والتسبب في العنف: (سأقول لكم⁷، وسأكون واضحا معكم، لن

1 انظر اللقطة [00h44m44s] في رابط الخطاب على موقع اليوتيوب: <https://youtu.be/cX1vk5pws1g>. آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

2 انظر اللقطة [00h42m55s] في المرجع السابق.

3 انظر اللقطة [00h48m10s] في المرجع السابق.

4 انظر اللقطة [00h48m27s] في المرجع السابق.

5 انظر اللقطة [00h37m28s] في المرجع السابق.

6 انظر اللقطة [00h38m05s] في المرجع السابق.

7 كاف الخطاب في الجار والمجرور الأول والثاني لا تحيل إلى المحتجين، وإنما أحال بها إلى الحضور في مكان إلقاء الخطاب الأول بالقصر الرئاسي. ولعل جل مضامينه كانت موجهة إلى المحتجين بطريقة غير مباشرة؛ بمعنى أنه كان يوجه الخطاب للنواب البرلمانين والناخبين ورؤساء البلديات ولكنه كان يقصد بها في هذا الموضع من الخطاب المحتجين تحديدا. وفي هذا الخطاب غير المباشر بعد سلطوي يتمثل في اللامبالاة والاستبعاد والإقصاء من الخطاب.

أضعف أمام أولئك الذين يتلاعبون ويستغلون، أو يبحثون عن العنف بشكل من الأشكال).
وبما أن المهتدين غير محددين، فإن كلامه موجه لكل محتج ولكل منخرط في العنف.
لذلك اتسقت هذه المضامين مع حركة اليدين المرفوعتين إلى الأعلى، والتي تدل على
التحدي والإصرار والصرامة، كما أنها ترجمة لأنفة مبالغ فيها.

• الصورة 6: وردت هذه اللقطة عند تحميل الرئيس الفرنسي مسؤولية ارتفاع نسبة التلوث
للشعب، بفعل شراء السيارات التي تشتغل بالبنزين، وبسبب كثرة استهلاك الغاز من أجل
التدفئة. بحيث رفع يده بهذه الطريقة أربع مرات متتالية وهو يعدد مظاهر ضلوع الشعب في
تدني أوضاعهم الاقتصادية وتدهور البيئة. كما أنه كان في كل مرة يرفع يده ويزيحها بشكل
دائري في اتجاه الجانب الأيمن إشارة إلى العموم وعدم الاستثناء، وملقيا المسؤولية كلها
على نسبة استهلاكهم للمحروقات.

• الصورة 7: ارتبطت اللقطة في هذه الصورة باستتكار الرئيس الفرنسي لما عدّه تناقضا
وتهورا من لدن المحتجين، وهو يقصد أنهم يحتجون ضد الزيادة في الضرائب ويطالبون
بتحسين الخدمات العمومية في الآن نفسه (لا يمكن أن نطالب بطريقة متهورة في اللافتة
نفسها والشعار نفسه: خفضوا الضرائب واخلقوا لنا مزيدا من دور الحضانة ومزيدا من
المدارس، ومزيدا من الحقوق، ومزيدا من الخدمات العمومية). أما علاقة حركته في الصورة
7 بهذا المضمون، فهي أنه كان يحاكي أصوات المحتجين وحركاتهم وهم يحتجون في
الشارع، برفع يده اليمنى مرة واحدة، وبرفع اليسرى ثلاث مرات مرددا بعض شعاراتهم بإيقاع
ساخر (خفضوا الضرائب واخلقوا لنا مزيدا من دور الحضانة، ومزيدا من المدارس، ومزيدا
من الحقوق، ومزيدا من الخدمات العمومية). إن تقليده للمحتجين بهذه الطريقة كان من
باب السخرية وتحقير ما يقومون به، كما تعكس حركاته استصغارا وإدانة لأفعالهم، من أجل
إظهارها غير مسؤولة وغير منطقية. بحيث إن تشبهه بهم ورفع يده كما يرفعون لافتاتهم
كان إساءة منه إليهم سيحاول أن يستدركها متأخرا في الخطاب الثاني: "ربما أعطيتكم
الشعور بأنه لم يكن من اهتمامي، وأن لدي أولويات أخرى. أعلم أيضا أنني أسأت إلى
بعضكم بتعليقاتي"¹.

1 انظر رابط الخطاب الثاني على موقع اليوتيوب الخاص بقناة (M6) الفرنسية: <https://youtu.be/CZOjVhrvAU>.
آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

• الصورة 8: لهذه الصورة علاقة بالصورة السابعة، بحيث إنه بعد الانتهاء من تقليدهم حركةً وصوتاً، طفق يصف مطالبتهم بتحسين الخدمات العمومية وخفض الضرائب بأنه أمر متناقض ولطيف في الآن نفسه ما داموا لا يتحملون المسؤولية (إنه أمر لطيفٌ للغاية ومتناقض حين لا تكون لدينا أية مسؤولية). وتتسجم هذه الأوصاف مع حركة اليدين المنفتحتين والممدودتين إلى الجانبين مع إمالة خفيفة للرأس، بحيث عبرت هذه الوضعية والمنطوق معا عن الاستغراب والتعجب والاستصغار والسخرية.

• الصورة 9: تتعلق هذه اللقطة باللحظة التي ربط فيها الرئيس الفرنسي تحقق مطالب المحتجين بقبول الانتقال الطاقى والضرائب الجديدة على المحروقات، بحيث وعد بأن هذا الانتقال الطاقى سيمكن الجميع من القدرة على شراء سيارات كهربائية غير ملوثة، وضمان التدفئة النظيفة. أما حركته برفع قبضتيه واستقامته فتعكس جدية وإصراراً ووعداً صادقاً، لأنه كان يساوم بقبول الانتقال الطاقى والضرائب الجديدة.

• الصورة 10: جاءت اللقطة في هذه الصورة في سياق تحميل الرئيس الفرنسي للسياسيين السابقين مسؤولية تدهور أوضاع المحتجين، بحيث وصف وعودهم وأجوبتهم بأنها مجردة وبعيدة عن طموحات الشعب ولا ترتبط بمستقبلهم الاجتماعى والبيئى. لذلك عبر عن دقة ما يقول بقبضة يده اليمنى معصومة مع قربها من عينيه إحالة منه إلى دقة النظر وحقيقة ما يقول؛ ذلك لأنه كان يستमित في هذا الموضع لأن يثبت مصداقية مشروع الانتقال الطاقى الذي يرفضه المحتجون.

تكثر مثيلات هذه اللقطات الست في الخطاب الأول، وإن كانت محدودة فإنها محض نماذج تمثيلية توضح استعانة الخطيب بحركة اليدين إلى حد مفراط. وكما يتضح من خلال السياقات الدلالية التي أتت فيها، فإنها كلها تثبت قصداً واضحاً منه لأن يرفض مطالب المحتجين، ولأن يظهر قويا جباراً، وخصوصاً لكي يثبت نجاعة مشروعه وجدوى الضرائب الجديدة. هكذا فإن الخطاب الأول عرف سوء استخدام لسلطة الخطاب من خلال الحركات والإشارات، ناهيك عن المنطوقات الموازية لها.

في هذا الموضع، يمكن استدعاء أحد الآراء الأكثر وضوحاً لتعليل هذا التواشج بين العلامات اللغوية وغير اللغوية، وهو لأبي بكر العزاوي حين يقول: "إننا إذا كنا بصدد دراسة الخطاب البصري المكون من أيقونات (الأشياء، والألوان...) أو التواصل السلوكي، فإن الحجج والنتائج ستكون في هذا الإطار عبارة عن عناصر أيقونية أو سلوكية. وستكون في

الوقت نفسه عناصر تصويرية وذلك في مستوى البنية التصويرية. وتتفاعل هذه الأنماط من التواصل غير اللغوي مع التواصل اللغوي وتتكامل معه داخل العملية التواصلية الكبرى لتحقيق نفس الأهداف والغايات المتوخاة"¹.

أما في الخطاب الثاني، وهو المتن الرئيس لهذه المقاربة اللسانية الحجاجية، فإن الرئيس الفرنسي اتخذ وضعا واحدا بشكل مخالف للصور الست الأولى والخطاب الأول برمته، لذلك ينبغي النظر في الصورتين 11 و 12 مثلا:

صورة رقم 12³



صورة رقم 11²



يقتصر البحث على هاتين الصورتين فقط لسبب واحد، وهو أن الصورة رقم 11 تمثل الوضعية الوحيدة التي اتخذها الرئيس الفرنسي من بداية خطابه الثاني إلى نهايته، إلا في ثلاث حالات حرك فيها أصابع يديه وكفيه فقط، ولكن في مستوى أدنى كما توضح الصورة رقم 12.

إن تحليل هاتين الوضعيتين دون استحضار وضعيات الرئيس الجسدية والحركية والإشارية في الخطاب الأول قد يكون بلا جدوى، لأن المقارنة بين البعد الإشاري في الخطابين توضح انتقالا كبيرا من الحديث بأريحة، والتعبير عن القوة والحضور البارز، والتباهي والتحدي، والصرامة والإصرار، والرفض والمواجهة المعلنة في الخطاب الأول، إلى التواضع والوقار والضعف، والسهولة والمرونة، والهدوء والاستقرار، والدعوة إلى الحوار، والاستعداد لحل مشاكل المحتجين في الخطاب الثاني.

إن الفرق بين وضعيات الصور (5-6-7-8-9-10-) ووضعيتي الصورتين (11-12)، هو الفرق بين حضورين متناقضين للرئيس الفرنسي في خطابيه اللذين لم تفصل بينهما

1 أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2010، ص: 107.
2 استقر الرئيس الفرنسي على هذا الوضع الموضح في الصورة طيلة مدة خطابه إلا في بعض اللقطات القليلة كما في الصورة رقم 8. انظر رابط الخطاب على موقع اليوتيوب الخاص بقناة (M6) الفرنسية: <https://youtu.be/CZOjVhhrvAU>. آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

3 انظر اللقطة [00h01m20s] في رابط الخطاب على موقع اليوتيوب الخاص بقناة (M6) الفرنسية: <https://youtu.be/CZOjVhhrvAU>. آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

سوى أربعة عشر يوماً؛ وهو تحديداً: الانتقال من الممارسة السلطوية للخطاب جهراً وعلانية، إلى ممارسة سلطوية أخرى مرنة ومهادنة ومتلاعبة.

قد يحتاج تحليل هذا الفرق بين هذين النمطين المتغيرين من الممارسة السلطوية على صعيد الخطاب مزيداً من القرائن الإشارية من كلا الخطابين، ذلك ما يمكن استخراجها من خلال مقارنة بين قسمات الوجه في المناسبتين معاً، ولعل في البلاغة العربية كثيراً من الآراء التي أعطت الإشارة باليد والوجه والرأس والفم والحاجبين أهمية بالغة، ومنها قول الجاحظ: "أما الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان"¹. ومن النماذج المعبرة عن هذا الفرق المذكور من جانب إشارات الجسد ذات الطابع السلوكي المتسلط، اللقطات أسفله:

صورة رقم 14³



صورة رقم 13²



في الخطاب الأول:

صورة رقم 16⁵



صورة رقم 15⁴



تبدو على وجه الرئيس الفرنسي في الصور الأربعة الأخيرة ملامح الجرأة والقوة والحضور البارز، وهي كلها تتماشى مع ما دلت عليه حركات الأيدي كما أُشير إلى ذلك عاليه. ففيها كلها يظهر الحاجبان معقودين، مع نظرات حادة. أما الفم، ففي الصورتين (15 و 16) يبدو أنه كان مفتوحاً (فتح الخطيب فمه في اللقطتين معاً إلى أقصى حد، وهذا يظهر

1 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 79.

2 انظر اللقطة [00h38m] في رابط الخطاب على موقع اليوتيوب: <https://youtu.be/cX1vk5pws1g>. آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

3 انظر اللقطة [00h45m40s] في المرجع السابق.

4 انظر اللقطة [00h42m55s] في المرجع السابق.

5 انظر اللقطة [00h48m10s] في المرجع السابق.

بشكل أوضح في مقطع الفيديو) لأنه رفع صوته انسجاماً مع انفعالاته الدالة على التسلط والأنفة والقيادة. أما في الصورة رقم(13)، فيبدو فمه مطبقاً خلال لحظة وقف، مع إطالة طفيفة للسكوت وفتح للذراعين في كلا الجانبين، وهي وضعية توحى بتأكيد الخطيب على ما يقول ويجدوى ما يعنيه كلامه ورفضه لما يخالفه.

أما في الصورة رقم(14)، فإنه فتح فمه مع إمالة للشفتين ناحية اليسار فاعوجَّ معها الجزء السفلي من الوجه. وهي وضعية أفادت الامتعاض والاشمئزاز من مطالبة المحتجين بتحسين الأوضاع وتطوير الخدمات العمومية مع الخفض من قيمة الضرائب، فكان للرئيس الفرنسي أن عزز انتقاده لهذه المطالبة لفظاً بامتعاضه منها حتى بحركات الفم والوجه وعقد الحاجبين. ناهيك عن الحركة المفردة والمتنوعة للرأس والمنكبين دلالة على الاحتواء والاستيعاب والسيطرة على الوضع.

ومهما يكن، وليس فقط في هذه النماذج الأربعة، فإن مثيلات هذه الإشارات الجسدية رافقت جل منطوقات الرئيس الفرنسي؛ وهي في مجملها تدل على التحدي والصرامة والإصرار والرفض والهيمنة، وتعكس تجاهلاً منه لمطالب السترات الصفراء. إلا أن هذه النماذج الإشارية لحركات الرأس والوجه والفم والحاجبين والعينين، انتفت وانعدمت في الخطاب الثاني، بحيث إنه اعتمد وضعا قاراً نسبياً كما توضح الصورتان (17 و 18):

صورة رقم 18



صورة رقم 17



في الخطاب الثاني:

يبدو الخطيب نفسه في خطابه الثاني ضعيفاً متراجعاً وحتى متراخياً، ذلك ما توحى به حركة الحاجبين، ففي كليهما لم يعقدهما، وإنما رفعهما بشكل طفيف في الصورة(17) وتركهما في الوضع المحايد في الصورة(18). وهذا حاله طيلة مدة إلقاء الخطاب. كما أن نظراته كانت متراجعة وغير حادة كما في الخطاب الأول، بل كانت عميقة توحى بإحساس التعاطف والتضامن والندم. مما يعني أن الرئيس لم يغير موقفه ومضامين خطابه الأول فقط، ولم يكتفِ بمنع ذراعيه ويديه من الحركة، وإنما حتى ملامح وجهه تغيرت، وانتقلت من التعبير عن

التسلط إلى التعبير عن المؤازرة والمهادنة والمغازلة؛ بحيث إن حركات الجسد ووضعه دلت كليا على حساسية مفرطة، ومشاعر مرهفة، وعاطفة مغازلة للمحتجين.

بالإضافة إلى ذلك، لم يحرك الخطيب منكبيه ورأسه إلا في حالات نادرة في اتجاه الجمهور مؤكدا ما ينطقه بخصوص أحقيتهم في ما يطالبون به. وهذا التراجع إن دل على شيء فإنما يدل على تغيير زاوية نظر الخطيب من حيث ممارسته السلطوية الخطابية، ففي كلتا الحالتين هو يمارس السلطة، غير أنها في الخطاب الثاني سلطة عاطفية إدراكية. لأن الإشارة بأعضاء الجسد تفيد معنى من المعاني، فأفادت في الخطاب الأول سلطة فعلية صريحة، وفي الخطاب الثاني سلطة خفية متوارية تستهدف العاطفة والإدراك، لأنه: "متى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتا، وأشار إليه وإن كان ساكنا"¹، كما يقول الجاحظ.

إن كل أنماط الإشارات المدروسة أعلاه (حركات اليد والرأس والحاجبين والعينين ووضعية الوقوف والجلوس)، سواء التي دلت على تسلط أم التي دلت على تودد وتقرب من الجمهور، تؤدي وظائف حاجية إقناعية تتوخى الهيمنة الإدراكية والعاطفية. وهذا استنتاج يجد ما يؤكد له لدى أبي بكر العزاوي حين يقول: "التواصل قد يكون لغويا وغير لغوي، والحجاج يكون هو الآخر بوسائل لغوية وأخرى غير لغوية"². وعليه، فإن ما صدر عن الرئيس الفرنسي من إيماءات هو حجاج يتوق إلى السلطة من خلال وسائل غير لغوية أيضا.

3. تأثير التنغيم الصوتي:

للتنغيم الصوتي تأثير دلالي وعاطفي وإدراكي بالغ الأهمية، كما أنه يُسهم في توجيه المعنى بحسب طبيعة النغمة المعتمدة في نطق الجمل. وأحيانا يعمد الخطباء إلى تنويع النغمات بحسب مقصوداتهم الأيديولوجية والوجدانية والمقاصد الخطابية. كما أنه يعكس قوة الخطيب أو ضعفه. ولدراسة هذا البعد الصوتي والدلالي للتنغيم، لابد أولا من تعريفه وبيان طريقة وصفه.

إن التنغيم هو مستوى علو النغمة الحنجرية لسلسلة من العناصر التركيبية المتصلة أو انخفاضها، ويشكل مستوى لحنيا كفيلا بإدراج معلومات دلالية وتدوالية³. إن للتنغيم دورا تركيبيا

1 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 81.

2 أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص: 106.

3 Dubois Jean et autres, Dictionnaire de Linguistique, Larousse, Canada, 1991, p: 286.

أساسيا¹، فيصبح ذا قيمة تمييزية شأنه كشأن أي فونيم. لذا، فهو فونيم تطريزي (فوق مقطعي) مسهم في بناء الدلالة. ويوصف التنغيم في التراكيب وفق أربعة خصائص²:

- . خاصية العلو .
- . خاصية المدة والشدة .
- . خاصية المنحنى اللحني .
- . خاصية المستويات الخطية .

وتتقسم هذه المستويات الخطية إلى أربعة³:

- 1 . مستوى حاد
- 2 . مستوى عالٍ
- 3 . مستوى معتدل
- 4 . مستوى منخفض

شكل رقم(29): نموذج لوصف المستوى الخطي للنغمات

هدف هذه الفقرة هو بيان المستويات الخطية للنغمات الصوتية التي اعتمدها الرئيس الفرنسي في خطابه الثاني، ومدى تأثيرها أو انخراطها في ممارسته السلطوية المضمره، والتي يظهر من خلال ما سبق أنها تستهدف الهيمنة الإدراكية والعاطفية على المحتجين والشعب الفرنسي عامة. ولكن، وحتى يستدل البحث على نية الخطيب المبيتة في اعتماده لهذه المستويات النغمية التي سيأتي ذكرها وتحليلها، لابد من مقارنتها بنموذج أو اثنين من نظيراتها في الخطاب الأول.

في الخطاب الأول للرئيس الفرنسي، ونظرا للجرأة المفرطة من الخطيب، ورفضه المطلق لمطالب المحتجين، وقصده للتحدي والإصرار والصد، فقد هيمنت على أغلب منطوقاته نغمة

1 نقلا عن: موهوب، موارد، التنغيم في اللغة العربية المعيار المعاصرة-دراسة صوتية، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في اللسانيات، الجزء الأول، جامعة القاضي عياض كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، 2000، ص.ص: 75-76.

2 Choi-Jonin, Injoo, et Corinne Delhay, Introduction à la méthodologie en linguistique: application au français contemporain, Presses universitaires de Strasbourg, Strasbourg, 1998, p: 63.

3 Ibid, pp: 63-64.

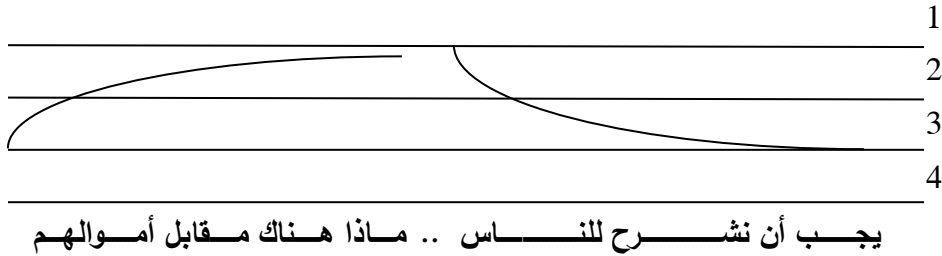
من المستويين الحاد والأعلى، وحتى إن تراجعت فإنها لا تتدنى إلى أسفل المستوى المعتدل. ويمكن التمثيل لذلك من خلال دراسة الأمثلة الآتية:

(56) يجب أن نشرح للناس ماذا هناك مقابل أموالهم¹.

(57) سينتهي بنا الأمر إلى الاعتقاد بأنه من الطبيعي أن تكون المدرسة مجانية والمستشفى أكثر مجانية².

ورد المثال رقم(56) في سياق امتعاض الرئيس الفرنسي من رفض المحتجين للزيادة في قيمة ضرائب المحروقات، وبعد أن حاكى طريقة احتجاجهم صوتا وحركة بشكل ساخر. وكما سبقت الإشارة إلى ذلك في الفقرة المتعلقة بالإيماءات عاليه، فإن خطابه لم يوجه إليهم بشكل مباشر، وإنما وجهه إلى المسؤولين السياسيين والنقابيين الحاضرين في موقع إلقاء الخطاب. ولذلك فإن الجملة الواردة في المثال (56) والموصوفة في الشكل رقم(30) أسفله، قد تدخل هي الأخرى في الخطاب غير المباشر للمحتجين؛ إذ إنه يخاطب السياسيين والنقابيين المدعويين لحضور إلقاء الخطاب.

الملاحظ في هذا المثال أن الخطيب يود أن يؤكد أحقية الزيادة في الضرائب، وذلك ليس فقط من خلال المفهوم من الجملة، وإنما حتى من خلال المستوى الخطي لتنظيمها:



شكل رقم(30): وصف المستويات النغمية في المثال رقم(56)

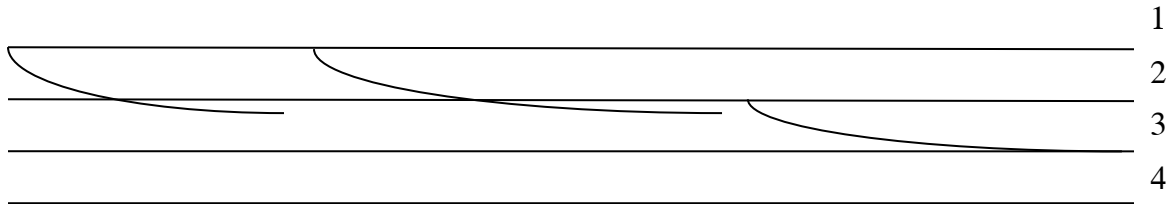
نُطقت الجملة ابتداءً من المستوى المعتدل وفي اتجاه المستوى الحاد ومتجاوزة المستوى الأعلى. غير أن النغمة ستهبط في الاتجاه المعاكس وإلى حدود المستوى المعتدل ابتداءً من

1 انظر اللقطة [00h48m55s] في رابط الخطاب على موقع اليوتيوب: <https://youtu.be/cX1vk5pws1g>. آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

2 انظر اللقطة [00h49m03s] في رابط الخطاب على موقع اليوتيوب: <https://youtu.be/cX1vk5pws1g>. آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

وسط الجملة وحتى نهايتها. إن علو النغمة وحدتها في النصف الأول من الجملة يعكس صرامة وبقينا وتسلطا من الرئيس. ولعل ذلك ما أكده الجويني حين أشار إلى أن الصوت الجهير والمرتفع يقطع الخواطر ويُضعف الخصوم بالتهويل والصياح¹. أما نصف الجملة الثاني (ماذا هناك مقابل أموالهم)، فإن نغمته هابطة وتوحي بأن الخطيب يقصد بهذا الهبوط النغمي التذكير بأن الضرائب هي لقاء ما يتلقونه من الخدمات الاجتماعية، وأنها أمر واقع ونتيجة منطقية مفروغ منها؛ معنى ذلك أن انحدار النغمة قد لعب دور نتيجة استدلال حُذفت مقدمته، وهو: مقدمة (الضرائب)، نتيجة (الاستفادة من المقابل).

ومن مظاهر التأثير السلطوي للتغيم كذلك، ما ورد في المثال رقم (57)، بحيث إن المتكلم قد قسم الجملة إلى ثلاثة أجزاء؛ فنغمة الجزء الأول (سينتهي بنا الأمر إلى الاعتقاد بأنه) تبدأ من المستوى المعتدل وتصل إلى الأعلى، أما الجزآن الثاني والثالث فيبدأان من المستوى الأعلى إلى المستوى الحاد. بمعنى أن الجملة بأكملها انطلقت من المستوى المعتدل وبلغت المستوى الحاد كما يوضح الشكل الآتي:



سينتهي بنا الأمر إلى الاعتقاد بأنه..من الطبيعي أن تكون المدرسة مجانية..والمستشفى أكثر مجانية

شكل رقم (31): وصف المستويات النغمية في المثال رقم (57)

إن دلالة علو النغمات وحدتها هنا هي أن الرئيس الفرنسي يعبر عن جرأة مبالغ فيها، ويدحض مواقف المحتجين الرافضين للضرائب. كما أنها تعكس تسلطا وتجبرا، ومعه تبرز شخصية المتكلم ومواقفه متصدية وملزمة. كما أنها تتحدى كل رفض لأي خفض للضرائب، وتحجب كل ضعف يمكن أن يبديه المتكلم. وفي هذا السياق، يتحدث الباجي عن ضوابط من ضوابط الممارسة الجدلية، وهو المستوى الصوتي للكلام، بحيث يوصي الممارسين لهذه الصناعة بأن يظهروا أصواتهم حتى لا يظهر ضعفهم: **..ولا يخفي صوته جدا فينسب منه إلى ضعف المنة؛ وكان بين ذلك قواما²**. والحق أن الخطاب الأول قد غلبت على جملة

1 انظر: الجويني، الكافية في الجدل، ص: 538.

2 الباجي، المنهاج في ترتيب الحجج، ص: 09.

النعمات ذات المستوى الأعلى والحاد، وفي ذلك أبلغ دليل على الممارسة السلطوية حتى على المستوى التطريزي للكلام. ولعل ذلك ما أشار إليه الجاحظ كذلك حين اعتبر أن جهازة الصوت تورث: "التهمك والتسلط"¹ على حد تعبيره. ذلك ما يتأكد خلافه في الخطاب الثاني.

في الخطاب الثاني، تنتفي أية جملة منطوقة في المستوى الخطي الحاد للنعمات، بل هيمنت عليه النعمات ذات المستويين الخطيين المعتدل والمنخفض حتى في سياق التحدي أو التحذير أو الإدانة. لذا، ينتقي البحث نموذجاً من الجمل المتضمنة للإدانة، وآخر من الجملة الساعية للتهدة، وثالثاً من الجمل المتضمنة للتضامن والمؤازرة:

(58) نحن في لحظة تاريخية لبلدنا.. من خلال الحوار.. والاحترام.. والالتزام.. سننجح².

(59) هذا العنف لن يحظى بأي تساهل³.

(60) عادت أربعون سنة من القلق إلى الظهور: قلق العمال الذين لم يعودوا يجدون أنفسهم هناك؛ قلق الأقاليم، والقرى كالأحياء حيث نرى الخدمات العامة تتقلص ..، الشعور بالضيق الديمقراطي الذي يتطور فيه الشعور بانعدام الإصغاء⁴.

تكثر في الخطاب الثاني الجمل المنطوقة في المستوى الخطي المعتدل والهابطة حتى المستوى المنخفض للتغيم. بل يمكن القول إن أغلب ما نطق في هذا الخطاب كان إما معتدلاً أو منخفضاً تطريزياً. من هذا القبيل، الجملة في المثال رقم(58):

1

2

3

4

نحن في لحظة تاريخية لبلدنا.. من خلال الحوار.. والاحترام.. والالتزام.. سننجح⁵

شكل رقم(32): وصف المستويات النغمية في المثال رقم(58)

1 الجاحظ، البيان والتبيين، 1/254.

2 انظر اللقطة [00h12m16s] في رابط الخطاب على موقع اليوتيوب: <https://youtu.be/CZOOhJvhrvAU>. آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

3 انظر اللقطة [00h00m30s] في رابط الخطاب على موقع اليوتيوب: <https://youtu.be/CZOOhJvhrvAU>. آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

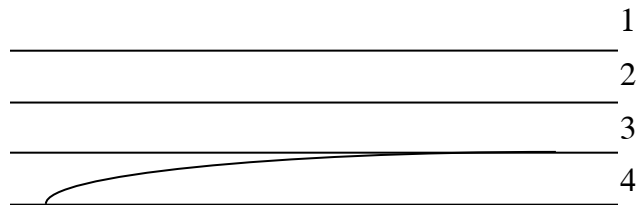
4 رابط الخطاب على موقع اليوتيوب: <https://youtu.be/CZOOhJvhrvAU>. آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

5 انظر اللقطة [00h12m16s] في رابط الخطاب على موقع اليوتيوب: <https://youtu.be/CZOOhJvhrvAU>. آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

لقد نُطقت هذه الجملة في أدنى المستويات الخطية للتغيم، كما أن المتكلم قصد تقطيعها باعتماد الوقف في أربعة مواضع كما يوضح الشكل رقم(32) أعلاه. أضف إلى ذلك أنه بطأ إيقاع الكلام إلى حد كبير فكانت مدته طويلة ومستغرقة، كما أن نطق الجملة لم ترافقه أية شدة. وبناء على الوقفات الأربع، فإن الجملة مقسمة إلى خمسة أجزاء، انطلق الأول فيها من المستوى المعتدل، ثم جاءت الأجزاء الأربعة الأخرى في المستوى المنخفض كلها. ومن خلال دلالة الجملة، يظهر كذلك أنها تتضمن استدلالاً آخر، فالجزء الأول يحدد السياق (لحظة تاريخية)، والأجزاء الثاني والثالث والرابع تشكل المقدمة، والجزء الخامس يمثل النتيجة. إلا أن عناصر الاستدلال نُطقت بنغمة منخفضة وإيقاع بطيء وإدراج للوقف من أجل إبراز البعد العاطفي للمتكلم، إذ يظهر ضعيفا ومسايسا ومهادنا وحساسا. وهذا ينسجم حتى مع قسّمات الوجه الموحية بالضعف، ووضعية اليدين الملتصقتين مع سطح مكتب الرئيس.

إن اعتماد الخطيب على النغمة الصوتية في المستوى المنخفض -وهي كثيرة جدا في الخطاب الثاني- مظهر آخر من مظاهر سلطة التفاعل، لأن خفض النغمة يعكس وجهها مخالفا للوجه الصارم والنبرة القوية التي ظهرت في الخطاب الأول. بمعنى أن السلطة مرة أخرى تُمارَس عاطفيا وإدراكيا. وقد سبق لابن وهب الكاتب أن تحدث عن هذا التأثير للنغمة الصوتية في الكلام، إذ يقول: "وليس يلفت في الخطابة إلا حلاوة النغمة إذا كان الصوت جميلا"¹. والحق أن صوت الرئيس الفرنسي في الخطاب الثاني كان جميلا ونغمته كانت حلوة.

في موضع آخر من الخطاب الثاني، تضمنت الجملة في المثال رقم(59) تهديدا ووعيدا أو على الأقل تحذيرا. ومن الناحية الدلالية، من المفترض أن تُنطق مثيلات هذه الجمل في مستوى خطي حاد أو عالٍ على الأقل، كما هو الحال في الخطاب الأول. إلا أن الرئيس الفرنسي قد نطقها بدءا من المستوى المعتدل متراجعا وهابطة حتى المستوى المنخفض كما يصورها الشكل الآتي:



هذا العنف لن يحظى بأي تساهل

شكل رقم(33): وصف المستويات النغمية في المثال رقم(59)

1 ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص: 168.

إن مضمون الجملة هنا يتطلب جدية وصرامة كالتى أبداه الرئيس الفرنسي في خطابه الأول، لأنه يؤخذ على المحتجين أعمال العنف، وقوله بأنه لن يتساهل مع العنف يعني واحدا من شيئين: إما العقاب القانوني أو المواجهة بالقمع. إلا أن هذه الدلالات تتطلب حزما ونطقا وإيقاعا سريعا ونغمة وشدة تتماشى مع دلالة الوعيد. وعلى خلاف ذلك، فإن الخطيب خفض من نغمة هذا المنطوق حتى صدرت بكل مرونة وحساسية ورهف. ومعنى هذا أن وعي الخطيب كان يتأرجح بين التحذير والخوف من إبداء مشاعر معادية للمحتجين كما حدث في الخطاب الأول، مما أظهر تنعيم الجملة متضاربا مع فحواها.

يصل هذا التضارب في المثال رقم(60) حدَّ المفارقة، بحيث إن الخطيب هذه المرة عمد إلى الرفع من المستوى الخطي للمنطوق في سياق لا يقتضي الرفع. فباعتقاد الوقف مرة أخرى، وحسب أداء الرئيس الفرنسي، ينقسم المثال(60) إلى أربعة أجزاء:

• الجزء الأول:

1
2
3
4

عادت أربعون سنة من القلق إلى الظهور¹

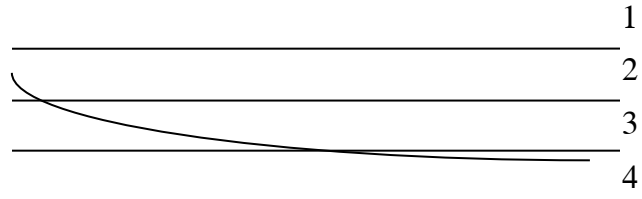
شكل رقم(34): وصف المستوى النغمي في الجزء الأول من المثال رقم(60).

يتفق الجزء الأول من المثال رقم(60) مع المثالين (58 و 59) من حيث انخفاض مستوى النغمة، ومع جل جمل الخطاب الثاني بصفة عامة. وهدف الخطيب من هذه النغمة المنخفضة هو أن يستميل الجمهور، ويتودد إليهم باللحن الطيب الحلو، ويتقرب من خواطرم وعقولهم بالإيقاع الهادئ. خصوصا أنه في هذا الجزء الأول لم يعد يتحدث عن العنف، وإنما اعتبره قلقا قديما منذ أربعين سنة.

أما النغمات في الأجزاء الثلاثة الموالية، فكلها تنطلق من المستوى المعتدل وتكاد تصل إلى المستوى الحاد، وإن في الخطاب الثاني الذي تأكد أنه مسالم وعاطفي بامتياز. فلماذا اعتماد نغمات عالية في هذا السياق؟

1 انظر اللقطة [00h03m25s] في رابط الخطاب على موقع اليوتيوب: <https://youtu.be/CZOOhJvhrvAU>. آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

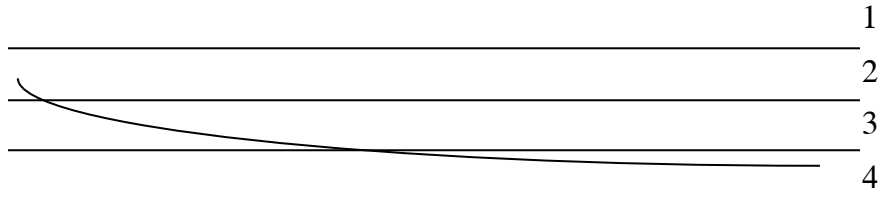
• الجزء الثاني:



قلق العمال الذين لم يعودوا يجدون أنفسهم هناك¹

شكل رقم(35): وصف المستوى النغمي في الجزء الثاني من المثال رقم(60)

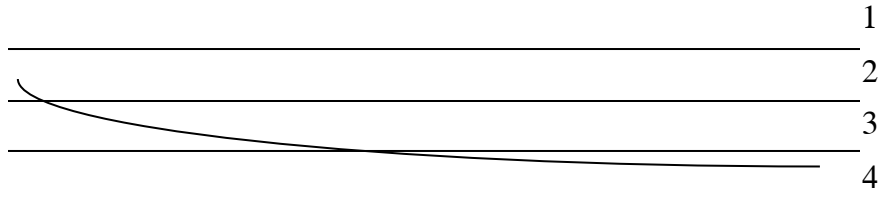
• الجزء الثالث:



قلق الأقاليم والقرى كالأحياء حيث نرى الخدمات العامة تتقلص²

شكل رقم(36): وصف المستوى النغمي في الجزء الثالث من المثال رقم(60)

• الجزء الرابع:



الشعور بالضيق الديمقراطي الذي يتطور فيه الشعور بانعدام الإصغاء³

شكل رقم(37): وصف المستوى النغمي في الجزء الرابع من المثال رقم(60)

1 انظر اللقطة [00h03m28s] في رابط الخطاب على موقع اليوتيوب: <https://youtu.be/CZOOhJvhrvAU>. آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

2 انظر اللقطة [00h03m31s] في رابط الخطاب على موقع اليوتيوب: <https://youtu.be/CZOOhJvhrvAU>. آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

3 انظر اللقطة [00h03m38s] في رابط الخطاب على موقع اليوتيوب: <https://youtu.be/CZOOhJvhrvAU>. آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05.

إن الرفع من المستوى الخطي للنغمات الإيقاعية في هذه الأجزاء الثلاثة لم يكن من أجل الهيمنة الصارخة أو الممارسة السلطوية البارزة كما هو الشأن في الخطاب الأول. ولكنه تجسيد لإحساس التضامن والمؤازرة، وتصحيح لأخطاء الخطاب السابق؛ بحيث إن مضامينها تعدد مظاهر القلق الذي تعيشه فئات الشعب الفرنسي. وبما أنه يتحدث عن قلق العمال وأقاليم فرنسا وأحيائها وقراها، وبما أنه يعترف بالضيق الديموقراطي، فإن ما أضافه علو النغمات هو الإقرار بمآسي هذه الفئات، والإعلان عن تضامنه معها، والاستعداد لتصحيح الأوضاع.

تظهر المفارقة في عدم الانسجام بين النغمات العالية والمنطوق المسالم، لكنها أضفت على هذا المنطوق نبرة الحماس الزائد اعترافاً، وغيره رئيس البلاد وتألّمه لهذه الحال تأبيداً. ومنه، فإن وظيفة المستويات العالية للنغمات هنا هي -ومرة أخرى- التأثير العاطفي والإدراكي، وهو أبرز مظهر من مظاهر الممارسة السلطوية من خلال أعراف التفاعل في الخطاب الثاني.

من خلال ما سبق، يظهر أن التنعيم عنصر دقيق من عناصر الخطاب المُقدِّرة على الممارسة السلطوية، ويدخل في ما سماه فان دايك **بالبنى الشكلية الدقيقة**¹ القادرة على تحقيق المقصد العام للخطاب السلطوي. بل إنه مثل لهذه البنى الشكلية الدقيقة **بالتنعيم** صراحة².

الخلاصة الاجتماعية للنقد اللساني الحجاجي:

حاول الفصلان الثاني والثالث من هذا الباب الثالث تطبيق المقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة في التحليل النقدي للخطاب، وذلك بمساءلة الخيارات اللسانية والحجاجية والأدائية المعتمدة من قبل منشئ الخطاب (الرئيس الفرنسي الحالي). وقد كشف النقد اللساني الحجاجي عن آثار واضحة لتكريس بعض مظاهر الممارسة السلطوية من خلال الخطاب، ومنها: التلاعب، والهيمنة الإدراكية، والتحكم في العواطف. ينبغي الآن صياغة الخلاصة الاجتماعية للنقد اللساني الحجاجي، وذلك باستثمار ما كشف عنه التحليل النقدي للخطاب.

استناداً إلى نتائج النقد اللساني والحجاجي في الفصلين السابقين، يظهر أن الخطيب قد سخر اللغة، والأداء التفاعلي، والخلفية المعرفية، والمكانة الاعتبارية لرئيس الدولة، لممارسة

1 توين فان دايك، دراسات الخطاب النقدية، المقاربة المعرفية الاجتماعية، ص: 154.

2 المرجع السابق، ص: 154-155.

مجموعة استراتيجيات سلطوية خطابية، وهي: هدم الصورة القبيحة، تجويد صورة الخطيب، تبرئة الذات، التواري والاختباء، استمالة الجمهور، الهيمنة الإدراكية، التحكم في العواطف، وإدانة الآخر. وقد اتضح أن هذه الاستراتيجيات الخطابية ذات الطابع السلطوي قد تضافرت وانخرطت مجتمعةً في الخطاب الثاني لتصحيح أخطاء الخطيب في خطابه الأول الذي اتسم بالتحدي الصريح والمُعلن، والرفض المطلق لكل مطالب محتجّي السترات الصفراء، مما أدى إلى ظهور وثيرة عنف وتخريب متصاعدة.

إن الخطاب الثاني -المتن الرئيس في الفصلين السابقين- شكّل خطابي قصّد ممارسة اجتماعية ممتدة زمنياً ومطبوعة بطابع عنيف، فحاول التأثير فيها بشكل مباشر؛ بحيث إن الخطيب قد استمات لتحقيق أهداف محددة اتضحت من خلال النقد اللساني والحجاجي للنماذج المدروسة، وهي: وقبل كل شيء، إعادة بناء صورته في نظر الفرنسيين بعد أن أساء إليهم في الخطاب الأول، حتى ظهرت أصوات مطالبة بتتحيه؛ ثم إيقاف أشكال العنف والاعتداء على رجال الأمن وتخريب الممتلكات الخاصة والعمومية، وإحياء الحس الوطني لدى المحتجين، والتدارك لإفهامهم بأنهم أهم من مشروع الانتقال الطاقى على الرغم من أنه لم يبدِ تنازلاً صريحاً ونهائياً عنه.

لتحقيق هذه الأهداف والاستراتيجيات السلطوية والتأثير في الممارسة الاجتماعية بُني شكل الخطاب -لغويًا وبلاغياً وحجاجياً وتفاعلياً- وفق مقياس مخصوص ومنتقى بدقة بالغة؛ إذ كرس الخطيب شكل الخطاب للتأثير المباشر في عناصر الممارسة الاجتماعية التي يستهدفها: وحدة المحتجين وتكتلهم ولحمتهم، الأفكار، العواطف، الشعارات، المطالب، العنف طيلة شهور، تحريض السياسيين المعارضين، الرأي العام، الإعلام الداخلي والخارجي. فما هي الأبعاد الاجتماعية لهذه العلاقة بين الشكل والممارسة الاجتماعية؟

إن خطاب ماكرون الثاني محاولة ملحة لتحقيق ما يسميه بيير بورديو بالهيمنة الاجتماعية¹، والتي تتم من خلال استثمار أنماط الرأسمال النوعي المختلفة². فقد أعمل ما تهيأ له منها لبناء شكل الخطاب كما كشفت معالمه في النقد اللساني الحجاجي؛ بحيث سخر كل قدراته المعرفية واللغوية والأدائية والخبرانية والسياسية والاقتصادية لإعادة صياغة سياق

1 بيير بورديو، العنف الرمزي: بحث في أصول علم الاجتماع التريوي، ص.ص: 48-50.

2 المرجع السابق، ص.ص: 48-50.

الممارسة الاجتماعية وفق المنظور الخادم لمصالحه. ولعل هذه القدرات هي ما يسميها بيير بورديو بالخبرة الذاتية التي ينبغي أن تلتقي بالشروط الموضوعية لسياق الممارسة الاجتماعية¹، ذلك ما حققه الخطيب في خطابه من خلال إعادة صياغة السياق.

إذا كان تيو فان لوفين يقصد بإعادة صياغة السياق نقل الممارسة الاجتماعية من ميدانها إلى الخطاب مع التصرف في عناصرها²، فإن ذلك ما قام به الرئيس الفرنسي بالفعل، إذ حاول توجيه الاتهامات والانتقادات الموجهة إليه نحو منافسيه ومعارضيه وسابقه السياسيين، كما استمات في إبراز حسن نيته وعدم معارضته للمحتجين. وفي ذلك إعادة صياغة حتى للعلاقة بين الخطيب والممارسة الاجتماعية، بحيث كشف التحليل النقدي اللساني الحجاجي للاستدلالات أنه سعى إلى بناء ذات واحدة تجمعهم والمحتجين، وهدم صورة العلاقة التناظرية التضادية بين ذاته وذاتهم.

بيد أن إعادة صياغة السياق هنا لم تقتصر على مجرد نقل من الميدان إلى الخطاب، وإنما هي استهداف للممارسة الاجتماعية نفسها؛ بمعنى أن الشكل الخطابي استهدف تعديل الممارسة في الميدان وليس على صعيد الخطاب فقط. بيان ذلك أنه أقحم أطرافاً أخرى في الخطاب لم تكن جزءاً من الممارسة الاجتماعية، وهم: كل صناعات القرار الفرنسيين خلال الأربعين سنة التي سبقت توليه رئاسة الجمهورية، والنقابيين والسياسيين الذين نعتهم بالانتهازيين والديماغوجيين وغير المسؤولين، وأثرياء فرنسا الذين قال عنهم أنهم غادروا بعد تحصيل ثروات طائلة، ورجال الأعمال الذين يؤدون الضرائب خارج فرنسا. ثم إنه حاول تعديل مواقفه من المحتجين الذين تعامل معهم في الخطاب الأول بجفاء وعدم اكتراث، بحيث توقف في الخطاب الثاني عند كل فئة من الفئات الهشة على حدة، وصرح بأنه أساء إليهم بتعليقاته.

إن أول نمط من أنماط الرأسمال النوعي الذي يظهر مؤثراً في الخطاب الثاني هو الرأسمال اللغوي، ذلك ظاهر بوضوح في قدرة الخطيب على كيل الاتهامات للآخر وإدانته دون تحديد هويته أو صفته، وقد اتضح ذلك مثلاً من خلال التلاعب بالفاعلية الخطابية، والاستدراك، وحذف مفسر الضمير، وإحلال الزمن فاعلاً، وإيهام الفاعل النحوي، والتلاعب بالضمائر. علاوة على ذلك، يظهر الأعمال الحريص والدقيق للرأسمال اللغوي حتى في

1 بيير بورديو، العنف الرمزي: بحث في أصول علم الاجتماع التربوي، ص.ص: 33-34.

2 فان لوفين، الخطاب باعتباره إعادة تشكيل سياق الممارسة الاجتماعية: دليل إرشادي، ص: 308.

الخيارات المعجمية، فقد جسدت الألفاظ والأوصاف والتطبيقات اللغوية أيديولوجية حذرة ومضرة لكنها منقولة عبر الممارسة الخطابية، كما عدلت المواقف وأسست مواقف جديدة مرضية للمحتجين وخادمة لمصالح الخطيب. وقد أعمل الخطيب كذلك رأسمالٍ أدائي تفاعلي، بحيث انتقى الحركات والإشارات والإيماءات والمستويات النغمية الكفيلة بتحقيق مقاصد الخطاب ومضامين المنطوقات، وفي مقدمتها تبرئة ذاته وتجويد صورته في نظر الشعب الفرنسي.

ويبرز أيضا رأسمال نوعي من نمط آخر، وهو الرأسمال المعرفي، إذ استثمر الخطيب معرفته بتاريخ السياسة الفرنسية، والأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي مرت منها، فقدمها حُججا للمقارنة بين ما مضى وما هو قائم في زمن توليه لرئاسة الجمهورية الفرنسية، وإيصال المحتجين إلى الاقتناع بأن ما يحتجون بسببه في الحاضر هو نتيجة لتراكم تاريخي يأتي من مراحل لم يكن هو المسؤول خلالها عن فرنسا. ولعل الهدف من الرأسمال المعرفي السياسي والتاريخي والاجتماعي هو انتزاع المقبولية الاجتماعية وكسب رهان الممارسة الاجتماعية كما يسميه بيير بورديو في كتاب (أسئلة علم الاجتماع) وهو يتحدث عن الممارسات الاجتماعية بوصفها سوقا لغوية¹.

النمط الثالث من أنماط الرأسمال النوعي المعتمد عليه في الخطاب الثاني هو الرأسمال العاطفي، بحيث إن الخطيب عدل الجانب العاطفي في شخصيته بشكل عنيف وجذري، فقد أبدى في الخطاب الثاني حساسية مفرطة، وضعفا مفتعلا، ومرونة بالغة الأثر في مناقشة أزمة السترات الصفراء والزيادة في قيمة ضرائب المحروقات. وقد استعان في تحقيق ذلك بجوانب الأداء التفاعلي كما بُينت في الفصل الثاني من الباب الثالث، إذ انتقل من وضعية الوقوف وعدم الاستقرار إلى وضعية الجلوس والثبات المطلق، ومن المستويات النغمية الحادة والعالية إلى المستوى النغمي المنخفض، ومن الانفعال الجسدي المطرد والمتمثل في الإيماءات وحركات الرأس والعينين والحاجبين إلى نظائرها المتسمة بالهدوء والاستقرار والتواضع والتضامن والتودد.

إن قيمة أنماط الرأسمال النوعي، اللغوي والمعرفي والعاطفي، تتجلى في كونها مزيجا بين المادي والمجرد، والواقعي والوجداني، والماضي والحاضر، والغائب والشاهد، من أجل

1 بيير بورديو، أسئلة علم الاجتماع، ص: 199.

تمرير الأيديولوجيا إلى أفكار الجمهور بمنوال خفي وموارب¹؛ بحيث إنها أسهمت في بناء شكل الخطاب على نحو التأثير والتصرف في الممارسة الاجتماعية التي يستهدفها، إذ سعى إلى هدم عناصرها المادية والمجردة التي لا تخدم مصالحه الخاصة، وتعديل أجزائها التي لا يمكن هدمها كتعديل مواقف المحتجين بوصفهم لحمة وليس كسر تلاحمهم؛ بمعنى أنه سعى إلى تغيير بعض ما يجتمعون عليه وليس التركيز على شتاتهم كما في الخطاب الأول. ولعل هذا الهدم والتعديل مظهر من مظاهر سلطة الخطاب من خلال استهداف الإدراكات السابقة كما يرى فان دايك².

معلوم أن أزمة السترات الصفراء ممارسة اجتماعية واحدة وممتدة في الزمن طيلة شهور، وأن الخطابين الأول والثاني قد استهدفاها معا؛ ومعنى ذلك أن للرئيس الفرنسي-ظاهريا- رهانا واحدا في الخطابين، وهو إخماد الاحتجاجات واستعادة استقرار البلاد. إلا أن الخطاب الأول شكل محاولة أولى فشلت في تحقيق هذا الهدف، والخطاب الثاني محاولة ثانية نجحت إلى حد كبير في تحقيقه، وخصوصا بإيقاف أعمال العنف وتراجع عدد المحتجين في اليوم الموالي لإلقاء الخطاب. بمعنى أن ما لم يسعف المحاولة الأولى في كسب الرهان هو عدم استثمار الخطيب للرأسمال اللغوي والمعرفي والعاطفي، وأما ما أسعف المحاولة الثانية في كسبه فهو الاستثمار الذكي والحذر للرأسمال النوعي باختلاف أنماطه.

ومن وجهة نظر بلاغية جدلية عربية، فإن الخطاب الأول للرئيس الفرنسي نحا في تعامله مع الممارسة الاجتماعية الهدف منحي الإلزام³، أي إنه سعى إلى إلزام الشعب الفرنسي بقبول مشروع الانتقال الطاقى والزيادة في الضرائب التي ترتبط به، وإيقاف الاحتجاجات بالتهديد والوعيد. بيد أن منحي الإلزام هذا لم يفلح بفعل مظاهر التحدي والتسلط والمجافاة التي كانت بارزة للغاية. لذلك، فإن الخطاب الثاني تعاطى مع الممارسة الاجتماعية عينها باتخاذ

1 فان دايك، الخطاب والسلطة، ص: 440.

2 فان دايك، دراسات الخطاب النقدية: المقاربة المعرفية الاجتماعية، ص: 142.

3 معنى الإلزام في العرف البلاغي والشرعي هو أن أحد طرفي الممارسة الجدلية قد أفلح في أن يعلق شتى الطرق التي أنت منها حجج الآخر وبراهينه، ففرض عليه الاقتياد واضطره قهرا إلى أن يقر.

انظر: الشريف الجرجاني، التعريفات، ص: 246.

منحى الإقرار¹ بديلا، أي إنه تراجع عن منحى الإلزام وتنازل عنه، ثم فتح صفحة جديدة يقر فيها بأحقية المحتجين في كل ما يطالبون به، والاستعداد للإصلاح والتصحيح. لذا، يمكن عنونة الخطاب الأول بأنه محاولة إلزام اجتماعي، والخطاب الثاني بأنه إقرار المتكلم بجدوى الاحتجاجات.

إن رهان العلاقة بين الشكل والممارسة الاجتماعية حُسم في الخطاب الثاني بإعمال الرأسمال النوعي من جهة، وبناء الشكل وفق الدلالة الاجتماعية، لأن النحو تجسيد لأنماط السلوك الاجتماعي والثقافي كما يرى هاليداي²؛ أي إنه باعتبار معطيات السياق الاجتماعي وحيثياته اختيرت الهندسة اللغوية للخطاب، والاختيار اللغوي قام على أساس ما يقتضيه الوضع الاجتماعي المحايث، حسب المنظور اللساني الوظيفي النسقي الذي يؤكد أن الاختيارات اللغوية تتأسس على قرائن سياقية وغرضية، تتدخل فيها الخبرة الإنسانية، والاجتماعية، والقصدية، والثقافية³.

أما عن علاقة شكل الخطاب بالطموح الأيديولوجي للرئيس الفرنسي، فإن الاختيارات اللغوية والبلاغية والحجاجية والتفاعلية لم تقتصر فقط على تجسيد الوقائع، بل إنها أعادت بناءها أيديولوجيا واجتماعيا، وهذا ما يعبر عنه روجر فاوولر بالبناء اللغوي المشبوه للأيديولوجيا⁴؛ بمعنى أن الخطاب بوصفه شكلا قد مثل الأيديولوجيات كلاميا، وأن الرموز اللغوية أضمرت الأيديولوجيا المتوارية ولكنها فرضتها على البنى الإدراكية للجمهور في السياق الاجتماعي كما يرى فاوولر كذلك⁵. ولعل الأيديولوجيا المتوارية خلف شكل الخطاب الثاني تتوزع في مسارين: أولهما أنه سعى إلى توريث غيره في تحمل مسؤولية الأوضاع المزرية للشعب الفرنسي المحتج، وثانيهما هو ظهور شخصية الرئيس بوصفه المنقذ المستعد لإخراج الشعب من معاناته، وتجنده مع الشعب نفسه لصد الأطراف المتسببة في المشاكل الاجتماعية وزرع الفتنة. بمعنى أنه معهم -بعد تحديدهم في الخطاب الأول- ويمثلهم ومتفق مع مطالبهم.

1 معنى الإقرار في العرف البلاغي والشرعي هو أن أحد طرفي الممارسة الجدلية قد أذعن بعد أن تراءى له الحق والصدق في ما أتى به الطرف الآخر، وأن ما كان يجادل به غير مجدٍ. الجويني، الكافية في الجدل، ص: 543.

2 Halliday, M.A.K, Language in social perspective, p: 64

3 Halliday, M.A.K, Deep Grammar: System as Semantic Choice, In Kress, p: 08

4 Fowler, Roger, Language in the News: Discourse and Ideology in the Press, p:67.

5 Fowler, Roger, On critical linguistics, p:03.

عموماً، لقد أعاد الخطاب الثاني من خلال النشاط اللغوي إنتاج سيرورات المعنى المحيطة بالممارسة الاجتماعية الهدف مع تحميلها مقاصدً أيديولوجية، ولعل إعادة إنتاج المعنى على هذه الشاكلة هي ما يعدُّه روجر فاوُلر تكييفاً للاختيارات اللغوية حتى تلائم سيرورات المعنى المنتمية إلى مستوى أوسع في التنظيم الاجتماعي¹.

1 روجر فاوُلر، النقد اللساني، ص: 100.

خاتمة:

ختاماً، وبعد التأصيل النظري (اللساني والبلاغي والاجتماعي) للمقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة في التحليل النقدي للخطاب، وتطبيقها على المتن المدروس، لعل في التحقق من فرضية البحث الإجابة الملائمة لإشكاله المركزي؛ فقد تبين أن الدلالة الاجتماعية هي العامل المتحكم في انتخاب الخيارات اللسانية والحجاجية المكرسة للسلطة. وتبين أيضاً، وكما توقعنا هذه الأطروحة في المقدمة، أن العلاقة بين الشكل الخطابي والممارسة الاجتماعية علاقة تأثير مباشر وعمودي من الخطاب إلى الممارسة الاجتماعية.

تيسير ذلك أن منشئي الخطابات ذات الطابع السلطوي يحتكمون إلى عناصر سياقات الممارسات الاجتماعية وخصوصيات أطرافها لصياغة نصوصهم لسانياً وحجاجياً وبلاغياً وتفاعلياً، وأن الشكل الخطابي في نهاية المطاف تجسيداً لأنماط السلوك الاجتماعي والثقافي من المنظور الوظيفي النسقي، والطموح الأيديولوجي من منظور اللسانيات النقدية. فقد كشف الفصلان الثاني والثالث من الباب الثاني، وكذلك الفصلان الثاني والثالث من الباب الثالث، أن الخرج النهائي للخطاب ما هو إلا مجموع للخيارات اللسانية القائمة، وإلغاء لمجموع آخر كان ممكناً ولكنه لا يسعف صناعات الخطابات المدروسة في خدمة مراجعهم الأيديولوجية وتكريس أطماع السلطة ومظاهرها.

إذن، فإن الخطاب -متسلحاً باللغة والحجاج والبلاغة والأداء التفاعلي- يكرس مظاهر السلطة (كالتلاعب والعنصرية والمواربة والتحكم والانحياز والتضليل والكذب) من خلال جعل الصناعة المعنوية للأيديولوجيا والهيمنة هي الدلالة التي ينبغي أن يؤديها الاختيار والصياغة اللسانية.

لقد أثمرت معالجة الإشكال المركزي مجموعة نتائج يمكن تصنيفها إلى نتائج متعلقة بالتأصيل النظري للمقاربة اللسانية الحجاجية المقترحة في التحليل النقدي للخطاب في الباب الأول، وأخرى متعلقة بتطبيقها في البابين الثاني والثالث:

1. نتائج التأصيل النظري للمقاربة المقترحة وتطبيقها:

- نتائج التأصيل النظري:

- لا صلة لمصطلح "النقد" في التحليل النقدي للخطاب بالأدب أو بالنقد الأدبي في المناهج الحديثة والمعاصرة، وإنما هو ذو حمولة فلسفية اجتماعية، ويعني

عدم التسليم بأية علاقة وضعية، والاحتكام إلى التفكيك القائم على الوصف والتحليل والمساءلة من أجل الفضح والكشف، وليس فقط البحث عن الأسباب الكامنة من وراء الظواهر وفق المنظور الوضعي.

■ قبل اللسانيات النقدية والتحليل النقدي للخطاب، هناك مدخلان لسانيان سلكا نهج النقد الخطابي، وهما التداولية والمدرسة الفرنسية بزعامة بيشو. ومع أن التداولية تجاوزت المعنى الظاهر وبحثت في المعاني الضمنية، فإنها نظرت فقط القول المفرد، واحتكمت إلى السياق الضيق، ولم تبحث عن الوظائف السلطوية للاستعمال اللغوي. أما المدرسة الفرنسية، فإنها جمعت بين التحليل الخطابي والوظيفة الاجتماعية، ولكنها اقتصررت فقط على الصناعة اللغوية للأيدولوجيا ولم تنظر في جوانب السيطرة والهيمنة والتحكم وباقي مظاهر الممارسة السلطوية.

■ لكل مناهج التحليل النقدي للخطاب أساسان مرجعيان لسانيان صرفان، أولهما هو اللسانيات النقدية مع روجر فاوهر، وثانيهما هو النحو الوظيفي النسقي مع مايكل هاليداي. فالأساس الأول سخر لتحليل النقدي للخطاب عدة لسانية لنقد الصناعة الأيدولوجية للمعنى، والأساس الثاني يسر كشف العلاقة بين نظام اللغة وأنماط السلوك الاجتماعي والثقافي.

■ للتحليل النقدي مرجعيات اجتماعية متنوعة وخصبة: نظرية الفعل التواصلي لهابرماس، وسوسيولوجيا الهيمنة لبير بورديو، والخطاب والمعرفة الاجتماعية لفوكو، ونظرية التمثيل الاجتماعي في علم النفس الاجتماعي لسيرجي موسكوفيتشي.

■ تختلف وجهات نظر مناهج التحليل النقدي للخطاب بخصوص طبيعة العلاقة بين شكل الخطاب والممارسة الاجتماعية، وتبين بأن ولا واحد منها يرى أنها علاقة تأثير مباشرة وعمودية؛ فالمنهج الجدلي العلائقي(فيركلف) يراها علاقة جدلية، والمنهج المعرفي الاجتماعي(فان دايك) يرى أن بين الشكل والممارسة وسيط هو الإدراك، والمنهج التنظيمي(جاغر ومايبر) يرى -على خلاف كل المناهج- أن الشكل هو الواقع وليس الخطاب، وأن الخطاب هو الممارسة التي

تنتج الشكل، ومنهج الفاعل الاجتماعي (فان لوفين) يجد أن الخطاب إعادة لصياغة الممارسة الاجتماعية، والمنهج التاريخي (فوداك وريزيغل) لا يولي الممارسة أهمية وإنما يرى أن أي خطاب هو شكل لتفاعل خطابات سابقة في إطار التناص، ومنهج لسانيات المدونات (ماوتتر وبارتينغتون وماكينري) يعتبر الشكل الخطابى مصدرا لتفسير الممارسة الاجتماعية. وترى المقاربة اللسانية الحاجية المقترحة أن الشكل يؤثر في الممارسة الاجتماعية بشكل مباشر دون أية وساطة من أي نوع.

■ تهيبى النظرية الحاجية العربية في البلاغة وأصول النحو والفقهاء وأصوله أرضية نظرية وإجراءات منهجية كفيلة بالتحليل النقدي للسلطة في الخطاب على صعيد الخيارات الحاجية والأداء التفاعلي حركة وإشارةً وصوتاً. وقد قدم الفصل الثالث من الباب الأول والفصل الثالث من الباب الثالث محاولة متواضعة لاستنباط هذه الإجراءات وتطبيق بعضها على الخطاب الثاني للرئيس الفرنسي الحالي.

- نتائج التطبيق:

- الأسس اللسانية الحاجية للمقاربة المقترحة في التحليل النقدي للخطاب هي: اللسانيات النقدية، والنحو الوظيفي النسقي، وبلاغة الجدل عند العرب.
- الأساس الاجتماعي للمقاربة المقترحة في التحليل النقدي للخطاب هو نظرية سوسولوجيا الهيمنة لبيير بورديو، وتحديدًا تطبيق مفاهيم الاستعدادات السابقة، والرأسمال النوعي، والسوق اللغوية.
- أولت المقاربة اللسانية الحاجية المقترحة في التحليل النقدي للخطاب الأهمية القصوى للجوانب اللسانية والحجاجية في نقد سلطة الخطاب.
- المنهج الملائم للمقاربة المقترحة هو المنهج الوصفي التحليلي الساعي إلى النقد.
- يترتب هذا المنهج المعتمد في خطوتين كبيرتين: نقد الممارسة اللسانية الحاجية (نصاً وخطاباً)، ثم نقد الممارسة الاجتماعية (أي صياغة الخلاصة الاجتماعية للنقد اللساني).
- لإجراءات الإحصائية ونسب التردد دور كبير في تحديد أنماط الأساليب والصيغ المكرسة للسلطة في كل مستوى.

- النص بناء لغوي وحجاجي لا تتحقق أغراضه السلطوية إلا في التفاعل الخطابى خطاباً أو تخاطباً.
- الخطاب استخدام فعلي للنص في سياق الممارسة الاجتماعية قصد أداء وظائف سلطوية وأيديولوجية.
- الممارسة الاجتماعية مجموعة أحداث ووقائع ممتدة في الزمان والمكان، وهي هدف الخطاب، وموضوع الممارسة السلطوية.
- الفاعلية الخطابية لا تعني بالضرورة أن الفاعل في الخطاب هو الفاعل النحوي في موقعه الإعرابي، وإنما قد يُحذف ويعوض بصيغ إعرابية أخرى كالبناء للمجهول والإضافة والظرف وحذف مفسر الضمير وغير ذلك.
- الاختيارات النحوية والمعجمية والصوتية والتداولية والحجاجية والتفاعلية تشفير وصناعة للمعاني الأيديولوجية.
- الإجراءات الحجاجية المكرسة للسلطة لا تقتصر بالضرورة على الأدوات والاستدلال والإجراءات الإقناعية، وإنما يمكن أن تمتد إلى نوع الجملة، وهرمية الأحداث، والأفعال اللغوية، والإيماء، والصوت، والصورة، والخط، واللون...

2. تقويم المقاربة المقترحة:

- على الرغم من أن الفصلين الثاني والثالث من الباب الثالث قد حاولا تنزيل المقاربة عملياً، إلا أن تطبيقها كشف مجموعة ملاحظات ينبغي أخذها في عين الاعتبار، ومحاولة تصويبها أو تطويرها:
- ينبغي تدقيق المفاهيم المقترحة أو المستعارة بشكل أفضل، مثل الفاعلية الخطابية، والفاعلية الاجتماعية، والشكل، والممارسة الاجتماعية، وهرمية الأحداث، وسلمية الأخبار...
 - يبدو أن هناك قصوراً في تكييف المفاهيم الاجتماعية المتقدمة من سوسولوجيا الهيمنة (مثل الأبيتوس والرأسمال النوعي والسوق اللغوية)، بحيث أُدرجت وفق حمولتها الاجتماعية دون مراعاة انتقالها من حقل علم الاجتماع إلى حقل لسانيات الخطاب.
 - هناك فصل بين تحليل الجانب التفاعلي الأدائي والجانب اللساني، وينبغي العمل على التوفيق بين الجانبين في التحليل بالموازاة.

- هناك تركيز كبير على الاستخدامات النحوية مقارنة مع المستويات اللسانية الأخرى (ليس فقط في هذا البحث وإنما في جل أبحاث التحليل النقدي للخطاب)، ولا بد من الكشف عن طبيعة السبب (ذاتي أم موضوعي؟)، أو العمل على ضمان التكافؤ بين المستويات).
- الإجراءات الإحصائية بالاستناد إلى تطبيق (Excel) أسهمت بشكل كبير في تحديد نسب الحضور والتردد، ولكنها تبقى قاصرة في استخراج الاستخدامات اللغوية في سياقاتها وتحديد معاملات تأثيرها؛ لذا ينبغي اعتماد إما تطبيق (R) أو تطبيق (غواص).
- يجب تجريب المقاربة المقترحة على خطابات تناظرية (المناظرة)، أو خطابات حرفية دقيقة ومصممة ومعززة بتقنيات التصوير الحديث كمنشورات الأخبار، والبرامج الحوارية، والريورتاجات، والبرامج الإذاعية، لاختبار مدى ملاءمتها لكل الأنماط.

3. مقترحات وتوصيات:

- برزت خلال أعوام إعداد هذه الأطروحة مجموعة ملاحظات وأفكار ومقترحات لم يسمح الوقت والحيز الورقي بمعالجتها. لذلك، يمكن الإشارة إليها والتنبيه إلى أهميتها في نهاية هذا البحث. وأهمها:
- يمكن أفراد رسالة ماستر أو أطروحة دكتوراه فقط لقضية تمثيل الأيديولوجيا والسلطة بالعلاقات النحوية الإسنادية.
 - يمكن دراسة التمثيل السلطوي والأيديولوجي للتلازم اللفظي فقط في رسالة ماستر أو أطروحة دكتوراه.
 - يمكن دراسة قضية التشفير المعجمي للأيديولوجيا في ضوء التحليل النقدي للخطاب.
 - يمكن توسيع زاوية نظر الدراسة التداولية للأفعال اللغوية والإشارات والاستلزام الحوارية والافتراض المسبق وفق منظور التحليل النقدي للخطاب.
 - يمكن التركيز -في بحث معين- فقط على الجوانب الحجاجية المكرسة للسلطة في الخطاب استنادا إلى نظرية الحجاج اللغوي وعلاقته بالبنى التصويرية.
 - يمكن تطبيق المقاربة اللسانية الحجاجية بالاستعانة بمنهج لسانيات المدونات نظرا لدقتها في استخراج الاستعمالات النحوية والصيغ الصرفية والاختيارات المعجمية الرامية إلى ممارسة السلطة الخطابية.

- يمكن التوفيق بين هذه المقاربة ومنطق اشتغال اللسانيات الجنائية أو اللسانيات الإدراكية.
- بات من الضروري إدراج مقاربة التحليل النقدي للخطاب ضمن مقررات تخصص اللسانيات في الجامعة المغربية، لاسيما أنه تخصص معاصر، وأصبح موضوعا للعديد من الندوات والمؤتمرات والرسائل والأطاريح الجامعية في كثير من الجامعات العربية، خاصة في جامعة الملك سعود، وجامعة الملك عبد العزيز، وجامعة القاهرة، وجامعة البصرة، وجامعة الدوحة، والجامعة اللبنانية، وجامعة ابن زهر بالمملكة المغربية. كما أنه مجال تلتقي فيه جل الفروع اللسانية الحديثة وحتى القديمة.
- من الممكن العمل على تآزر بين البحث الاجتماعي والبحث اللساني في التحليل النقدي للخطاب، وذلك بالتنسيق بين شعب اللغة العربية وشعب علم الاجتماع، لعقد ندوات أو مؤتمرات في مواضيع يتقاطع فيه التخصصان من قبيل:
 - تأثير الفلسفة النقدية لمدرسة فرانكفورت في الدرس اللساني
 - ماذا يقدم علم النفس الاجتماعي للسانيات التطبيقية من مفاهيم وتصورات منهجية؟
 - الفروق الدقيقة بين مفهوم الخطاب ومفهوم المعرفة عند ميشال فوكو وفي التحليل النقدي للخطاب.
 - علاقة المستوى الصوتي والسجلات اللغوية في الخطاب بالصراع الطبقي الاجتماعي.
 - علاقة الوصم الاجتماعي بسلطة اللغة...

والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

. القرآن الكريم.

1. المصادر:

- . ابن الأثير، ضياء الدين (ت637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1990.
- . ابن الأنباري، كمال الدين، (ت577هـ)، الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة، تحقيق سعيد الأفغاني، دار الفكر، ط2، بيروت، 1971.
- . الأنصاري، ابن هشام (ت761هـ)، المغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق: مازن المبارك وحمد علي حمد الله، مراجعة سعد الأفغاني، دار الفكر، دمشق، ط1، 1964.
- . الباجي، أبو الوليد (ت474هـ)، المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 2000.
- . البغدادي، أبو منصور، عيار النظر في علم الجدل، تحقيق: أحمد محمد عزوبي، أسفار لنشر نفيس الكتب والرسائل العلمية، ط1، الكويت، 2019.
- . التهانوي، علي ابن القاضي (ت1158هـ)، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق رفيق العجم وعلي دحروج، مكتبة لبنان، بيروت، 1996.
- . ابن تيمية، أحمد (ت728هـ)، تبيينه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل، تحقيق علي بن محمد العمران ومحمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، جدة، بدون تاريخ.
- . الجاحظ، أبو عثمان (ت255هـ)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط7، القاهرة، 1998.
- . الجرجاني، الشريف (ت816هـ)، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، 2004.

- . الجرجاني، عبد القاهر (ت471هـ)، أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط1، القاهرة، د.ت، ص92.
- . الجرجاني، عبد القاهر (ت471هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق: علي محمد زينو، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، دمشق، 2005.
- . ابن جني، الخصائص (ت392هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ط1، القاهرة، (1952م).
- . الجويني، عبد الملك (ت478هـ)، الكافية في الجدل، تحقيق فوقية حسين محمود، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1979.
- . العسكري، أبو هلال (ت476هـ)، الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 2006.
- . السكاكي، أبو يعقوب (ت626هـ)، "مفتاح العلوم"، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1987.
- . السيوطي، جلال الدين (ت911هـ)، الاقتراح في أصول النحو، تحقيق عبد الحكيم عطية، دار البيروتي، ط2، بيروت، 2006.
- . الشيرازي، أبو إسحاق (ت476هـ)، المعونة في الجدل، تحقيق علي بن عبد العزيز العميريني، منشورات مركز المخطوطات والتراث، ط1، الكويت، 1987.
- . ابن فارس، أحمد (ت395هـ)، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق، 1979.
- . القرطاجني، حازم (ت684هـ)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1996.
- . ابن وهب، الكاتب (ت335هـ)، البرهان في وجوه البيان، تحقيق حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، مصر، 1979.

2. المراجع:

- . بارتينغتون، ألان، الكرسي والآلة: أبحاث الخطاب بمساعدة المدونات، ترجمة محمد يطاوي، مجلة خطابات، العدد الثالث، الجزائر، 2021.
- . بدوي، أحمد موسى، ما بين الفعل والبناء الاجتماعي، بحث في نظرية الممارسة لدى بيير بورديو، مجلة إضافات، العدد الثامن، القاهرة، 2019.
- . براون جيليان، وجورج يول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطني ومنير التركي، النشر العلمي والمطابع-الملك سعود، الرياض، 1997.
- . بروطون، فيليب، الحجاج في التواصل، ترجمة محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العالمي، المركز . القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2013.
- . بورديو، بيير، بعبارة أخرى: محاولات باتجاه سوسيولوجيا انعكاسية، ترجمة أحمد حسان، دار ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، 2002.
- . بورديو، بيير، وجون د. فاكونت، أسئلة علم الاجتماع في علم الاجتماع الانعكاسي، ترجمة عبد الجليل الكور، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1997.
- . بورديو بيير، أسباب عملية، ترجمة أنور مغيث، دار الأزمنة الحديثة، بيروت، لبنان، 1998.
- . بورديو، بيير، السوق اللغوية، ترجمة حسن أحجيج، مجلة فكر ونقد، العدد 20، المغرب، 1999.
- . بورديو، بيير، أسئلة علم الاجتماع: حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي، ترجمة: إبراهيم فتحي، دار العالم الثالث، ط1، القاهرة، 1995.
- . بورديو، بيير، وجون كلود باسرون، إعادة الإنتاج، ترجمة ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2007.
- . بورديو، بيير، العنف الرمزي: بحث في أصول علم الاجتماع التربوي، ترجمة نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994.

. جمعان، بن عبد الكريم، من تحليل الخطاب إلى تحليل الخطاب النقدي: مناهج ونظريات، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، 2016.

. خطابي، محمد، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1991.

. خلف، مصطفى عبد الواحد، "قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع"، مجموعة الفصول المترجمة مترجمة، مراجعة الجوهري، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة، 2002.

. الذكوروي، أيمن، المدونات اللغوية ودورها في معالجة النصوص العربية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط1، 2018.

. الزليطني محمد لطفي، من تحليل الخطاب إلى التحليل النقدي للخطاب، مجلة الخطاب، 2014، العدد 17.

. العزاوي، أبو بكر، اللغة والحجاج، دار العمدة في الطبع، ط1، 2006.

. العزاوي، أبو بكر، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2010.

. العزاوي، أبو بكر، اللغة والمنطق، مطبعة طوب بريس، ط1، الرباط، 2014.

. عماد عبد اللطيف، بيان التنحي وذاكرة الهزيمة: مدخل بلاغي لتحليل الخطاب السياسي، مجلة ألف، الجامعة الأمريكية، العدد 30، 2010.

. السبيهي، محمد، اعتراض النحويين للدليل العقلي، مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية، 1426هـ.

. سكوت، جون، علم الاجتماع: المفاهيم الأساسية، ترجمة: محمد عثمان، المكتبة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت، 2009.

. السيد، عبد العاطي وآخرون، نظرية علم الاجتماع: الاتجاهات الحديثة والمعاصرة ، دار المعرفة . الجامعية، بيروت، 2006.

. شارودو باتريك ودومينيك منغونو وآخرون، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهري وحمادي صمود، مراجعة صلاح الدين شريف، المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا، تونس، 2008.

. الشمري، عقيل، ومحمود المحمود، التحليل النقدي للخطاب بالاعتماد على المدونات اللغوية: أخبار حرب غزة نموذجاً، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، 2015.

. فاسولد، رالف، علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، ترجمة إبراهيم الفلاي، النشر العلمي والمطابع جامعة الملك سعود، الرياض، 2000.

. الفاسي الفهري، عبد القادر، اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 1985.

. فان دايك، توين، النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2000.

. فان دايك، توين، الخطاب والسلطة، ترجمة غيداء العلي، مراجعة وتقديم عماد عبد اللطيف، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط1، 2014.

. فان دايك، توين، دراسات الخطاب النقدية، المقاربة المعرفية الاجتماعية، ضمن مناهج التحليل النقدي للخطاب، ترجمة حسام أحمد فرج وعزة شبل محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2014.

. فان لوفين، تيو، الخطاب باعتباره إعادة تشكيل سياق الممارسة الاجتماعية: دليل إرشادي، ضمن مناهج التحليل النقدي للخطاب، روث فوداك وفلورينتين ماير، ترجمت: حسام أحمد فرج وعزة شبل محمد، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2014.

. فالولر، روجر، النقد اللساني، ترجمة عفاف البطاينة، مراجعة هيثم غالب الناجي، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2012.

- . فوداك روث وميشال مايير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ترجمة حسام أحمد فرج وعزة شبل محمد، . مراجعة عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2014.
- . فوكو، ميشال(1972)، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، 1987.
- . فوكو، ميشال، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير، د.ت.
- . فوكو، ميشال، المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن، ترجمة علي مقلد، مراجعة مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990.
- . فوكو، ميشال(1981)، تاريخ الجنسانية ج1 إرادة المعرفة، ترجمة محمد هشام، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2004.
- . فولفجانج هاينه منْ وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النص، ترجمة فالح بن شبيب العجمي، مطابع جامعة الملك سعود، 1999.
- . فيركلف، نورمان، الخطاب والتغير الاجتماعي، ترجمة محمد عناني، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2015.
- . فيركلف، نورمان، تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ترجمة طلال وهبة، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط1، القاهرة، 2009.
- . فيركلف، نورمان، اللغة والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2016.
- . فيركلف، نورمان، مقارنة جدلية-علائقية للتحليل النقدي للخطاب في البحث الاجتماعي، ضمن: فوداك روث وميشال مايير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ترجمة حسام أحمد فرج وعزة شبل محمد، مراجعة عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2014.
- . كريب، إيان، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسين غلوم، مراجعة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1999.

. ليتش، جيوفري، مبادئ التداولية، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2013.

. ماوتتر، جيرلند، فحوص وتوازنات: كيف تضيف المدونات اللغوية إلى التحليل النقدي للخطاب، ضمن: فوداك روث وميشال مايير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ترجمة حسام. أحمد فرج وعزة شبل محمد، مراجعة عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2014.

. المتوكل، أحمد، التركيبات الوظيفية: قضايا ومقاربات، مكتبة دار الأمان، ط1، 2005، الرباط، 2005.

. مصدق، حسن، يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت: النظرية النقدية التواصلية، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2005.

. موهوب، موراد، التنعيم في اللغة العربية المعيار المعاصرة-دراسة صوتية، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في اللسانيات، الجزء الأول، جامعة القاضي عياض كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، 1999-2000.

. ميلز، سارة، الخطاب، ترجمة عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2016.

. نحلة، محمود أحمد، علم اللغة النظامي: مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، ملتقى الفكر، ط2، 2001.

. هابرماس، يورغن، التقنية والعلم كأيديولوجيا، ترجمة إلياس حاجوج، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1999.

. هابرماس، يورغن، التقنية والعلم كأيديولوجيا، ترجمة إلياس حاجوج، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1999.

. ياغر سيغفريد وفلورينتين ماير، الجوانب النظرية والمنهجية في التحليل النقدي للخطاب وتحليل التصرفات لدى فوكو.

- . Althusser, L. Pour Marx, Maspero, coll. « Théorie », 1965.
- . Althusser, L. Etienne Balibar, Roger Estabiet, Pierre Macherey et Jacques, Lire Le Capital, Presses Universitaires de France, Paris, 1970.
- . Baker-Paul, Using Corpora in Discourse Analysis, London: Continuum, 2006.
- . Baker, Paul and Sibonile Ellece, Key Terms in Discourse Analysis, London, New York, Continuum International Publishing Group, 2011.
- . Benveniste, E. Problèmes de linguistique générale, T2, Gallimard, 1974.
- . Billig, Michael, Critical Discourse Analysis and the Rhetoric of Critique, in: Gilbert Weiss and Ruth Wodak, Critical Discourse Analysis: Theory and Interdisciplinarity, Palgrave Macmillan, New York, 2003 .
- . Bloomfield, Language, 2 Edition, George Allen and Unwin LTD, London, 1955.
- . Bourdieu, Pierre, et Luc Boltanski, Le fétichisme de la langue: Actes de la recherche en sciences sociales, vol. 1, no 4, juillet 1975.
- . Bourdieu, Pierre, Ce que parler veut dire. L'économie des échanges linguistiques. Paris, Éditions Fayard, 1982.
- . Bourdieu, Pierre, The Field of Cultural Production: Essays on Art and literature, Edited and Introduced by Randal Johnson, Cambridge, UK: Polity Press, 1993a .
- . Bourdieu, Pierre, (préf. John B. Thompson), Langage et pouvoir symbolique, Paris, Seuil, coll. « Points essais » (no 431), 2001 .
- . Chilton, Paul, Missing links in mainstream CDA: Modules, blends and the critical instinct, In: Ruth Wodak and Paul Chilton, New Agenda in Critical Discourse Analysis, John Benjamins Publishing Company, Philadelphia, 2005.
- . Clare O'Farrell, "Michel Foucault", Sage Publications, London, 2005.
- . Coulthard, Carmen Rosa Caldas - and Malcolm Coulthard, Texts and Practices- Readings in Critical Discourse Analysis, Taylor & Francis e-Library, 2003.
- . De baeugrande, R, and Wolfgang Dressler, Introduction to Text Linguistics, Longman, London, 1981.
- . De Saussure ,Ferdinand, Cours De Linguistique Générale, Publié par Charles Bally et Albert Sechehaye et Albert Riedlinger, Arbre d'Or, Genève août 2005.

- . Choi-Jonin, Injoo, et Corinne Delhay, Introduction à la méthodologie en linguistique : application au français contemporain, Presses universitaires de Strasbourg, Strasbourg, 1998.
- . Dubois Jean et autres, Dictionnaire de Linguistique, Larousse, Canada, 1991.
- . Ducrot, Oswald et J-C.Anscombe, L'Argumentation dans la langue, Revue Language, N° 42, France, 1976.
- . Fairclough, Norman, Discours and Social Change, Cambridge, Polity Press, 1992.
- . Fairclough, Norman, Analyzing discourse: Textual analysis for social research. London: Routledge, 2003.
- . Foucault, Michel, The Order of Discours, In M. Shapiro (Ed), Language and Politics, Oxford, Basil Blackwell, 1984.
- . Fowler, R., Hodge, B., Kress, G. and Trew, T, Language and Control, Routledge and Kegan Paul, London, 1979.
- . Fowler, Roger, Language in the News: Discourse and Ideology in the Press, Routledge, London, 1991.
- . Fowler, Roger, On critical linguistics, in: Carmen Rosa Caldas -Coulthard and Malcolm Coulthard, Texts and Practices- Readings in Critical Discourse Analysis, Taylor & Francis e-Library, 2003.
- . Garfinkel, H, Studies in Ethnomethodology, Englewood Ctiffs, Prentice Hall, New Jersey, 1967.
- . Garfinkel, H, Ethnomethodology's Program. New York: Rowman and Littlefield, 2002.
- . Greimas A. J. Sémantique Structurale: Recherche de Méthode, Larousse, Paris 1966.
- . Habermas, Jürgen, Towards a Theory of Communicative Competence, Inquiry Journal, Vol 13, Issue 1-4, 1970.
- . Habermas, Jürgen. The Theory of Communicative Action, Vol 2: Life world and System: A Critique of Functionalist Reason. T. McCarthy. Boston: Beacon Press, 1987.

- . Habermas, Jürgen, The Universal Pragmatic, in: IEEE Transactions on Professional Communication, Volume: 41, Issue: 2, Jun 1998.
- . Hall, Stuart, Foucault and Discourse, in: Clive Seale, Social Research Methods, Routledge Taylor and Francis group, London, 2004.
- . Halliday, M.A.K, Deep Grammar: System as Semantic Choice, In Kress, G (ed) 1976, Edward Arnold, 1966.
- . Halliday, M.A.K. Explorations in the Functions of Language, London: Edward Arnold, 1973.
- . Halliday M. K. A. and Hasan R. Cohesion in English, London, 1976.
- . Halliday, M.A.K, Language in social perspective, in: Halliday, M.A.K, explorations in the function of language, Edward Arnold, London, 1978 .
- . Halliday, Michael, An Introduction to Functional Grammar, Edward Arnold, London, 1994.
- . Jager-Siegfried, and Maier, Florentine, Theoretical and methodological aspects of Foucauldian critical discourse In: Wodak, Ruth & Meyer, Michael, Methods of CDA. London: Sage, 2001 .
- . Jager-Siegfried, and Maier-Florentine, Theoretical and methodological aspects of Foucauldian critical discourse In: Wodak, Ruth & Meyer, Michael, Methods of CDA. London: Sage, Edition 2, 2009.
- . Jakobson, Roman, Essais de linguistique générale, Traduction de Nicolas Ruwet, Minuit, 1963.
- . Kress, G., Linguistic Processes in Sociocultural Practice, Victoria: Deakin University Press, 1985b.
- . Leontiev. A.N, "ACTIVITY, CONSCIOUSNESS, PERSONALITY, Translated by Maris J. Hall, First Published by Prentice-hall, 1978.
- . Mautner, Hardt, Gerlinde, 'Only Connect'. Critical discourse analysis and corpus linguistics. University of Lancaster, 1995.
Online: <www.comp.lancs.ac.uk/computing/research/ucrel/tech_papers.html>
- . Mccenry and Welson, Corpus Linguistics, Edinburgh University press, 1996.

- . Morley, John / Bayley, Paul (eds) forthcoming. *Wordings of War: Corpus-Assisted Discourse Studies on the Iraq War*. London: Routledge.
- . Moscovici, Serge, *Social Representations: Essays in Social Psychology, Explorations in Social Psychology*, Edited by Gerard Duveen, Polity Press, 2000.
- . Moscovici S, (1961), *La Psychanalyse, son image et son public*, Paris, Presses universitaires de France, 2014.
- . Nikos, Kalampalikis, Serge Moscovici: *Psychologie des représentations sociales*, Hal, 2019.
- . Partington, Alan / Morley, John / Haarman, Louann (eds), *Corpora and Discourse*. Bern: Peter Lang, 2004.
- . Pecheux, Michel, *Analyse Automatique du discours*, Dunod, Paris, 1969.
- . Pecheux, Michel, Henry. P, Piotu. J-P, et Haroch. C.: " Le rapport Mancholt: Un Cas D'ambiguïté ideologique." *Technologies, Idéologies, et Pratiques*, 1979.
- . Pecheux, Michel, *Languages, Semantics, And Ideology*, Macmillon, London, 1982.
- . Perlman Chaïm, *l'Empire Rhétorique*, vrin, Paris, 1998.
- . Revel Judith, *Dictionnaire Foucault*, Ellipses Edition, Marketing, S.A, 2000.
- . Sacks, H, Schegloff, E. A., and Jefferson, G, "A simplest systematics for the organization of turn-taking for conversation." *Language*, N° 50, 1974.
- . Seale, Clive, *Social Research Methods*, Routledge Taylor and Francis group, London, 2004, pp 345-349.
- . Schiffrin, Deborah, Deborah Tannen, and Heidi E. Hamilton, *Handbook of Discourse Analysis*, Blackwell Publishers, Massachusetts, 2001.
- . Stubbs, M, *Discourse Analysis, The sociolinguistic Analysis of Natural Language*, University of Chicago Press, Chicago, 1983.
- . Stubbs, Michael, *Words and Phrases: Corpus Studies of Lexical Semantics*. Oxford: Blackwell, 2001.
- . Stubbs, Michael, *Text and Corpus Analysis*. Oxford: Blackwell, 1996.
- . Van Dijk, Teun, and walter Kintsch, *Strategies og discourse Comprehension*, Academic Press, New York, 1983.

- . Van Dijk, Teun, Discourse and communication: New approaches to the analysis of mass media discourse and communication, de Gruyter, Berlin, 1985b.
- . Van Dijk, Teun, Principles of Critical Discourse Analysis,. Discourse & Society Journal, Vol 4, Issue 2, 1993.
- . Van Leeven, Theo, The representation of social actors, In: Carmen Rosa Caldas-Coulthard and Malcolm Coulthard, Texts and Practices: Readings in Critical Discourse Analysis, Routledge, London, 1996.
- . Van Leeven, Theo, discourse and practice: new tools for critical discourse analysis, OXFORD university press, 2008.
- . Wodak, Ruth, Language Behavior in Therapy Groups, Los Anglos: California University Press, 1986.
- . Wodak, Ruth, and Michael Meyer, METHODS OF CRITICAL DISCOURSE ANALYSIS, SAGE Publication, London, 2001.
- . Wodak, Ruth, What CDA is about - a summary of its history, important concepts and its developments ; in: Ruth Wodak and Michael Meyer, Methods of Critical Discourse Analysis, SAGE Publication, London, 2001.
- . Wodak, Ruth and Martin Reisigl, Discourse and Racism, in: Deborah Schiffrin, Deborah Tannen, and Heidi E. Hamilton, Handbook of Discourse Analysis, Blackwell Publishers, Massachusetts, 2001.
- . Wodak, Ruth, and Paul Chilton, New Agenda in Critical Discourse Analysis, John Benjamins Publishing Company, Philadelphia, 2005.
- . Wodak, Ruth & Meyer, Michael, Methods of CDA. London: Sage, Edition 2, 2009.
- . Weiss, Gilbert, and Ruth Wodak, Critical Discourse Analysis: Theory and Interdisciplinarity, Palgrave Macmillan, New York, 2003.
- . Yule ,George, Pragmatics, Oxford University Press, 1996.
- . Zellig Harris, Analyse de discours, Traduction de François Dubois-Charlier, Language, N°13, 1969.

روابط ومواقع:

. رابط خطاب دونالد ترامب في حفل تنصيبه رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية، بتاريخ
20/01/2017:

<https://arabi21.com/story/979594/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B5%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%A7%D9%85%D9%84%D9%84%D8%AE%D8%B7%D8%A7%D8%A8%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D9%85%D8%A8%D8%AE%D9%84%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D9%85%D8%AA%D9%86%D8%B5%D9%8A%D8%A8%D9%87%D8%B1%D8%A6%D9%8A%D8%B3%D8%A7>:
تاريخ آخر مراجعة: 2021/8/5

. رابط بيان مديرة صندوق النقد الدولي في مؤتمر دعم الشعب اللبناني، آخر مراجعة،
2021/8/4:

<https://www.imf.org/ar/News/Articles/2021/08/04/sp080421-MD-remarks-Lebanon-conference>
تاريخ آخر مراجعة: 2021/8/8

. رابط كلمة الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون في مؤتمر دعم الشعب اللبناني، نُشرت بموقع
قناة TenTVK على اليوتيوب، آخر مراجعة في 2021/8/8:
<https://www.youtube.com/watch?v=pg9hPR7-GEU>

. رابط تحميل التقرير السنوي لصندوق النقد الدولي لسنة 2020 بالصيغة العربية، منشور
بتاريخ 2020/11/16 في موقع الصندوق:
<https://www.imf.org/external/pubs/ft/ar/2020/eng/downloads/imf-annual-report-2020-ar.pdf>
آخر مراجعة: 2021/1/4

. رابط خطاب الرئيس العراقي برهم صالح، منشور على موقع مباشر بتاريخ: 31 أكتوبر
2019:

<https://www.mubasher.info/news/3553724/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B5%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%A7%D9%85%D9%84%D9%84%D9%83%D9>

%84%D9%85%D8%A9%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%A6%D9%8A%D8%B3
%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D9%82%D9%8A%D9%84%D9
%84%D8%B4%D8%B9%D8%A8/

تاريخ آخر مراجعة: 2020/04/18

. تسجيل خطاب ترامب في موقع قناة (ABC News) على اليوتيوب؛ تاريخ آخر مراجعة
:2021/07/26

<https://youtu.be/sRBsJNdK1t0>

. رابط الخطاب الكامل الذي ألقاه روحاني في 2019/09/25 بهيأة الأمم المتحدة، موجود

<https://youtu.be/fxicnyRBcz8>

على موقع قناة فرانس 24:

تاريخ آخر مراجعة 2021/8/21

. الموقع الرسمي لشركة فيليب موريس. تاريخ آخر مراجعة: 2021/05/06.

<https://www.unsmokeyourworld.com>

. الموقع الإسباني لقناة Bein Sports، آخر مراجعة في 2020/10/23:

<https://www.beinsports.com/us-es/laliga/v%C3%ADdeos/ansu-fati-victima-de-insultos-racistas-griezmann/1568559>

. رابط التقرير السنوي لمنظمة هيومن رايتس ووتش عن حقوق الإنسان بالمغرب باللغة

العربية. آخر مراجعة : 2021/08/21.

<https://www.hrw.org/ar/world-report/altqryr-alalmy-2021/country-chapters/377405>

. رابط صحيفة الباييس الإسبانية، آخر مراجعة لموقع الصحيفة: تاريخ آخر مراجعة

:2021/03/24

<https://elpais.com/espana/2021-01-28/twitter-cierra-la-cuenta-de-vox-para-incitar-al-odio-contra-los-musulmanes.html>

. رابط الخطاب الأول للرئيس الفرنسي ماكرون خلال أزمة السترات الصفراء على اليوتيوب،
آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05 . <https://youtu.be/cX1vk5pws1g>

. رابط الخطاب الثاني للرئيس الفرنسي ماكرون خلال أزمة السترات الصفراء على اليوتيوب،
آخر مراجعة بتاريخ: 2021/12/05 .

<https://youtu.be/CZOjvhrvAU>

ملحق

الخطاب الثاني للرئيس الفرنسي في أزمة السترات الصفراء

بتاريخ 2021/12/10

مقطع 1: أيتها الفرنسيات، أيها الفرنسيون، ها نحن معًا في موعد بلدنا ومستقبلنا. أثارت الأحداث التي وقعت في الأسابيع الأخيرة في فرنسا وفي الخارج قلقًا عميقًا للأمة. لقد مزجوا المطالب المشروعة بسلسلة غير مقبولة من العنف. وأود أن أقول لكم على الفور: هذا العنف لن يحظى بأي تساهل.

مقطع 2: لقد رأينا جميعًا لعبة الانتهازيين الذين حاولوا استغلال الغضب الصادق لتضليلهم. لقد رأينا جميعًا السياسيين غير المسؤولين الذين كانت خطتهم الوحيدة هي زعزعة الجمهورية، باحثين عن الاضطراب والفوضى. لا يوجد غضب يبرر الاعتداء على شرطي أو دركي أو إلحاق الضرر بالمحل التجاري أو المباني العامة. حريتنا موجودة فقط لأن الجميع يمكنهم التعبير عن آرائهم، ولأن يستطيعون عدم مشاركتها دون أن يخاف أي شخص من هذه الخلافات.

مقطع 3: عندما يندلع العنف، تتوقف الحرية. لذلك يجب أن يسود الهدوء والنظام الجمهوري الآن. سنفعل كل ما في وسعنا لأنه لن يتم بناء أي شيء يدوم ما دامت هناك مخاوف على السلم الأهلي. لقد أعطيت الحكومة أكثر التعليمات صرامة في هذا الصدد.

لكن في بداية الأمر كله، لا أنسى أن هناك غضبًا وسخطًا. وهذا السخط، يمكن أن يتقاسمه الكثير منا وكثير من الفرنسيين، وهذا ما لا أريد اختزاله في السلوك غير المقبول الذي استنكرته للتو.

مقطع 4: أولاً، كان الغضب بسبب ضريبة واستجاب رئيس الوزراء بإلغاء جميع الزيادات المخطط لها في أوائل العام المقبل وإزالتها، لكن هذا الغضب أعمق، وأشعر أنه عادل من نواح كثيرة. يمكن أن تكون فرصتنا.

إنه غضب الزوجين الأجيرين اللذين لا ينهيان الشهر، ويستيقظان مبكرًا كل يوم ويعودان متأخرين لأنهما يذهبان بعيدا من أجل العمل.

إنه غضب الأم العازية، الأرملة أو المطلقة، التي لم تعد تعيش، ولا تملك الوسائل لرعاية الأطفال وتحسين نهايات الشهر، وليس لديها المزيد من الأمل. رأيتهن، هؤلاء النساء الشجاعات لأول مرة يتحدثن عن هذه المحنة في العديد من ملتقيات الطرق!

إنه غضب المتقاعدين المتواضعين الذين أسهموا في حياتهم كلها وغالبًا ما يساعدون الآباء والأمهات والأطفال ولا يمكنهم التوقف عن ذلك.

إنه غضب الأكثر هشاشة، الأشخاص ذوي الإعاقة الذين لم يتم بعد الاعتراف بمكانتهم في المجتمع بشكل كافٍ. إن محنتهم ليست جديدة، لكننا اعتدنا عليها بجبن، وبات الأمر في الأساس كما لو كانوا منسيين ومطموسين.

مقطع 5: عادت أربعون سنة من القلق إلى الظهور: قلق العمال الذين لم يعودوا يجدون أنفسهم هناك؛ قلق الأقاليم، والقرى كما الأحياء حيث نرى الخدمات العامة تنقلص وتختفي البيئة المعيشية؛ الشعور بالضيق الديمقراطي الذي يتطور فيه الشعور بانعدام الإصغاء؛ انعدام الارتياح في مواجهة التغيرات في مجتمعنا، وفي مواجهة العلمانية المعطلة وأنماط الحياة التي تخلق الحواجز والمسافة. هذا يأتي من بعيد جدا، لكنه الآن هنا.

مقطع 6: ربما لم نتمكن منذ عام ونصف من تقديم استجابة سريعة وقوية بما فيه الكفاية. أنا أتحمّل نصيبي من هذه المسؤولية. ربما أعطيتكم الشعور بأنه لم يكن من اهتمامي، وأن لدي أولويات أخرى. أعلم أيضًا أنني أسأت إلى بعضكم بتعليقاتي. أريد أن أكون واضحًا معكم هذا المساء. إذا جاهدت من أجل زعزعة النظام السياسي المعمول به، والعادات، والنفاق، فذلك بالتحديد لأنني أوّمن ببلدنا أكثر من أي شيء، وأحبه. وأنا لا أستمد شرعيتي من أي لقب، ولا أي حزب، ولا أية زمرة؛ أنا أستمدّها منكم فقط، ولا أحد غيركم.

مقطع 7: تمر العديد من البلدان الأخرى بهذه الحياة السيئة التي نعيشها، لكنني أوّمن بشدة أنه يمكننا إيجاد طريقة للخروج منها معًا. أريد ذلك لفرنسا لأن رسالتنا عبر التاريخ هي فتح طرق لم نستكشفها من قبل لأنفسنا وللعالم.

أريده لنا جميعًا نحن الفرنسيين لأن الشعب الذي ينقسم إلى هذا الحد، والذي لم يعد يحترم قوانينه والصدّاقة التي يجب أن توحدّه، هو شعب يركض إلى الخراب.

كما أنني أريده لأنني من خلال استشعار هذه الأزمة قدمت نفسي لتصويتكم للمصالحة والتأهيل ولم أنس هذا الالتزام وهذه الضرورة.

مقطع 8: بداية، أود أن أعلن اليوم حالة الطوارئ الاقتصادية والاجتماعية. نريد أن ننبي فرنسا الجدارة والعمل وفرنسا حيث يعيش أطفالنا أفضل منا. لا يمكن القيام بذلك إلا من خلال أفضل

مدرسة، وجامعات، وتكوين مهني يعلم الصغار والكبار على حد سواء ما يلزم للعيش الحر والعمل. الاستثمار في الوطن، والمدرسة، والتكوين غير المسبوق. أنا أؤكد ذلك.

مقطع 9: هل نريد فرنسا حيث يمكننا العيش بكرامة من عملنا؟ في هذه النقطة، ذهبنا ببطء شديد. أريد أن أتدخل بسرعة وبشكل ملموس في هذا الموضوع. أدعو الحكومة والبرلمان إلى القيام بما هو ضروري حتى نتمكن من كسب عيش أفضل من عملنا اعتبارًا من بداية العام المقبل. سيرتفع راتب الأجير بحد أدنى للأجور بمقدار 100 يورو شهريًا اعتبارًا من عام 2019 دون أن يكلف صاحب العمل يوروًا إضافيًا.

مقطع 10: أريد أن أتناول فكرة صحيحة: أن العمل الإضافي المقبول يشكل دخلاً إضافيًا؛ سيتم دفع راتب الساعات الإضافية بدون ضرائب أو رسوم اعتبارًا من عام 2019. وأريد تحسينًا حقيقيًا يمكن ملاحظته على الفور؛ لهذا سأطلب من جميع المشغلين، الذين يستطيعون، دفع مكافأة نهاية العام لموظفيهم ولن تضطر هذه المكافأة إلى دفع أي ضرائب أو رسوم.

مقطع 11: المتقاعدون جزء ثمين من أمتنا. بالنسبة لأولئك الذين يتلقون أقل من 2000 يورو شهريًا، في عام 2019، سنلغي الزيادة في ضريبة CSG التي عانوا منها هذا العام؛ كان الجهد المطلوب منهم كثيرًا ولم يكن عادلًا. وابتداءً من يوم غد، سيقدم رئيس الوزراء كل هذه القرارات للبرلمانيين.

مقطع 12: لكن ليس علينا التوقف عند هذا الحد. أنا بحاجة لمقاولاتنا الكبرى، وأكثر مواطنينا ثراء، لمساعدة الأمة على النجاح؛ سأجمعهم معًا وأتخذ قرارات في هذا الصدد اعتبارًا من هذا الأسبوع. أعلم أن البعض يود في هذا السياق أن أعود لإصلاح ضريبة الثروة، لكنها موجودة منذ ما يقرب من 40 عامًا؛ هل عشنا حياة أفضل خلال هذه الفترة؟ لقد رحل الأغنياء وضعفت بلادنا. وفقًا للالتزامات التي تم التعهد بها أمامكم، تم إلغاء هذه الضريبة لأولئك الذين يستثمرون في اقتصادنا وبالتالي يساعدون في خلق فرص عمل؛ وعلى عكس ذلك تم الحفاظ عليها بالنسبة لمن يملك ثروة عقارية.

مقطع 13: إن العودة إلى الوراء ستضعفنا حتى ونحن في طور إعادة خلق الوظائف في جميع القطاعات. ومع ذلك، سيتعين على الحكومة والبرلمان الذهاب إلى أبعد من ذلك لوضع حد للمزايا غير المبررة والتهرب الضريبي. يجب على مدير شركة فرنسية ما أن يدفع ضرائبه في فرنسا، والشركات الكبرى التي تحقق أرباحًا يجب أن تدفع الضريبة، هذه عدالة بسيطة.

مقطع 14: كما ترون، سنستجيب لحالة الطوارئ الاقتصادية والاجتماعية بإجراءات قوية، وتخفيضات ضريبية أسرع، وتحكم أفضل في الإنفاق بدلاً من الانتكاسات.

مقطع 15: أسمع أن الحكومة تسعى لتحقيق طموح تحولات بلادنا التي اختارها الشعب قبل 18 شهراً. نحن أمام قيادة إصلاح عميق للدولة وإعانات البطالة والمعاشات التقاعدية. إنها ضرورية. نريد قواعد أكثر إنصافاً وبساطة ووضوحاً تكافئ أولئك الذين يعملون.

مقطع 16: ولكن اليوم أيضاً مع مشروعنا الجماعي يجب أن نجدد، لفرنسا وأوروبا. لهذا السبب ينبغي أن يكون النقاش الوطني المعلن أوسع بكثير. لهذا، يجب علينا أولاً وقبل كل شيء أن نتحمل كلنا جميع واجباتنا؛ واجب الإنتاج حتى نتمكن من إعادة التوزيع، وواجب تعلّم أن تكون مواطناً حراً، وواجب التغيير لمراعاة إلحاح ديننا البيئي والمالي.

مقطع 17: لكي ننجح، يجب أن نجتمع معاً ونعالج جميع الأسئلة الأساسية للأمة. أريد طرح أسئلة بخصوص التمثيل؛ إمكانية رؤية تيارات الرأي مفهومة بشكل أفضل في تنوعها، وقانون انتخابي أكثر إنصافاً، والنظر في التصويت الأبيض وحتى السماح للمواطنين غير الحزبيين بالمشاركة في النقاش. أريد أن أطرح السؤال المتعلق بميزان الضرائب لدينا بحيث يسمح بعدالة البلد وكفاءته. أريد أن أطرح سؤال حياتنا اليومية من أجل مواجهة تغير المناخ: الإقامة والسفر والتدفئة. وستظهر الحلول الصحيحة أيضاً من الميدان.

مقطع 18: أريد السؤال عن كيفية تنظيم الدولة وكيفية حكمها وإدارتها من باريس، التي يمكن القول من دون شك إنها كانت مركزية للغاية لعقود من الزمان، بحيث لا يمكن طرحها. ومسألة الخدمات العامة في كل أراضينا.

أريد أيضاً أن نجعل الأمة في اتفاق مع نفسها حول هويتها العميقة، وأن نعالج مشكلة الهجرة. علينا أن نواجهها.

مقطع 19: تتطلب هذه التغييرات العميقة، التي تستوجب تفكيراً عميقاً ومشترياً، نقاشاً غير مسبوق. يجب أن يتم ذلك على المستوى الوطني في مؤسساتنا، وسيكون لكل فرد دوره: الحكومة، والجماعات، والشركاء الاجتماعيين والجمعويين؛ ستكون لكم أدواركم فيه. أريد أن أنسقها بنفسني، وأن أتلقى المشورة، وأخذ النبض الحي لبلادنا.

مقطع 20: لكن مثل هذا النقاش ليس فقط عملاً للممثلين المؤسساتيين؛ يجب أيضاً أن يحدث في كل مكان على الميدان، ومن الطبيعي أن يتحاور المواطنون ويتعين عليهم تلقي الطلبات والعمل

كروابط صلات: إنهم رؤساء البلديات؛ يجلبون الجمهورية إلى الميدان. لهذا السبب سألتقي بنفسى برؤساء بلديات فرنسا، منطقة تلو الأخرى، لبناء أساس عقد أمتنا الجديد.

مقطع 21: لن نستأنف المسار الطبيعي لحياتنا، كما حدث في كثير من الأحيان في الماضي في أزمات مماثلة، دون أن نفهم كل شيء ودون أن يتغير أي شيء. نحن في لحظة تاريخية لبلدنا: من خلال الحوار والاحترام والالتزام، سننجح.

مقطع 22: نحن على مستوى المهمة وسأعود لأتحدث إليكم لإحاطتكم.

همي الوحيد هو أنتم؛ معركتي الوحيدة هي من أجلكم.

معركتنا الوحيدة هي من أجل فرنسا.

"تحيا الجمهورية وتحيا فرنسا".

فهرس الموضوعات

ب	إهداء
ج	كلمة شكر
01	مقدمة
09	مدخل
10	1. تمهيد
11	2. حدود البحث
35	3. الإطار النظري
60	الباب الأول: مداخل نقدية للغة والخطاب بين اللسانيات والنظرية الاجتماعية وبلاغة الجدل
61	تقديم
62	الفصل الأول: نقد استعمال اللغة في اللسانيات
63	تمهيد
63	1. مفهوم النقد في التحليل النقدي للخطاب
63	1.1. النقد في مناهج التحليل النقدي للخطاب
65	2.1. الأصل الاجتماعي لمفهوم النقد
68	2. من وصف اللسان إلى نقد الكلام
68	1.2. وصف اللسان والكلام
70	2.2. وصف الكلام ونقده
71	3. محاولات نقدية لاستعمال اللغة
72	1.3. نقد القول في التداولية
73	2.3. اللغة شكلٌ لأيديولوجيا في المدرسة الفرنسية
76	3.3. تحليل المحادثة
79	4.3. اللغوي والاجتماعي في اللغويات الاجتماعية
80	خلاصة
84	الفصل الثاني: نقد التواصل اللغوي في النظرية الاجتماعية
85	تمهيد
85	1. الأصول الاجتماعية لنقد اللغة
85	1.1. نظرية الفعل التواصلية
89	2.1. سوسيولوجيا الهيمنة والسوق اللغوية
94	3.1. السلطة والمعرفة والخطاب

100	4.1. تمثيل المعرفة الاجتماعية
101	2. امتدادات الأصول الاجتماعية في التحليل النقدي للخطاب
101	1.2. امتداد نظرية السلطة والمعرفة
104	2.2. امتداد نظرية الفعل التواصلي
104	3.2. امتداد نظرية التمثيل الاجتماعي
105	4.2. امتداد نظرية سوسيولوجيا الهيمنة
106	خلاصة
109	الفصل الثالث: نقد منافذ سلطة التفاعل في بلاغة الجدل
110	تمهيد
111	1. رؤى نقدية في أعراف التفاعل
112	1.1. خرق مبدأ التناوب
115	2.1. سلطة تقديم الذات
117	3.1. الإيماء منفذاً للتسلط
122	4.1. التحكم في العواطف
122	1.4.1. سلطة التلاعب
125	2.4.1. استحقاق المخاطب
127	2. رؤى نقدية في إجراءات الإقناع
127	1.2. الاستدراج
129	2.1. السبر والتقسيم
130	3.1. الإقرار والإلزام
131	خلاصة
133	الباب الثاني: نقد التمثيل اللساني للسلطة في الخطاب
134	تقديم
135	الفصل الأول: علاقة الأشكال الخطابية بالممارسات الاجتماعية في التحليل النقدي للخطاب
136	تمهيد
136	1. العلاقة الجدلية بين الأبنية والممارسات
143	2. جسر الإدراك الاجتماعي
147	3. الممارسة وسيلة لإنتاج الشكل
151	4. الشكل إعادة صياغة للممارسة الاجتماعية
157	5. الشكل تناص تاريخي للخطابات

159	6. الشكل مصدر التفسير
162	خلاصة
165	الفصل الثاني: التجسيد النحوي للسلطة في الخطاب
166	تمهيد
166	1. اللزوم والتعدية مظهر سلطوي
166	1.1 تمثيل التعدية للقدرة والإدانة
172	2.1 تمثيل اللزوم للعجز والإدانة
178	2. الإحالة وتبرئة الذات بالبناء للمجهول
183	3. التلاعب بالفاعلية النحوية والخطابية
183	1.3 إسناد الفعل لغير صاحبه
186	2.3 استبدال الفاعلية بالإضافة
191	3.3 إنابة الحدث عن الفاعل
192	4. حفظ الموقع بنوع الجملة
194	1.4 التحوط والاستمالة بالجملة الاسمية
197	2.4 حجاج الجملة الاسمية بالعطف والإحالة
201	3.4 تمثيل الجملة الفعلية لسلطة الذات والإنجازات
203	5. إقصاء الآخر بالاستدراك والظرف الفجائي
203	1.5 الإقصاء بالاستدراك
206	2.5 الاستدراك بالظرف الفجائي
207	خلاصة
209	الفصل الثالث: التمثيل الدلالي والتداولي والبلاغي للهيمنة الخطابية
210	تمهيد
210	1. التمثيل المعجمي والدلالي للهيمنة
211	1.1 التمثيل المعجمي
211	1.1.1 نقد المعجم الخام
215	2.1.1 نقد التلازم المعجمي
218	2.1 التمثيل الدلالي
218	1.2.1 دلالة التكرار
220	2.2.1 دلالة الترادف
222	3.2.1 دلالة التقابل

225	2. تحكم الاستخدامات التداولية في الإدراك
225	1.2. الإغراء بالفعل اللغوي المباشر
228	2.2. التلطيف اللغوي في الفعل اللغوي غير المباشر
231	3.2. سلمية الأخبار والتحكم في الإدراك
235	3. سلطة الأساليب البلاغية والإجراءات الحجاجية
235	1.3. عنصرية المشابهة
238	2.3. الاحتماء بالمجاز
243	3.3. التلاعب بالتضمينات
246	4.3. عنصرية الحجاج بالمقارنة:
248	خلاصة
250	الباب الثالث: نحو مقارنة لسانية حجاجية في التحليل النقدي للخطاب (تطبيقاً على خطاب سياسي معاصر)
251	تقديم
252	الفصل الأول: الأسس النظرية والتصور المنهجي للمقارنة اللسانية الحجاجية
253	تمهيد
253	1. الخلفية النظرية
253	1.1. الأساس اللساني
254	1.1.1. النحو الوظيفي النسقي
255	2.1.1. اللسانيات النقدية
257	2.1. الأساس البلاغي
259	3.1. الأساس الاجتماعي
261	2. الإجراءات المنهجية
263	1.2. نقد الممارسة اللسانية الحجاجية
264	2.2. نقد الممارسة الاجتماعية
265	3. الجهاز المفهومي
266	1.3. مفاهيم النقد اللساني الحجاجي
271	2.3. مفاهيم النقد الاجتماعية
273	4. مبادئ عامة
274	خلاصة
276	الفصل الثاني: الآثار السلطوية للنحو والمعجم

277	تمهيد
278	1. التلاعب بالعائد والعائد إليه
279	1.1. إحالة ضمير المتكلم إلى الغائب
283	2.1. هيمنة ضمير المتكلم
287	2. التلاعب بالفاعلية
288	1.2. حذف مفسر الضمير
291	2.2. إبهام الفاعل النحوي
293	3.2. الاستدلال بإحلال الزمن فاعل
297	3. التوظيف السلطوي للاستدراك
297	1.3. تجويد صورة الخطيب بالاستدراك
299	2.3. الاستدراك استراتيجية لتوريث الآخر
302	4. القيمة الأيديولوجية للألفاظ
302	1.4. تجسيد الألفاظ للأيديولوجيا
306	2.4. تعديل المواقف بالأوصاف
309	3.4. التلطيف اللغوي
313	الفصل الثالث: الهيمنة الخطابية بالتداول والتفاعل والتنغيم
314	تمهيد
314	1. الهيمنة بالاستدلال والفعل اللغوي
314	1.1. الهيمنة بالاستدلال
317	2.1. الهيمنة بالفعل اللغوي غير المباشر
319	2. مظاهر سلطة التفاعل
319	1.2. التحكم في الموضوعات
322	2.2. التأثير العاطفي والإدراكي للإيماءات
330	3. تأثير التنغيم الصوتي
338	الخلاصة الاجتماعية للنقد اللساني الحجاجي
345	خاتمة
351	قائمة المصادر والمراجع
363	روابط ومواقع
366	ملحق
371	فهرس الموضوعات

